نوح عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بنوح عليه السلام	٨
ذكر نوح عليه السلام في القران الكريم	١١
مكانة نوح عليه السلام	١٢
صفاته واخلاقه عليه السلام	١٤
دعوة نوح عليه السلام	٢٨
موقف قوم نوح عليه السلام من دعوته	٣٥
نوح عليه السلام وابنه وزوجته	٤٨
نوح عليه السلام والسفينة	٥١
نوح عليه السلام والنبوة في ذريته	٥٥
الدروس المستفادة من قصة نوح	٥٦

التعريف بنوح عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

ذكر الإمام ابن كثير في نسب نوح عليه السلام أنه «نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ، وهو إدريس عليه السلام بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام»[1].

وقيل: إن اسم نوح من مادة النوح العربية، ولكن المشهور أنه اسمٌ أعجميٌّ معرب، إنما صرف؛ لأنه على ثلاثة أحرف فهو من ناح ينوح، ومعناه بالعربية (الساكن)[2] وكان اسم نوح عليه السلام السكن، وسمي به؛ لأن الناس بعده سكنوا إليه، فهو أبوهم، فكأنه صار آدم الثاني بعد حادثة الطوفان؛ وذلك لانحصار النوع الإنساني بعده في نسله. وقيل: اسمه شاكر[3].

وفي سبب تسميته عليه السلام بهذا الاسم أورد العلماء خمسة أقوال:

الأول: أنه كان ينوح على نفسه.

الثاني: أنه كان ينوح لمعاصي أهله وقومه.

الثالث: أنه كان ينوح لمراجعته لله عز وجل في ولده الذي غرق بالطوفان.

الرابع: أنه كان ينوح لدعائه على قومه بالهلاك.

الخامس: أنه مر بكلب مجذوم فقال له: اخسأ يا قبيح. فأوحى الله تعالى إليه: أعبتني يا نوح أم عبت الكلب؟[4].

ومن الملاحظ أن هذه الأقوال متكلفٌ فيها؛ لأن الأعلام لا تفيد صفة في المسمى.

ثانيًا: حكمة تسمية سورة باسمه:

لقد ورد ذكر نوح عليه السلام في القرآن الكريم في ثلاثة وأربعين موضعًا[5]، في حين ذكرت قصة نوح عليه السلام مفصلةً في القرآن الكريم في ست سور، كما أن القصة ذاتها مختلفة اللفظ في كل موضع حسبما يقتضيه السياق أو المعنى أو المحور الرئيسي للسورة.

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير، ١/ ٧٤.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٦٢، تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ٤٨٨.
(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ٦/ ٤٣٦، التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري، ٣/ ٣٦٧، فتح البيان، صديق خان، ٩/ ١١١.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٣٧٤، التفسير المظهري، محمد ثناء الله المظهري، ٣/ ٣٦٧.
(٥) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٢٢ وما بعدها.

وسورة نوح عليه السلام كغيرها من السور التي سميت بأسماء أنبياء كسورة هود ويوسف وإبراهيم عليه السلام على سبيل المثال، إلا أنه يتضح في السور التي سميت بأسماء أنبياء أنها لم تقتصر على ذكر النبي الذي سميت باسمه السورة، فربما تذكر قصصًا أخرى غيره أو تتطرق إلى مواضيع أخرى باستثناء سورة نوح عليه السلام، فهي السورة الوحيدة التي لم يذكر الله عز وجل فيها سوى قصة نوح عليه السلام وحدها، وربما يرجع السبب في ذلك إلى ما يأتي:

١- ذكر نوح عليه السلام في مفتتح السورة ومختتمها(١)، فقد ورد في أول السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [نوح:١].

وفي نهايتها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح:٢٦].

٢- طول لبث نوح عليه السلام في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك(٢).

٣- إنها السورة الوحيدة التي ذكرت قصة نوح عليه السلام مع قومه من بداية دعوته إلى إهلاكهم بالطوفان، مع التركيز على موضوع تكذيب قومه وتفصيله تفصيلًا تامًا(٣).

ثالثًا: زمانه ومدة مكثه في قومه:

اختلف العلماء في زمان نوح عليه السلام وبعثته، فمنهم من قال إنه بعد آدم عليه السلام. ومنهم من قال: إنه بعد إدريس عليه السلام. وقيل غير ذلك، فذكر الطبري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣] ما رواه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة)(٤).

كما استدل بقراءته التي تعتبر قراءة تفسيرية وهي: (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا)، وبين ابن كثير أن هذا القول هو أصح سندًا ومعنىً؛ وذلك أن الناس كانوا في البداية على ملة آدم عليه السلام، وبعد أن طال العهد به عبدوا الأصنام، فبعث الله تعالى إليهم نوحًا عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى الأرض.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾

(١) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ١٠/ ١٥٨٨.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨٨.
(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، ١٢/ ٥، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ١٣٣.
(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين، كتاب التفسير، وقال: صحيح على شرط البخاري، ٢/ ٤٤٢.

[البقرة:٢١٣][(١)]، ويؤيد هذا أيضًا ما ذكره الألوسي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾ [آل عمران:٣٣] فقال: «اصطفى نوحًا بأنه أول رسول بعث بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر ذوي الأرحام، وأنه أب الناس بعد آدم»[(٢)].

وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في الكون، فبعد أن تتغير معالم الحق، ويضل الناس طريق العبادة الصحيحة، فإنه عز وجل لا يترك الناس يتخبطون في غياهب الباطل، وإنما يرسل إليهم الأنبياء والرسل، وينزل عليهم الكتب السماوية، وهكذا إلى أن ختمت الرسالات برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبالكتاب المنزل عليه القرآن العظيم.

هذا عن زمان نوح عليه السلام. أما عن مدة مكثه في دعوته لقومه فإنها هي المدة المحققة التي صرح بها القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝١٤﴾ [العنكبوت:١٤].

ومع هذه المدة الطويلة في دعوته عليه السلام لقومه إلا أنه لم يستجب لدعوته إلا القليل كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

ولعل الحكمة من ذلك تبدو في أن قصص الأنبياء مع أقوامهم عمومًا وقصة نوح عليه السلام مع قومه خصوصًا فيها تسرية وتسلية لقلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم حين آذته قريش أشد الإيذاء وهو في مكة، ومن خلال قراءة السيرة النبوية فالذين استجابوا مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم في ثلاث عشرة سنة أكثر بكثير من الذين استجابوا لنوح عليه السلام في هذه القرون الكثيرة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذا يعلمنا درسًا مهمًّا، ألا وهو أن الهداية بيد الله عز وجل، فهو الذي يملكها وهو علام الغيوب، فهذه عقيدةٌ يجب أن تكون راسخةً في قلب كل مسلم، فسبحانه هو الذي يملك القلوب، فجميع قلوب عباده بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، والآيات القرآنية في مثل هذا المعنى كثيرة، ومنها على سبيل المثال قوله عز وجل: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٧٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٢٥.
(٢) روح المعاني، الألوسي، ٣/ ١٣٢.

ذكر نوح عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر نوح عليه السلام في القرآن الكريم (٤٣) مرة، في (٢٨) سورة.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٥٩-٦٤
يونس	٧١-٧٣
هود	٢٥-٤٨
الأنبياء	٧٦-٧٧
المؤمنون	٢٣-٣٠
الشعراء	١٠٥-١٢٠
العنكبوت	١٤-١٥
الصافات	٧٥-٨٢
القمر	٩-١٦
التحريم	١٠
نوح	١-٢٨

مكانة نوح عليه السلام

لقد كان لنوح عليه السلام مكانة عالية، يأتي بيانها في النقاط الآتية:

أولًا: ثناء الخلق عليه:

فقد أثنى الله عز وجل على نوح عليه السلام؛ لما كان له من طول لبثٍ في دعوة قومه، وصبر شديد على ما لقيه منهم من أذى، فجعل الله تعالى جميع الناس من بعده وكل الأمم من الإنس والجن يثني عليه عليه السلام ثناءً حسنًا، وتذكره الأجيال من بعده ذكرًا جميلًا، وهذه سنة الله تعالى في عباده المحسنين المؤمنين، وهي أن ينشر لهم من ثناء الخلق عليهم على حسب إحسانهم[1]، فقال الله سبحانه وتعالى في هذا السياق: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝٧٨ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۝٧٩﴾ [الصافات:٧٨-٧٩].

ومعنى الترك في هذه الآية: الإبقاء. وفعل الترك هو فعلٌ متعدٍ، ولكن مفعوله محذوف، فجعل فعلًا لازمًا فصار معناه كما يقول الإمام البقاعي: «أوقعنا عليه الترك بشيءٍ هو من عظمته، وحسن ذكره بحيث يعز وصفه»[2].

ثانيًا: إجابة دعوته:

أيضًا لما طال مكث نوح عليه السلام في دعوة قومه وكانت ألف سنة إلا خمسين عامًا، ويبلغ دعوة الله تعالى على أكمل وجه، وصبر على بلاء قومه وأذاهم له، ومع ذلك فلم يؤمن معه إلا القليل، ولما ضاق نوح عليه السلام بقومه ذرعًا دعا الله تعالى أن يهلك قومه الذين كفروا بالله تعالى، وبما توعدهم به من العذاب، وكفروا بالنبوة التي أكرم الله تعالى بها نوحًا عليه السلام، فكان من جملة ما دعا به نوح عليه السلام قوله تعالى على لسانه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ [نوح:٢٦].

وقوله أيضًا: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر:١٠].

فما كان من الله عز وجل إلا أن أجاب عبده نوحًا عليه السلام، وأغرق الكافرين وأهلكهم بالطوفان، ونجاه عليه السلام وأهل الإيمان من ولده وأزواجهم من هذا الهلاك المفزع[3]، وفي هذا المعنى يقول الله عز وجل: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝٧٦﴾ [الأنبياء:٧٦].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٠٥، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٣/ ١٠٦، التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص٤٤٩، التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، ٤/ ٢١٨.

(٢) نظم الدرر، البقاعي، ١٦/ ٢٤٧.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧/ ٥٥، التفسير الواضح، محمد حجازي، ٣/ ٢٤.

فـ(إذ): ظرف لما مضى من الزمان مبني في محل نصب بفعل محذوف، تقديره: واذكر نبأ نوح الواقع وقت دعائه، والفاء في ﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾ حرف عطف يفيد الترتيب والتعقيب، فتدل على سرعة إجابة الله تعالى بمجرد دعاء نوح عليه السلام إياه[1]، وورد أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥﴾ [الصافات:٧٥].

وقد تضمن نداء نوح عليه السلام واستغاثته بالله عز وجل أشياء كثيرة، منها: الدعاء على قومه، وطلب النصرة، وفي جميعها كانت إجابة الله تعالى متحققة وواقعة على أكمل وجه، وهي متمثلة في الآتي:

١. نجاة نوح عليه السلام والمؤمنين معه من الغم الشديد الذي أصابهم، وكذلك من الغرق الذي أصاب الكفار.
٢. إهلاك الكافرين بدعاء نوح عليه السلام، وجعل ذريته وحدها هي الباقية على قيد الحياة، ما سيأتي تفصيله في النقطة الآتية.
٣. إبقاء الله تعالى الثناء الحسن لنوح عليه السلام والذكر الجميل من الأمم التي بعده إلى يوم الدين[2].

ثالثًا: الذرية الصالحة:

وكما امتن الله تعالى على نوح عليه السلام بثناء الخلق عليه، وإجابة دعوته، امتن عليه أيضًا بالذرية الصالحة. فلما نجى الله تعالى نوحًا عليه السلام والمؤمنين الذين كانوا معه على متن السفينة التي أمره الله تعالى بصنعها من الطوفان الذي عم وجه الأرض، وأغرق الكافرين من قومه، كان أهل الأرض بعد ذلك من ذرية نوح عليه السلام[3]، وفي هذا المعنى يقول الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ [الصافات:٧٧].

فـ ﴿هُمُ﴾ في الآية ضمير فصل يفيد الحصر والتخصيص، فقد امتن الله تعالى على نوح عليه السلام لما أغرق الكافرين بأن جعل ذريته وحدها هي الباقية إلى آخر الدهر، وقد قال بعض العلماء: «نسل أهل السفينة انقرضوا غير نسل ولده، فالناس كلهم من ولد نوح»[4].

هذا بالإضافة إلى ما جعله الله تعالى من أمر النبوة في ذرية نوح عليه السلام.

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/ ٧٨.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٣/ ٢١٧٦.
(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٢/ ١٩٣.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي، ٣/ ٥٤٤.

صفاته وأخلاقه عليه السلام

من خلال استعراض مواضع الآيات التي ذكر فيها نوح عليه السلام وفيما يخص صفاته وأخلاقه فقد اهتديت إلى أن هذه الصفات والأخلاق يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: صفات نوح عليه السلام وأخلاقه مع الله تعالى:

لقد اتصف نوح عليه السلام بصفات أخلاقية مع ربه عز وجل، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. الإخلاص.

لقد وصف الله تعالى نبيه نوحًا عليه السلام بخالص الإيمان، وكمال العبودية لله تعالى، وشدة خضوعه وانقياده وتسليمه لأوامر الله عز وجل، ووصفه تعالى بهذه الصفة في معرض الحديث عن إهلاك الأمم السابقة التي كذبت أنبياء الله تعالى ورسله، فاستثنى عباد الله الذين أخلصهم للإيمان برسله من المنذرين الذين وقع بهم عقاب الله تعالى[(١)].

فيقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الصافات:٧١-٨١].

ومن جملة عباد الله تعالى نوح عليه السلام، فقد مدحه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: كان نوح مخلصًا لله تعالى في عبوديته، كامل الإيمان واليقين[(٢)].

وكلمة (المخلصين) فيها قراءتان:

الأولى: بكسر لام (المُخْلِصين)، والمعنى: من آمن بالرسل من الأمم، فأخلص العمل والإيمان لله تعالى.

الثانية: بفتح لام (المُخْلَصين)، والمعنى: من آمن بالرسل، وكان قد أخلصه الله تعالى بالإيمان والتصديق في سابق علمه، فوفقه له[(٣)].

ويتبين أيضًا أن نداء نوح عليه السلام لله عز وجل بإخلاص كان سببًا في إجابة الله تعالى لدعوته[(٤)].

وقال أبو زهرة في تفسير قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء:٣]:

«أنه كان عبدًا يحس بنعمة العبودية

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٥٨.

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٣٤.

(٣) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٩/ ٦١١٧.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٣٩.

لله تعالى، فلم يكن ذا جبروت، بل كان خاضعًا لله سبحانه وتعالى. والخضوع لله تعالى وحده هو العزة التي لا ذل فيها ولا استكبار»[1].

٢. الإحسان.

وصف الله تعالى نوحًا عليه السلام بصفة الإحسان هذه بعد تعداده للنعم التي أنعمها الله تعالى عليه من جعل الدنيا مملوءةً من ذريته، ومن إبقاء الثناء الحسن له على جميع ألسنة الناس، ومن إجابة دعوته، فهذه التكرمة لنوح عليه السلام وهذه التشريفات الرفيعة له؛ لأنه كان محسنًا لله عز وجل في أقواله وأفعاله، ومعروفًا بهذه الصفة،[2] فقال جل جلاله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١﴾.

فجملة ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لاستحقاق نوح عليه السلام تلك التشريفات الرفيعة بكونه عليه السلام من زمرة المعروفين بالإحسان، ثم علل الله عز وجل هذا الاستحقاق للإحسان بأنه كان عبدًا لله تعالى مؤمنًا.

فهذا الوصف هو أقصى صفات المدح والتعظيم[3]، ففيه بيان أن أعظم الدرجات وأرفعها إلى الله تعالى هو الإيمان بالله عز وجل والانقياد لطاعته الذي ينبثق عنه كل الصفات الجليلة والأخلاق الحميدة.

كما تمثل إحسان نوح عليه السلام في مجاهدته لأعداء الله تعالى بالدعوة إلى دينه، والصبر الطويل على أذى قومه، ومطاولته لهم في سبيل الله تعالى، وغير ذلك من ألوان عبادته عليه السلام وأفعاله وأقواله[4].

٣. التوكل والثقة.

اتصف نوح عليه السلام بهذه الصفة، وتخلق بهذا الخلق، حيث دعا قومه على هذا الأساس فلم ييأس، ولم يمل، فقد دعاهم إلى الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عامًا، سالكًا وآخذًا جميع السبل في ذلك -كما سيأتي في أساليب دعوته- فقال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ [نوح:٥-١٠].

فلما أوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا هذا العدد القليل، ورأى أنه لم

(١) زهرة التفاسير، ٨/ ٤٣٣١.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٤٠، فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٤٥٩.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٤٨، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٤٠.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٤٧٧، التفسير الواضح، محمد حجازي، ٣/ ٢١١.

تعد هناك من فائدة في دعوة قومه، وأنهم مصرون على كفرهم وجحودهم، فقد حان الآن وقت المفاصلة، فقال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس:٧١].

وبالرجوع إلى تفسير هذه الآية الذي مر معنا نجد أن نوحًا عليه السلام قد واجه قومه، ولم يمتلك سوى رصيد الاعتماد والتوكل على الله عز وجل الذي أرسله إلى هؤلاء القوم، فقد حاول هدايتهم كثيرًا، ولكنهم لم يستجيبوا[1]. فقول نوح عليه السلام: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ نجد أنه حصر من يتوكل عليه وما يعتمد عليه في دعوة قومه على الله عز وجل وحده، وهذا مستفادٌ من تقديم شبه الجملة (على الله) على الفعل (توكلت). وفي هذا الكلام منه عليه السلام ما يدل على مدى وثوقه بنصر ربه الذي أرسله، كما يدل على عدم مبالاته بما يتوعده به قومه[2].

ثم إن قوله عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ يظهر التحدي الكبير، فهو يطلب منهم أن يجتمعوا وشركاءهم على أمر واحد، وألا يكون هذا الأمر فيه خفاء أو غموض، ثم ينفذوا ما اتفقوا عليه دون تهاون أو تردد أو تأجيل، فهل هناك تحدٍّ للخصم أكثر من هذا؟![3].

وفي هذا المعنى يقول سيد قطب «إنه التحدي الصريح المثير، الذي لا يقوله القائل إلا وهو مالئٌ يديه من قوته، واثق كل الوثوق من عدته، حتى ليغري خصومه بنفسه، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه! فماذا كان وراء نوح من القوة والعدة؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعًا؟ كان معه الإيمان القوة التي تتصاغر أمامها القوى، وتتضاءل أمامها الكثرة، ويعجز أمامها التدبير، وكان وراءه الله الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان! إنه الإيمان بالله وحده، ذلك الذي يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه، فليس هذا التحدي غرورًا، وليس كذلك تهورًا، وليس انتحارًا، إنما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الفانية، التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان»[4].

ويخلص من هذا إلى أن الدعاة إلى الله عز وجل يجب عليهم أن يتخذوا من التوكل زادًا لهم في سبيل تبليغ هذه الدعوة،

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٠/ ٦٠٩٤.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٢٥٢.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ١٠/ ٦١٠٠.
(٤) في ظلال القرآن، ٣/ ١٨١١.

ولهم في ذلك أسوة بجميع الأنبياء والرسل وخاصة نوح عليه السلام، الذي مكث طويلًا وهو يدعو قومه دون سأمٍ أو ملل، فيجب عليهم أن يقفوا في وجه الطغاة، ولن يضرهم هؤلاء الطغاة إلا أذىً من أجل الابتلاء الذي يمحص القلوب حتى تعود الكرة للمؤمنين ويحق وعد الله تعالى لهم بالنصر والتمكين[1].

وأخيرًا فقد أعجبني كلام محمد رشيد رضا الذي عقب به على تفسير هذه الآية فقال: «هذه الآية من أبلغ آيات القرآن عبارة، وأجمعها على إيجازها للمعاني الكثيرة من علم النفس، ودرجة إيمان الأنبياء المرسلين وثقتهم بالله عز وجل، وشجاعتهم واحتقارهم لكل ما في الحياة الدنيا من أسباب الخوف من غيره والرجاء فيما سواه، وبيان خاتمهم لسنته تعالى فيهم وفي أقوامهم، وحسن وعظه لهم بوحي ربه تعالى، فهو يضرب لحاله ومقامه معهم مثل نوح مع قومه في غرور كل منهم بكثرتهم وقوتهم وتكذيبهم واحتقارهم لرسوله ولمن آمن معه من الضعفاء والفقراء، ولما يعتز به كلٌّ من الرسولين من التوكل على الله والاعتماد عليه في النصر والعزة وحسن العاقبة، والجزم بإهلاك المصرين على تكذيبه، ونجاة المؤمنين المتبعين له بجعلهم خلائف الأرض وأصحاب السلطان فيها»[2].

٤. الشكر.

أثنى الله تعالى على نوح عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء:٣].

وقد وصف الله تعالى نوحًا عليه السلام في الآية المذكورة بوصفين:

الأول: أنه عبدٌ لله تعالى، معترفٌ له بالعبودية، غير متكبر بالإشراك، فكان يحس بنعمة العبودية لله جل جلاله، فلم يكن ذا جبروت، بل كان خاضعًا لله تعالى وحده، وهذا الخضوع هو الذي يحمل معنى العزة لنوح عليه السلام.

الثاني: أنه شديد الشكر لله تعالى على ما أنعم به عليه في سرائه وضرائه[3].

وكلمة (شكور) هي صيغة مبالغة على وزن (فعول) التي تفيد الكثرة. فنوح عليه السلام كان دائم الحمد لله تعالى في كل فعل يقوم به، فقد روي عنه أنه: (كان نوح إذا طعم طعامًا أو لبس ثوبًا حمد الله، فسمي عبدًا شكورًا)[4].

(١) انظر: المصدر السابق ٣/ ١٨١١.

(٢) تفسير المنار، ١١/ ٣٧٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥/ ٢٧، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٨/ ٤٣٣١.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ٢/ ٣٦٠.

وفي هذه الآية تذكير لبني إسرائيل بأن الله تعالى قد نجى نوحًا عليه السلام من الهلاك بسبب شكره هو وشكر الذين معه في السفينة، ففيها تحريضٌ وحثٌ للذريته على التأسي والاقتداء بنوح عليه السلام في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم لما أبقاهم واستخلفهم في الأرض،وأغرق غيرهم(١).

٥. الاستغفار.

ورد طلب نوح عليه السلام المغفرة من الله عز وجل في قوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح:٢٨].

فنوح عليه السلام وإن كان من الأنبياء الذين هم معصومون من الخطأ والذنب والزلل فإنه لا يسعه إلا حلم الله تعالى وعفوه ورحمته(٢)، فكأنه يقول: يا رب، أسألك أن تغفر لي ذنوبي. فكان عليه السلام دائم الاستغفار لله عز وجل، فإن الاستغفار دواء الذنوب، وشفاء القلوب، وبه النجاة والأمان من الهلاك، كما أنه نعمةٌ وسببٌ في التخلص من كل بلاء ومصيبة، وكذلك هو سبب لحصول الرزق، بالإضافة إلى أنه سبب لحصول رضا الله جل جلاله.

وقد أمر نوح عليه السلام قومه بالاستغفار حين قال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

ولا يعقل أن يأمر قومه بفعلٍ ولا يأتيه، فهو أكثر الناس في زمانه عبودية لله تعالى، ومن ضمن خضوعه لله عز وجل طلبه المغفرة منه سبحانه وتعالى.

٦. بر الوالدين.

لما طلب نوح عليه السلام المغفرة من الله عز وجل لنفسه لم يقتصر على ذلك، فطلبها أيضًا لمن كانا سببًا في وجوده، وهما والداه، فقال في دعائه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح:٢٨].

ويذكر المفسرون أنهما كانا مؤمنين(٣).

وفي تخصيصهما بالذكر تأكيد حقهما، وتقديم برهما، فهما أحق بالدعاء من غيرهما، ثم بعد ذلك عمم بالدعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات؛ ليكون ذلك أبلغ في الدعاء(٤).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٥/ ٢٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٥٣.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٢٠/ ٤٥٩.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٦١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٣١٣.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٦٢١، لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٣٤٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨٩.

ويؤكد هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)(١).

فيعتبر دعاء نوح عليه السلام لوالديه بالمغفرة من باب البر لهما.

ثانيًا: صفات نوح عليه السلام وأخلاقه:

لقد اتصف نوح عليه السلام بصفات وأخلاق، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. الإيمان بالدعوة.

لقد أثنى الله تعالى على نوح عليه السلام لما قال فيه: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الصافات:٨١].

هذا الإيمان هو الدافع المحرك للقوى الكامنة في نفس المؤمن، فيجعله دائمًا في شوقٍ للعمل بما يرضي الله عز وجل، كما يدفع صاحبه إلى تحقيق هدفه وغايته التي آمن بها، وإلى إخلاص العمل ليتحقق له ما يسعى إليه، فهذا الإيمان لا يترك صاحبه يهدأ حتى يرى جميع الناس قد دخلوا في دين الله تعالى، ويرى راية الحق والإسلام عالية خفاقة في كل مكان وزمان(٢).

وتظهر هذه الصفة جليةً في شخصية نوح عليه السلام في الآية التي فاصل فيها قومه، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس:٧١-٧٢].

وقد تقدم تفسير الآية سابقًا بالإضافة إلى إبراز صفة التوكل عند نوح عليه السلام، وبالرجوع إلى تفسير الآية مرة أخرى يتجلى لنا الفرق الجذري بين موقف نوح عليه السلام وموقف قومه.

أما نوح عليه السلام فقد كان يمثل موقف المؤمن الجريء الجسور الذي لا يخشى الصعاب، ولا يعرف التردد والتراجع، ولا يهاب الموت في سبيل دعوته، ويتحدى جميع الخلق فيما يريدون أن يفعلوه فيه، هذا كله؛ لأنه مؤمن بدعوته. أما موقف قومه فكان موقف الهياب الضعيف الجبان المتخاذل المتردد، الذي لم يكن باستطاعته أن يتخذ موقفًا أو قرارًا حاسمًا بشأن نوح عليه السلام، الذي كانت هيبة الإيمان تعصمه وتحميه من مكائدهم ومخططاتهم الشريرة(٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، عن أبي هريرة، رقم ١٦٣١، ٣/ ١٢٥٥.

(٢) انظر: أسس الدعوة وآداب الدعاة، محمد السيد الوكيل، ص٩٣.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١١/ ٢٢٩.

٢. القدوة الحسنة.

إن الداعية يكسب لدعوته بسلوكه الحسن وأخلاقه الحسنة ما لا يكسبه بكلماته وخطبه ومواعظه العديدة، فالقدوة الحسنة تعتبر دعوةً صامتة، فالناس يتأثرون بسلوك الدعاة العملي أكثر من الخطب الرنانة، فكيف يطلب الدعاة من الناس تنفيذ أمر معين وهم لا يفعلونه، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٤].

وتظهر هذه الصفة واضحة في شخصية نوح عليه السلام عندما قال لقومه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢].

فكأنه يقول لهم: أنا أول داخل في هذا الدين الذي أدعوكم إليه، وأول فاعل لما أمرتكم به[1]. فهو مستقيمٌ على شرع الله عز وجل.

٣. العمل والقدرة على الكسب.

إن من المروءة أن يكسب الإنسان رزقه من تعبه وجهده وعمل يده، وكان أنبياء الله تعالى ورسله يعملون، ولم يكن منهم أحدٌ عالة على أحد، وقد أرشدهم الله تعالى إلى الصناعات؛ لعظيم نفعها، فنوح عليه السلام قد أمره الله تعالى بصناعة السفينة التي سوف يسلك فيها طريق النجاة هو ومن آمن معه.

يقول الله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود:٣٧-٣٨].

هذا يعني أنه كان نجارًا، وإلا كيف يصنع السفينة وليس لديه علمٌ بهذه الصناعة؟! وقد روي من حديث ابن عباس أن داود كان زرادًا يصنع الزرد والدروع، وكان آدم حراثًا، وكان نوح نجارًا، وكان إدريس خياطًا، وكان موسى راعيًا[2].

وفي ذلك إعلاءٌ لشأن العمل ودليلٌ على شرف العاملين، كما في الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)[3].

٤. علو الهمة.

ذكر الجرجاني في تعريف الهمة قوله: «توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٦٩.

(٢) ذكره الألباني في كتاب تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، رقم ٣٤، وقال: لم أره مرفوعًا. ١/ ٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، عن المقدام، ٣/ ٥٧، رقم ٢٠٧٢.

إلى جانب الحق؛ لحصول الكمال له أو لغيره»[1]. هذا وقد أثنى الله عز وجل على أصحاب الهمم العالية وفي طليعتهم ومقدمتهم الأنبياء والرسل عمومًا، وأولو العزم خصوصًا، وعلى رأسهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم [2]، فقال عنهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

ونوح عليه السلام هو أحد أولي العزم من الرسل، وتجلت همته العالية في مجاهدته في إعلاء كلمة الله عز وجل، والدعوة إلى الحق ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهرًا[3]. فهو عليه السلام لم يتوان لحظةً، ولم يقصر طرفة عين في دعوة قومه إلى توحيد الله تعالى، فطال مكثه في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفي هذا دعوة إلى الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى بعلو همتهم في هذا المجال.

٥. الثبات.

لما عجز قوم نوح عليه السلام عن جداله وانهزموا أمام دعوته وحجته ومنطقه القوي السليم لجأوا إلى التهديد الصريح للرسول الذي جاءهم من عند الله تعالى ليدعوهم إلى الخير وإلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وهذا التهديد منهم يدل على أنهم كانوا أقوياء، وأنهم أصحاب جاه وبطش، وأنهم قادرون على إنفاذ تهديدهم، وهذا التهديد هو سلاح الطغاة دائمًا عندما لا يجدون حجة قوية يواجهون بها صاحب الحق، فقالوا له: إذا لم تنته عن دعوتك هذه فسوف نرجمك بالحجارة حتى الموت. ولكن نوحًا عليه السلام لم يخفه هذا التهديد فظل ثابتًا على موقفه ومبدئه، وقابل هذا التهديد بكل أدب وثبات، فما كان منه إلا أن شكا قومه إل الله تعالى طالبًا منه أن يفصل بينه وبينهم[4]، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ۝١١٧ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١١٨﴾ [الشعراء:١١٧-١١٨].

٦. الولاء والبراء.

عندما رفض ابن نوح أن يؤمن ويستجيب لدعوة أبيه عليه السلام وهلك وكان من الغارقين، دفعت عاطفة نوح عليه السلام إلى معرفة مصير ابنه، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود:٤٥].

فأجابه الله عز وجل بقوله: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود:٤٦] لأنه بكفر ابنه وجحوده انقطعت الولاية بينه وبين ابنه، فقد عمل أعمالًا ليست صالحة، وبذلك صار ليس من أهله، وأرشده الله تعالى إلى عدم

(١) التعريفات، ص٢٥٧.
(٢) انظر: علو الهمة، محمد المقدم، ١/ ١٢٨.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٢١٤.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي، ١٧/ ١٠٦٢٦، التفسير المنهجي، صلاح الخالدي، ٧/ ١٠٣.

السير والانقياد وراء عاطفته وشفقته عليه، فاستعلى نبي الله نوح عليه السلام على عاطفته، ورضي بحكم الله تعالى، فما كان منه إلا التسليم المطلق والاتباع لما يحبه الله تعالى ويرضاه، والولاء كذلك لمن يحبه الله، والبراء والعداء لمن حاد الله تعالى، ولو كان ابنه وزوجته التي قال الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم:١٠].

٧. الصدق.

وصف الله تعالى نوحًا عليه السلام بهذه الصفة في معرض الحديث عن أخذه الميثاق الغليظ من الأنبياء عمومًا، وخاصةً أولي العزم من الرسل، ونوح عليه السلام أحد أولي العزم الخمسة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب:٧-٨].

والمعنى: اذكر أيها الرسول الكريم وقت أن أخذنا العهد الوثيق من جميع الأنبياء السابقين على أن يبلغوا دين الله عز وجل، وأن يجاهدوا في سبيل تحقيق تلك الغاية بإخلاص العبادة لله جل جلاله، وعلى أن يصدق بعضهم بعضًا في أصول الشريعة ومكارم الأخلاق، وقد أخذ الله تعالى هذا العهد والميثاق منك أيها الرسول ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام الذين هم أولو العزم من الرسل، الذين تحملوا في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى أكثر مما تحمله غيرهم من الأنبياء، والسبب في أخذ الله عز وجل هذا الميثاق الغليظ ليسأل الأنبياء عن كلامهم الصادق الذي قالوه لأقوامهم، وماذا رد عليهم أقوامهم[(١)].

ولكن الله تعالى يعلم أن هؤلاء الأنبياء صادقون، فلماذا سوف يسألهم يوم القيامة عن صدقهم في تبليغ الرسالة؟ والجواب على هذا السؤال يكمن في حكمتين:

الأولى: أن في هذا السؤال تشريفًا لهؤلاء الرسل وتكريمًا لهم، فيثيبهم جنات النعيم[(٢)].

الثانية: فيه توبيخ للمكذبين لأنبيائهم فيما جاءهم به هؤلاء الأنبياء من كلام صادق وإرشاد حكيم، وفيه وعيد لهم؛ لأنه إذا كان الأنبياء سوف يسألون فكيف بغيرهم؟! فيعذبهم العذاب الأليم[(٣)].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٥٩، التفسير الوسيط، طنطاوي، ١١/ ١٧٨.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي، ١١/ ١٧٨.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٠٤.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن يكون الداعية صادقًا في دعوته؛ لأن المقصد من هذه الدعوة هو هداية الناس إلى البر والتقوى، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فكيف يحقق الداعية هذا وهو غير صادق؟!. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب أن يكون صادقًا في قوله؛ لأنه يبلغ دعوة الله تعالى كما جاءت، فما يقوله ليس تعبيرًا عن رأيه الشخصي، فهذا يدفع المدعوين إلى تصديقه والاستجابة له.

٨. الأمانة.

أخبر الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام لما كان يدعو قومه إلى توحيد الله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [الشعراء:١٠٦-١٠٨].

وقول نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يخرج على قولين:

الأول: ذكر المفسرون أن نوحًا عليه السلام قد تخلق بهذا الخلق قبل بعثته، فإن قومه كانوا يعرفون صدقه وأمانته من قبل، كصدق محمد صلى الله عليه وسلم وأمانته في قريش قبل بعثته.

والمعنى: كنت أمينًا فيكم قبل دعوتي إياكم إلى الله تعالى، فتصدقونني في جميع ما أخبركم به، فما بالكم لا تصدقونني الآن لما أخبرتكم أني رسول الله إليكم؟![1]

الثاني: كأن نوحًا عليه السلام يقول: إني لكم رسول من الله تعالى، أمينٌ على وحيه إلي بإرساله إياي إليكم، جعلني الله تعالى أمينًا فيما بعثني به، أبلغكم رسالة ربي لا أزيد فيها، ولا أنقص منها شيئًا، وأؤدي الأمانة شئتم أم أبيتم، قبلتم الدعوة أم توليتم، فقد وضح لكم صدقي، وبانت أمانتي فيما بعثني الله به وائتمنني عليه، فأنا لا أخاف ما تتوعدونني به[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الداعية يجب عليه أن يكون مشهورًا بالأمانة بين الناس؛ حتى يصدقوا ما يدعو إليه ولا يتهموه بما قد كان منه إذا لم يكن كذلك.

٩. النصيحة.

هذا الخلق يتضمن الرحمة بالناس، والشفقة عليهم، والرأفة بهم، والحرص على إنقاذهم من الضلالة إلى الهداية؛ لئلا يتعرضوا لعذاب الله عز وجل وعقابه.

فهذا نوح عليه السلام يقول الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/ ٧٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١١٩/١٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٣٦٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٥١، وتأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/ ٧٠.

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا
لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى
ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١
أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ
ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢﴾ [الأعراف:٥٩-٦٢].

والمعنى: أن الله عز وجل بعث نوحًا عليه السلام إلى قومه؛ ليدعوهم إلى إفراد الله تعالى وحده بالعبودية؛ لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه عز وجل مخلوقٌ مدبرٌ له، ليس له من الأمر شيء. وكأنه يقول لهم: يجب عليكم أن تخضعوا لله تعالى بالطاعة وإخلاص العبادة له، فليس لكم من إله يستحق العبادة غيره، فإن لم تفعلوا وبقيتم على ما أنتم عليه من الكفر والجحود فإني أخاف عليكم أن يحل عليكم يومٌ يعظم فيه بلاؤكم[1].

ويقصد بهذا اليوم يوم الطوفان الذي هلكوا فيه جميعًا في الدنيا، أو يوم القيامة الذي ينتظرهم فيه العذاب في الآخرة.

فقول نوح عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعد من «نصحه عليه السلام وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي والشقاء السرمدي، كإخوانه المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم»[2].

كما أن قوله عليه السلام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أن وظيفتي هي أن أبلغكم ما أرسلني به الله عز وجل إليكم ببيان توحيده وأوامره ونواهيه؛ أني أقصد لكم الصلاح والخير والفلاح في الدنيا والآخرة[3]، وأعلم من الله تعالى ما لا تعلمونه.

فهو يعلم عن طريق الوحي من أمر الله وسنته في خلقه وما يتبع هذه الدنيا من أحوال الآخرة ما لا يعلمون، ويعلم أن الله ذو القوة المتين، وأنه يبطش بالمكذبين المعاندين، وقوم نوح لا يعلمون ذلك لأنهم أول أمة عذبها الله بكفرها، فأزالها من على وجه الأرض، ولم يبق إلا من آمن مع نوح. قال ابن كثير: «وهذا شأن الرسول أن يكون بليغًا فصيحًا، ناصحًا بالله، لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات»[4].

وهكذا عندما يتحلى الداعية بهذا الخلق، فإنه يتبين لدى المدعوين مدى حرصه على هدايتهم؛ لئلا يعرضوا أنفسهم لعقاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهذا يكون على وجه النصيحة لهم والشفقة عليهم فيلتفوا حوله، ويسمعوا منه، ويستجيبوا له. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٩٢، التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص١٥٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٩٢.
(٣) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٤١٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٣٢.

في الحديث: (الدين النصيحة) قلنا: لمن؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[1].

١٠. الزهد.

عند الاطلاع على قصة نوح عليه السلام في مخاطبته لقومه نجده يقول: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [يونس:٧٢].

وفي موضع آخر يقول: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود:٢٩].

فإنه يؤكد على أن عدم استجابتهم لدعوته لا يعود إلى سؤاله المال منهم، فيثقل عليهم مكافأته[2] عند استجابتهم، أو يثقل عليه عند إعراضهم وتوليهم[3].

وكذلك نجد في قصص الأنبياء مع أقوامهم أن جميع الأنبياء والرسل عندما كانوا يخاطبون أقوامهم يبينون لهم أنهم لم يطلبوا من وراء دعوتهم مالًا أو أجرًا على ذلك أو مقابل استجابتهم، فيقولوا: هذا جاءنا ليأخذ أموالنا. فيمتنعون عن قبول الدعوة. فكأن الرسل عليهم السلام يقولون لأقوامهم: «لو أنكم فطنتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما نقدمه لكم من منفعة، لكننا لا نريد منكم أنتم أجرًا، إنما سنأخذ أجرنا من رب العالمين؛ لأن المنفعة التي نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقومها، وإنما القادر على تقييمها هو واضع المنهج سبحانه وتعالى ومنزله على رسله»[4].

وعليه، فإن هذه الصفة هي سنة مطردة عند جميع الأنبياء والمرسلين، فهم لا يطلبون لأنفسهم أجرًا مقابل دعوتهم، ولا يؤملون لأنفسهم عند أقوامهم قدرًا ومكانة، فعملهم -الذي هو تبليغ الدعوة لله عز وجل - لا يطلبون عليه شيئًا من غيره جل جلاله، فمن سلك من الدعاة والعلماء سبيلهم ومسلكهم واقتفى أثرهم فإنه سوف يحشر في زمرتهم، ومن أخذ على إصلاحه عوضًا من أحد، أو اكتسب بسداد رأيه جاهًا لم ير من الله تعالى إلا ذلًا وهوانًا وصغارًا[5].

فهذه الصفة هي من أهم الصفات في نجاح الداعية في مهمته؛ لأنه إذا تعلق قلبه بالدنيا واشتغل بتحصيلها كان هذا حائلًا بين الداعية والناس، فلا يسمع أو يستجيب له أحد؛ لذلك يجب على الداعية أن يزهد عما في أيدي الناس فضلًا عن أن يكون كريمًا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، عن تميم الداري، ١/ ٧٤، رقم ٩٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٦٥.

(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٥٥.

(٤) تفسير الشعراوي، ١٠/٦١٠٦.

(٥) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ٢/ ١٣٣.

حتى يجمع الناس حوله ولا ينفرهم.

١١. الصبر.

تخلق نوح عليه السلام بهذا الخلق الرفيع، فقد تحمل أذى قومه تسعمائة وخمسين عامًا وهي أطول فترة دعوة، واستخدم معهم جميع الأساليب والوسائل الدعوية إلا أنهم كانوا يكذبونه ويزجرونه، ويتهمونه بالجنون والسخرية والاستهزاء، فلما بلغ السيل الزبى دعا ربه فقال: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر:١٠].

وقال في آية أخرى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

فأجاب الله تعالى سؤاله، وانتصر له من قومه، فقال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات:٧٥-٧٦].

وعليه، فإن الصبر على الأذى هو سلاحٌ قويٌّ يجب على الداعية التسلح به؛ ليصل إلى بغيته ويحقق به آماله وطموحاته.

١٢. الحلم.

كثيرًا ما أوذي نوح عليه السلام من قومه أشد الإيذاء، وبما أن دعوته فيهم طالت فلنا أن نتخيل حجم هذا الإيذاء طيلة هذه القرون، وعندما كان نوح عليه السلام يواجههم ويخاطبهم في أمر الدعوة كان لا يلقى منهم إلا الكذب والزجر والاتهام بالسخرية والاستهزاء، هذا بالإضافة إلى التهديد الصريح المباشر الذي كانوا يلجؤون إليه عندما لا يجدون منطقًا سليمًا وحجة قوية يردون بها على نوح عليه السلام، فقد هدد عليه السلام بأنواع كثيرة من التهديدات، وأقسى ما هدد به هو الرجم حيث قالوا: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء:١١٦].

ومع ذلك لم نجده عليه السلام قد ثأر لنفسه ولو مرة واحدة فقط، وإنما كل ما فعله أن توجه إلى الله عز وجل بالدعاء، وقال بكل بساطة: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء:١١٧-١١٨].

من أجل هذا يعد الحلم هو سيد الأخلاق التي يجب على الداعية أن يتحلى بها؛ لأنه يواجه أقوالًا وتصرفاتٍ كثيرةً من شأنها أن تثير غضبه، فإذا لم يتحل الداعية بهذا الخلق نفر عنه الناس ولم يجتمع عليه أحد، ومن ثم لن يستطيع أن ينجح في مهمته.

١٣. التواضع.

تخلق نوح عليه السلام بهذا الخلق الرفيع أيضًا، فمن خلال الحوار الذي دار بينه وبين قومه لأجل الدعوة نجد أنهم اشترطوا على نوح عليه السلام أن يطرد الذين آمنوا معه من الضعفاء والفقراء، أو أن يخصص لهم

مجلسًا خاصًا بهم لا يلتقون فيه مع هؤلاء الضعفاء والفقراء الذين سموهم أراذل القوم، وهذا من باب استكبارهم وأنفتهم وترفعهم، ولكن نوحًا عليه السلام رفض هذا الطلب، وبين لهم أنهم يجهلون الميزان الحقيقي الذي يوزن به الناس عند الله عز وجل، وهو الإيمان، فهؤلاء المؤمنون في رعاية الله تعالى وحمايته، وليس بالموازين الوضعية الحقيرة التي يزنون بها من الغنى والثراء[1]. فقال الله تعالى مصورًا هذا الموقف على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [هود:٢٩-٣٠].

فيظهر تواضع نوح عليه السلام في عدم طرده للمؤمنين معه الذين هم من طبقة الضعفاء والفقراء، بل تواضع لهم، وأجلسهم في مجلسه، يتدارس وإياهم سبل التقرب إلى الله عز وجل. وهكذا يكون نوح عليه السلام قد خفض جناحه وتودد لهؤلاء المؤمنين به وبدعوته.

ويتبين من هذا أن الداعية يجب عليه أن يتحلى بهذا الخلق؛ حتى يكون قادرًا على جمع الأنصار حوله، فبالتواضع يحبه الناس، ويلتفون حوله، ويستمعون إليه، ويتأثرون به؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف: (وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ)[2].

هذا على صعيد الناس، أما عند الله تعالى فإن صاحب هذا الخلق يزيده الله تعالى رفعةً وقدرًا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث: (وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله)[3].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ١٨٧٤، التفسير المنير، الزحيلي، ١٢/ ٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار، عن قتادة، ٤/ ٢١٩٨، رقم ٦٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، عن أبي هريرة، ٤/ ٢٠٠١، رقم ٦٩.

دعوة نوح عليه السلام

أولًا: اصطفاؤه وتكليفه بالرسالة:

أخبر الله عز وجل في جملة من آياته أنه اختار مجموعة من الأنبياء الذين هم أولياؤه وأصفياؤه وأحباؤه، فأحاطهم الله تعالى برعايته وعنايته، ومن هؤلاء نوح عليه السلام، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران:٣٣].

ولم يقف الأمر عند حد الاصطفاء، بل جعله الله عز وجل أهلًا لحمل رسالته، فقال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء:١٦٣].

كما أنه عليه السلام من أولي العزم من الرسل، كما قال الله تعالى عنه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب:٧]، فكان نوح عليه السلام أول رسول يذكر في موكب الأنبياء والرسل، فهو شيخ المرسلين.

هذا، وإن مسوغات وموجبات اصطفائه واجتبائه أمورٌ خمسة، وهي كما يأتي:

الأول: إن الله جل جلاله جعله أبا البشر فإن الله تعالى عندما عذب قومه بالطوفان كان الناس كلهم قد غرقوا وصارت ذريته هم الباقين؛ فيعتبر نوح عليه السلام هو أبو البشر الثاني بعد آدم عليه السلام.

الثاني: إن الله تعالى أطال عمره، فقد مكث في الدعوة فقط ألف سنة إلا خمسين عامًا، بالإضافة إلى عمره قبل تكليفه بالرسالة، وإلى عمره بعد نجاته والمؤمنين من الطوفان.

الثالث: إن الله عز وجل استجاب دعاءه لما دعا على الكافرين من قومه، فأهلك الله تعالى بدعائه أهل الأرض.

الرابع: إن الله سبحانه وتعالى حمله على السفينة التي أمره بصنعها؛ لينجيه والمؤمنين معه من الطوفان القادم لإهلاك الكافرين.

الخامس: هو أول رسول شرع الله تعالى على لسانه الشرائع وأحكام الحلال والحرام، ونسخ الشرائع التي كانت قبله من حل الزواج بالخالات والعمات[1].

هذا بالإضافة إلى ما وفقه الله تعالى من الصبر، والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله تعالى في جميع الأوقات والأحوال[2].

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٣٨٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٦٤، مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ٢٦٦، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ١٤٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٢٥٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٢٨.

ثانيًا: معالم دعوته:

من خلال استعراض الآيات القرآنية التي ذكرت دعوة نوح عليه السلام لقومه نجد أن دعوته عليه السلام ارتكزت على ثلاثة معالم:

الأول: الاستناد إلى قوة الله القوي العزيز.

الثاني: الدعوة إلى الإيمان بالله عز وجل.

الثالث: الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر.

والآن إلى تفصيل هذه المعالم فيما يأتي:

١. الاستناد إلى قوة الله القوي العزيز.

إن التعبير بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[الأعراف:٥٩].

وهذا التعبير مؤكد بثلاثة مؤكدات، فالأسلوب أسلوب قسم دلت عليه اللام الموطئة له، هذا الأول، أما الثاني فهو حرف التحقيق (قد)الداخل على الفعل الماضي (أرسلنا)، فيدل على التوكيد، وعلى تحقق وقوع الفعل، والثالث هو صيغة الفعل الماضي (أرسلنا) الدالة على أن الفعل قد حصل وانتهى وتحقق، في حين كان التعبير في سورة نوح بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، فهو مؤكد أيضًا بـــــ (إن) والفعل الماضي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الفعل (أرسلنا) مسندٌ إلى نون العظمة، فهذا الإرسال ليس من عند أحد، إنما هو من عند الله جل جلاله المتصف بجميع صفات الجلال والكمال، فكأن نوحًا عليه السلام يستند في دعوته إلى قوة القوي العزيز ويرتكن إليها، وهذا شأن جميع الأنبياء والمرسلين في دعوتهم لأقوامهم.

ويستفاد من هذا أن الدعاة إلى الله عز وجل يجب عليهم أن يستعلوا بالحق الذي معهم، فيركنوا إليه سبحانه وتعالى، فلا يذلوا، ولا يهنوا، ولا يشعروا بالدونية والانكسار، إنما يشعرون بالعزة المستمدة من عزة الله عز وجل [1]، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

٢. الدعوة إلى الإيمان بالله عز وجل.

أمر نوح عليه السلام قومه بعبادة الله تعالى، وبين لهم على سبيل الحصر أنه لا إله لهم سوى الله تعالى، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩].

وفي موضع آخر: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود:٢٦].

ومعنى عبادة الله تعالى توحيده عز وجل، وسمي التوحيد عبادة؛ لأن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد فيها خالصًا [2]. وقدم

(١) انظر: التفسير الموضوعي ٢، مناهج جامعة المدينة العالمية، ص٣٦٦.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٤/ ٤٦٨.

نوح عليه السلام دعوته مشفوعةً بالدليل، وهو قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وكان قومه يصنعون أصنامًا بأيديهم، وزعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى، فهم يعترفون بالله عز وجل ربًّا، ولكنهم يشركون في العبادة معه هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله تعالى، فبين لهم نوح عليه السلام أنه ليس هناك إلهٌ يستحق العبادة إلا الله جل جلاله؛ لأنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع أمورهم، وما سواه مخلوقٌ مدبرٌ له ليس له من الأمر من شيء[1]. فهو الإله الذي يجدر أن تتعلق القلوب به، وتطمئن النفوس إليه، وتجأر بالدعاء له وحده.

وهذا المعلم الذي بدأ به نوح عليه السلام دعوته هو الأساس الذي يشاد عليه البنيان، كما أن هذا المعلم هو الذي أتى به كل الأنبياء والرسل يدعون إليه أقوامهم، ويرشدونهم إلى هذا الطريق المستقيم، ويدعونهم إلى عبادة الله تعالى وحده، كما قال جل شأنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

فهذا يؤكد أن العقيدة والأصول العامة لهذا الدين هي واحدة عند جميع الأنبياء والرسل، ولكن الشرائع والأحكام الفقهية هي التي تختلف.

٣. الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر.

كما دعا نوح عليه السلام قومه إلى إفراد الله عز وجل بالألوهية والعبادة دعاهم أيضًا إلى الإيمان باليوم الآخر، يوم البعث والحساب، عندما خوفهم من عذاب الله تعالى في هذا اليوم، فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩].

وفي موضع آخر قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود:٢٦].

وذكر المفسرون أنه لا مانع من أن المقصود باليوم في الآيتين هو يوم القيامة، أو يوم نزول عذاب الطوفان عليهم[2]، والمعنيان يحملان الهلاك والعذاب سواء كان في الدنيا أم في الآخرة.

وعلى كلٍّ فإن نوحًا عليه السلام يخوفهم من يوم القيامة بدءًا من خروج الناس من قبورهم وما يكون في هذا اليوم من أهوال وأحداث حتى يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار ويستقر كلٌّ منهما فيما دخله.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٩٢.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ١١٣، فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٢٤٧.

وعند التأمل في وصف العذاب بأنه عظيم أو أليم فالوصفان على صيغة مبالغة على وزن (فعيل)، فهذا يدل على أن هذا العظم والإيلام لا يدرك من جهته، ولا تدرك المشاعر حقيقته في الدنيا، فيمكن تخيل مدى قوة هذا العذاب وهوله وعظمته وشدة إيلامه.

ثالثًا: أساليب دعوته:

تعددت أساليب دعوة نوح عليه السلام، ومن خلال استقراء الآيات نجد فيها عدة أساليب، نذكر منا ما يأتي:

١. أسلوب الحوار.

وهو أسلوبٌ استخدمه نوح عليه السلام مع قومه؛ لبيان الحق، وعرض العقيدة، وطلب الإيمان بالله تعالى، ومنها قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف:٦٣].

والمعنى: أعجبتم يا قوم أن جاءتكم رسالةٌ من ربكم تحمل لكم الموعظة والبيان على رجلٍ منكم تعرفون صدقه وأمانته من قبل دعوتكم؛ لينذركم عذاب الله تعالى إن لم تؤمنوا؛ لكي تتقوا الله، ولكي ترحموا[1].

كما حاول نوح عليه السلام أن يفتح عقولهم وأن يوجهها إلى ما في الكون من آيات يظهر فيها خلق الله عز وجل وبديع صنعه وتصريفه لأمور الكون، كما وجه أنظار المشركين إليه تعالى وحده؛ لأنه المستحق للعبادة دون سواه؛ ليفتح أبصار الجاحدين وبصائرهم، فذكر نوح عليه السلام قومه قائلًا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح:١٥-٢٠].

والمعنى: أن نوحًا عليه السلام نبههم إلى خلق السموات والأرض وما فيهما من الدلالات على أنها مخلوقة، وأن خالقها وحده هو الذي يستحق صفات العلو والعزة، فقال لهم -من باب التقرير لهم؛ لأنهم يشاهدون مخلوقات الله تعالى ويعلمون أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لها-: لقد علمتم أن الله هو الذي خلق سبع سماوات متطابقة، بعضها فوق بعض، وجعل القمر في السماء الدنيا نورًا للأرض ومن فيها، وجعل الشمس كالسراج في إضاءتها وتوهجها، وإزالة ظلمة الليل، وهو الذي أوجد وأنشأ أباكم آدم من الأرض إنشاءً، وجعلكم فروعًا عنه، ثم يعيدكم إلى هذه الأرض بعد موتكم؛ لتكون قبورًا لكم، ثم يخرجكم منها يوم البعث للحساب والجزاء، كما جعل لكم

---

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٢٤١.

بفضله ومنه الأرض مبسوطةً تتقلبون عليها كما تشاؤون؛ لتتخذوا منها لأنفسكم طرقًا واسعةً في إمكان الانتفاع بها والتقلب على أرجائها[١].

فكان استخدامه لهذا الأسلوب بهدف هدايتهم وتصحيح معتقداتهم الفاسدة.

٢. أسلوب الترغيب.

وهو ترغيبٌ بالوعد والإمداد بأنواع الخيرات، والزيادة مع الشكر[٢].

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح:١٠-١٢].

فقد أطمع نوح عليه السلام قومه بالحصول على بركات السماء والأرض إن هم استجابوا لدعوته وآمنوا بالله جل جلاله الذي بيده مفاتيح الخزائن، فأتاهم من طريق القلب؛ ليحرك عواطفهم، فقال لهم: توبوا عن الكفر والمعاصي، فإن الله تعالى توابٌ رحيم، يغفر الذنب، ويقبل التوبة، وينزل عليكم المطر غزيرًا منسكبًا، ويكثر لكم الأموال والأولاد، ويجعل لكم الحدائق الفسيحة الغناء ذات الأشجار المثمرة، ويجعل لكم الأنهار تجري خلالها[٣].

٣. أسلوب الترهيب.

استخدم نوح عليه السلام أسلوب الترهيب مع قومه[٤]، فقال لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝٢﴾ [نوح:٢].

والمعنى: أي: أنذركم وأحذركم عاقبة كفركم، ونهاية شرككم من قبل فوات الفرصة، ومن قبل أن يأتيكم عذابٌ أليم شديد الألم للغاية[٥]. فأمري واضح، ودعوتي ظاهرة، فقابلوا هذا بالإيمان والتصديق. ثم وبخهم على عدم الاستجابة لدعوته فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح:١٣]، أي: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمةً وقدرةً على أخذكم بالعقوبة[٦].

٤. أسلوب التودد.

استخدم نوح عليه السلام طريقة التودد إلى قومه، حيث استجاش مشاعرهم، وذكرهم بحق القرابة الذي من شأنه أن يستعين بهم ويكونوا عونًا له على تقلبات الزمن، فقال عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ [الأعراف:٥٩].

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١٥/١١٩، ١٢١.

(٢) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، سعيد القحطاني، ٢/٤٨٨.

(٣) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/٤٢٨.

(٤) انظر: مفهوم الحكمة في الدعوة، صالح بن عبد الله بن حميد، ص٥٩.

(٥) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ٣/٧٥٣.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/٣٠٣.

فمن الواجب عليهم أن ينصروه في دعوته ويستجيبوا له. هذا وقد تكررت كلمة (يا قوم) ثلاث مرات في قصة نوح عليه السلام مع قومه في موضع واحد، فقال الله عز وجل على لسانه عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [هود:٢٨-٣٠].

فتكرارها يفيد المبالغة في التودد إلى قومه.

٥. أسلوب الجدال المحمود.

الجدال المحمود هو نوعٌ من أنواع الجدال، وهو يقوم على تقرير الحق، وإظهاره بإقامة الحجج القوية والأدلة والبراهين على صدقه، فهذا النوع من الجدال له فائدة، ففيه خير ونفع للإسلام، كما فيه عزة للمسلمين؛ لأنه بدونه لا تتم الدعوة إلى الله تعالى والذب والدفاع عن دينه العظيم، وقد أمرت آياتٌ كثيرة من القرآن الكريم بهذا النوع من الجدال كما في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت:٤٦].

وشأن هذه الآيات هو إظهار الحق، والدعوة إليه، وتدفع عن الإسلام والمسلمين كل ما يلصق بهم من اتهامات باطلة وزائفة(١).

ومارس نوح عليه السلام أسلوب الجدال المحمود هذا، القائم على المنطق القويم، والحجة القوية، والرأي السديد في دعوته لقومه إلى عبادة الله تعالى وحده وعدم الإشراك به، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن

---

(١) انظر: موسوعة الأخلاق الإسلامية، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبدالقادر السقاف، ٢/ ٢٠٦.

يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود: ٢٥-٣٥].

لذلك سئم منه قومه، واتهموه بإكثار الجدال فيهم، وطلبوا منه أن يأتيهم بما يتوعدهم به من العذاب.

وفيما فعله نوح عليه السلام تتجلى جوانب واضحة في منهجية الجدل، ومنها:

- العناية بإظهار الحق الذي يدعو إليه، حيث قال: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾.
- إظهار الرحمة والشفقة بقومه، ويظهر هذا من تكرار كلمة ﴿يَا قَوْمِ﴾.
- عدم إغلاق طريق الرجعة والتوبة، وهذا متمثلٌ في قوله: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾، فإذا كانت النبوة أو الرحمة التي أوتيها نوح عليه السلام قد عميت عليهم، فإنها الآن ظاهرة وواضحة، فليفتحوا لها أبصارهم ويرفعوا العماية عنها؛ ليروها.
- التهيؤ لاستقبال الاتهامات التي سوف توجه إليه بكل سماحة وسعة صدر وثقة بالحق، مع التحلي بالمناقشة الموضوعية، ونقض الاتهامات الباطلة بعيدًا عن السب والشتم والتجريح، وهذا ما فعله نوح عليه السلام، فلم يرد على ما نسبوه إليه من جنون أو كذب وغيره بل رد على الاتهامات التي هي بشأن الدعوة.
- الرد على ما يحتاج إلى رد ونقاش، فقد اتهم قوم نوح نبيهم بالجنون وغيره، فلم يرد عليهم، وإنما أفاض في الرد والنقاش على الأمور التي تخص الدعوة.
- الصراحة والوضوح، ومن الأمثلة على ذلك ما قاله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾، فقد صرح لهم أن لا يمكن أن يتخلى عمن آمن برسالته، ولا أن يغلق الطريق أمام من انقاد لأمر ربه عز وجل، وهل يعقل أن يدعوهم إلى الإيمان بربهم وأن ينبذوا عبادة الأصنام والأوثان ثم يتنكر لهم ويطردهم من مجلسه؛ ليستقبل فيه الأشراف والسادة؟!
- عدم إشغال النفس كثيرًا بالردود؛ لأن

الجدال والرد على الخصوم ليس أساسًا في الدعوة، بل يستخدم إذا احتاج الأمر إليه.

موقف قوم نوح عليه السلام من دعوته

أولًا: تكذيب قوم نوح:

بعد أن عرض نوح عليه السلام دعوته ومعالمها على قومه، كيف كان استقبالهم للدعوة؟ وماذا كان ردهم عليها؟

ذكر الله تعالى تكذيب قوم نوح عليه السلام له ولدعوته بشكل عام في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ [ص:١٢].

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر:٩].

لكن أول من امتنع من قبول الدعوة ورفضها ووقف في طريقها وصد عنها،هم الملأ من قومه. والملأ هم: «جماعة يجتمعون على رأي، فيملؤون العيون رواءً ومنظرًا، والنفوس بهاءً وجلالًا»[1].

فهم الرؤساء وعظماء القوم وسادتهم، وهم واجهة المجتمع، يقفون عقبةً أمام وجه الدعوة، ويظنون أنهم إن استجابوا للنبي الذي بعث فيهم أنه سيضيع ملكهم،وجاههم ومنصبهم ومكانتهم في المجتمع، فها هم يرفضون دعوة نبيهم، ويتهمونه بالضلال الذي هو العدول عن طريق الحق والذهاب

(١) المفردات، الأصفهاني، ص٧٧٦.

عنه(١)، فيقول الله عز وجل عنهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾ [الأعراف:٦٠].

أي: إنا لنراك في دعوتنا إلى إله واحد في ضلال عن الحق. وتارة أخرى يطعنون في نبوته من ثلاث جهات، وهذا متمثل في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ [هود:٢٧].

ووجوه الطعن الثلاثة هي:

الأول: قولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، أي: نحن وأنت مشتركون في البشرية، فلم تكن لك مزيةٌ علينا تستحق بها النبوة التي تدعيها؟

الثاني: قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾، أي: لم يتبعك فيما زعمت أحدٌ من الأشراف، فكلهم من أراذل القوم، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأراذل لك في ظاهر الرأي بدون تروٍّ ولا تعمق ولا أدنى تفكير.

الثالث: قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾، أي: ما نرى لك ولمن اتبعك من هؤلاء الأراذل فضلًا علينا تتميزون به وتستحقون ما تدعونه.

ثم اتهموه بالكذب فقالوا: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ في كل ما تدعونه وتزعمونه(٢).

وتارةً ثالثةً صرحوا أن البشر لا يكونون رسلًا، فقال الله تعالى عنهم: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [المؤمنون:٢٤].

أي: قالوا: ما نوحٌ إلا رجل عادي منكم، ليس له مزية عليكم في فضل ولا خلق،فيكون أهلًا للنبوة دوننا؛ بل هو رجل أراد أن يسود عليكم، وتكون له الكلمة، وزعم الرسالة؛ ليحقق ما تصبو إليه نفسه، ثم ذكروا موانع ثلاثة تحول بينه وبين نبوته، وهي:

الأول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، أي: لو شاء الله أن نعبده وحده لأرسل إلينا ملائكةً تؤدي الرسالة، وليس نوحًا.

الثاني: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أي: ما سمعنا في عهود آبائنا وأجدادنا بمثل الذي يدعونا إليه نوح، وفيه إشارة إلى أنهم قومٌ يعولون على التقليد الأعمى، كما أنهم قد بلغوا الغاية في العناد والتكذيب.

الثالث: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٢٣٤.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٥٦٠.

[المؤمنون:٢٥].

أي: ما نوح إلا رجل به خبل في عقله، فالذي يدعيه ويزعمه لا يصدر عن رجل عاقل يزن قوله ويدعم رأيه بحجة قوية ناصعة. ثم قالوا في إبطال دعوته: ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون:٢٥].

أي: فتلبثوا وانتظروا لعله يعود إلى سيرته الأولى، إلى دينكم ودين آبائكم وأجدادكم(١).

وهكذا يظهر تكذيب هؤلاء الملأ لنوح عليه السلام، وليس هذا فحسب، بل يتبين مدى مكابرتهم لفرط عنادهم، مع علمهم بأن نوحًا عليه السلام هو أرجح الناس عقلًا وأكثرهم رزانةً في كلامه.

ثانيًا: صفات قوم نوح:

تعددت صفات قوم نوح عليه السلام، ومن خلال استقراء الآيات الواردة فيها صفاتهم نجدها متمثلة في الآتي:

١. العمى.

وصفهم الله تعالى بهذا الوصف في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف:٦٤].

فبعدما دعا نوح عليه السلام قومه إلى توحيد الله عز وجل وأخبرهم أنه مرسلٌ من عنده كذبوه وخالفوا أمره، فما كان من الله تعالى إلا أن نجاه والذين آمنوا معه في الفلك، وأغرق الله عز وجل الذين كذبوا بآياته وحججه، ولم يتبعوا نبيهم، ولم يقبلوا نصحه وإرشاده لهم، فأغرقهم بالطوفان؛ لأنهم كانوا قومًا عمين عن الحق والإيمان(٢)، فقد أغلقوا بصائرهم عنهما.

٢. الجبن.

عندما حانت لحظة المفاصلة التامة بين الحق والباطل، هدد نوح عليه السلام قومه بأن يجتمعوا هم وشركاؤهم على أمر واحد، وينفذوه بدون تردد ولا تراجع، فقال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس:٧١].

ولكنهم لم يستطيعوا أن يتفقوا، أو أن يأخذوا قرارًا حاسمًا بشأن نوح عليه السلام وبشأن دعوته القوية التي حماها الله عز وجل وحمى الداعي إليها.

وبذلك يظهر أن موقف قوم نوح عليه السلام كان موقف الجبان الضعيف الهياب المتخاذل المتردد.

٣. سوء الأدب.

---

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٨/١٨.

(٢) انظر: معاني القرآن، الزجاج، ٢/ ٣٤٧، جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٥٠٢.

إن قوم نوح قد أساؤوا التعامل مع نبيهم الذي أرسل فيهم، فكذبوه، واتهموه بالجنون، وهددوه بالرجم، ولو أنهم أرادوا عدم التصديق بنبوته لاكتفوا بهذا، ولما فعلوا بنوح عليه السلام ما فعلوه، وفي المقابل رأينا كيف كان نوح عليه السلام يخاطبهم بلفظ الحريص عليهم والمشفق بهم والناصح لهم، فكان دائمًا يقول: ﴿يَٰقَوْمِ﴾؛ لذلك وصفهم الله تعالى بأنهم قوم سوء، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ [الأنبياء:٧٧].

أي: إنهم كانوا قومًا يسيئون الأعمال، فيعصون الله تعالى، ويخالفون أوامره[١].

٤. السخرية.

دعوة نوح عليه السلام لما طالت في قومه أوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن معه واتبعه، وستحين لحظة المفاصلة التامة بين الحق والباطل، فأوحى إليه أن يصنع السفينة؛ كي ينجو بها هو والمؤمنون معه من هلاك الطوفان الذي سوف يعم الكافرين، فامتثل نوح عليه السلام لأمر ربه وشرع يصنع السفينة، وأثناء صناعته لها كان كلما مر عليه جماعة من قومه سخروا منه وهزئوا وضحكوا، وقالوا: يا نوح، كنت بالأمس نبيًّا، وأصبحت اليوم نجارًا!، أو سخروا من صناعته للسفينة بعيدةً عن البحار والأنهار، فرد عليهم نوح عليه السلام بكل هدوء واطمئنان قائلًا: إن تهزؤوا منا اليوم فإنا سوف نسخر منكم في المستقبل عندما تغرقون بالطوفان كما تسخرون منا الآن، فأنتم الأولى والأحق بهذه السخرية والاستهزاء، ثم توعدهم وهددهم بأنهم سوف يعلمون عاقبة التكذيب والاستهزاء هذا[٢]، فقال تعالى مصورًا هذا الأمر: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود:٣٨].

وعليه فإن السخرية خلق مذموم، ومن آثاره ومضاره أنها نذير شؤم للساخرين، فقد كان الغرق عاقبة قوم نوح، هؤلاء الذين كفروا بالله سبحانه وتعالى وسخروا من نبيهم النبي الذي بعثه الله تعالى إليهم.

٥. الفسق.

قال الله عز وجل: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الذاريات:٤٦].

والمعنى: أن قوم نوح عليه السلام حين كذبوا نبيهم أغرقهم الله عز وجل؛ لأنهم كانوا قومًا فاسقين خارجين عن طاعة الله تعالى[٣]، وهذه سنة الله تعالى فيمن عصاه.

٦. الظلم والطغيان.

وصف الله تعالى قوم نوح بهذين

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٤٧٤.

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٢/ ١٢.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ١٠٩.

الوصفين الشنيعين، فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم:٥٢].

والمعنى: أن قوم نوح كانوا في الوجود قبل إهلاك عاد وثمود، وكانوا أكثر ظلمًا وطغيانًا منهما، فإنهم كانوا يؤذون نبي الله نوحًا عليه السلام، وينفرون الناس عنه، وكانوا يحذرون صبيانهم من السماع له، كما كانوا يضربونه حتى لا يكون قادرًا على الحركة، ما أثر فيهم دعاؤه قريبًا من ألف سنة(١)، وفي قول نوح عليه السلام: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح:٢٤] تسجيلٌ عليهم بالظلم(٢). فقد ظلموا أنفسهم عندما حرموها من الهداية، وظلموا غيرهم سواء بالتعذيب لنوح عليه السلام، أو لغيرهم من الذين لم يؤمنوا عندما صدوهم عن الإيمان،وحذروهم من اتباع نوح عليه السلام.

٧. الكبر.

وصف الله تعالى قوم نوح بهذه الصفة، فقال عنهم: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح:٢٢].

أي: مكرًا بليغًا متناهيًا كبره في معاندة الحق(٣). فكلمة (كبارا) صيغة مبالغة حملت هذا المعنى البليغ.

واختلف العلماء في معنى مكر قوم نوح فيم كان؟ فقالوا:

- في تحريضهم السفلة من القوم على قتل نوح عليه السلام.
- في تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد حتى قال الضعفاء منهم: لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم.
- فيما جعلوه لله تعالى من الصاحبة والولد.
- في كفرهم(٤).
- في قولهم: إن آلهتكم خيرٌ من إله نوح؛ لأن آلهتكم تعطيكم المال والولد، وإله نوح لا يعطيكم شيئًا؛ لأنه فقير(٥).

٨. حب الرياسة والجاه.

هذه الصفة خاصة بالملأ، فالملأ دائمًا يحبون الرياسة والجاه، والتسلط على رقاب الضعفاء والفقراء؛ ولذلك فهم يعارضون دعوة النبي المبعوث فيهم، وهي دعوة الحق، ويظنون متوهمين أن قبولهم دعوة الحق سوف يسلب منهم رياستهم وجاههم ومناصبهم ومكانتهم وهيبتهم الطاغية المتجبرة أمام الناس؛ لذلك كان حبهم للرياسة والجاه والسلطان من أهم أسباب رفضهم دعوة نوح عليه السلام.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١٦٥.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٦١.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٩/ ٣٢٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨٩.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٦٠.
(٥) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢/ ٥٦٧.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف:٦٠].

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون:٢٤].

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود:٢٧].

ثالثًا: شكوى نوح لربه من قومه:

بعد إرسال الله عز وجل نوحًا عليه السلام إلى قومه داعيًا إياهم؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وتنفيذ نوح عليه السلام أمر ربه سبحانه وتعالى، فعرض معالم دعوته على قومه، واستخدم معهم جميع الأساليب الدعوية التي كانت باستطاعته؛ لتوصيل دعوة الحق إليهم، كفر قومه بالله عز وجل، وعاندوا الحق، ولم يستجيبوا لدعوته، وتجدر الإشارة هنا إلى أن دعوة نوح عليه السلام لقومه لم تكن مرة واحدة فقط، بل تكررت مرارًا بما يتناسب مع أطول مدة دعوية مكثها في قومه حيث شارفت على الألف سنة، فلنا أن نتخيل كم مرة دعا قومه، وصدوه عن ذلك، ويرجع نوح عليه السلام صفر اليدين منهم، لكن ذلك لم يفشل ولم يركن، بل كان دائمًا يعرض نفسه ودعوته على قومه؛ لعل الله سبحانه وتعالى يهديهم إلى الحق.

فلما وصل نوح عليه السلام إلى هذه المرحلة قال شاكيًا لربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح:٥-٢٠].

والمعنى: يقول نوح عليه السلام: يا رب، إني دعوت قومي في الليل والنهار، فلم يزدهم دعائي إلا نفورًا وإعراضًا عن الحق، وإني كلما دعوتهم لأجل أن يستجيبوا فتغفر لهم، أبوا إلا تماديًا في الباطل، وجعلوا أصابعهم في آذانهم؛ لئلا يسمعوا ما أقول لهم، وتغطوا بثيابهم من

شدة بغضهم للحق، وأصروا على كفرهم وشركهم، واستكبروا على الحق استكبارًا، وازداد شرهم وطغيانهم في الأرض، ثم إني دعوتهم جهارًا بحيث يسمعونني كلهم، وإني أسررت بالدعوة لكل واحد منهم على حدة، وقلت لهم: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب والمعاصي والشرك، واستغفروا منها، فإن الله تعالى كثير المغفرة لمن تاب واستغفر.

ثم قلت لهم موبخًا إياهم: ما بالكم لا تعظمون الله تعالى، ولا تجعلون له قدرًا في قلوبكم، والحال أنه قد خلقكم خلقًا من بعد خلق، على مراحل متعددة إلى أن أوصلكم إلى ما أنتم عليه؟! أليس من انفرد بهذا أحق أن يعبد ويوحد؟

كما دعوتهم يا رب إلى التفكر في آلائك ونعمائك، من سماوات وما فيها من قمر وشمس، وذكرتهم كيف خلقت أباهم آدم عليه السلام من تراب وكانوا في صلبه، ثم تعيدهم في الأرض بعد الموت، وتخرجهم للبعث والنشور، وكيف خلقت لهم الأرض مبسوطةً مهيأةً للانتفاع بها بالحراثة والغرس والزراعة والبناء والسكون والاستقرار عليها. فبعد كل هذا النصح والوعظ والتذكير والإرشاد لم يفد فيهم هذا الكلام شيئًا، ولم ينفع، ولم يثمر.

ثم استرسل نوح عليه السلام في مناجاته لله تعالى وشكواه إليه قائلًا: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح:٢١-٢٤].

أي: إنهم عصوني فيما أمرتهم به، وأنا أنصحهم وأدلهم على الخير، واتبعوا الملأ والأشراف الذين لم تزدهم أموالهم وأولادهم إلا هلاكًا وتفويتًا للأرباح، ومكروا مكرًا كبيرًا بالغًا في معاندة الحق، فدعوهم إلى التعصب إلى دين آبائهم وأجدادهم القائم على الشرك قائلين لهم: لا تتركوا ودًا، ولا سواعًا، ولا يغوث ويعوق ونسرًا. مع أن هذه الأسماء كانت لرجالٍ صالحين فيهم، فلما ماتوا زينها الشيطان لهم، وقد أضل هؤلاء الكبار والرؤساء بدعوتهم هذه كثيرًا من الخلق، فلا يزيدون بدعوة هؤلاء الرؤساء إلا ضلالًا، فيا رب، لم يبق هناك مجالٌ ولا محلٌّ لنجاحهم وصلاحهم[1].

كما قال في موضع آخر شاكيًا أيضًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ [الشعراء:١١٧].

فلم يبق بيني وبينهم أي ائتلاف وارتباط، حيث كذبوني بجميع ما جئت به من عندك

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨٨، مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢/ ٥٦٦.

تكذيبًا شديدًا، وسفهوني تسفيهًا بليغًا، فلم يكتفوا عند هذا الحد، بل عمدوا إلى قتلي بأشد العذاب وأقبح العقاب، فقد هددوني بالرجم[(١)].

ونحو هذا قال في موضع آخر: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر:١٠].

أي: غلبني قومي تمردًا وعتوًّا، فلم يسمعوا مني، واستحكم اليأس منهم[(٢)].

ويلحظ من شكوى نوح عليه السلام ومناجاته لله عز وجل أن هذه الشكوى لم تكن بمجرد ملاقاة أول عقبة في طريق الدعوة، أو أول صد له عن دعوته، بل كما تم ذكره من أن الدعوة تمت مرارًا وتكرارًا حتى قاربت ألف سنة، وبعدها حصلت الشكوى عندما لم يعد هناك أمل في استجابة فردٍ واحد منهم، واستحكم اليأس منهم. كما أن هذا يدل على مدى صبر نوح عليه السلام على قومه، وشدة تحمل أذاهم واستكبارهم. فيجب على الداعية التأسي والاقتداء بنبي الله نوح عليه السلام.

ويلحظ من هذه الشكوى أنها تمهيدٌ من نوح عليه السلام وتوطئة منه؛ ليدعو على قومه بالهلاك، وإلهابًا إليه وتهييجًا، معرضًا عن تهديدهم له صبرًا واحتسابًا؛ لأن هذا من لوازم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[(٣)].

رابعًا: دعاء نوح على قومه:

لما أيس نوح عليه السلام من إقلاع قومه عن الكفر وأيس من إيمانهم دعا عليهم بالهلاك، وهذا الدعاء منه لم يكن إلا بعد أن وصل إلى مرحلة إيحاء الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، واستجاب للدعوة، فأذن الله تعالى له بالدعاء عليهم؛ لأن الأنبياء لا يدعون على أقوامهم بالهلاك إلا بإذن من الله عز وجل في ذلك. والدليل على ذلك أنه عاتب يونس عليه السلام لما خرج من ديار قومه بلا إذن من الله تعالى له، فإذا عوتب يونس عليه السلام بالخروج بلا إذن، فلا يحتمل أن يدعو عليهم بالهلاك إلا بإذن أيضًا[(٤)].

وكأن نوحًا عليه السلام يقول: يا رب لا أدعوك عليهم لأنهم آذوني وشتموني وحاولوا رجمي وقتلي، وإنما أدعوك لأجلك، ولأجل دينك، ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك[(٥)]. وذكر بعض العلماء أن نوحًا عليه السلام دعا عليهم حين أخرج الله تعالى كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم، وأعقم أصلاب الرجال وأرحام

---

(١) انظر: الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، نعمة الله بن محمود النخجواني، ٢/ ٤٧.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٩/ ٩١.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٤/ ٦٦.
(٤) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/ ٧٢.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/ ٥٢١.

النساء قبل العذاب بسبعين سنة؛ لذلك دعاهم نوح عليه السلام إلى استغفار ربهم؛ حتى ينزل عليهم المطر وكانت الأرض قد جدبت ويرزقهم بالبنين؛ لأنه أعقمهم.

ونعود إلى دعوته عليه السلام على قومه، فقال في دعائه: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٨﴾ [الشعراء:١١٨].

أي: احكم يارب بيننا بما يستحقه كل طرف منا، وافتح بابًا من أبواب عدلك على مستحقيه بأن تنزل العقوبة بهم، وافتح بابًا من أبواب فضلك ورحمتك يكون فيه الفرج والمخرج من الضيق لي وللمؤمنين معي، ونجنا مما تعذب به الكافرين[١].

كما قال أيضًا في دعائه: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر:١٠]، أي: إني مغلوبٌ من جهة قومي بتسليطهم علي، -وليست الغلبة بالحجة؛ لأن الحجة كانت له وليس لقومه- فانتقم منهم بعذابٍ تبعثه عليهم، وانتصر لي وللذين آمنوا بك معي[٢].

وفي موضع آخر قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

أي: يا رب، لا تدع منهم أحدًا يسكن الديار إلا أهلكته وأوقعت به العذاب، فإنك يا رب إن تتركهم على الأرض فإنهم يضلوا عبادك عن طريق الحق، ولا يلدوا إلا فاجرًا بترك طاعتك، وكفارًا لنعمتك.

ثم دعا عليهم مرة أخرى فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح:٢٨]، أي: لا تزد المتصفين بالظلم إلا هلاكًا وخسرانًا ودمارًا. وقد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة[٣].

خامسًا: عاقبة قوم نوح:

أوضح الله عز وجل أنه بعدما أوحى إلى نوح عليه السلام أنه لن يؤمن من قومه إلا القليل الذين استجابوا له، ولم تعد هناك فائدة من دعوة نوح عليه السلام قومه، فدعا عليهم، فاستجاب الله تعالى دعاءه، فنصره على قومه الذين كذبوا بحجج الله تعالى وأدلته، فأنجاه منهم، وأغرقهم أجمعين. وسجلت الآيات التي تتحدث عن هلاك قوم نوح أن تعذيبهم بالطوفان كان للأسباب الآتية:

السبب الأول: ما كان عليه قوم نوح من إساءة العمل، ومعصية الله جل جلاله، وفسقهم المتمثل في مخالفة أمره تعالى، والخروج عن طاعته[٤]، فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٤/ ٦٦، مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢/ ١٥٤.
(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٥/ ٥٢٥.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٢٦١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٤٧٤.

﴾٧٧﴿ [الأنبياء:٧٧].

السبب الثاني: ما اتصف به قوم نوح من الظلم ومجاوزة الحد، فذكر الله تعالى عنهم أنه عاقبهم وأخذهم بالطوفان عقب المدة الدعوية التي كانت ألف سنة إلا خمسين عامًا. وهذا الطوفان قد أحاط بهم من كل جانب، وحالهم أنهم كانوا مستمرين على الظلم، فلم ينجع فيهم وعظ نبيهم نوح عليه السلام [(١)]، فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت:١٤].

السبب الثالث: ما كان عليه قوم نوح من خطايا عديدة وكثيرة، وأخطرها شركهم بالله جل جلاله، حيث اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله تعالى، فهل هي قادرة اليوم -يوم الطوفان- أن تنصرهم من عذاب الله عز وجل ؟![(٢)]، فقال فيهم: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح:٢٥].

فعذاب الطوفان هذا كان في الدنيا، وقد رأوه بأم أعينهم، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم هذا العذاب الواقع بهم. أما العذاب الأشد إيلامًا فهو الذي قد أعده الله عز وجل وجهزه لهم في الآخرة، فإنه ينتظرهم لا محالة[(٣)]، فقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [الفرقان:٣٧].

وبهذا الهلاك والاستئصال للكافرين يسدل الستار على قصة قوم نوح المكذبين، فلم يبق الله تعالى منهم أحدًا على وجه الأرض.

سادسًا: حكمة تذكير الرسل أقوامهم بعاقبة قوم نوح:

إن الله عز وجل قد جعل هلاك قوم نوح آيةً لجميع الناس، وقد ذكر ذلك في كتابه العزيز فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [الفرقان:٣٧].

وكلمة (الناس) عامة تشمل المؤمن والكافر، فجعل الله تعالى إهلاك قوم نوح،واستئصالهم بالغرق آية وعبرة للمكذبين من الأقوام التي أتت بعدهم إلى يوم الدين، وكذلك جعل نجاة المؤمنين،وخلاصهم من الطوفان آية وعبرة للمؤمنين من الأقوام التي أتت بعدهم إلى يوم الدين. فجعل الآية والعبرة لما يؤول إليه عاقبة أمر كل مكذب ومصدق، فعاقبة المكذبين الهلاك، وعاقبة المؤمنين

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢٢٧.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٩/ ٤١.
(٣) انظر: اللباب في تفسير الكتاب، ابن عادل الحنبلي، ١٤/ ٥٣٢.

الصادقين النجاة[1].

فها هم الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى بعد نوح عليه السلام يذكرون أقوامهم الذين بعثوا فيهم وأرسلوا إليهم، بالاتعاظ والاعتبار من قوم نوح، فأولهم كان هودًا عليه السلام، فعندما عرض دعوته ونبوته على قومه رفضوا وكذبوا، فقال لهم: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف:٦٩].

والمعنى: كيف تعجبون من أمرٍ ليس فيه داعٍ للتعجب، وهو أن الله تعالى أرسل إليكم رجلًا منكم تعرفون صدقه وأمانته، يذكركم بما فيه مصلحة لكم، ويحثكم على ما فيه نفعكم، فتعجبتم منه؟! ثم عدد عليهم نعم الله عز وجل حيث مكن لهم في الأرض، وجعلهم يخلفون قوم نوح الذين كذبوا رسولهم، ثم ذكرهم بالنعمة التي خصها الله تعالى فيهم من قوة الأجساد، وشدة البطش، فهو يذكرهم بنعم الله الواسعة عليهم؛ لعلهم يؤدون حق الله جل جلاله فيها بالشكر، فيفوزوا بما وعدهم الله تعالى به، وينجون من عذاب الله تعالى[2].

وها هو شعيب عليه السلام، عندما عرض دعوته على قومه كذبوه، فقال لهم مذكرًا إياهم بما حل بالأقوام السابقة التي كذبت أنبياء الله ورسله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود:٨٩].

والمعنى: يا قوم -وناداهم بهذا اللفظ المشعر بحرصه عليه السلام على هداية قومه ونجاتهم من عذاب الله تعالى- لا تحملنكم معاداتكم للحق ومعاندتكم لي على استمراركم في العصيان، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق، وما أصاب قوم هود من ريح صرصر عاتية، وما أصاب قوم صالح من صيحة تبعتها رجفة، وما أصاب قوم لوط من جعل عالي القرية سافلها وإمطارهم بحجارة من سجيل[3].

وها هو موسى عليه السلام، يذكر قومه بني إسرائيل بما أنعم الله تعالى عليهم من نعمة الإنجاء من آل فرعون، لما كانوا يولونهم سوء العذاب، ويكلفونهم مشاق الأعمال، ويذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، وفي هذا امتحان وبلاء عظيم اختبرهم الله به؛ ليعظم شكرهم، ثم بين لهم موسى عليه السلام أنه إذا شكروا الله تعالى

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٨/ ٢٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٩٤.

(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٧/ ٣٧٤٢.

على نعمائه فإنه سوف يزيدهم من النعم والعطايا، أما إن قابلوا هذه النعم بالكفر والعصيان فإن عذاب الله تعالى شديد، ثم ذكرهم موسى عليه السلام بمن سلف قبلهم من الأقوام الذين عذبهم الله عز وجل بسبب كفرهم وعصيانهم، فقال الله تعالى على لسانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم:٩].

أي: ألم يأتكم خبر الأقوام السابقة ماذا فعل الله عز وجل بهم حين عصوا أنبياءهم، قوم نوح، وعاد، وثمود، والذين من بعدهم أمم كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى؛ لكثرة أعدادهم واندراس آثارهم، فوضعوا أيديهم على أفواههم من باب التعجب والاستهزاء بأنبيائهم، أو لإسكات أنبيائهم، فيمنعون أنبياءهم من الكلام، أو ردوا نعم الأنبياء عليهم، وهي متمثلة في مواعظهم وشرائعهم التي أتوا بها من عند الله عز وجل، فكذبوها، ولم يمتثلوا لأمر أنبيائهم، ولم يكتفوا بهذا فحسب بل صرحوا بالكفر، وقالوا: إن الذي تدعوننا إليه من التوحيد والإيمان يجعل النفس لا تطمئن إليه أبدًا[1].

واستتباعًا لتذكير موسى عليه السلام لبني إسرائيل بعاقبة الأقوام السابقة يظهر موقف الرجل المؤمن الذي هو من آل فرعون، ولكنه كان يكتم إيمانه عن فرعون؛ خشية قتله.

فعندما عزم فرعون وملؤه على قتل موسى عليه السلام أنكر الرجل المؤمن عليهم ذلك قائلًا: كيف تقتلون رجلًا يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالآيات الواضحات، والمعجزات الظاهرات، فإن فرضنا كذبه فيما يدعي فإن إثم كذبه يعود عليه وحده لا عليكم، أما إن كان صادقًا فسوف يصيبكم بعض الذي يتوعدكم من العذاب. ثم ذكر لهم أنهم لهم الملك اليوم، وهم ظاهرون وعالون في الأرض، فمن سوف ينصرهم من عذاب الله وبطشه؟ فرد عليه فرعون بأن ما يشيره على قومه -من قتل موسى- هو الرأي السديد. حينئذٍ رد الرجل المؤمن بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر:٣٠-٣١].

أي: أخاف عليكم مثل اليوم الذي أنزل الله تعالى فيه العذاب على الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم، مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، والذين من بعدهم ممن كذبوا أنبياءهم، فعذبهم الله عز وجل بسبب كفرهم

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٣/ ٤٤-٤٧.

وعنادهم عن قبول الحق والاستجابة له[1].

وأخيرًا هذا نبينا خاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم، يذكر الكفار من قريش وغيرها بقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [التوبة:٧٠].

والمعنى: لقد أتاهم خبر الأقوام الماضية كيف أهلكهم الله عز وجل حين خالفوا أمره وعصوا رسله، أمثال قوم نوح، فقد أهلكهم بالطوفان، وعاد أهلكهم بالريح العقيم، وثمود أهلكهم بالرجفة، وقوم إبراهيم أهلكهم بسلب النعمة، وأهلك النمرود ببعوضة، وقوم شعيب بعذاب يوم الظلة، والمؤتفكات التي هي قرى قوم لوط أهلكها الله تعالى بالخسف.

وخص الله تعالى ذكر إهلاك هؤلاء الأقوام؛ لأن آثارهم باقية، وبلادهم الشام والعراق واليمن قريبة من بلادهم الحجازية، وكانوا يمرون عليها، ويعرفون أمرها، فإن هؤلاء الأقوام أتتها رسل الله عز وجل بالمعجزات الباهرات على صدقهم في دعوتهم، ولكنهم كذبوهم وخالفوا أمرهم، فاحذروا أيها الكفار أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فتعجل عليكم العقوبة كما عجلت عليهم، وليست هذه العقوبة إلا بسبب ظلمهم لأنفسهم[2].

وفي موضع آخر يسلي الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم -وهو أشرف الخلق- بالأنبياء والرسل السابقين الذين كذبهم أقوامهم ورفضوا الاستجابة لدعوتهم، فيقول جل جلاله: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٢-٤٦].

والمعنى: لا تحزن يا أكرم الرسل على تكذيب قومك لك، فلست وحدك الذي كذبه قومه، فإن الأمم السابقة جميعهم قد كذبوا أنبياءهم ورسلهم، فكذب نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى -عليهم السلام أجمعين- فأمهلت هؤلاء الأقوام حتى أخذتهم بعذاب الاستئصال،

(١) انظر: أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ١/ ٥٧٤.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣٨٢.

فانظر يا سيد الرسل، كيف غيرت حياتهم من العمار إلى الخراب! والآن أغفل أهل مكة فلم يسافروا في تجاراتهم فتكون لهم قلوب يعقلون بها ويعتبرون بها سنة الله تعالى في الكون فيوحدوه؟! أو تكون لهم آذان يسمعون بها أخبار النبي محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ثم أكد الله تعالى على أن الأبصار لا تعمى، فليس الخلل في حواسهم، بل هو في عقولهم عندما اتبعوا أهواءهم، وانهمكوا في غفلتهم، واعتمدوا في ذلك على تقليدهم الأعمى لدين آبائهم وأجدادهم، وهي الأصنام والأوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله عز وجل [(١)].

نوح عليه السلام وابنه وزوجته

أولًا: نوح عليه السلام وابنه:

عندما أمر الله تعالى نوحًا عليه السلام بصناعة السفينة؛ لينجيه والذين آمنوا معه من العقاب الذي سوف يحل على المشركين من قومه، نفذ نوح عليه السلام أمر ربه عز وجل، وعندما انتهى من صناع أمره الله تعالى أن يحمل فيها ذكرًا وأنثى من كل نوع من الحيوانات والطيور، وكذلك يحمل فيها أهله المؤمنين معه، حينئذٍ نادى نوح عليه السلام ابنه وكان كافرًا؛ ليركب معه في السفينة، فلن ينجو اليوم أحدٌ من عذاب الله عز وجل إلا من هو داخل السفينة، فحملته الشفقة على مناداة ابنه؛ للركوب معه.

قال جل جلاله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود:٤٢-٤٣].

وكان هذا النداء قبل حدوث الغرق، ولكن ابنه أجاب على هذا النداء الذي يحمل معنى الرحمة والشفقة وعاطفة الأبوة، أجاب بكل عنادٍ وتكبرٍ وصلف، فقال: سأحتمي وأتحصن بجبل يمنعني ارتفاعه من وصول الماء إلي. فرد عليه أبوه نوح عليه السلام

---

(١) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢/ ٧٥.

بأن هذا اليوم ليس كأي يوم عادي، بل هو يوم قد حق فيه العذاب، وهو واقع لا محالة، فليس هناك عاصم أو مانع من نفاذ أمر الله جل جلاله إلا من قدر الله تعالى له الهداية من قبل فكان من المؤمنين، وفي أثناء هذا الحوار بين الأب وابنه بدأ الماء بالارتفاع حتى حال الموج بينهما، فتعذر على نوح عليه السلام إقناعه بالركوب معه؛ ليخلص وينجو من الغرق، فكان ابنه من ضمن من أصابه الطوفان فغرق(١).

ويلاحظ من هذا أن ابن نوح كان عنده عجبٌ وغرور كبير بنفسه، والعجب كما عرفه الجرجاني بقوله: «هو عبارة عن تصور استحقاق الشخص رتبةً لا يكون مستحقًا لها»(٢)، كما عرفه الإمام الغزالي فقال: «هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم»(٣).

فقد اغتر بنفسه، وأنه ابن نبي الله تعالى، ولكن هذا النسب لم ينفعه؛ لأنه خلا من الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح، وفي المجتمع أناسٌ كثيرون يزعمون أنهم أفضل من العلماء والفقهاء، وهم جاهلون بكتاب ربهم جل وعلا.

وبعد انتهاء هذا الحدث الجسيم دفعت عاطفة الأبوة نبي الله نوحًا عليه السلام أن يسأل الله تعالى عن مصير ابنه الذي غرق، قال عز وجل: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود:٤٥].

أي: يا رب إن ابني هذا من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم عندما أمرتني بحملهم في السفينة، وذلك عندما قال الله عز وجل: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠].

فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود:٤٦].

أي: يا نوح، إنه ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم في السفينة؛ لإنجائهم، والسبب في ذلك أنه كان يعمل أعمالًا غير صالحة، فقد التزم الفساد منهجًا في حياته، وتنكب عن طريق الهداية والصلاح.

ثم نهاه الله تعالى عن سؤال ما ليس له به علم صحيح، فيكون من زمرة الجاهلين، فيسألون الله تعالى إبطال حكمته وتقديره في خلقه إجابةً لشهواتهم وأهوائهم.

وبعد هذا النهي الصريح طلب نوح عليه السلام المغفرة من ربه فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود:٤٧].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٥٦٧.
(٢) التعريفات، ص١٤٧.
(٣) إحياء علوم الدين، ٣/ ٣٧١.

أي: يا رب، إني ألجأ إليك وأحتمي بك من أن أسألك في المستقبل سؤالًا ليس لي به علم، وإن لم تغفر لي ذنب هذا السؤال الذي كان من باب شفقتي على ابني ومن باب طمعي في رحمتك أكن من الخاسرين فيما كان مني من محاولة إنجاء أبنائي كلهم[1].

ويلاحظ من هذا أن نوحًا عليه السلام اجتهد فأخطأ؛ لذلك لم يقره الله تعالى على خطئه، بل عاتبه وأرشده إلى الاستغفار. وقد يستعظم البعض نسبة الخطأ إلى الأنبياء، متوهمين أن الخطأ هو الإثم، أو الانحراف الذي يتنافى مع عصمة الأنبياء الثابتة لهم، فليس المقصود بالخطأ هذا المعنى، بل المقصود به هو عدم مطابقة اجتهاد النبي لما هو الكمال الثابت في علم الله جل جلاله[2].

ثانيًا: نوح عليه السلام وزوجته:

تحدث القرآن الكريم عن امرأة نوح عليه السلام في سياق الذم والإنكار لما بدر منها، فقال الله عز وجل: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم:١٠].

وحقيقة الخيانة هي: «عمل من اؤتمن على شيء بضد ما اؤتمن لأجله بدون علم صاحب الأمانة»[3].

وتفسير الآية ومعناها: أن الله عز وجل ضرب مثلًا للذين كفروا في مخالطتهم للمسلمين ومعاشرتهم، فإن هذه المخالطة والمعاشرة لا تجدي عن الكافرين شيئًا، ولن تنفعهم عند الله عز وجل إن لم تكن قلوبهم مليئة بالإيمان بالله جل جلاله، وذكر مثلًا على ذلك هما امرأتا نوح ولوط عليهما السلام فكانتا زوجتين لنبيين، يصاحبانهما في الليل والنهار، ويؤاكلانهما، ويعاشرانهما أشد المعاشرة والاختلاط، ولكنهما خانتا زوجيهما في الإيمان، حيث لم تؤمنا بنبوة ورسالة زوجيهما.

فهذه العشرة والصحبة للنبيين لم تجد عنهما شيئًا، ولم تدفع عنهما محذورًا؛ لأنهما كافرتان؛ لذلك قيل لهما: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾. فلا يراد بالخيانة: الخيانة الزوجية، فإن نساء الأنبياء جميعًا -وإن كن كافرات- معصومات عن الوقوع في الفاحشة؛ لحرمة أزواجهن الأنبياء[4].

وذكر الرازي أن خيانة امرأة نوح ولوط -عليهما السلام- كانت في نفاقهما

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٢/ ٤٠.
(٢) انظر: فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص ١٦٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٤/ ١١٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٧١.

وإخفائهما الكفر، وكانتا تعينان قوميهما على زوجيهما الرسولين، فامرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون. وامرأة لوط كانت تدل قومها على ضيوف زوجها؛ لفعل الفاحشة بهم[1].

وأخيرًا يظهر من هذا المبحث أن عذاب الله عز وجل وعقابه لا يمكن أن يدفع بالوسيلة، لا بشفقة الأب على ابنه، ولا بكون المرأة زوجة لنبي، بل يدفع بطاعة الله جل جلاله وحده.

نوح عليه السلام والسفينة

إن دعوة نوح عليه السلام معرضةٌ الآن للخطر والتهديد من قومه؛ فلهذا السبب أوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن واستجاب. فلجأ نوح عليه السلام متضرعًا إلى الله عز وجل شاكيًا إياه ما أصاب دعوته، مناجيًا إياه أن ينصر دعوة الحق، ويهلك الظالمين، فاستجاب الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام، وأمره بصناعة الفلك قائلًا: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٧].

أي: أوحى الله تعالى إليه صناعة السفينة، والله تعالى حافظٌ له؛ لئلا يفسدها عليه قومه. وأثناء صناعته لها كان نوح عليه السلام يلاقي من قومه السخرية والاستهزاء، فلم يبال بصنيعهم هذا ولم يكترث له، بل ذكر لهم أنهم سوف يعلمون من الأولى بهذه السخرية عندما يحل عليهم عذاب الله عز وجل بالطوفان فيهلكوا ويغرقوا جميعًا. وبهذا يعد نوح عليه السلام أول من صنع السفينة؛ لذلك سخر منه قومه، ولو كان

(١) انظر: مفاتيح الغيب، ٣٠/ ٥٧٥.

يصنع شيئًا عاديًا معروفًا لما سخروا منه[1].

وأعطاه الله تعالى علامةً يعرف بها إرادة الله عز وجل عند وقوع العذاب على قومه، وهي فوران التنورالذي هو موضع الناربالماء. حينئذٍ أمره الله تعالى إذا رأى هذه العلامة أن يدخل في السفينة من كل حيوان موجود في عصره فردين مزدوجين، ذكرًا وأنثى؛ حتى لا ينقطع نسل ذلك الحيوان. كما أمره أن يدخل في السفينة من أهل بيته المؤمنين فقط، أما الكافرون منهم فمحكومٌ عليهم بالغرق والهلاك لا محالة، ويدخل كذلك الذين آمنوا معه وصدقوه من قومه[2].

وذكر الله تعالى أن سفينة نوح عليه السلام كانت مملوءةً بالمؤمنين، والحيوانات التي أمره الله تعالى بحملها معه[3]، فقال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ [الشعراء:١١٩].

وبعد أن تجهز نوح عليه السلام، واستعد لأمر الله تعالى عندها أمر الله عز وجل السماء أن تنزل المطر الكثير على غير العادة، والأرض أن تتفجر كلها حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه؛ لأنه موضع للنار وليس للماء، فالتقى ماء السماء مع ماء الأرض بأمر الله عز وجل بذلك، وكان قد كتب هذا الأمر منذ الأزل عقوبةً لهؤلاء الظالمين الطغاة[4]، فقال تعالى مصورًا هذا المعجزة: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر:١١-١٢].

أما نوح عليه السلام ومن معه فقد قال الله تعالى في نجاتهم: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر:١٣-١٤].

أي: حمله الله تعالى ومن معه على السفينة، ووصف الله تعالى طريقة صناعتها، فهي ذات ألواح خشبية، مثبتة بالدسر، وهي المسامير التي سمرت بها الألواح وشد بها أسرها، ولكن مهما أحكمت هذه الألواح بالمسامير، فإنه لا بد أن يظل بينها مسام، ويتسرب منها الماء، فيؤدي إلى الغرق، فكيف السبيل إلى تفادي ذلك خصوصًا في تلك العصور البدائية؟! فقالوا: لا بد لصانع الفلك أن يجفف الخشب جيدًا قبل تصنيعه، فإذا ما نزل الخشب الماء يتشرب منه، فيزيد حجمه ويسد هذه المسام تمامًا، هذا بالإضافة إلى ربطها بالحبال وضم بعضها إلى بعض.

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٣/ ٧٨٤٨.

(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٧/ ٤٦٥، مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢/ ٨٧.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ٤/ ٩٥.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٢٥.

فمن علم نوحًا هذه الأمور الدقيقة؟ إنه الله جل جلاله، لم يترك نبيه يفعل ما يشاء في صناعتها، إنما تابعه ولاحظه، ووجهه إلى كيفية صناعتها، وحدد له المواد المستخدمة فيها[1].

وخلاصة القول: إن الله تعالى نجى نبيه نوحًا عليه السلام والمؤمنين معه بهذه السفينة التي صنعها بحفظ الله ورعايته، وكانت أيضًا تجري بأمره، وترسو كذلك بأمره، فلم يخافوا الغرق مع ما كان من أمواج هائلة، جزاءً من الله تعالى لنوح عليه السلام؛ لأنه هو المكفور به[2].

وبعد هلاك الكافرين تمامًا أمر الله تعالى الأرض والسماء فقال لهما: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود:٤٤].

والمعنى: أمر الأرض أن تبلع الماء الذي عليها، وأمر السماء أن تقلع عن إنزال المطر، فنقص الماء حتى ذهبت زيادته عن الأرض، واستوت السفينة على جبل الجودي[3].

ثم خاطب الله تعالى نوحًا عليه السلام بقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون:٢٨].

أي: إذا استقر بك المقام وبمن معك من المؤمنين في السفينة فاحمد الله تعالى أنت وهم أن أنقذكم ونجاكم من هؤلاء الكافرين المشركين الظالمين[4].

ثم أمره الله تعالى أن ينزل من السفينة ويدعو الله عز وجل دعاءً مقرونًا بالثناء، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون:٢٩].

أي: أنزلني مكانًا تبارك لي فيه، وتعطيني الزيادة فيه لخير الدارين، وأنت يا رب خير من ينزل عباده الطائعين له المنازل الطيبة؛ لأنك تحفظه في سائر أحواله، وتدفع عنه المكاره حسب ما تقتضيه حكمتك العلية[5].

فنزل نوح عليه السلام بأمن وسلامة من الله تعالى وخيرات وبركات كثيرة عليه، فقال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود:٤٨].

ومن هذه الخيرات والبركات أن الله تعالى جعل ذريته هي الباقية إلى يوم القيامة، وهذه البركات أيضًا على ذرية أمم ممن كانوا معه في السفينة. أما الأمم الكافرة، فسوف

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٦/ ٩٩٩٦.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٦/ ١٣٣، أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ١/ ٦٥٣.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٤٧٤.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٨/ ٣٥.
(٥) انظر: المصدر السابق ١٨/ ٣٦.

يمتعها الله تعالى في الدنيا، ثم يجازيهم العذاب الأليم في الآخرة(١).

والحكمة من ذكر السفينة أن الله تعالى جعلها علامةً على قدرته ووحدانيته، فهو الأحق والأجدر بالعبودية، فقال جل جلاله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت:١٥].

أي: جعلها عبرة عظيمة لمن يعتبر. وفي كونها آية وجهان:

الأول: أنها باقية على جبل الجودي مدة طويلة.

الثاني: أن الله تعالى سلمها من الرياح المزعجة.

فالضمير في (وجعلناها) إما راجع إلى السفينة، أو إلى الواقعة أو الحادثة التي اشتملت على نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين بالغرق(٢). وقال الماتريدي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢].

«هذا يدل على أنها كانت آية؛ لأن الأمواج تمنع من جريان السفينة وسيرها، فإذا أخبر أنها لم تمنع هذه من جريانها دل أنه أراد أن تصير آية لهم»(٣).

وأخيرًا فإن الله تعالى يذكر الكافرين في عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم بطغيان الماء وتجاوزه حده في زمن نوح عليه السلام حتى علا كل شيء وارتفع فوقه، فنجاهم وحملهم في السفينة؛ ليجعل هذه الحادثة عظةً للناس وعبرةً تدل على انتقام الله تعالى ممن كذب رسله، فتحفظها أذن واعية للمواعظ(٤)، فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة:١١].

وإذا سأل سائلٌ: كيف يمتن الله عز وجل على كفار مكة بحملهم في سفينة نوح عليه السلام ؟ والجواب: أنه في نجاة الذين كانوا في السفينة من المحمولين نجاة لذريتهم. فكأن الله تعالى حمل المخاطبين من قريش بحمل أولئك الناجين من هلاك الطوفان(٥).

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ١٨١.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢٢٧.
(٣) تأويلات أهل السنة، ٦/ ١٣٣.
(٤) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٤١٢.
(٥) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ١٧١.

نوح عليه السلام والنبوة في ذريته

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران:٣٣-٣٤].

وتم الحديث عن معنى الاصطفاء ومسوغاته، وعن معنى قوله: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: كان الأنبياء والمرسلون من سلالة نوح عليه السلام، وتتابع المختارون بعده[١].

وفي سياق الثناء على إبراهيم عليه السلام من إعطائه الحجة الدامغة القوية التي أعطاها الله تعالى إياه؛ ليلزم بها قومه ويقنعهم به، فرفع بها درجته، حيث أعطاه النبوة التي هي أعلى الدرجات، فقال عز وجل معددًا نعمه على إبراهيم عليه السلام، حيث جعله أشرف الناس، و الأنبياء والرسل من ذريته، وأبقى له هذه الكرامة إلى يوم القيامة، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام:٨٣-٨٤].

فقد وهب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام إسحاق، وجعله نبيًا، وجعل يعقوب عليه السلام من ذرية إسحاق عليه السلام. وقوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾، أي: هدينا جد إبراهيم عليه السلام، وهو نوح عليه السلام، إلى مثل ما هدينا به إبراهيم عليه السلام وذريته، فقد آتاه الله تعالى النبوة والحكمة وهداية الخلق إلى الطريق المستقيم، وإذا كان الله تعالى قد امتن على إبراهيم عليه السلام بجعل النبوة في ذريته فقد امتن عليه من قبل إذ أخرجه من أصلاب آباء طاهرين كنوح عليه السلام وإدريس عليه السلام، فإبراهيم عليه السلام من ذرية نوح عليه السلام، فهو كريم الآباء شريف الأبناء[٢]. فإذا علم هذا فإن النبوة كلها قد جعلت في ذرية نوح عليه السلام.

ويزيد هذا المعنى قوةً ما ورد في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد:٢٦].

أي: جعل الله تعالى النبوة والكتب السماوية في أولاد كلٍّ من نوح عليه السلام،وإبراهيم عليه السلام. فهودٌ وصالحٌ وشعيبٌ وإبراهيم ولوط من ذرية نوح عليه السلام، وإسماعيل وإسحاق، وباقي الأنبياء

(١) انظر: التفسير المنهجي، فضل عباس، ٢/ ٤٤.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٧/ ١٨١.

من ذرية إبراهيم عليه السلام [1].

وإذا كان إبراهيم عليه السلام من ذرية نوح عليه السلام فإبراهيم وذريته كلها من ذرية نوح عليه السلام.

الدروس المستفادة من قصة نوح

إن قصة نوح عليه السلام من القصص القرآني الحق الذي قصه الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، حيث قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف:٣].

وهي تحمل الكثير من الهدايات والعبر والمواعظ، ومنها:

١. نوح عليه السلام هو شيخ المرسلين، فهو أول رسول شرع الله تعالى على لسانه الشرائع وأحكام الحلال والحرام.

٢. دلت قصة نوح عليه السلام على أنه اعتنى في دعوة قومه بثلاثة عناصر:

الأول: الاستناد والركون إلى قوة الله القوي العزيز.

الثاني: أمر قومه بعبادة الله تعالى وحده.

الثالث: أمر قومه بالإيمان باليوم الآخر عندما خوفهم عذاب الله تعالى.

٣. إن الكفار دائمًا يرون المؤمنين في ضلال، وأنهم هم الذين على الهدى والصلاح. فقد نسبوا نوحًا عليه السلام حين عرض دعوته عليهم إلى الضلال، وكذبوه، وتمردوا عليه وعلى دعوته، وأمعنوا في إيذائه، وأصروا على ما هم

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٥/٢٧٨.

عليه من شرك.

٤. إن الغاية من بعثة نوح عليه السلام -وكذلك الأنبياء عمومًا- هي تبليغ رسالة الله عز وجل إلى القوم؛ ليخرجوهم من ظلمات الشرك إلى نور الهداية.

٥. إن معاندة الكفار بما هم عليه من باطل لنبيهم الذي هو على الحق والاستمرار على الكفر موجبٌ للعذاب العاجل والعذاب الأليم الذي ينتظرهم في الآخرة.

٦. إن إعراض القوم عن قبول دعوة الحق غالبًا هو ما كان عليه كبراؤهم من الأشراف والسادة من الاستكبار والاستعلاء على الضعفاء والفقراء الذين يتبعون الحق، فليس هناك ما يحجزهم أو يمنعهم عن اتباعه، بخلاف الأشراف الذين يمنعهم جاههم وسلطانهم وفقدان مناصبهم.

٧. إن الحق دائمًا أمره ظاهر وواضح وجلي، بحيث لا يبقى لمن يعرفه مجالٌ للرأي والتفكير في قبوله. وهذا ما اتهم أشراف القوم به ضعفاءهم.

٨. إن الهداية أمرٌ بيد الله عز وجل، لا يملكه حتى الأنبياء، فلا يستطيع واحد منهم إلزام قومه وإكراههم على قبول دعوته.

٩. ليس لأحدٍ أن يحدد إذا ما كان أي شخص يستحق الأجر والثواب من الله تعالى أم لا، فليس الضعف أو الفقر في المؤمن ينقص من ثوابه، فالميزان الحقيقي الذي يوزن به الناس عند الله عز وجل هو ميزان الإيمان والكفر.

١٠. إن ما اتصف به قوم نوح من العمى والفسق والظلم وغيرها هي التي أدت بهم إلى رفض دعوة نوح عليه السلام مهما آتاهم من الأدلة والبراهين على صدق دعوته مما أدى بهم إلى إهلاكهم واستئصالهم.

١١. الجدال نوعان: أحدهما محمود، وهو أسلوبٌ استخدمه نوح عليه السلام في عرض دعوته؛ لتقرير الأدلة، وإزالة الشبهات التي يلصقها الكفار بنبوته وبدعوته. أما الثاني فمذموم، وهو ما استخدمه قومه؛ ليزينوا الباطل ويصير حقًّا.

١٢. إن كل إنسان محاسب على نفسه، فإن افترى في زعمه النبوة أو الرسالة-كما يزعم الأعداء دائمًا- فإثمه يعود عليه، وإن كان محقًّا وصادقًا فعليهم عقاب تكذيبهم.

١٣. كانت سفينة نوح عليه السلام أول سفينة على الأرض صنعها نوح عليه السلام بحفظ الله تعالى ورعايته.

١٤. السخرية خلقٌ مذموم، ومن آثاره ومضاره أنها نذير شؤم للساخرين؛ لذلك كان الغرق عاقبة قوم نوح الذين سخروا بنبيهم.

١٥. من رحمة الله عز وجل بخلقه نجاة نوح عليه السلام والمؤمنين معه، ومن فضله وكرمه أن حافظ على أصل الثروة الحيوانية عندما أمره أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين، ذكرًا وأنثى.

١٦. لا يعتبر سؤال نوح عليه السلام عن مصير ابنه الهالك بالغرق معصية لله تعالى، وإنما هو من باب الخطأ في الاجتهاد، فعاتبه الله تعالى عليه وأمره بالاستغفار.

١٧. تعد رابطة الدين أقوى من رابطة النسب، وأن أمر الهداية والصلاح ليس له علاقة بالتفاخر بالنسب، ولا محاباة عند الله تعالى في هذا الأمر لنبي أو ولي، وإنما يجزيهم حسب أعمالهم التي كانت في الدنيا، وليس بأنسابهم وتفاخرهم بآبائهم وأجدادهم، فقد نجى الله تعالى نوحًا عليه السلام وأهلك ابنه الكافر، وكذلك زوجته الكافرة.

١٨. في قصة نوح عليه السلام مع ابنه تسلية للآباء الصالحين في فساد أبنائهم.

١٩. كان اعتذار نوح عليه السلام يمثل توبة كاملة، تضمنت أركان التوبة الثلاثة، وهي:

الركن الأول: الندم على ما فات، وهذا في قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:٤٧].

الركن الثاني: الإقلاع عن الذنب، وهذا مفهومٌ من قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فقد ندم على سؤاله، وأقلع عن ذنبه؛ ولذلك طلب المغفرة والرحمة من الله عز وجل.

الركن الثالث: العزم على الترك، وهذا في قوله: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود:٤٧].

فنوح عليه السلام يستعيذ بالله تعالى أن يسأله مرة أخرى شيئًا في المستقبل.

٢٠. إن نعم الله تعالى من الأمن والسلامة والبركات والخيرات هي لكل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة. وفي المقابل فإن كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة ليس له إلا الانتفاع بمتاع الدنيا والتعذيب في الآخرة.

٢١. تعد قصة نوح عليه السلام مع قومه من الأخبار الغيبية التي غابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن الله تعالى أطلعه عليها، وهذا من الأدلة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم.

٢٢. لقد خاطب الله تعالى البشرية جمعاء

بأن تنضم تحت راية التوحيد والإيمان، وذكرهم أنهم من ذرية نوح عليه السلام، وقد كان عبدًا شكورًا لله تعالى على كل ما أنعم به عليه، فالأولى أن تقتدي به البشرية فتكون مثله، ولا تقتدي بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من الشرك والضلال.

٢٣. إن في قصة نوح عليه السلام مع قومه الهالكين وفي أمر السفينة أيضًا دلالات واضحة على كمال قدرة الله جل جلاله، وأنه لا يترك رسله وأنبياءه، بل ينصرهم على أعداء دعوتهم. كما أن الله تعالى يختبر الأقوام بإرسال الرسل إليهم؛ ليميز الطائع من العاصي.

٢٤. إن تعلم الصناعات مما رغب به الدين وحث عليه، وليست الحرفة عيبًا، إنما هي شرف وعزة لصاحبها يستغني بها عن ذل السؤال.

٢٥. شأن الظالمين الطغاة دائمًا اللجوء إلى التهديد بالقتل عند نفاذ ذخيرتهم من السب والشتم والاتهام بالباطل والجدال المذموم.

٢٦. رسالات الأنبياء في القواعد والأصول العامة للعقيدة والأخلاق واحدة، فهم متعاونون متناصرون فيما بينهم، وكل منهم يكمل رسالة الآخر في الدعوة إلى التوحيد.

٢٧. الله جل جلاله هو الصمد الذي يلجأ إليه عند الحاجة والضرورة، فلجأ إليه نوح عليه السلام واستجاب له.

٢٨. إن النعم التي أنعمها الله تعالى على نوح عليه السلام كانت؛ لأنه كان محسنًا، وعلة إحسانه أنه كان عبدًا لله تعالى مصدقًا به موحدًا إياه.

٢٩. لا عذر للناس في تكذيب الرسل والكفر بهم بعد أن أتوهم بالمعجزات الباهرات والأدلة الواضحات على صدقهم.

٣٠. إذا جاء الموت فلا يستطيع أحد تأخيره. فخوف نوح عليه السلام قومه؛ زجرًا لهم عن حب الدنيا، وترغيبًا لهم في توحيد الله تعالى والإيمان به.

٣١. استمر نوح عليه السلام في الدعوة إلى التوحيد ما يقرب من ألف سنة، لم يمل، ولم يكل، ولم يفتر عن الدعوة ليلًا ونهارًا، سرًا وجهرًا. كل هذا امتثالًا لأمر الله تعالى بالتبليغ بكل ما يملك من جهد وطاقة.

٣٢. سلك نوح عليه السلام في دعوة قومه ثلاث مراتب، حيث بدأ بمناصحتهم سرًّا، ثم ثنى بالمجاهرة للجميع، ثم جمع بين الإسرار والإعلان، فهذه سياسة ناجحة استنفذ فيها نوح عليه السلام كل طاقاته، وهي تؤتي أكلها

إذا ما تم التفاعل والتجاوب مع هذه الدعوة من قبل المدعوين.

٣٣. إن الله تعالى وعد من يستغفره بخمسة أشياء: إنزال المطر، والإمداد بالأموال، وكذلك بالبنين، وجعل الجنات والحدائق، وكذلك الأنهار.

٣٤. لا تجوز الشكوى إلا لله تعالى وحده؛ لذلك شكا نوح عليه السلام قومه إلى الله تعالى عندما يئس من إيمانهم.

٣٥. دعا نوح عليه السلام لنفسه، ولوالديه، ولجميع المؤمنين والمؤمنات إلى يوم القيامة.

٣٦. ينبغي الاستعانة بالله عز وجل، وذكر اسمه عند الركوب والنزول، وفي جميع الحركات والتقلبات، والإكثار من حمد الله تعالى على نعمه، وخاصة عند نعمة النجاة من الكرب.

٣٧. وجوب الصبر على أداء التكاليف، والصبر على أذى السفهاء والجهلاء، والصبر في مواجهة الأعداء، والصبر على صعاب الحياة كافة.

٣٨. الشجاعة في إبداء الرأي، والغيرة على الحق، وأن الداعية يجب أن يكون ماضيًا في دعوته، لا يثنيه عنها وعيدٌ أو تهديد.

موضوعات ذات صلة:

آدم عليه السلام، إبراهيم عليه السلام، الدعوة، عيسى عليه السلام، محمد صلى الله عليه وسلم، موسى عليه السلام، النبوة

النُّور

عناصر الموضوع

مفهوم النور	٦٢
النور في الاستعمال القراني	٦٣
الالفاظ ذات الصلة	٦٥
اقتران النور بالظلمات	٦٧
النور من صفات الله تعالى	٦٨
انواع النور	٧١
نور الحق بين دعاته واعدائه	٧٥
النور يوم القيامة	٧٧
النور في المثل القراني	٨١

مفهوم النور

أولًا: المعنى اللغوي:

النورلغة: الضياء، والجمع أنوارٌ. و(أنار) الشيء و(استنار) بمعنى، أي: أضاء. و(التنوير) الإنارة. وهو أيضًا الإسفار. وهو أيضًا إزهار الشجرة. يقال: (نورت) الشجرة (تنويرًا) و(أنارت) أي أخرجت (نورها)[1].

والنور، بالضم: الضوء أيًا كان، أو شعاعه، جمعه: أنوارٌ ونيرانٌ[2].

والنون والواو والراء (نور) أصلٌ صحيح يدل على إضاءة واضطراب وقلة ثبات. ومنه النور والنار، سُمّيا بذلك من طريقة الإضاءة، ولأن ذلك يكون مضطربًا سريع الحركة. وتنورت النار: تبصرتها.

ومنه النور: نور الشجر ونواره. وأنارت الشجرة: أخرجت النور. والمنارة: مفعلةٌ من الاستنارة، والأصل منورةٌ. ومنه منار الأرض: حدودها وأعلامها، سميت لبيانها وظهورها[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة؛ وهو ما انتشر من الأمور الإلهية: كنور العقل، ونور القرآن. ومحسوس بعين البصر؛ وهو ما انتشر من الأجسام النيرة: كالقمرين، والنجوم، والنيرات[4].

والنور: كيفية تدركها الباصرة أولًا، وبواسطتها سائر المبصرات[5].

والنور: هو الجوهر المضيء، والنار كذلك، غير أن ضوء النار مكدر مغمور بدخان محذور عنه، بسبب ما يصحبه من فرط الحرارة والإحراق، وإذا صارت مهذبة مصفاة كانت محض نور، ومتى نكصت عادت الحالة الأولى جذوة، ولا تزال تتزايد حتى ينطفئ نورها، ويبقى الدخان الصرف[6].

---

(١) مختار الصحاح، الرازي ص ٦٨٤.
(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٦٢٨.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/٣٦٨.
(٤) المفردات، الأصفهاني ص ٥٢٧.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص ٣١٦.
(٦) الكليات، الكفوي ص ٩٠٨.

النور في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نور) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت (١٩٤) مرة، منها (٤٩) مرة تخص موضوع البحث[1].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	٤٣	﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [المائدة:١٥]
اسم الفاعل	٣	﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [الحج:٨]

وجاء النور في الاستعمال القرآني على سبعة أوجه[2]:

الأول: الإسلام والإيمان: ومنه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف:٨]. أي: الإسلام، وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]. أي: إيمانًا.

الثاني: الهدى: ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]. أي: هادي من في السماوات والأرض.

الثالث: النبي صلى الله عليه وسلم: ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [المائدة:١٥]. أي: محمد صلى الله عليه وسلم.

الرابع: ضوء النهار: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]. أي: ضوء النهار.

الخامس: ضوء القمر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ [الفرقان:٦١]. أي: مضيئًا لأهل الأرض.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٢٣-٧٢٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٤٥، ٤٤٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٥٩٩، ٦٠١، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص ٤٨٦، ٤٨٨، الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ١٣١-١٣٣.

السادس: ضوء المؤمنين على الصراط: ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد:١٢]**. أي: الضوء الذي يعطي الله المؤمنين على الصراط يوم القيامة.**

السابع: القرآن: ومنه قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨]**، أي: القرآن.**

الألفاظ ذات الصلة

١ الضياء:

الضياء لغة:

أصلها ضوء، قلبت الواو إلى ياء لمناسبة الكسرة قبلها[١]، والضوء هو الإنارة الناجمة عن مصدر ذاتي الإشعاع[٢].

الضياء اصطلاحًا:

هو الإشعاع الشمسي الذي يؤثر في العين فيمكن المبصر من الرؤية[٣].

وقال الراغب: «الضوء: ما انتشر من الأجسام النيرة»[٤].

الصلة بين النور والضياء:

النور والضياء مترادفان لغة.

وقد يفرق بينهما؛ بأن الضوء: ما كان من ذات الشيء المضيء، والنور: ما كان مستفادًا من غيره. وعليه جرى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: ٥].

٢ السنا:

السنا لغة:

الضوء الساطع، والسناء: الرفعة، والسانية التي يسقى بها، سميت لرفعتها[٥].

السنا اصطلاحًا:

ضوء البرق الذي في السحاب.

الصلة بين النور والسنا:

يتفق النور والسنا من حيث شدة ضياء البرق وصفائه ونور لمعانه، إضافة إلى العلو والمجد والشرف والحسب والارتفاع في السناء، والأصل في السنا الإلماع، وهو أصل في النور أيضًا.

---

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ١٠٧٨.

(٢) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي التهانوي ٢/ ١١٠٩.

(٣) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٢/ ١٣٧٣، الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبد الله الجربوع ٢/ ٧٤٧.

(٤) المفردات، ص٥١٤.

(٥) المفردات، الأصفهاني ص ٢٦٢، الكليات، الكفوي ص ٥١٥.

٣ المشكاة:

المشكاة لغة:

كل كوة ليست بنافذة، وهي أجمع للضوء، والمصباح فيها أكثر إنارةً في غيرها. وقال مجاهد: المشكاة: العمود الذي يكون المصباح على رأسه[١].

المشكاة اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النور والمشكاة:

الصلة بين المشكاة والنور واضحة فالمشكاة هي مكان الضوء وحابسته حتى يظهر، والصلة بينهما صلة مجاورة.

٤ السراج:

السراج لغة:

(سرج): أصل صحيح يدل على الحسن والزينة والجمال. ومن ذلك السراج؛ سمي لضيائه وحسنه. والجمع: سُرُجٌ. والمسرجة: التي فيها الفتيل. وأسرج السراج: أوقده. وجبين سارج، أي: واضح كالسراج. ويقال: سرج وجهه، أي: حسنه، كأنه جعله له كالسراج[٢].

السراج اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النور والسراج:

السراج مصدر من مصادر النور، ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

فالشمس ينتج عن نورها إضاءة كالسراج.

---

(١) تاج العروس، الزبيدي ٣٨/ ٣٩١، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٢٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ١٠/ ٥٠٩.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٥٦، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ١٦٣.

اقتران النور بالظلمات

من خلال تتبع الاقتران والمقابلة بين لفظي (النور) و(الظلمات) في آيات عدة من القرآن الكريم، نلحظ الأمور الآتية:

أولًا: تكرر تقابل لفظ النور بالظلمات في أحد عشر موضعًا مختلفًا في القرآن الكريم.

ثانيًا: كل ما ورد في القرآن من أمر الظلمات والنور فالمراد به الكفر مقابل الإيمان، إلا التي في أول سورة (الأنعام) في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

فإن المراد هناك ظلمة الليل ونور النهار(١).

ثالثًا: التآم سياق سائر الآيات الإحدى عشرة على إفراد النور وجمع الظلمات، لتعدد فنون الباطل، واتحاد الحق، فطرق الضلال والكفر المقصودة من الظلمات كثيرة ومتشعبة؛ فهناك ظلمة الجهل، وظلمة العناد، وظلمة التقليد في الباطل، وظلمة الشرك والكفر، كما أن الظلمة متنوعة بتنوع أسبابها؛ فهناك ظلمة الليل، وظلمة المحابس، وظلمة القبور، وظلمة الغمام، وهي تتغير حقائقها بتغير أسبابها. كما أن الظلمات من أجرام متكاثفة، ولها أسباب كثيرة، أما النور فمن جنس متحد.

ثم ثمة إشارة إلى أمر معنوي، وهي أن ظلمة الإدراك تتعدد حقائقها، فهناك ظلمة الانحراف، وظلمة الأهواء والشهوات، وظلمة طمس القلوب، أما النور فواحد، وهو الحق لا يتعدد، ومن نتائجه الكشف والظهور، وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فطريق الحق واضحة المعالم لا لبس فيها، ولا تشعب في مسالكها، أما طريق الضلال فهي متعددة متشعبة ملتبسة على من يسلكها(٢).

رابعًا: تقديم الظلمات على النور. لأنها المخلوقة أولًا.

خامسًا: في جمع الظلمات وإفراد النور لونان من ألوان المحسنات المعنوية في علم البديع من فن البلاغة:

١. الطباق.

وهو الجمع بين الشيء وضده في الكلام، وهو نوعان: طباق الإيجاب، وهو ما لم يختلف فيه الضدان سلبًا أو إيجابًا،

(١) الكليات، الكفوي ص ٥٨٨.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٥٦، صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ١٤٨، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٤٣١، وإعراب القرآن وبيانه، درويش ٣/ ٦٢.

وطباق السلب، وهو ما اختلف فيه الضدان إيجابًا وسلبًا.

٢. استعارة تصريحية.

والاستعارة من المجاز اللغوي، وهي تشبيهٌ حذف أحد طرفيه، فعلاقتها المشابهة دائمًا، وهي قسمان: تصريحية ومكنية، والتصريحية: هي ما صرح فيها بلفظ المشبه به، كما في مثالنا هنا، حيث استعار الظلمات، ولا يقصد به إلا الضلال، واستعار النور، ولا يقصد به إلا الهدى والإيمان(١).

(١) البلاغة الواضحة، الجارم وأمين ص ٣٢٧.

النور من صفات الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: مدبر أمرهما بحكمةٍ بالغةٍ وحجّةٍ نيرة. ثم مَثَّل مَثَل نوره ذلك في القلوب بأبين النور الذي لم يدرك بالأبصار فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

فنوره يجوز أن يكون ما ذكرنا من تدبيره، وجائز أن يكون كتابه الذي بيَّنَ به فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وجائز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم هو النور الذي قال ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾، لأن النبي صلى الله عليه وسلم هو المرشد والمبين والناقل عن الله ما هو نيرٌ، بينٌ(٢).

قال ابن عطية في ثنايا تفسير هذه الآية ما نصُّهُ: (النور) في كلام العرب الأضواء المدركة بالبصر(٣).

(٢) تهذيب معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٥.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١٠/ ٥٠٤.

وقال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

قال الإمام الفخر الرازي في ثنايا تفسير هذه الآية ما نصه: قالت المجسمة: إن الله تعالى نورٌ محضٌ، فإذا حضر الله في تلك الأرض لأجل القضاء بين عباده أشرقت تلك الأرض بنور الله، وأكدوا هذا بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

واعلم أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول: أنا بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أنه لا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى نورًا، بمعنى كونه من جنس هذه الأنوار المشاهدة، وبينا أنه لما تعذر حمل الكلام على الحقيقة، وجب حمل لفظ النور ههنا على العدل، فنحتاج ههنا إلى بيان أن لفظ النور قد يستعمل في هذا المعنى، ثم إلى بيان أن المراد من لفظ النور ههنا ليس إلا هذا المعنى، أما بيان الاستعمال فهو أن الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك، كما يقولون: أظلمت البلاد بجورك، وقال صلى الله عليه وسلم: (الظلم ظلمات يوم القيامة)[1].

وأما بيان أن المراد من النور ههنا العدل فقط أنه قال: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

ومعلوم أن المجيء بالشهداء ليس إلا لإظهار العدل، وأيضًا قال في آخر الآية: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، فدل هذا على أن المراد من ذلك النور إزالة ذلك الظلم، فكأنه تعالى فتح هذه الآية بإثبات العدل، وختمها بنفي الظلم.

والوجه الثاني: في الجواب عن الشبهة المذكورة أن قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

يدل على أنه يحصل هناك نور مضاف إلى الله تعالى، ولا يلزم كون ذلك صفة ذات الله تعالى؛ لأنه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب، فلما كان ذلك النور من خلق الله، وشَرَّفَهُ، بأن أضافه إلى نفسه، كان ذلك النور نور الله، كقوله: بيت الله، وناقة الله، وهذا الجواب أقوى من الأول، لأن في هذا الجواب لا يحتاج إلى ترك الحقيقة، والذهاب إلى المجاز.

والوجه الثالث: أنه قد يقال: فلان رب هذه الأرض، ورب هذه الدار، ورب هذه الجارية، ولا يبعد أن يكون رب هذه الأرض

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٨.

ملكًا من الملوك، وعلى هذا التقدير فلا يمتنع كونه نورًا[1].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وقال عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

علق الشيخ رشيد رضا في تفسيره المنار على لفظ (النور) ما نصه: ما ورد في (النور) من نصوص الكتاب والسنة فقد سمى الله تعالى نفسه نورًا، وورد النور في أسمائه الحسنى المأثورة، وأسند النور إلى اسم الذات في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

وأسنده رسوله صلى الله عليه وسلم إلى وجهه تعالى بقوله: (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات)[2]، ومثله في آثار أخرى.

والجمهور يفسرون الوجه بالذات، وهذا نوع من استعمال النور، غير إضافته إليه تعالى في قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الصف: ٨].

على أن نوره في الأخيرة كتابه ووحيه وكلامه الذي هو من صفاته، والمراد به في الأظهر ما فيه آيات الهداية، فهو كقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومثله إطلاق اسم النور على النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

على وجه. وورد مثل هذا في كتب العهد الجديد عند النصارى مرويًّا عن المسيح عليه السلام، كقول يوحنا في رسالته الأولى (١: ٥): وهذه هي البشرى التي سمعناها منه ونبشركم بها: أن الله نور، وليس فيه ظلمة ألبتة. وأطلق النور على المسيح نفسه في موضع من إنجيلي لوقا ويوحنا.

ومن المعلوم أن النور حسي ومعنوي، فالأول يرى بالبصر ويرى به البصر سائر المبصرات، والثاني يدرك بالبصيرة وتدرك به البصيرة الحق والخير والصلاح، كذلك نور الآخرة قسمان: حسي ومعنوي، وأما نور الله تعالى الذي هو صفة من صفاته فقد أضيف إلى وجهه، وأسند إلى ذاته، فهو فوق هذا وذاك، لا يعرف كنهه سواه عز وجل، وهو غير النور الذي هو حجابه المانع من

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٢٠.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، كتاب الدعاء، رقم ١٠٣٦ بهذا الإسناد.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٦/ ٤٨٦، رقم ٢٩٣٣.

رؤية ذاته، وإدراك كنهه، ولا يكبرنَّ عليك أيها الإنسان المعجب بنفسك هذا العجز عن إدراك نور الله عز وجل، فإن هذا النور الحسي الذي تراه بعينك لا تدرك حقيقته، ولم يدركها أحد من أبناء جنسك إلى الآن، ولم يستطع أحد أن يضع له تعريفًا يحدد هذه الحقيقة، ولم يكن المتقدمون يعرفون منه إلا ما يرونه من نار الأرض ونيرات السماء، ثم عرف المتأخرون هذه الكهرباء والراديو، فدخل بذلك العلم والعمل في طور جديد، إذا قيل: إنه فوق طور العقل والفلسفة والعلم التي انتهى إليها البشر قبله، لم يكن هذا القول مبالغة، وقد كانت الصوفية تقول: إن وراء مدرك عقول البشر علومًا صحيحة منطبقة على حقائق خارجية، لا محض نظريات فكرية، فيقول مدعو الفلسفة والمنطق: إن هذه خرافات خيالية، قال ابن الفارض: فثم وراء العقل علمٌ يدق عن مدارك غايات العلوم الصحيحة.

فأي عقل كان يتصور أنه يمكن لشخص واحد أن يوقد ما لا يحصى من المصابيح في دار، أو مدينة كبيرة في طرفة عين، وأن يطفئها في طرفة عين؟ وأن هذه المصابيح توقد بلا زيت ولا نار، وإنما تشعل بتحريك هنة صغيرة بعيدة عنها، ولكنها متصلة بها بسلك دقيق[1].

(١) تفسير المنار، رضا ٩/ ١٥٠.

انواع النور

أولًا: النور الحسي:

ويتجلى في نماذج المحسوسات الآتية:

١. القمر.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦].

وقال تعالى أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

قال الإمام البغوي في تفسيره: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ بالنهار، ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ بالليل. وقيل: جعل الشمس ذات ضياء، والقمر ذا نور، ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾، أي: قدر له، يعني هيأ له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها، ولم يقل: قدرهما. قيل: تقدير المنازل ينصرف إليهما، غير أنه اكتفى بذكر أحدهما، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

وقيل: هو ينصرف إلى القمر خاصة، لأن بالقمر يعرف انقضاء الشهور والسنين لا بالشمس، ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلًا، وأسماؤها: الشرطين، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنسر، والطرف، والجبهة،

والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وفرع الدلو المقدم، وفرع الدلو المؤخر، وبطن الحوت.

وهذه المنازل مقسومة على البروج، وهي اثنا عشر برجًا: الحمل والثور والجوزاء، والسرطان والأسد والسنبلة، والميزان والعقرب والقوس، والجدي والدلو والحوت، فلكل برج منزلان وثلث منزل، فينزل القمر كل ليلة منزلًا منها، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان الشهر تسعًا وعشرين فليلة واحدة، فيكون انقضاء الشهر بنزول تلك المنازل، ويكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يومًا وثلث يوم، فيكون انقضاء السنة من انقضائها.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾، أي: قدر المنازل لتعلموا عدد السنين دخولها وانقضاءها، ﴿وَالْحِسَابَ﴾، يعني: حساب الشهور والأيام والساعات. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ﴾، رده إلى الخلق والتقدير، ولولا رده إلى الأعيان المذكورة لقال تلك، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، أي: لم يخلقه باطلًا، بل إظهارًا لصنعه، ودلالة على قدرته. ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

(١) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤١٠.

٢. القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد ذهب المفسرون في تعيين النور في الآية بالقرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾، أي: واتبعوا القرآن المنزل إليه، مع إتباعه بالعمل بسنته، مما يأمر به، وينهى عنه. أو اتبعوا القرآن مصاحبين له في اتباعه. وسمى القرآن نورًا، لأن به يستنير قلب المؤمن فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم[2].

٣. الكتب المنزلة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

استئناف يتضمن تعظيم التوراة وتفخيم شأنها، وأنَّ فيها الهدى والنور، وهو بيان الشرائع والتبشير بمحمد صلى الله عليه

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٦، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٧٠.

وسلم وإيجاب اتباعه[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام: ٩١].

أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سؤالهم العام، بإثبات قضية جزئية موجبة، ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة التي قد علمتم، وكلُّ أحد قد علم أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران، ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ﴾، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات. وقوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾، أي تجعلون جملتها قراطيس، أي: قطعًا تكتبونها من الكتاب الأصلي، الذي بأيديكم، وتحرفون منها ما تحرفون، وتبدلون وتتأولون، وتقولون هذا من عند الله، أي في كتابه المنزل، وما هو من عند الله، ولهذا قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

ثانيًا: النور المعنوي:

ويتجلى في نماذج المعاني الثلاثة الآتية:

١. النبوة.

ومثله إطلاق اسم النور على النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

فالنور: هو محمد صلى الله عليه وسلم، والهدى، أو النور الذي يبين الأشياء، ويري الأبصار حقيقتها، فمثل ما أوتي به النبي صلى الله عليه وسلم في القلوب في بيانه، وكشفه الظلمات كمثل النور. وقيل: الإسلام، والكتاب المبين: القرآن، فإنه المبين[3].

٢. الإيمان.

ومثله في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

قال ابن عباس: يعني الإيمان، وقال السدي: يعني القرآن[4].

ومثله أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٦٠.
(٣) تهذيب معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٢٣، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٤.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٥٣.

يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

فقد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار، التي لا تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتمم لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما معهم من النور واليقين إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح[1].

٣. الهداية.

فقد أطلق القرآن الكريم لفظ النور على معنى الهداية واليقين، والعلم والإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ [الحديد: ٩].

أي: حججًا واضحات، ودلائل باهرات، وبراهين قاطعات ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به، وأنه حق اليقين، ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة، إلى نور الهدى واليقين، ومن ظلمات الجهل والكفر، إلى نور العلم والإيمان، وهذا من رحمته بكم ورأفته، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها[2].

وذكر الشعراوي رحمه الله في خواطره عند قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[النور: ٣٥].

فقال: لم يتركنا الحق سبحانه وتعالى في النور الحسي فقط، إنما أرسل إلينا نورًا آخر على يد الرسل، هو نور المنهج الذي ينظم لنا حركة الحياة، كأنه تعالى يقول لنا: بعثت إليكم نورًا على نور، نور حسي، ونور قيمي معنوي، وإذا شهدتم أنتم بأنَّ نوري الحسي ينير لكم السموات والأرض، وإذا ظهر تلاشت أمامه كل أنواركم، فاعلموا أن نور منهجي كذلك يطغى على كل مناهجكم، وليس لكم أن تأخذوا بمناهج البشر في وجود منهج الله.

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: لنوره المعنوي نور المنهج ونور التكاليف، والكفار لم يهتدوا إلى هذا النور، وإن اهتدوا إلى النور الحسي في الشمس والقمر وانتفعوا به، وأطفأوا له مصابيحهم، لكن لم يكن لهم حظ في النور المعنوي، حيث أغلقوا دونه عيونهم وقلوبهم وأسماعهم، فلم ينتفعوا به. وكان عليهم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٧٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٢٩٨، تيسير الكريم الرحمن ص ٨٣٨.

أن يفهموا أن نور الله المعنوي مثل نوره الحسي لا يمكن الاستغناء عنه، لذلك جاء في أثر علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهد في غيره أضله الله). والعجيب أن العبد كلما توغل في الهداية ازداد نورًا على نور، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧][1].

نور الحق بين دعاته وأعدائه

مهمة أنبياء الله ورسله، وورثتهم في الأمة من الأئمة والدعاة والعلماء، إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

قال سيد قطب رحمه الله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، لا إلى دنيا، ولا إلى مجد، ولا إلى عزة قومية، ولا إلى عصبية جاهلية، ولا إلى مغنم، ولا إلى سلطان أو جاه. ولكن داعيا إلى الله، في طريق واحد يصل إلى الله ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، فما هو بمبتدع، ولا بمتطوع، ولا بقائل من عنده شيئًا. إنما هو إذن الله له، وأمره لا يتعداه. ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، يجلو الظلمات، ويكشف الشبهات، وينير الطريق، نورًا هادئًا هاديًا كالسراج المنير في الظلمات. وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من النور. جاء بالتصور الواضح البين النير لهذا الوجود، ولعلاقة الوجود بالخالق، ولمكان الكائن الإنساني من هذا الوجود وخالقه، وللقيم التي يقوم عليها الوجود كله، ويقوم عليها وجود هذا الإنسان فيه؛ وللمنشأ والمصير، والهدف والغاية، والطريق والوسيلة. في قول فصل، لا شبهة فيه، ولا غموض. وفي أسلوب

---

(١) تفسير خواطر الشعراوي ١٧/ ١٠٢٧٥.

يخاطب الفطرة خطابًا مباشرًا، وينفذ إليها من أقرب السبل، وأوسع الأبواب، وأعمق المسالك والدروب[1].

وقد سعى الأعداء لإطفاء نور الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

وقال أيضًا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

قال الرازي: اعلم أن المقصود منه بيان نوع ثالث من الأفعال القبيحة الصادرة عن رؤساء اليهود والنصارى، وهو سعيهم في إبطال أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وجدهم في إخفاء الدلائل الدالة على صحة شرعه وقوة دينه، والمراد من النور: الدلائل الدالة على صحة نبوته، وهي أمور كثيرة جدًّا.

أحدها: المعجزات القاهرة التي ظهرت على يده، فإنَّ المعجز إمَّا أن يكون دليلًا على الصدق أو لا يكون، فإن كان دليلًا على الصدق، فحيث ظهر المعجز لا بد من حصول الصدق، فوجب كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقًا، وإن لم يدلَّ على الصدق قدح ذلك في نبوة موسى وعيسى عليهما السلام.

وثانيها: القرآن العظيم الذي ظهر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم مع أنه من أول عمره إلى آخره ما تعلم وما طالع، وما استفاد، وما نظر في كتاب، وذلك من أعظم المعجزات.

وثالثها: أن حاصل شريعته تعظيم الله والثناء عليه، والانقياد لطاعته، وصرف النفس عن حبِّ الدنيا، والترغيب في سعادات الآخرة. والعقل يدلُّ على أنه لا طريق إلى الله إلا من هذا الوجه.

ورابعها: أنَّ شرعه كان خاليًا عن جميع العيوب، فليس فيه إثبات ما لا يليق بالله، وليس فيه دعوة إلى غير الله، وقد ملك البلاد العظيمة، وما غير طريقته في استحقار الدنيا، وعدم الالتفات إليها، ولو كان مقصوده طلب الدنيا لما بقي الأمر كذلك.

فهذه الأحوال دلائل نيرة وبراهين قاهرة في صحة قوله، ثم إنهم بكلماتهم الركيكة وشبهاتهم السخيفة، وأنواع كيدهم ومكرهم، أرادوا إبطال هذه الدلائل، فكان هذا جاريًا مجرى من يريد إبطال نور الشمس بسبب أن ينفخ فيها، وكما أن ذلك باطل وعمل ضائع، فكذا ههنا، فهذا هو المراد من قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

ثم إنه تعالى وعد محمدًا صلى الله عليه وسلم مزيد النصرة والقوة وإعلاء الدرجة وكمال الرتبة فقال: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٢.

﴿...نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

فإن قيل: كيف جاز أبى الله إلا كذا، ولا يقال كرهت أو أبغضت إلا زيدًا؟ قلنا: أجرى (أبى) مجرى لم يرد، والتقدير: ما أراد الله إلا ذلك، إلا أن الإباء يفيد زيادة عدم الإرادة وهي المنع والامتناع، والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: (وإن أرادوا ظلمنا أبينا) فامتدح بذلك، ولا يجوز أن يمتدح بأنه يكره الظلم، لأن ذلك يصح من القوي والضعيف، ويقال: فلان أبى الضيم، والمعنى ما ذكرناه، وإنما سمى الدلائل بالنور؛ لأن النور يهدي إلى الصواب. فكذلك الدلائل تهدي إلى الصواب في الأديان[1].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٤١.

النور يوم القيامة

أولًا: سعي نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨].

قال ابن عاشور: ضمير ﴿نُورُهُمۡ﴾ عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه. وإضافة (نور) إلى ضمير (هم) مع أنه لم يسبق إخبار عنهم بنور لهم ليست إضافة تعريف، إذ ليس المقصود تعريف النور وتعيينه، ولكن الإضافة مستعملة هنا في لازم ضمير نورهم عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه. وإضافة (نور) إلى ضمير (هم) مع أنه لم يسبق إخبار عنهم بنور لهم ليست إضافة تعريف إذ ليس المقصود تعريف؛ النور وتعيينه ولكن الإضافة مستعملة هنا في لازم معناها وهو اختصاص النور بهم في ذلك اليوم، بحيث يميزه الناس من بين الأنوار يومئذ.

وسعي النور: امتداده وانتشاره. شبه ذلك باشتداد مشي الماشي وذلك أنه يحف

بهم حيثما انتقلوا تنويها بشأنهم، كما تنشر الأعلام بين يدي الأمير والقائد، وكما تساق الجياد بين يدي الخليفة. وإنما خُصَّ بالذكر من الجهات الأمام واليمين؛ لأن النور إذا كان بين أيديهم تمتعوا بمشاهدته وشعروا بأنه كرامة لهم، ولأن الأيدي هي التي تمسك بها الأمور النفيسة وبها بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على الإيمان والنصر. وهذا النور نور حقيقي يجعله الله للمؤمنين يوم القيامة. والباء للملابسة، ويجوز أن تكون بمعنى (عن).

وقد تقدم نظير هذا في سورة الحديد وما ذكرناه هنا أوسع. وجملة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ إلى آخرها حال من ضمير ﴿نُورُهُمۡ﴾، وظاهره أن تكون حالًا مقارنة، أي: يقولون ذلك في ذلك اليوم، ودعاؤهم طلب للزيادة من ذلك النور، فيكون ضمير يقولون عائد إلى جميع الذين آمنوا مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ، أو يقول ذلك من كان نوره أقل من نور غيره ممن هو أفضل منه يومئذ، فيكون ضمير يقولون على إرادة التوزيع على طوائف الذين آمنوا في ذلك اليوم. وإتمام النور إدامته أو الزيادة منه على الوجهين المذكورين آنفا، وكذلك الدعاء بطلب المغفرة لهم هو لطلب دوام المغفرة، وذلك كله أدب مع الله وتواضع له، مثل ما قيل في استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم سبعين مرة. ويظهر بذلك وجه التذييل بقولهم: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ المشعر بتعليل الدعاء كناية عن رجاء إجابته لهم[1].

ثانيًا: تمني المنافقين الاقتباس من نور المؤمنين:

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٢-١٣].

قال الرازي: المراد من هذا اليوم هو يوم المحاسبة، واختلفوا في هذا النور على وجوه:

أحدها: قال قوم: المراد نفس النور على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن كل مثاب فإنه يحصل له النور على قدر عمله وثوابه في العظم والصغر. فعلى هذا مراتب الأنوار مختلفة؛ فمنهم من يضيء له نور كما بين عدن إلى صنعاء، ومنهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من لا يضيء له نور إلا موضع قدميه، وأدناهم نورًا من يكون نوره على إبهامه ينطفئ مرة ويتقد

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٧٠.

أخرى، وهذا القول منقول عن ابن مسعود، وقتادة وغيرهما، وقال مجاهد: ما من عبد إلا وينادي يوم القيامة: يا فلان ها نورك، ويا فلان لا نور لك، نعوذ بالله منه. واعلم أنا بينا في سورة النور، أن النور الحقيقي هو الله تعالى، وأن نور العلم الذي هو نور البصيرة أولى بكونه نورًا من نور البصر، وإذا كان كذلك ظهر أن معرفة الله هي النور في القيامة، فمقادير الأنوار يوم القيامة على حسب مقادير المعارف في الدنيا.

والمراد من النور ما يكون سببًا للنجاة. وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾، لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم، ووراء ظهورهم. والمراد بهذا النور الهداية إلى الجنة، كما يقال ليس لهذا الأمر نور، إذا لم يكن المقصود حاصلًا، ويقال: هذا الأمر له نور ورونق، إذا كان المقصود حاصلًا[1].

وذكر ابن أبي حاتم روايات في تفسيره للآية: منها: عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم. يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نورًا من نوره على إبهامه يطفأ مرة ويوقد أخرى).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى بين يدي، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك)، فقال الرجل: يا رسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: (هم غُرٌّ محجلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم يسعى بين أيديهم ذريتهم)[2].

وعن سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق، ومعنا أبو أمامة الباهلي، فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناس، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر، وهو هذا يشير إلى القبر- بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس في أمر من الله، فتبيض وجوه، وتسود وجوه.

(1) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢٢٣.

(2) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢١٧٣٧، وإسناده صحيح.

ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر تغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نورًا، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئًا وهو المثل الذي ضربه الله في كتابه، قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن، كما لا يستضيء الأعمى بنور البصير، و ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا﴾، وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور. فلا يجدون شيئًا، فينصرفون إليهم وقد ضرب ﴿بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ الآية.

يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق مغترًا حتى يقسم النور، ويميز الله بين المؤمن والمنافق. ويسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: (تبعث ظلمة يوم القيامة، فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه، حتى يبعث الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم، فيتبعهم المنافقون فيقولون: ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[1].

ثالثًا: مقام الشهداء عند ربهم بما يتمتعون به من أجر ونور:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩].

قال السعدي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾: الإيمان عند أهل السنة: هو ما دل عليه الكتاب والسنة، وهو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ كما ورد في الحديث الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: (إن في الجنة مائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله)[2].

وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم، وقربهم من الله تعالى.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، رقم ٧٤٢٣.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق، المتصدقين، والصديقين، والشهداء، وأصحاب الجحيم، فالمتصدقون الذين كان جُلُّ عملهم الإحسان إلى الخلق، وبذل النفع إليهم بغاية ما يمكنهم، خصوصا بالنفع بالمال في سبيل الله. والصديقون هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح، والعلم النافع، واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله تعالى، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله تعالى[1].

النور في المثل القرآني

يتنوع المثل في القرآن الكريم إلى أنواع ثلاثة مختلفة، ويمكننا أن نطبقها على لفظ (النور):

أولًا: المثل الظاهر:

وهو المصرح به بلفظ المثل أو التشبيه، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

فقد ضرب فيها للمنافقين مثلين: مثلًا بالنار، ومثلًا بالمطر.

أخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا سلبهم الله العزَّ كما سلب صاحب النار ضوءه ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ يقول: في عذاب، ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ هو المطر، ضرب مثله في القرآن ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ يقول: ابتلاء ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ تخويف ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يقول: يكاد محكم القرآن يدلُّ على عورات المنافقين ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ يقول: كلما أصاب المنافقون في الإسلام عزًّا اطمأنوا، فإن أصاب الإسلام نكبة قاموا

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٤٠.

ليرجعوا إلى الكفر، كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١][1].

ومثله أيضًا: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

ثانيًا: المثل الكامن:

وهو الذي لا يذكر فيه لفظ المثل صراحة، وإنما يفهم من السياق، وتدل ألفاظه على معنى المثل، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فقد مثل المؤمن بالحيِّ مقابل الكافر بالميت، وبين أنَّ هدي هذا الدين كالنور يضيء للمارة في درب مظلم. فالمثل هنا مفهوم من دلالة النص ومكنونه.

ثالثًا: المثل المرسل:

وهو الذي لم يصرح فيه بلفظ التشبيه، بل هي ألفاظ من القرآن، جارية مجرى المثل، كما في قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

فقد شبه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ودعوته بالسراج المنير[2].

ونختم باستعراض ما استجمعه الإمام الفيروزآبادي في بصائره المميزة من خصائص مختلفة جامعة لمفردة (النور)، جاء فيها:

النور: الضياء والسناء الذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان: دنيوي وأخروي، فالدنيوي ضربان: معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأنوار الإلهية: كنور العقل، ونور القرآن، ومحسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة: كالقمرين، والنجوم، والنيرات.

فمن النور الإلهي، قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

ومن النور المحسوس الذي يرى بعين البصر نحو قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وتخصيص الشمس بالضوء، والقمر بالنور، من حيث إن الضوء أخص من النور، وقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]. أي: ذا نور.

ومما هو عامٌّ فيهما قوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٧٧٠.

(٢) مباحث في علوم القرآن، القطان ص ٢٩٠.

وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

ومن النور الأخروي قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الحديد: ١٢].

وسمى الله نفسه نورًا، من حيث إنه المنور، فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وتسميته تعالى بذلك لمبالغة فعله، وقيل: النور هو الذي يبصر بنوره ذو العماية، ويرشد بهداه ذو الغواية، وقيل: هو الظاهر الذي به كل ظهور، فالظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نورًا. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك؟ فقال: (نور أنى أراه!)[(١)]، أي: هو نور كيف أراه!. وسئل عنه الإمام أحمد فقال: ما زلت منكرًا له، وما أدري ما وجهه. وقال ابن خزيمة: في القلب من صحة هذا الحديث شيء.

وقال بعض أهل الحكمة: النور جسم وعرض، والله تعالى ليس بجسم ولا عرض، وإنما حجابه النور، وكذا روي في حديث أبي موسى، والمعنى: كيف أرى وحجابه النور! أي: النور يمنع من رؤيته. وفي الحديث: (اللهم اجعل في قلبي نورًا)[(٢)]، وذكر سائر الأعضاء، والمعنى: استعمل هذه الأعضاء مني في الحق، واجعل تصرفي وتقلبي فيها على سبيل الصواب والخير.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥]. يعني سيد المرسلين محمدًا صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي: القرآن.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. قيل: أي: الليل والنهار.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف: ٨]. يعني به الإسلام.

وقوله: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

وقوله: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨]. المراد به نور العناية.

والنار تقال للهيب الذي يبدو للحاسة نحو قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١].

وللحرارة المجردة؛ ولنار جهنم المذكورة في قوله تعالى: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: ٧٢].

وفي حديث شجر جهنم: (فتعلوهم نار الأنيار)[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (نور أنى أراه)، رقم ١٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل، رقم ٦٣١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٧٦٣.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٦٦٧٧، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، ٤/ ٦٥٥، رقم ٢٤٩٢.

يحتمل أن يكون معناه نار النيران، فجمع النار على أنيار، وأصلها أنوار، كما جاء في ريح وعيد رياح وأعياد، وأصلهما واو. ولنار الحرب المذكورة في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال بعضهم: النار والنور من أصل واحد، وهما كثيرًا ما يتلازمان، لكن النار متاع للمقوين في الدنيا، والنور متاع للمتقين في الدنيا والآخرة، ولأجل ذلك استعمل في النور الاقتباس، فقال: ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]. وتنورت نارًا: أبصرتها[١].

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الشمس، الظلمات، القمر، الليل، النجوم، النهار

قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٣٥، رقم ٨٠٤٠.

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ١٠٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٣٣.

الهجرة

عناصر الموضوع

مفهوم الهجرة	٨٦
الهجرة في الاستعمال القرآني	٨٧
الألفاظ ذات الصلة	٨٨
هجرة المكان	٩٠
هجرة الأعمال	١٠٣
المهاجرون	١٠٨
آثار الهجرة في سبيل الله	١١٦

مفهوم الهجرة

أولًا: المعنى اللغوي:

الهاء والجيم والراء، أصلان: يدل أحدهما على قطيعة وقطع، والآخر على شد شيء وربطه.

فالأول الهجر: ضد الوصل، وكذلك الهجران، وهاجر القوم من دار إلى دار: تركوا الأولى للثانية(١).

هجره يهجره هجرًا وهجرانًا: صرمه، وهما يهتجران ويتهاجران، والاسم: الهجرة، وقيل: الهجران، ويذهب إلى أن الهواجر جمع هجر، ويرى أنه من الجموع الشاذة كأن واحدها هاجرةٌ، والصحيح في هواجر أنها جمع هاجرةٍ: بمعنى الهجر(٢).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الهجرة شرعا: «ترك الوطن الذي بين الكفار، والانتقال إلى دار الإسلام»(٣).

وقيل: «الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام»(٤).

وقيل: إنما تنصرف إلى هجران بلد الشرك إلى دار الإسلام؛ رغبة في تعلم الإسلام والعمل به(٥).

فالهجرة، هي: «الخروج في سبيل الله من دار الكفر إلى دار الإسلام، ومن دارٍ شديد الفتنة إلى دارٍ أقل منه فتنة؛ طلبًا للسلامة في الدين والنفس»(٦).

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٣٤.
وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٢٤٤.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٥٠.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٣٣.
وانظر: التعريفات، الجرجاني ص٢٥٦.
(٤) المغني، ابن قدامة ٩/ ٢٩٣.
(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١/ ٣٩.
(٦) الهجرة مسائل وأحكام، عبد المنعم مصطفى ص١١، المفصل في أحكام الهجرة، علي بن نايف الشحود ص٦.

الهجرة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (هجر) في القرآن الكريم (٣١) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١١	﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ [النحل:١١٠]
الفعل المضارع	٦	﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [النساء:٨٩]
فعل الأمر	٤	﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم:٤٦]
المصدر	١	﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل:١٠]
اسم الفاعل	٨	﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت:٢٦]
اسم المفعول	١	﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان:٣٠]

وجاءت الهجرة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: الترك والمفارقة؛ إما بالبدن أو باللسان أو بالقلب[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٣٠، ٧٣١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهاء ص١٣٦٢-١٣٦٣.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٥٩، ٤٦٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٣٠٤، ٣٠٦، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٢٤٠- ٢٤٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الترك:

الترك لغةً:

التاء والراء والكاف: الترك: التخلية عن الشيء؛ ولذلك تسمى البيضة بالعراء تريكة.

تركت الشيء تركًا: خليته، وتاركته البيع متاركة، وتراك بمعنى: اترك، وهو اسمٌ لفعل الأمر[١].

الترك اصطلاحًا:

الترك عند العرب تخليف الشيء في المكان الذي هو فيه والانصراف عنه[٢].

الصلة بين المتاركة والهجرة:

المتاركة هي: ترك الأمر بالشيء والرغبة فيه، والنهي عن خلافه[٣]، أما الهجرة: فهي أعم من الترك، فهي ترك الأشياء مع الرغبة فيها، وتمني الرجوع إليها.

٢ القطيعة:

القطيعة لغةً:

«القاف والطاء والعين، أصل صحيح واحد، يدل على صرم وإبانة شيء من شيء، والقطيعة: الهجران، يقال: تقاطع الرجلان، إذا تصارما»، والاسم: القطيعة[٤]، وقطع رحمه قطيعةً: إذا لم يصلها، ويقال: رحم قطعاء بيني وبينك، إذا لم توصل[٥].

والقطيعة اصطلاحًا:

ترك البر والإحسان إلى الأهل والأقارب وهي ضد الصلة[٦].

الصلة بين القطيعة والهجرة:

قد يكون بينهما ارتباط في ترك المكان، فالمقاطع قد يترك مكان التواصل مع أقربائه،

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٤٥، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٧، الصحاح، الجوهري ٤/ ١٥٧٧.

(٢) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص١١٣.

(٣) المصدر السابق ص١٢٣.

(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ١٣٠.

(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٠١، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٧٥٧، الصحاح، الجوهري ٢/ ١٢٦٦.

(٦) انظر: موسوعة نضرة النعيم ١١/ ٥٣٢٩.

والمهاجر قد يترك موطنه الأصلي، إلا أنه لا يلزم في الهجرة المقاطعة؛ كما أن المقاطع الذي يهجر قراباته من الكفار لا يلزم من قطيعتهم الهجرة إلى موطن وبلد آخر ما دام قادرًا على تأدية فرائض الدين.

٣ الخروج:

الخروج لغةً:

الخاء والراء والجيم، أصلان، وقد يمكن الجمع بينهما، فالأول: النفاذ عن الشيء، والثاني: اختلاف لونين. والخروج: خروج السحابة، يقال ما أحسن خروجها، وفلان خريج فلان، إذا كان يتعلم منه، كأنه هو الذي أخرجه من حد الجهل[١].

الخروج اصطلاحًا:

«الانفصال من المحيط إلى الخارج ويلزمه الظهور والبروز»[٢]، وقيل: «هو عبارة عن الانفصال من مكانه الذي هو فيه إلى مكان قصده، وذلك المكان تارة يكون قريبا، وتارة يكون بعيدا»[٣].

الصلة بين الخروج والهجرة:

الخروج: هو الانتقال من مكان إلى مكان آخر، وقد يعد مذمومًا أو محمودًا، والهجرة: الرحيل من مكان لآخر، وتعد في الغالب محمودة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٧٥، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٢٨٦.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٥٤.
(٣) الكليات، الكفوي ص٤٥٢.

هجرة المكان

من أنواع الهجرة التي ذكرها القرآن الكريم هجرة المكان، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام:

دار الحرب: هي كل بقعة تكون فيها الحرب بين المؤمنين والكافرين.

فدار الحرب هي دار الكفار الذين بينهم وبين المسلمين حرب[1].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من الهجرة.

قال الله جل جلاله في سورة العنكبوت: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

فأرشد الله عباده المؤمنين للهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين وعبادة الله وحده.

وممن ذهب إلى أن المراد بهذه الآية الهجرة والانتقال ابن زيد ومقاتل والكلبي[2].

وكلام ابن زيد أوضح في أن المراد بالآية هجرة المسلمين من مكة؛ فقد سأله ابن وهب عن هذه الآية: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]: «يريد بهذا من كان بمكة من المؤمنين؟ فقال: نعم»[3].

وتذييل الآية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فيه بيان «أن علة الأمر لهم بالهجرة هي تمكينهم من إظهار التوحيد، وإقامة الدين»[4].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون[5] بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم بفعل بعض، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين

---

(١) الإعلام بوجوب الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، عبد العزيز بن صالح الجربوع ص٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٥٧.

(٣) جامع البيان ٢٠/ ٥٦.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٢.

(٥) (يستخفون): يستترون، أي: يسرون بالإسلام. انظر: الكليات، الكفوي ص٩٩٣.

وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت الآية»[1].

فهذه الآية كما نرى شددت على أهمية الهجرة من أرض الكفر، وحذرت من البقاء بين أظهر المشركين، وبينت خطره، وتوعدت من فعل ذلك بعقاب الله له، ما لم يكن من أهل الأعذار.

والمقصود بالهجرة في الآية: الانتقال من مكة إلى المدينة، بعدما حاربت قريش النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين، وضيقت عليهم ومنعتهم من الدعوة إلى الله عز وجل وإقامة شعائره، فأذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة؛ لإقامة دولة الإسلام، وإرساء مبادئ الدين الجديد.

حكم الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام:

يستدل من الآية السابقة على بعض الأحكام المتعلقة بالهجرة على النحو الآتي:

١. وجوب الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام عند عدم العذر.

هذا حكمٌ باقٍ إلى يوم القيامة، ويستفاد هذا الوجوب في الآية من عدة أمور:

- وصف الذين لم يهاجروا بالظلم، في قوله جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧].
- توبيخ الملائكة لهم بعد موتهم، في قوله عز وجل: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ [النساء: ٩٧].
- توعدهم بالنار في الآخرة، وبئس المصير، في قوله عز وجل: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: «الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حرامًا بالإجماع، وبنص هذه الآية»[2].

قال ابن العربي رحمه الله: «النوع الثاني من الهجرة: الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضًا في أيام النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والهجرة التي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان، فمن أسلم في دار الحرب وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام، فإن بقي فقد عصى»[3].

وقال الشيخ السعدي في تفسير الآية: «وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ٣/ ١٠٤٥، رقم ٥٨٦٢، وأصله في صحيح البخاري ٦/ ٤٨، رقم ٤٥٩٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٨٩.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١١ بتصرف.

الكبائر»(1).

٢. أهل الأعذار معفو عنهم ولا يشملهم العقاب.

من رحمة الله عز وجل بعباده أنه لم يكلفهم فوق طاقتهم، ولم يأمرهم بما يعجزون عن تحقيقه، وهذا من محاسن الإسلام، ويسر شريعته؛ ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد عفا عمن لم يقدر على الهجرة لسبب من الأسباب، ولم يتوعده بما توعد به تارك الهجرة لغير سبب، وهو ما يبينه قوله عز وجل: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٨- ٩٩].

قال ابن عطية رحمه الله: «ثم استثنى منهم من كان استضعافه على حقيقة من زمنة(2) الرجال، وضعفة النساء والولدان. والحيلة: لفظ عام لأسباب أنواع التخلص، والسبيل: سبيل المدينة فيما ذكر مجاهد والسدي وغيرهما، والصواب أنه عام في جميع السبل، ثم رجى الله سبحانه وتعالى هؤلاء بالعفو عنهم»(3).

وقال ابن عاشور: «﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ استثناء من الوعيد، والمعنى: إلا المستضعفين حقًا، أي: العاجزين عن الخروج من مكة؛ لقلة جهد أو لإكراه المشركين إياهم على البقاء، والتبيين بقوله: ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النساء: ٩٨]؛ لقصد التعميم، والمقصد التنبيه على أن من الرجال مستضعفين؛ فلذلك ابتدئ بذكرهم، ثم ألحق بذكرهم النساء والصبيان؛ لأن وجودهم في العائلة يكون عذرًا لوليهم إذا كان لا يجد حيلة.

وجملة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨].

حال من المستضعفين، موضحة للاستضعاف؛ ليظهر أنه غير الاستضعاف الذي يقوله الذين ظلموا أنفسهم: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧].

أي: لا يستطيعون حيلة في الخروج؛ إما لمنع أهل مكة إياهم، أو لفقرهم، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨].

أي: معرفة للطريق كالأعمى»(4).

فالهجرة واجبة في حق كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فإن لم يفعل فهو ظالم لنفسه مرتكب حرامًا، وأما من كان مستضعفًا عاجزًا عن الهجرة لسبب من الأسباب فقد عفا الله عنه وعذره، والله

(1) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١٩٥.
(2) أزمن الله فلانًا: جعله زمنًا، أي: مقعدًا، أو ذا عاهة. تاج العروس ٣٥/ ١٥٥.
(3) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٠٠.
(4) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٧٦، ١٧٧ بتصرف.

أعلم.

ثانيًا: الهجرة من أرض البدعة والمعصية إلى أرض السنة والطاعة:

من أنواع الهجرة التي أقرها الشرع الهجرة من أرض البدعة والمعصية إلى أرض السنة والطاعة.

والمقصود بأرض البدعة والمعصية التي استقر فيها الإسلام، ثم انتشرت فيها البدع والمخالفات.

وليس المقصود بالأرض البلد أو المدينة أو المنطقة، بل الأمر أوسع من هذا، فيشمل كل بقعة أو مجلس تحول عنه لنوع بدعة أو شيء محرم.

وقد جاءت الإشارة إلى هذا النوع من الهجرة في الكتاب والسنة.

فأرشد القرآن الكريم في بعض آياته إلى ضرورة الهجرة من أرض البدعة والمعصية إلى أرض السنة والطاعة، ومن هذه الآيات:

قال الله عز وجل في سورة العنكبوت: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وهذه الآية وإن كان قد سبق الاستدلال بها على وجوب الهجرة من دار الكفر إلا أن بعض السلف -ومنهم سعيد بن جبير وعطاء-[1] رأوا أن المقصود بالهجرة في الآية الهجرة من أرض المعاصي إلى أرض الطاعة؛ بناءً على عموم الآية.

قال الإمام القرطبي في بيان القول السابق عند تفسيره لهذه الآية: «وقال ابن جبير وعطاء: إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق»[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقد استنبط العلماء من هذه الآية وجوب الهجرة من أرض البدعة والمعصية إلى أرض السنة والطاعة.

وقد أشار ابن العربي المالكي رحمه الله إلى هذا النوع من أنواع الهجرة بقوله: «النوع الثاني من الهجرة: الخروج من أرض البدعة، قال ابن القاسم: سمعت مالكًا يقول: «لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سب فيها السلف». وهذا صحيح؛ فإن المنكر إذا لم يقدر على تغييره نزل عنه[3].

قال الله جل جلاله: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/٥٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/٣٥٧، ٣٥٨.

(٣) كذا في أحكام القرآن، ولم يتبين لي وجهه في اللغة. ولعل صوابه: يزول عنه. أي: يتحول عنه ويبتعد.

﴿حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨](١).

ثم ذكر رحمه الله الهجرة من أرض المعصية إلى أرض الطاعة بقوله: «النوع الثالث من أنواع الهجرة: الخروج عن أرض غلب عليها الحرام؛ فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم»(٢).

وأغلب أهل العلم في تفسير هذه الآية على أن المقصود بها مجالس البدع والاستهزاء بالدين(٣).

والخطاب وإن كان للرسول صلى الله عليه وسلم في الآية مباشرةً، فإن حكم بقية المسلمين كحكمه. كما قال جل جلاله في ذكر المنافقين: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠].

قال الحافظ ابن كثير عن آية سورة الأنعام مبينًا عمومها لكل المسلمين: «والمراد بهذه الآية كل فرد من آحاد الأمة ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله، ويضعونها على غير مواضعها، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

أي: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم في الذي هم فيه»(٤).

ووردت الهجرة كذلك في السنة النبوية كما وردت في القرآن.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: (كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهبٍ، فأتاه، فقال: إنه قتل تسعةً وتسعين نفسًا، فهل له من توبةٍ؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائةً، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجلٍ عالمٍ، فقال: إنه قتل مائة نفسٍ، فهل له من توبةٍ؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوءٍ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١١ بتصرف.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٠٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٢٢، التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٩٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٧٨.

ملكٌ في صورة آدمي، فجعلوه بينهم[1]، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة)، قال قتادة: فقال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموت نأى بصدره[2][3].

قال النووي رحمه الله: «قوله: (انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن فيها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء) قال العلماء: في هذا استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب، والأخدان المساعدين له على ذلك، ومقاطعتهم ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح والعلماء والمتعبدين الورعين ومن يقتدي بهم وينتفع بصحبتهم، وتتأكد بذلك توبته»[4].

حكم هذه الهجرة:

سبق أن بينا أن الهجرة من أرض البدعة والمعصية إلى أرض السنة والطاعة ليس المقصود منها انتقال إلى بلد أو مدينة أو منطقة فحسب، بل الأمر أوسع من هذا، يشمل كل بقعة أو مجلس تحول عنه لنوع بدعة أو شيء محرم.

وبناءً على ذلك يكون لهذه الهجرة حكمان:

الأول: الوجوب إذا كان الجلوس في مثل هذه الأماكن سببًا في فقد المسلم القدرة على الالتزام بتعاليم دينه، وعدم قدرته على تغيير المنكرات، كما يفهم من نصوص القرآن وكلام العلماء.

ويفهم هذا الوجوب من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ومن دلالات الوجوب في الآية: صيغة الأمر بالإعراض في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وجعل غاية هذا الإعراض[5] أن يخوضوا في حديث غيره، وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وكذلك يستفاد من النهي في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]؛

---

(١) أي: حكمًا بينهم.

(٢) نأى: أي: نهض ومال، بصدره: أي: إلى ناحية القرية التي توجه إليها للتوبة والعبادة، أي ثم مات...، فالمعنى: فبعد بصدره عن الأرض التي خرج منها.
انظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٨/ ٢١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ٤/ ٢١١٨، رقم ٢٧٦٦.

(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ١٧/ ٨٣.

(٥) أي: زمن الإعراض.

لأن الإقامة في هذه الأرض أيًا كان نوعها -كما بينا سابقًا- تعرض المسلم لسخط الله عز وجل وفقد القدرة على الالتزام بتعاليم دينه.

ويفهم الوجوب من كلام العلماء المذكورين سابقًا، كابن العربي وابن كثير، وغيرهما.

الثاني: جواز الهجرة وعدمه:

وهذا إذا كان المسلم قادرًا على إقامة أحكام دينه، وعلى إزالة هذه المنكرات، وعلى دعوة العصاة في مثل هذه الأماكن.

ويؤخذ هذا الحكم من قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩].

وقد صرح بعض العلماء بهذا الحكم، واتضح من كلام بعضٍ آخر بمفهوم المخالفة.

قال الرازي في تفسير هذه الآية: «قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال المسلمون: لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن وخاضوا فيه قمنا عنهم لما قدرنا على أن نجلس في المسجد الحرام، وأن نطوف بالبيت، فنزلت هذه الآية، وحصلت الرخصة فيها للمؤمنين بأن يقعدوا معهم ويذكرونهم ويفهمونهم»[1].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٢٣.

وقال الشيخ السعدي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]: «هذا النهي والتحريم لمن جلس معهم ولم يستعمل تقوى الله بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى بأن كان يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم فيترتب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه فهذا ليس عليه حرج ولا إثم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩]»[2].

وقال ابن القاسم: «سمعت مالكًا يقول: لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سب فيها السلف»[3].

وقد وافقه ابن العربي بقوله: «وهذا صحيح؛ فإن المنكر إذا لم يقدر على تغييره نزل عنه»[4].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٥.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١١.
(٤) كذا في أحكام القرآن ولم يتبين لي وجهه في اللغة. ولعل صوابه: يزول عنه. أي: يتحول عنه ويبتعد.

﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨][1].

فيفهم من قوله: «فإن المنكر إذا لم يقدر على تغييره نزل عنه»، جواز المكث والجلوس عند استطاعة تغيير المنكر.

وقال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]: «وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح[2] بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه، فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير»[3].

وبعد عرض كلام أهل العلم في هذا النوع من الهجرة يتبين أنها تدور بين الوجوب والجواز، على التفصيل الذي سبق بيانه، والله أعلم.

ثالثًا: الهجرة لطلب العلم والتجارة:

لما كان طلب العلم وتعلمه وتعليمه للناس من أجل الأعمال وأفضلها؛ عد السفر في سبيل تحصيله لونًا من ألوان الهجرة، ونوعًا من أنواعها؛ وذلك لما يترتب عليه من منافع للمسلمين؛ ولما يصاحبه من مشقة ترك الأوطان، ومفارقة الإخوان، ومكابدة مشاق السفر والغربة ومتاعبه.

وجاء الحث على هذا النوع في القرآن الكريم في أكثر من موضع، بين آيات تأمر بها، وأخرى تذكر قصصًا للمهاجرين في طلب العلم.

كما حثت السنة النبوية الشريفة أيضًا على هذا النوع وبينت فضائله.

يقول الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وهنا نجد الإشارة إلى أهمية الخروج والهجرة لطلب العلم والتفقه في الدين، فقد بين سبحانه وتعالى فيها أن غاية هذا الخروج من البلدان هو التفقه في الدين، وإنذار العباد به.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

أي: «ليتعلموا العلم الشرعي ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسراره، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم»[4].

ويقول السيوطي رحمه الله: «وفي الآية

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١١.
(٢) تسمح وأصله الاتساع، أي: تساهل. انظر: المصباح المنير ١/ ١٥٠.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٤٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٥.

إشارة إلى الرحلة في طلب العلم»[1].

واتخذ الطاهر ابن عاشور هذه الآية أصلًا في طلب العلم، فقال: «هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم، على طائفة عظيمة من المسلمين وجوبًا على الكفاية»[2].

وبالنظر في سياق الآية يتبين لنا أنها أتت في معرض الحديث عن الجهاد في سبيل الله، وكأن في هذا إشارة إلى أن الهجرة لطلب العلم لا تقل في المنزلة عن الهجرة للجهاد في سبيل الله.

«فهناك نفرٌ[3] كالنفر إلى الجهاد، وهو النفر إلى التفقه في الدين، والتعرف على أحكام الشريعة، ففي النفر إلى الجهاد يقول الله عز وجل: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١].

وفي النفر إلى العلم يقول جل جلاله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فطلب العلم فريضة على كل مسلم كفريضة الجهاد سواء بسواء»[4].

تناسب لطيف:

نلحظ وجود تناسب رائق من حيث المعنى ومن حيث اللفظ بين هذه الآية وما قبلها، في قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ونجد الطاهر ابن عاشور رحمه الله يجلي لنا هذا الترابط فيقول: «وإذ قد كانت الآية السابقة قد حرضت فريقًا من المسلمين على الالتفاف حول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغزو لمصلحة نشر الإسلام، ناسب أن يذكر عقبها نفر فريق من المؤمنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للتفقه في الدين؛ ليكونوا مرشدين لأقوامهم الذين دخلوا في الإسلام.

ومن محاسن هذا البيان أن قابل صيغة التحريض على الغزو بمثلها في التحريض على العلم؛ إذ افتتحت صيغة تحريض الغزو بلام الجحود، في قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وافتتحت صيغة التحريض على العلم والتفقه بمثل ذلك، إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]»[5].

وهذا لا شك يبين فضل الهجرة في طلب العلم وتحصيله.

والهجرة لطلب العلم لكفاية حاجة

(١) الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي ص١٤٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٦٠.

(٣) أي: التفرق، وهو مأخوذ من معنى الخروج. لسان العرب مادة نفر بتصرف يسير.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٦/ ٩١٧ بتصرف يسير.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٥٩ بتصرف يسير.

الأمة لا تقل في وجوبها عن وجوب الجهاد لتحقيق مصالح الأمة.

وقد استنبط الطاهر ابن عاشور رحمه الله هذا الحكم اللطيف من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فقال: «الإتيان بصيغة لام الجحود تأكيد للنفي، وهو خبر مستعمل في النهي، فتأكيده يفيد تأكيد النهي، أي: كونه نهيًا جازمًا يقتضي التحريم؛ وذلك أنه كما كان النفر للغزو واجبًا؛ لأن في تركه إضاعة مصلحة الأمة، كذلك كان تركه من طائفة من المسلمين واجبًا، لأن في تمحض جميع المسلمين للغزو إضاعة مصلحة للأمة أيضًا، فأفاد مجموع الكلامين أن النفر للغزو واجب على الكفاية، أي: على طائفة كافية لتحصيل المقصد الشرعي منه، وأن تركه متعين على طائفة كافية منهم، لتحصيل المقصد الشرعي مما أمروا بالاشتغال به من العلم في وقت اشتغال الطائفة الأخرى بالغزو»[١].

وإذا كان القرآن أشار إلى الهجرة لطلب العلم فقد أشارت السنة النبوية إليه أيضًا، وصرحت بأن هذه الهجرة جهاد، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع)[٢].

وعن زر بن حبيشٍ قال: أتيت صفوان بن عسالٍ المرادي فقال: ما جاء بك؟ قلت: أنبط[٣] العلم، قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضًا بما يصنع)[٤].

ومما يبين لنا أيضًا فضل الهجرة في طلب العلم -زيادةً على ما سبق- ما قصه الله علينا من خبر الكليم موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام في سورة الكهف.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم، باب فضل طلب العلم ٥/ ٢٩، ٢٦٤٧. وضعفه الألباني في السلسة الضعيفة، رقم ٢٠٣٧.

(٣) نبط العلم والحكمة: استخرجهما. انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٨٩٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ١/ ٨٢، رقم ٢٢٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٩٩٤، ٥٧٠٢.

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٠-٦٦].

فهذه قصة ارتحال موسى عليه السلام إلى الخضر وهجرته إليه، وسبب هذه الهجرة يبينه لنا حديث النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا فتجعله في مكتلٍ، فحيثما فقدت الحوت فهو)(١).

إذن فموسى عليه السلام قد هاجر لطلب العلم من العبد الصالح.

يقول القرطبي رحمه الله: «في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم، وكان ذلك دأب السلف الصالح»(٢).

وبتتبع آيات القصة ومفرداتها يتبين لنا: الحرص الشديد من موسى عليه السلام على مواصلة الرحلة، مهما كلفه ذلك من مشقة وعناء؛ إذ يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠].

وهذا «يكشف عن حرصه الشديد على تحقيق هذه الرغبة حتى إنه إذا لم يبلغها في المدى الذي قدره فلن يكف عن السعي، بل يظل هكذا طوال حياته راصدًا لهذه الغاية، ساعيًا إليها، شأن من تتسلط عليه رغبة ويستولي عليه أمل فيعيش حياته كلها ساعيًا لهذه الرغبة، جاريًا وراء هذا الأمل إلى أن يتحقق أو يموت دونه»(٣).

فالهجرة في طلب العلم من نفائس الأعمال وعظيمها، فلا غرو أن استحقت كل هذا الإصرار من نبي كريم.

قال الرازي: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠].

«هذا إخبار من موسى عليه السلام بأنه وطن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم في السفر؛ لأجل طلب العلم، وذلك تنبيه على أن المتعلم لو سافر من المشرق

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين)، ٦/٨٨، رقم ٤٧٢٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/١١.
(٣) التفسير القرآني للقرآن ٨/٦٤٧.

إلى المغرب لطلب مسألة واحدة لحق له ذلك»(١).

ولو لم يكن لهذا النوع من أنواع الهجرة ثمرة إلا تحصيل العلم النافع الذي يورث العبد خشية الله، مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨](٢) لكفى، فكيف وقد أمر الله به، وجعله من سنة الأنبياء والصالحين، وجعل تعليمه للناس من خير الأعمال وأقومها!

ولله در القرطبي إذ يقول: «بسبب ذلك -أي: الهجرة لطلب العلم- وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدام، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام»(٣).

ومن تمام نعمة الله على عباده أن ذلل لهم الأرض وسخرها كالدابة الذلول سهلة الانقياد، وأرشدهم إلى السير والسعي في جنباتها وفجاجها؛ لتحصيل الرزق والمعاش، فقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ومن رحمة الله بعباده أيضًا أن وازن لهم بين متطلبات أرواحهم، ومقتضيات الحياة في الأرض من عمل ونشاط وكسب؛ فأباح لهم الانتشار في الأرض للتجارة والكسب بعد الفراغ من صلاة الجمعة، حيث قال جل جلاله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء، وأمرهم بالاجتماع أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض، والابتغاء من فضل الله»(٤).

وابتغاء الفضل ورد في القرآن بمعنى التجارة(٥).

كما أرشد الله عباده أن السفر للتجارة سبب للنيل من فضل الله الواسع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

والضرب في الأرض هو السفر للتجارة(٦).

«وسمى الله السفر للتجارة ضربًا في الأرض؛ لأن الماشي بجدٍ واجتهاد يضرب

---

(١) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٧٩.
(٢) قال ابن كثير «أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر». تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٠٨٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤١٣.
(٦) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٥٠٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٩١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٨٥.

الأرض برجله»(1).

«وتأمل كيف أن الله قال: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

فأشار إلى سعة ما عند الله بكونه فوق أمانيهم؛ وقال: ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾، أي: بعض ما أوجده الملك الأعظم لعباده، ولا حاجة به إليه بوجهٍ من الربح في التجارة»(2).

ومما يبين فضيلة السفر للتجارة وتحصيل الرزق، بشرط توفر النية الطيبة، وعدم الانشغال به عن ذكر الله، أن الله عز وجل جعل الهجرة للسعي على الرزق والتجارة مقرونة بالجهاد في سبيله، فقال جل جلاله: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

فقد «جمع الله سبحانه وتعالى في الآية بين السعي في الأرض لطلب الرزق والجهاد في سبيله؛ للإشعار بأن الأول لا يقل في فضله عن الثاني متى توافرت فيه النية الطيبة، وعدم الانشغال به عن ذكر الله»(3).

قال الطاهر ابن عاشور: «وقد كان بعض الصحابة رضي الله عنهم يتأول من هذه الآية فضيلة السفر للتجارة؛ حيث سوى الله بين المجاهدين والمكتسبين المال الحلال، بمعنى أن الله ما ذكر هذين السببين لنسخ تحديد القيام إلا تنويهًا بهما»(4).

فها هو عمر رضي الله عنه يبين فضيلة الهجرة للتجارة والسعي إلى الرزق، فيقول: «ما جاءني أجلي في مكانٍ، ما عدا في سبيل الله عز وجل أحب إلي من أن يأتيني وأنا بين شعبتي رحلي أطلب من فضل الله، ثم تلا: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠](5).

وهكذا فهم كثير من العلماء؛ فتواترت كلماتهم في بيان فضيلة السفر للتجارة من خلال آية المزمل(6).

وجاءت هذه الجملة من الآية في سورة المزمل في سياق بيان أعذار بني آدم التي تحول بينهم وبين قيام الليل، فذكر الله من هذه الأعذار سفر بعض المسلمين للتجارة يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه في معاشهم، وهذا يبين فضيلة الهجرة للتجارة، والسعي على الرزق؛ إذ جعلها الله عذرًا لمن لا يقوم الليل كله، ولا ينقطع لقراءة القرآن.

(1) نظم الدرر، البقاعي ٢١/ ٣٣.
(2) المصدر السابق.
(3) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ١٦٩.
(4) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٨٥-٢٨٦ بتصرف.
(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب التوكل بالله ٢/ ٤٥٠، رقم ١١٩٨.
(6) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٩١، مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٩٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٥٥، روح المعاني، الألوسي ١٥/ ١٢٦.

هجرة الاعمال

من أنواع الهجرة التي بينها القرآن الكريم هجرة بعض الأعمال، وسوف نتناولها بالشرح فيما يأتي:

أولًا: الهجرة من الآثام إلى التوحيد:

الذنوب والمعاصي من أكثر ما يهلك العبد ويخزيه في دنياه وأخراه، وقد حدثنا القرآن عن علة هلاك الأقوام السابقة والأمم المتقدمة، فقال جل جلاله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

والإيمان بالله والاعتصام به من أكبر أسباب النجاة.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

فهجرة المعاصي والحذر منها والاعتصام بالتوحيد لا ريب أنه من أكثر أسباب النجاة؛ لذا جاء الأمر بها في القرآن: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥].

وقد ورد في بيان المراد بالرجز في الآية قولان:

الأول: الرجز هو الأصنام، وقد ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد.

الثاني: الرجز هو المعصية، وقد ورد عن إبراهيم والضحاك[١].

وتوجيه الأمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم باجتناب الرجز لا يلزم منه تلبسه بشيء منه، قال ابن كثير رحمه الله: «وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

وقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢][٢]. والمعنى في الأمر: اثبت ودم على هجره؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان بريئًا منه»[٣].

وعلى كلا القولين في معنى الرجز فهناك أمر بهجر الإثم، سواء كان الشرك أو الذنوب التي يدخل فيها الشرك وسائر الشرور.

قال الشيخ السعدي: « ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥].

يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان التي عبدت مع الله، فأمره بتركها، والبراءة منها، ومما نسب إليها من قول أو عمل، ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٦٤.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٣٢٦.

كلها وأقواله، فيكون أمرًا له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه»[1].

ولعل القول بالعموم هو الأولى؛ لأن من معاني الرجز في اللغة العذاب، قال الله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

فتكون الآية دالة على وجوب الاحتراز عن كل المعاصي؛ لأنها مسببة للعذاب، فكل ما يؤدي إلى الرجز فاهجره، كأنه قيل له: اهجر الجفاء والسفه وكل شيء قبيح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز.

«وتظهر أهمية هجرة الآثام حينما نعلم أن هذا الأمر ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥].

أتى في سورة المدثر، وهي من أوائل ما نزل»[2].

ولخطورة الآثام ولأهمية هجرها، قدم المفعول ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ على عامله ﴿فَٱهْجُرْ﴾.

قال ابن عاشور: «وتقديم (الرجز) على فعل (اهجر)؛ للاهتمام في مهيع[3] الأمر بتركه»[4].

وقد جاء هذا المعنى -هجرة الآثام- في الحديث الصحيح: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[5].

قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: «الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة، فالباطنة: ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان، والظاهرة: الفرار بالدين من الفتن»[6].

والهجرة الظاهرة على المرء أن يقوم بها متى تحققت دواعيها، أما الهجرة الباطنة فلا ينبغي أن يتخلف الإنسان عنها.

وهذا لا ريب يدل على أهمية هجر الذنوب والبعد عنها «فإن النفس متى طهرت منها كانت مستعدة للإفاضة على غيرها، وأقبلت بإصغاء وشوق إلى سماع ما يقول الداعي»[7].

ثانيًا: هجرة القوم بالمشاعر:

من البلاءات العصيبة أن يكون الإنسان مؤمنًا يريد الله والدار الآخرة، ويحيا في بيئة لا تسيطر على أفرادها الغاية نفسها والهدف

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٩٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، باب بدء الوحي ١/٧، رقم ٤.
(٣) التهيع: هو الانبساط، ومنه: طريق مهيع: واسع.
انظر: الفائق في غريب الحديث ٤/١٢٣، والمقصود به هنا: في طريق، أو في معرض.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/٢٩٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ١/١١، رقم ١٠.
(٦) فتح الباري، ابن حجر ١/٥٤.
(٧) نظم الدرر ٢٩/١٢٦.

ذاته، ثم تفرض عليه هذه الحياة أن يعامل أفراد هذه البيئة ويخالطهم، ويتواجد معهم بجسده لسببٍ ما، فحينئذٍ لا يجد إلا أن يهجرهم بمشاعره وقلبه.

وهي هجرة شرعية جعلها الله لمن عجز عن الهجرة ببدنه.

وقد جاء الأمر بهذه الهجرة في القرآن: قال عز وجل: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

قال الحافظ ابن كثير في بيان المراد بهذه الآية: «يقول تعالى آمرًا رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجرًا جميلًا؛ وهو الذي لا عتاب معه»[١].

وقد تعددت أقوال المفسرين في بيان معنى الهجر الجميل:

فقال الزمخشري: «الهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه، ويخالفهم، مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء، وترك المكافأة»[٢].

وقال صاحب الإشارات: «الهجر الجميل: أن تعاشرهم بظاهرك، وتباينهم بسرك وقلبك»[٣].

وقال السعدي عن الهجر الجميل: «هو الهجر حيث اقتضت المصلحة، الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، مع جدالهم بالتي هي أحسن»[٤].

ومن تأمل كلمات المفسرين تتضح لنا صور للهجر الجميل:

- المجانبة القلبية والمخالفة في الأعمال.
- الهجر حيث اقتضت المصلحة مع عدم الإيذاء.
- الإعراض عن الأقوال التي تؤذي، مع الاستمرار في الدعوة والتبليغ.

فليس المقصود من هذا الهجر ترك الدعوة والتبليغ، وإنما هو هجر وإعراض جميل، مع مواصلة الدعوة، وهذا ما نبه إليه الطاهر ابن عاشور رحمه الله بقوله: «ولما كان الهجر ينشأ عن بغض المهجور، أو كراهية أعماله كان معرضًا لأن يعتلق به أذى من سب أو ضرب أو نحو ذلك؛ فأمر الله رسوله بهجر المشركين هجرًا جميلًا، أي: أن يهجرهم ولا يزيد على هجرهم سبًا أو انتقامًا، وهذا الهجر هو إمساك النبي صلى الله عليه وسلم عن مكافأتهم بمثل ما يقولونه، مما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠].

وليس منسحبًا على الدعوة للدين؛ فإنها مستمرة، ولكنها تبليغ عن الله سبحانه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٦.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٤٠.
(٣) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٦٤٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٩٣ بتصرف.

وتعالى، فلا ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم»[1].

وقد انتزع الرازي رحمه الله من هذه الآية منزعًا أخلاقيًا نفيسًا في كيفية التعامل مع الخلق، فقال: «قد جمع سبحانه وتعالى كل ما يحتاج إليه في هذا الباب في هاتين الكلمتين؛ وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطًا للناس أو مجانبًا لهم، فإن كان مخالطًا لهم فعليه أن يصبر على إيذائهم، وإما أن يكون مجانبًا لهم فعليه أن يهجرهم هجرًا جميلًا، بأن يجانبهم بقلبه وهواه، ويخالفهم في أفعالهم مع المداراة والإغضاء»[2].

ومما يستشهد به على هجرة القوم بالمشاعر ما ورد في قول الله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦].

فقد أمر الله رسوله بإعلان براءته وإنكاره، وإظهار عدم رضاه عن معصية قومه بعد دعوتهم، وسواء كان المقصود هم كفار قريش، أو من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم، فسياق الآيات يحتمل القولين، وقد فسرها المفسرون على القولين:

الأول: كفار قريش.

قال الطبري رحمه الله: «فإن عصتك يا محمد عشيرتك الأقربون الذين أمرتك بإنذارهم، وأبوا إلا الإقامة على عبادة الأوثان والإشراك بالرحمن، فقل لهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦].

من عبادة الأصنام، ومعصية باريء الأنام»[3].

الثاني: من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم.

قال السعدي رحمه الله: « ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ [الشعراء: ٢١٦].

في أمر من الأمور فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم بخفض الجناح ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعظهم عليه وانصحهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه، وتوبتهم منه؛ وهذا لدفع احتراز وهم من يتوهم أن قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم ما داموا مؤمنين فدفع هذا بهذا»[4].

وعلى كلا القولين فالآية شاهد على هجرة القوم بالمشاعر عند ارتكاب المعاصي.

وقد ذكر لنا القرآن بعض المواقف العملية للهجرة بالمشاعر، نذكر منها موقفين:

١. موقف إبراهيم عليه السلام ومن معه.

لما نهى الله المؤمنين في سورة الممتحنة عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيم عليه

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٦٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٨٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤١١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٩٨.

السلام، وأن من سيرته التبرؤ من الكفار، فأمر المؤمنين أن يقتدوا به في هذه الهجرة القلبية، فقال عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فنلحظ من هذا الموقف أن إبراهيم عليه السلام والمؤمنين معه أعلنوا البراءة والإنكار على قومهم؛ لكفرهم بالله وعبادتهم ما سواه، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء، جاعلين هذا شعارهم حتى ينتهي قومهم عن كفرهم ومعاصيهم.

قال الطاهر ابن عاشور: «﴿وَبَدَا﴾ معناه: ظهر ونشأ، أي: أحدثنا معكم العداوة ظاهرةً لا موارية فيها، أي: ليست عداوة في القلب خاصة، بل هي عداوة واضحة علانيةً بالقول والقلب»[1].

ونلحظ في نظم الآية الجمع بين العداوة والبغضاء، وإن كانت إحداهما تكفي في التعبير عن هذه الهجرة القلبية، إلا أن القرآن لم يكتف بواحدة؛ بل جمع بينهما للتأكيد على هذه الهجرة القلبية التي وقعت من إبراهيم عليه السلام ومن معه.

قال ابن عاشور: «والعداوة: المعاملة بالسوء والاعتداء، والبغضاء: نفرة النفس والكراهية، وقد تطلق إحداهما في موضع الأخرى إذا افترقتا، فذكرهما معًا هنا مقصود به حصول الحالتين في أنفسهم حالة المعاملة بالعدوان وحالة النفرة والكراهية»[2].

٢. موقف لوط عليه السلام وهجرته لرذائل قومه.

من المواقف العملية التي ذكرها القرآن في هجرة القوم بالمشاعر، ما فعله لوط عليه السلام مع قومه، حين أعلن بغضه لما يفعله قومه من جريمة اللواط، حيث قال: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨].

أي: «إني لعملكم الذي تعملونه -من إتيان الذكور- لمن المبغضين له بغضًا شديدًا»[3].

ومن دلالات النظم على شدة كراهية لوط عليه السلام لهذا العمل، ومفارقته قومه في جريمتهم أمران:

أحدهما: إيثاره التعبير بقوله: ﴿مِنَ الْقَالِينَ﴾ دون غيره، كالمبغضين مثلًا؛ لأنه بغض شديد، كأنه يقلي الفؤاد والكبد لشدته[4].

الأمر الآخر: أراد لوط عليه السلام أن يبين لقومه أنه من زمرة الراسخين في بغض هذا العمل، المشهورين في قلاه، فلم

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٤٤.

(٢) المصدر السابق ٢٨/ ١٤٥.

(٣) التفسير الميسر، مجموعة علماء ص٣٧٤.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٦١ بتصرف.

يقل: «إني لعملكم قالٍ»، وإنما قال: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ وهو أبلغ؛ لدلالته على المعنى المراد.

المهاجرون

تحدث القرآن الكريم عن المهاجرين؛ ليقتدي بهم المؤمنون، وسوف نقوم بتناول منزلتهم ونماذج منهم فيما يأتي:

أولًا: منزلة المهاجرين:

إن للمهاجرين منزلة عالية في القرآن الكريم، فقد احتفى بهم احتفاءً كبيرًا، ويظهر ذلك ما يأتي:

١. تخليد ذكرهم.

ذكر الله سبحانه وتعالى المهاجرين السابقين في كتابه خير ذكر، وخلد ذكرهم أبد الدهر، وقد حدثنا القرآن في غير موضع عن هجرة نبي الله موسى، والخليل إبراهيم، وتهجيره لولده وزوجته: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وكيف أن هذه الهجرة الميمونة كانت هي البشائر لميلاد أمة جديدة صارت هي الأجدر بتلقي كلمات الله ورسالته الأخيرة، والانسياح بها في مختلف الأصقاع والبقاع، وإزالة الظلام الذي ران على العقول والأفئدة في ظل غيبة أنوار التوحيد.

فتخليد الله ذكر المهاجرين السابقين في القرآن تكريمٌ ما بعده تكريم.

٢. ضرب المثل بهم وجعلهم في مقام القدوة.

يستفاد من ذكر القرآن لقصص المهاجرين السابقين أنهم صاروا في موضع الأسوة والقدوة للجماعة المؤمنة على امتداد الزمان وتراخيه.

فذكر القرآن لهم يعني: أن سيرهم ومواقفهم وتضحياتهم وبطولاتهم ستبقى حية ومتداولة لا تنسى على مر العصور، وكر الدهور، تستخرج منها الدروس، وتستنبط من بين ثناياها العبر.

فجعل المهاجرين السابقين مضرب المثل، ومحل اعتبار جموع المؤمنين السائرين إلى ربهم لهو تشريف يعجز الجنان والبنان عن تخيله وتسطيره؛ لأنه مهما سطر فسيبقى خارج التصور.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم(١)، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه؛ فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم -عياذا بالله من ذلك-، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدئون؛ ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون(٢).

ثانيًا: المهاجرون من الأنبياء:

الهجرة أسلوب من أساليب نشر الدعوة، وطريقة للمحافظة عليها من بغي الباغين، وعدوان الجبابرة الظالمين؛ ولهذا كانت الهجرة سبيل الأنبياء السابقين والرسل المتقدمين قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، يرتادون فيها الأرض الخصبة التي تحتضن الدعوة، ويبحثون أثناءها عن البذور الطيبة الصالحة للإخصاب.

وقد حدثنا القرآن عن عدد من الأنبياء الذين هاجروا وتركوا ديارهم، وسنفصل

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٨.

القول في بعضهم:

١. إبراهيم عليه السلام.

هذا النبي المبارك الذي بدأ دعوته في بيئة كفر وشرك، فدعا قومه إلى التوحيد الخالص والعقيدة الصحيحة، ونبذ ما هم عليه من خرافات وأباطيل، دعاهم دعوة واضحة المعالم، ميسورة الفهم.

قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦ – ١٧].

ولكنهم بدلًا من أن يمدوا البصر في دعوته، ويجيلوا النظر في محتوى رسالته، قاموا بإشعال النيران من أجل إحراقه، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

«إنه منطق الحديد والنار الذي لا يعرف الطغاة منطقًا سواه، عندما تعوزهم الحجة وينقصهم الدليل، وحينما تحرجهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين»[١].

فلما يئس إبراهيم من هؤلاء القوم الغلاظ -الذين لم تلن قلوبهم لآية إنجائه من النار- قرر أن يهاجر ويتركهم؛ «لأن الهادي إذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة؛ لأنه إن دام على الإرشاد كان اشتغالًا بما لا ينتفع به مع علمه، وإن سكت فالسكوت دليل الرضا، فيقال بأنه صار منا ورضي بأفعالنا، وإذا لم يبق للإقامة وجه وجبت المهاجرة»[٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

«وهذه أول هجرة لأجل الدين ولذلك جعلها هجرة إلى ربه»[٣].

وقال الله عن هجرته أيضًا: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

«وإبراهيم عليه السلام لم يهاجر للنجاة، ولم يهاجر لأرض أو كسب أو تجارة، وإنما هاجر إلى ربه متقربًا له، ملتجئًا إلى حماه بقلبه وعقيدته، قبل أن يهاجر بلحمه ودمه، هاجر إليه ليخلص له عبادته، ويخلص له قلبه، بل وكيانه كله في مهجره، بعيدًا عن موطن الكفر والضلال، بعد أن لم يبق رجاء في أن يفيء القوم إلى الهدى والإيمان بحال»[٤].

وهجرة إبراهيم عليه السلام «هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية، هجرة يترك وراءه فيها كل شيء من ماضي حياته، يترك فيها أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه، وكل ما

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٩٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٤٧ بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٣٨.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٣٢.

يربطه بهذه الأرض، وبهؤلاء الناس، ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل ويهاجر إلى ربه متخففًا من كل شيء، طارحًا وراءه كل شيء، مسلمًا نفسه لربه لا يستبقي منها شيئًا، موقنًا أن ربه سيهديه، ويرعى خطاه، وينقلها في الطريق المستقيم، إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها في النفس شيء، إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين»(١).

٢. موسى عليه السلام.

من نماذج هجرة الأنبياء في القرآن هجرة سيدنا موسى عليه السلام، ذلك النبي الكريم الذي تحمل الكثير والكثير من أجل إبلاغ الرسالة، وتبصير الناس بها، فقد قال الله له: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤].

وتلك مهمة شاقة؛ لأن فرعون من الجبابرة الطغاة الذين لا يقيمون وزنًا للأرواح والأنفس، إنها مهمة غاية في الصعوبة والخطورة؛ لأنها مواجهة بالموعظة لأعظم ملوك الأرض يومئذٍ؛ ليكشف له فساد حاله، ويحذره من سوء مآله.

ومع كل هذه المصاعب والمخاطر ذهب موسى إلى فرعون، وعرض عليه رسالته، وقال له ولملئه: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝١٩ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ۝٢٠ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ١٨-٢١].

لقد طلب منهم أن يسلموه بني إسرائيل، وألا يتكبروا على الله بتكذيب رسله، «فإن استعصوا على الإيمان فهو يفاصلهم ويعتزلهم، ويطلب إليهم أن يفاصلوه ويعتزلوه، وذلك منتهى النصفة(٢) والعدل والمسالمة، ولكن الطغيان قلما يقبل النصفة؛ فهو يخشى الحق أن يظل طليقًا، ويصل إلى الناس في سلام وهدوء، ومن ثم يحاربه بالبطش، ولا يسالمه أبدًا.

وحين وصلت التجربة إلى نهايتها، وأحس موسى أن القوم لن يؤمنوا له، ولن يستجيبوا لدعوته، ولن يسالموه أو يعتزلوه، وأنه لن يستطيع تبليغ الدعوة وأداء الرسالة، وبدا له إجرامهم أصيلًا عميقًا لا أمل في تخليهم عنه، عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه الأخير: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ٢١]»(٣)، فأتاه الأمر بالخروج: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٩٩٤.

(٢) أنصفت الرجل إنصافًا: عاملته بالعدل والقسط، والاسم: النصفة، بفتحتين، لأنك أعطيته من الحق ما تستحقه لنفسك.
انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٠٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢١٣ بتصرف.

﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٣-٢٤].

وهكذا خرج موسى بقومه، وأهلك الله فرعون وجنده، وهاجر موسى بقومه ليتوجه بهم إلى بلاد جديدة، يستطيع فيها أن يبلغهم الهدايات الإلهية، وتعاليم الرسالة الربانية، وأن ينشئ بهم مجتمعًا فاضلًا على وفق موازينها ومراداتها.

٣. محمد صلى الله عليه وسلم.

كانت مكة حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم قلعة الشرك والوثنية، ومقصدًا لعباد الأصنام من كل حدب وصوب، فبدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته فيها إلى التوحيد وعبادة الله وحده، ونبذ عبادة ما سواه، ولكن قريشًا لم تستقبل دعوته بالود والترحاب، وإنما واجهت رسالته بالتكذيب، وأصحابه بالتعذيب، وقرآنه باللغو: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ولما بدأت دعوته تنتشر ويقبل عليها الناس «قرر المشركون ألا يألوا جهدًا في محاربة الإسلام، وإيذاء الداخلين فيه، والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام، وانفجرت مكة بمشاعر الغضب، وظلت عشرة أعوام تعد المسلمين عصاةً ثائرين، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، واستباحت في الحرم الآمن دماءهم، وأموالهم وأعراضهم، وجعلت مقامهم تحملًا للضيم، وتوقعًا للويل»[1].

ولما لم تنجح هذه المحاولات في قطع دابر الدعوة وثني الناس عنها حز ذلك في نفوس طواغيت الكفر والشرك، فاجتمعوا في دار الندوة؛ ليتخذوا قرارهم الحاسم بالخلاص من النبي صلى الله عليه وسلم، وآنئذٍ أمر الله نبيه بالهجرة؛ فانتقل النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة حيث البلد الجديد، والدولة التي سيجري العمل على بنائها ورفع عمادها، وقد أشار القرآن إلى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وعبر عنها بالإخراج، كما في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

والتعبير عن الهجرة بالإخراج فيه دلالة على حجم الإيذاء الذي تعرض له النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته في مكة

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي ١/ ١١٠ بتصرف.

من قبل المشركين، وعلى شدة تضييق المشركين على الدعوة، ومنعها من الانتشار بين الناس.

ثالثًا: المهاجرون من الصحابة:

إن الهجرة كما مر معنا عمل عظيم، فيه من المشقة والتعب والتضحيات ما فيه، ولا يقوم به بشرطه -حقًا- إلا مؤمن تمكن الإيمان من قلبه، وملأ اليقين فؤاده.

ولولا أن القرآن حدثنا عن أناس ليسوا بأنبياء ولا مرسلين قاموا به لقلنا ما يقوم به إلا نبي أو رسول؛ لأجل هذا كان للمهاجرين من الصحابة رضي الله عنهم مكانة خاصة، ومنزلة سامية في القرآن والسنة.

وقد تحدث القرآن عن المهاجرين من الصحابة على صورتين:

الصورة الأولى: الحديث عنهم بوجهٍ عام.

وهذا يظهر من خلال ما يأتي:

١. ثناء الله عليهم وإظهار عظيم جزائهم.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وفي هذه الآية ثناء بليغ على المهاجرين، وإظهار لفضلهم، ويظهر هذا في الآية من وجوه:

- كلام الله عنهم، وهذه وحدها تكفي لإظهار فضلهم ورفعة درجاتهم؛ إذ الكلام من الرب الجليل مدبر الأفلاك، وفاطر الأرض والسماء، تنويهًا على عظيم صنعهم، وشريف فضلهم.
- تزكية من حذا حذوهم، واقتفى أثرهم، وسار على دربهم، تأمل قوله تعالى: ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ تجد أنه «قيد مؤكد، يكشف عن الإحسان الذي يكون من متابعة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والتأسي بهم، فمتابعتهم هي إحسان. وقوله تعالى: ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ هو توكيد لهذا الإحسان الذي تنطوي عليه المتابعة، وهذا يعني أن ما كان من السابقين من المهاجرين والأنصار هو إحسان كله، فمن تابعهم وتأسى بهم على ما كانوا عليه فهو محسن كل الإحسان»[(١)].
- رفعهم لمقام تبادل الرضا مع الخالق، تأمل قوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. «ورضا الله عنهم هو الرضا الذي تتبعه المثوبة، وهو في ذاته أعلى وأكرم مثوبة، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه سبحانه، والثقة

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٦/ ٨٨١- ٨٨٢ بحذف يسير.

بقدره، وحسن الظن بقضائه»[1].

- جزاؤهم أعده الله. قال تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٠]. فما ظنك بجزاء أعده الله الكريم الجليل؟! إن جزاءهم إذًا لعظيم، ونعيمهم لا يوصف، وسرورهم يوم يلقونه لا يقدر.

ومن الثناء عليهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

قال ابن عباس في رواية عطاء: كان عبد الرحمن بن عوف يخبر أهل مكة بما ينزل فيهم من القرآن، فكتب الآية التي نزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧].

فلما قرأها المسلمون قال حبيب بن ضمرة الليثي لبنيه -وكان شيخًا كبيرًا-: احملوني، فإني لست من المستضعفين، وإني لا أهتدي إلى الطريق، فحمله بنوه على سرير متوجهًا إلى المدينة، فلما بلغ (التنعيم) أشرف على الموت، فصفق يمينه على شماله، وقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعتك يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومات حميدًا، فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: لو وافى المدينة لكان أتم أجرًا، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية[2].

٢. شهادة الله لهم بالصدق.

قال تعالى عن المهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

أي فضل وأي تكريم وأي شهادة أعظم؟! وأي تزكية أعظم لهم من تزكية رب العالمين؟!

قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

إنه إذن الخلود في مقامات الشرف والرفعة، إنها الشهادة لهم بالصدق من خالق هذا الكون.

٣. دعوة القرآن لحسن معاملتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وهذه الآية لها علاقة بحادثة الإفك؛ حيث «إن أبا بكر رضي الله عنه كان ينفق على مسطح بن أثاثة، وكان مسطح ابن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٠٥-١٧٠٦ بتصرف.

(٢) أسباب النزول، الواحدي ص١٧٨.
وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ص٧٧.

خالة أبي بكر الصديق، وكان من فقراء المهاجرين، فلما علم أبو بكر بخوضه في قضية الإفك أقسم أن لا ينفق عليه، فلما تاب مسطح وتاب الله عليه لم يزل أبو بكر واجدًا في نفسه على مسطح فنزلت هذه الآية»[1].

ولقد ظهر هذا جليًا في تعامل الصحابة مع المهاجرين، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حضرته المنية قال: «أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين خيرًا، أن يعرف لهم حقهم، وأن يحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيرًا الذين تبوؤوا الدار والإيمان أن يقبل من محسنهم، ويعفى عن مسيئهم، وأوصيه بذمة الله، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم»[2].

وهذا الوصية العمرية تظهر عميق تقديره للمهاجرين واعترافه بمكانتهم وفضلهم عن غيرهم.

الصورة الثانية: الحديث عن بعضهم بوجه خاص:

وهذا يتجلى في قول الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه أراد أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ويهاجر إلى المدينة، فمنعته قريش وحبسوه، فقال لهم: أعطيكم داري ومالي وما كان لي من شيء، فخلوا عني فألحق بهذا الرجل؟ فأبوا، ثم إن بعضهم قال لهم: خذوا منه ما كان له من شيء وخلوا عنه، ففعلوا، فأعطاهم داره وماله ثم خرج، فأنزل الله عز وجل على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

فلما دنا من المدينة تلقاه عمر في رجال، فقال له عمر: ربح البيع، قال: وبيعك فلا يخسر، قال: وما ذاك؟ قال: أنزل فيك كذا وكذا[3].

وهذه المنازل العظيمة والدرجات الرفيعة التي أعدها الله لهم تثبت فضل المهاجرين، وتوضح أن هؤلاء المهاجرين ما نالوا هذه الدرجات إلا عن تعب ومشقة وبذل وعطاء، وبذا قضى الله تعالى بين عباده أن الدرجات العلى لا تنال إلا بعد معاناة وصبر.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ١٨٨. وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ص١٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ٢/ ١٠٣، رقم ١٣٩٢.

(٣) جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٤٨، وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ص٣٣.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

آثار الهجرة في سبيل الله

أولًا: الآثار الدنيوية:

١. الهجرة إلى الله سبب لسعة الرزق.

الهجرة أحد أسباب السعة في العيش والرزق، وبهذا وعد الله تعالى من خرج مهاجرًا في سبيله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

وفي هذا «بيان للحث على الهجرة والترغيب فيها، وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته يجد مراغمًا في الأرض وسعة، فالمراغم مشتمل على مصالح الدين والسعة على مصالح الدنيا»(١).

«فهم لما تركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، ذكر لهم ثوابًا عاجلًا في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهانئ الذي رأوه عيانًا بعد ما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا وآتاهم الله في الدنيا حسنة»(٢).

ولما هاجر إبراهيم عليه السلام إلى الله عز وجل من دار قومه إلى الشام، رزقه الله

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٦ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ص٤٤١ بتصرف.

بالولد، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، وجعل له الثناء الحسن، والذكر الجميل، وآتاه من خيري الدنيا والآخرة.

قال جل جلاله مخبرًا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦-٢٧].

وقال أيضًا: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

ولما هاجر موسى عليه السلام وفارق ديار مصر فرارًا من بطش فرعون وجنوده، وسع الله عليه فاستأجره الرجل الصالح، وزوجه إحدى ابنتيه، وآواه ونصره.

قال تعالى مخبرًا عن موسى عليه السلام: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٤-٢٧].

ولما هاجر نبينا صلى الله عليه وسلم وصحابته من مكة إلى المدينة أخرجهم الله من الضيق إلى السعة، ومن الاضطهاد والإقصاء إلى العزة والتمكين، فجعل لهم دارًا، ووسع عليهم، ورزقهم من فضله.

٢. الهجرة إرغامٌ لأنوف الأعداء.

الهجرة ثورة على الخضوع للقوى الغاشمة الظالمة، ورفض لمظاهر الكفر والعصيان بمفارقة أرضه وسلطانه وأمره، إنها استعلاء وثبات، وتمسك بالحق، وإصرار عليه؛ ولذا وعد الله تعالى المهاجرين في سبيله بالسعة -كما مر في الآية السابقة- ليكون في ذلك إرغام للأعداء، وإغاظة لقوى الباطل، وشفاء لصدور قوم مؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗ﴾ [النساء: ١٠٠].

يقول الرازي مفسرًا الآية: «المعنى: ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر، يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سببًا لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصيلة؛ وذلك لأن من فارق وذهب إلى بلدة أجنبية، واستقر فيها أمره، وعلم أهله بذلك، خجلوا من سوء معاملتهم معه،

ورغمت أنوفهم بسبب ذلك»[1]. ويقول القرطبي رحمه الله: «فكأن كفار قريشٍ أرغموا أنوف المحبوسين بمكة، فلو هاجر منهم مهاجرٌ لأرغم أنوف قريشٍ؛ لحصوله على منعةٍ منهم، فتلك المنعة هي موضع المراغمة»[2].

وعد الله للمهاجرين بالعاقبة الحسنة والنصر على الأعداء:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ٤١].

فهذه الآية فيها وعد من الله للمهاجرين في سبيله بأن يجعل عاقبتهم حسنة، ومآلهم مرضيًا.

وقد اختلفت أقوال المفسرين في قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ جمعها ابن الجوزي رحمه الله في خمسة أقوال:

الأول: لننزلنهم المدينة.

والثاني: لنرزقنهم في الدنيا الرزق الحسن.

والثالث: النصر على العدو.

والرابع: أنه ما بقي بعدهم من الثناء الحسن، وصار لأولادهم من الشرف.

والخامس: أن المعنى: لنحسنن إليهم في الدنيا[3].

والمتأمل لهذه الأقوال جميعها يدرك أنها جميعًا مرادة، ومفادها أن الله تعالى سيجعل عاقبتهم حسنة، ومصيرهم ومآلهم مرضيًا، وهو ما يدل عليه لفظة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾.

«ولقد صدق الله وعده فأيد المؤمنين بنصره، ومكن لهم فى الأرض، وأذل الكافرين والمشركين والمنافقين، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا»[4].

وعاد المخرجون المهاجرون فاتحين منتصرين، وحقق الله وعده لنبيه حين قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص: ٨٥].

الآثار الأخروية:

١. الهجرة سبيل إلى رحمة الله.

الهجرة من أعظم أسباب النجاة، وأكثر الأعمال رجاءً في إدراك رحمة الله، يقول الله جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ روي أن عبد الله بن جحش وأصحابه حين

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ١٩٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٤٨ بتصرف.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٦٠ باختصار.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٧/ ٢٩٩.

قتلوا الحضرمي في الشهر الحرام، ظن قوم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر، فنزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾[1].

قال الرازي: فإن قيل: لم جعل الوعد مطلقًا بالرجاء ولم يقطع به كما في سائر الآيات؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن مذهبنا أن الثواب على الإيمان والعمل غير واجب عقلًا، بل بحكم الوعد، فلذلك علقه بالرجاء.

وثانيها: هب أنه واجب عقلًا بحكم الوعد ولكنه تعلق بأن لا يكفر بعد ذلك، وهذا الشرط مشكوك فيه لا متيقن، فلا جرم كان الحاصل هو الرجاء لا القطع.

وثالثها: أن المذكور ها هنا هو الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله، ولا بد للإنسان مع ذلك من سائر الأعمال، وهو أن يرجو أن يوفقه الله لها، كما وفقه لهذه الثلاثة، فلا جرم علقه على الرجاء.

ورابعها: ليس المراد من الآية أن الله شكك العبد في هذه المغفرة، بل المراد وصفهم بأنهم يفارقون الدنيا مع الهجرة والجهاد مستقصرين أنفسهم في حق الله تعالى، يرون أنهم لم يعبدوه حق عبادته، ولم يقضوا ما يلزمهم في نصرة دينه، فيقدمون على الله مع الخوف والرجاء[2].

والمقصود أنه سبحانه وضع الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله موضع الرجاء من رحمة الله ولم يعطهم الثواب والمغفرة والرضوان على القطع والتحقيق؛ وذلك ليقيمهم من هذا الرجاء على عمل دائم، وجهاد متصل، وهذا على خلاف ما إذا سوى حسابهم بعد الهجرة وبعد كل موقف من مواقف الجهاد، فقد يقعد بهم هذا عن أن يضيفوا جديدًا، أو يخفوا للجهاد مرة بعد مرة.

ثم إنه من جهة أخرى يرى الذين آمنوا -مجرد إيمان- ولم يهاجروا ولم يجاهدوا يريهم شناعة موقفهم ومغبة تقصيرهم بتخلفهم عن ركب المهاجرين والمجاهدين، ويرفع لأعينهم بعد ما بينهم وبين مواقع رحمة الله ورضوانه؛ إذ يرون المهاجرين المجاهدين ولما يلمسوا بأيديهم مواقع الرحمة والرضوان، وأنهم ما زالوا على رجاء، فكيف بالذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا؟

إن المدى بعيد بينهم وبين أن يصلوا إلى جانب الأمن والسلامة، وإن عليهم أن يحثوا المطي إلى ميدان الهجرة والجهاد؛ ليلحقوا بركب المهاجرين المجاهدين، وليكونوا

(١) لباب النقول ص٣١.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٢٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٥٩، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٧٦.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٩٥.

بمعرض من رحمة الله ورضوانه[1].

ومما يدل على أن الهجرة من أهم أسباب الحصول على رحمة الله قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠-٢١].

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

٢. الهجرة سبب لتكفير السيئات وغفران الذنوب.

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فهم لما هجروا الشرك وأرضه، وتركوا الأوطان التي تربوا فيها، وهانت عليهم أنفسهم وأموالهم؛ إعلاءً لكلمة الله ورغبةً فيما عنده، كافئهم الله بخير مما تركوا؛ «فطهرهم من الذنوب والآثام، ونقاهم منها، ثم أدخلهم بعد ذلك جنته، وأعطاهم فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[2].

«وقد ختم الله تعالى الآية التي بشر فيها المهاجرين بالسعة في الرزق وكيد الأعداء، بالتلويح بالمغفرة لهم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

فمع ضمانة الأجر، التلويح بالمغفرة للذنوب والرحمة في الحساب، وهذا فوق الصفقة الأولى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إنها صفقة رابحة لا شك، يقبض فيها المهاجر الثمن كله منذ الخطوة الأولى، خطوة الخروج من البيت مهاجرًا إلى الله ورسوله»[3].

٣. الهجرة سبب لتحصيل رضوانه وجنته.

من أعظم ما للهجرة من فضل أن الله تعالى وعد المهاجرين وبشرهم بالرحمة الواسعة والرضوان الذي لا سخط بعده، والنعيم المقيم في جنات الخلد.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ١/ ٢٤٢.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن، طنطاوي ٢/ ٣٧٨ بتصرف.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٤٦ بتصرف.

وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠-٢١].

فقد وعدهم الله في هذه الآيات «بإدخال المسرة عليهم، وتحقيق فوزهم، وتعريفهم برضوانه عليهم، ورحمته بهم، وبما أعد لهم من النعيم الدائم، ومجموع هذه الأمور لم يمنحه غيرهم من أهل السقاية والعمارة الذين وإن صلحوا لأن ينالوا بعض هذه المزايا فهم لم ينالوا جميعها»(١).

٤. جزاء من أدركه الموت وهو مهاجر إلى الله.

قال الله تعالى مبينًا أجر من مات مهاجرًا في سبيله: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٠].

وأي أجر أتم، وأي أجر أعظم من أجرٍ تكفل به الله وضمنه؟! ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ «أجره كله، أجر الهجرة والرحلة والوصول إلى دار الإسلام والحياة فيها، فماذا بعد ضمان الله من ضمان؟!»(٢).

﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ «أجرٌ لا يفوته أبدًا ولا يخطئه؛ لأنه أجر مضاف إلى الله بالوعد الذي وعده سبحانه للمهاجرين، ولن يخلف الله وعده»(٣).

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ [الحج: ٥٨-٥٩].

موضوعات ذات صلة:

الأرض، الأنصار، الإيمان، الشرك، الفتنة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٤٩.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٤٦.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٣/ ٨٨١ بتصرف.

الهداية

عناصر الموضوع

مفهوم الهداية	١٢٤
الهداية في الاستعمال القراني	١٢٥
الالفاظ ذات الصلة	١٢٧
مقترنات الهداية	١٢٩
الهداية الفطرية	١٣٦
انواع الهداية	١٣٨
اسباب الهداية	١٤٢
زيادة الهداية	١٥٣
اسباب الحرمان من الهداية	١٥٧
اثر الهداية في الدنيا والاخرة	١٦١

مفهوم الهداية

أولًا: المعنى اللغوي:

الهداية: من الفعل هدى، والهدى نقيض الضلالة[١]، وهي بمعنى الرشاد والدلالة[٢]، و الهداية: دلالة بلطفٍ[٣]، يقال: هديته الطريق هداية، أي: تقدمته لأرشده، وكل متقدم لذلك هادٍ، تقول: هديته هدىً، والهادية: العصا، لأنها تقول ممسكها كأنها ترشده، ومن الباب قولهم: نظر فلان هدي أمره، أي: جهته، وما أحسن هديته، أي: هديه، ويقولون: جاء فلان يهادى بين اثنين، إذا كان يمشي بينهما معتمدًا عليهما، والهدية ما أهديت من لطفٍ: أي: ذي مودة، ويقال: أهديت أهدي إهداءً، والهدي: ما يهدى من النعم إلى الحرم قربة إلى الله تعالى[٤]، ويقال: هدي فاهتدى، ويقال: هديت إلى الحق، وهديت للحق بمعنى واحد؛ لأن هديت يتعدى للمهديين، والحق يتعدى بحرف جر، والمعنى: الله يهدي من يشاء إلى الحق.

والهدى: البيان، أو إخراج شيء إلى شيء، أو الطاعة والورع.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي كثيرًا، فقد قال الجرجاني: «الهداية في الاصطلاح: الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، وقد يقال: هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب»[٥].

وقيل: إن الهداية عند أهل الحق هي الدلالة على طريق من شأنه الإيصال، سواء حصل الوصول بالفعل في وقت الاهتداء، أو لم يحصل[٦].

ويلاحظ أن تعريف الجرجاني أدق، وأشمل؛ لأنه لا بد من حصول المطلوب سواء كانت الهداية طريقًا للدلالة إلى الخير، أو إلى غيره، كما أن الكافرين يهدون إلى سواء الجحيم.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٦/ ٣٧٨.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٣٤٥، مختار الصحاح، الرازي، ص٣١٢.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٥١٦.
(٤) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٣٤٥، مختار الصحاح، الرازي، ص٣١٢.
(٥) التعريفات، ص٢١٥.
(٦) انظر: الكليات، الكفوي، ص٩٥٢.

الهداية في الاستعمال القرآني

وردت مادة (هدي) في القرآن الكريم(٣١٦) مرة، يخص موضوع البحث منها (٣٠٧) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥٥	﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٣]
الفعل المضارع	١٢٦	﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [النساء:٨٨]
فعل الأمر	٣	﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]
اسم الفاعل	٣١	﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرعد:٧]
المصدر	٨٥	﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة:٢]
أفعل التفضيل	٧	﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝٥١﴾ [النساء:٥١]

وجاءت الهداية في الاستعمال القرآني على أربعة عشر وجهًا[٢]:

الأول: البيان: ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:٥]. أي: بيانٍ من ربهم.

الثاني: دين الإسلام: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]. يعني: على دين الإسلام.

الثالث: الإيمان والتوحيد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]. يعني: يزيد الذين آمنوا إيمانًا، وقوله: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ [القصص: ٥٧]. يعني: التوحيد.

الرابع: الداعي: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]. يعني: داعٍ.

الخامس: المعرفة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل:١٦]. يعني: يعرفون السبيل.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الهاء، ص١٣٦٣، ١٣٦٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٥٥.

السادس: الرسل والكتب: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ [طه: ١٢٣]. يعني: رسلًا وكتبًا.

السابع: الرشد: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]. يعني: أن يرشدني.

الثامن: القرآن: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣]. يعني: القرآن.

التاسع: التوراة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾ [غافر: ٥٣]. يعني: التوراة.

العاشر: لا يوفق إلى الحجة ولا يهدي من الضلال: ومنه قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. يعني: لا يهدي إلى الحجة.

الحادي عشر: السنة: ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]. يعني: مقتدون مستنون بسنتهم.

الثاني عشر: لا يهدي: لا يصلح: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]. يعني: لا يصلح عمل الزناة.

الثالث عشر: الإلهام: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. يعني: ثم ألهمه كيف يأتي معيشته ومرعاه.

الرابع عشر: هدنا يعني: تبنا: ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. يعني: تبنا إليك.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصلاح:

الصلاح لغة:

مأخوذ من الفعل (صلح)، والصلاح ضد الفساد[١].

الصلاح اصطلاحًا:

استقامة الحال واعتدالها، وهو مما يفعله العبد لنفسه[٢]. وهو معنى عام يشمل استواء الخلق والخلق والاستقامة على ما توجبه الشريعة، وحصوله على الحالة المستقيمة النافعة.

الصلة بين الصلاح والهداية:

الهداية: هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب، والصلاح: سلوك طريق الهدى، والصلاح أيضًا: استقامة الحال وهو مما يفعله العبد لنفسه، ويكون بفعل الله له لطفًا وتوفيقًا[٣]، وبذلك يتبين أن الهداية والصلاح متلازمتان.

٢ الإرشاد:

الإرشاد لغة:

الرشد يستعمل استعمال الهداية، وهو خلاف الغي[٤]، والضلال. يقال: أرشده الله الأمر، أي: هداه، والرشد هو الصلاح[٥].

الإرشاد اصطلاحًا:

الإرشاد إلى الشيء هو التطريق إليه والتبيين له[٦].

الصلة بين الهداية والإرشاد:

أن الإرشاد إلى الشيء هو التطريق إليه والتبيين له، والهداية هي التمكن من الوصول إليه[٧].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٤٧٩.
(٢) انظر: الفروق اللغوية ص٣١٧.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٠٢.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٢١٨.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٥٣٢.
(٧) انظر: المصدر السابق.

٣ السداد:

السداد لغة:

الاستقامة[١]، وقيل: هو الصواب والقصد في القول والعمل[٢]، والصواب حقٌّ مَنْ يعمل عليه أن ينجو، وحق من يعمل على خلافه أن يهلك[٣].

السداد اصطلاحًا:

هو القصد في الأمر والعدل فيه[٤].

الصلة بين الهداية والسداد:

التسديد للحق لا يكون إلا مع طلب الحق، فأما مع الإعراض عنه والتشاغل بغيره فلا يصح[٥]، وهذا يعني أن التسديد للهداية لا يكون إلا بطلب الهداية، فالسداد طريق الهداية[٦].

٤ الضلال:

الضلال لغة:

مصدر (ضلَّ)، والذي يعني الضياع والذهاب والغياب، وكل من زاغ عن المطلوب والقصد يسمى (ضالًّا)، و(يضل ويضل) لغتان عند العرب[٧].

الضلال اصطلاحًا:

كل عدول عن المنهج عمدًا أو سهوًا، قليلًا كان أو كثيرًا، فهو ضلال[٨].

وقيل: هو العدول عن الصراط المستقيم، وهو ضد الهداية[٩].

الصلة بين الهداية والضلال:

الهداية نقيض الضلال، فالهداية: سلوك طريق يوصل إلى المطلوب[١٠].

---

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢٣٣.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص١٤٧.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٤٢.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٦/ ٢١٢.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٢٤٨.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري، ١/ ١٤٥.
(٧) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٦، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٣٩٠، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٦٣.
(٨) انظر: الكليات، الكفوي، ص٥٦٧.
(٩) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٠٠.
(١٠) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٣٩١.

مقترنات الهداية

اقتران الهداية في القرآن الكريم بعدة أشياء، منها: الرحمة، والنور، والموعظة، والبشرى، والشفاء، والذكرى في القرآن.

١. اقتران الهداية بالرحمة.

لقد اقترنت الهداية بالرحمة لوحدها في اثني عشر موضعًا في القرآن الكريم، منها تسعة مواضع في وصف القرآن، وثلاثة في وصف التوراة.

أما المواضع التي فيها وصف القرآن:

الأول: قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

ومعنى بينة: القرآن، وما جاء به الرسول، فإن قيل: البينة والهدى واحد، فما الفائدة من التكرير؟، قلنا: القرآن بينة فيما يعلم سمعًا، وهو هدى فيما يعلم سمعًا وعقلًا، فلما اختلفت الفائدة صح هذا العطف، ومعنى رحمة: أي نعمة في الدين[1].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

يعني: أن القرآن جعل هدى لقوم مخصوصين، والمراد أنهم الذين اهتدوا بهديه[2].

الثالث: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

في الآية السابقة ذكر الله سبحانه وتعالى في وصف القرآن ألفاظًا ثلاثة:

أولها: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾، فأصل البصيرة الإبصار، ولما كان القرآن سببًا لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه لفظ البصيرة؛ تسمية للسبب باسم المسبب.

ثانيهما: قوله: ﴿وَهُدًى﴾، والفرق بين هذه المرتبة وما قبلها أن الناس في معارف التوحيد والنبوة قسمان:

أحدهما: الذين بلغوا في هذه المعارف إن شهدوها ولم يشاهدوها فهم أصحاب حق اليقين، وإن شهدوها وشاهدوها فهم أصحاب عين اليقين.

والثاني: الذين ما بلغوا إلى ذلك الحد إلا أنهم وصلوا إلى درجات المستدلين، وهم أصحاب علم اليقين، فالقرآن في حق الأولين، وهم السابقون بصائر، وفي حق القسم الثاني وهم المقتصدون هدى، وفي حق عامة المؤمنين رحمة، ولما كانت الفرق الثلاث من المؤمنين قال تعالى: ﴿لِقَوْمٍ

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٤/١٠١.

يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

الرابع: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

المعنى في قوله: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: تحصل به الهداية، والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به، والمصدقين الموقنين بما فيه[2]، وهذا يعني أن قلوبهم تهتدي بالقرآن إلى الرشاد والسداد، والرحمة من رب العباد في هذه الحياة الدنيا، ويوم المعاد.

الخامس: قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

يبين الله تعالى معنى: ﴿وَهُدٗى﴾، أي: أن القرآن الكريم بيان ورشاد لمن جهل سبيل الحق فعمي عنه إذا اتبعه فاهتدى به من ضلالته، ومعنى: ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾، أي: لمن آمن به، وعمل بما فيه[3].

السادس: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

وصف الله تعالى القرآن بكونه ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، لا ينفي كونه هدى للناس كذلك في حق الكل، وإنما خَصَّ المؤمنين بالذكر من حيث إنهم قبلوه فانتفعوا به[4].

السابع: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧].

أي: وإن القرآن لهدى، ورحمة لمن آمن به، وتابع رسوله، وخص المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به، ومن جملتهم من آمن من بني إسرائيل[5].

الثامن: قوله تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣].

لما ذكر الله سبحانه أن القرآن هدى ولم يذكر شيئًا آخر في سورة البقرة قال: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

أي: يهتدي به من ينفي الشرك والعناد والتعصب، وينظر فيه من غير عناد، ولما زاد في هذه الآية: ﴿لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أي: المتقين الشرك والعناد ذكر الإحسان، فالمحسن هو الآتي بالإيمان، والمتقي هو التارك للكفر، فمن جانب الكفر كان متقيًا، وله الجنة، ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسنًا، وله الزيادة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾

(١) انظر: المصدر السابق ١٥/ ١٠٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٦١٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٤٦٦.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٦٤.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ١٨١.

[يونس: ٢٦]؛ ولأنه تعالى ذكر أنه رحمة قال: ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾؛ لأن رحمة الله قريب من المحسنين[١].

التاسع: قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

أي: هذا الكتاب الذي أنزل إليك يا محمد ﴿هُدًى﴾، يعني رشاد، ﴿وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، بحقيقة صحة هذا القرآن، وأنه تنزيل من العزيز الحكيم، وخصَّ جل ثناؤه الموقنين بأنه لهم بصائر، وهدى، ورحمة؛ لأنهم الذين انتفعوا به[٢].

وأما المواضع الثلاثة التي فيها وصف التوراة:

الأول: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

ومعنى الهدى: الدلالة، والرحمة: النعمة[٣]. وقال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: آتينا موسى الكتاب تمامًا وتفصيلًا لكل شيء ﴿وَهُدًى﴾: تقويمًا لهم على الصراط المستقيم، وبيانًا لهم سبل الرشاد لئلا يضلوا، ﴿وَرَحْمَةً﴾، يقول: ورحمة منا بهم ورأفة؛ لننجيهم من الضلالة وعمى البصيرة»[٤].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

فمعنى: ﴿هُدًى﴾، أي: ما يهتدون به من الأحكام، ومعنى: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾، أي: ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة[٥].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

قال الفخر الرازي: «الكتاب هو التوراة، ووصفه الله تعالى بأنه بصائر للناس من حيث يستبصر به في باب الدين، ﴿وَهُدًى﴾: من حيث يستدل به من إن المتمسك به يفوز بطلبته من الثواب، ووصفه بأنه ﴿رَحْمَةً﴾؛ لأنه من نعم الله تعالى على من تعبد به»[٦].

٢. اقتران الهداية بالبشرى.

اقترنت الهداية بالبشرى لوحدها في ثلاثة مواضع، وكلها جاءت في وصف القرآن الكريم، على النحو الآتي:

الأول: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ١٤١.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣١٨.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤/ ٥.
(٤) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٣٤٠٦.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣١٨.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٢٥٥.

﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

جاء لفظ الهدى في الآية السابقة وصفًا للقرآن بالمصدر لقصد المبالغة في حصول الهدى به، والبشرى: الإخبار بحصول أمر سار، أو يترقب على حصوله، فالقرآن بشر المؤمنين بأنهم على هدى، وكمال من الله تعالى، ويشرهم بأن الله تعالى سيؤتيهم خيري الدنيا والآخرة[١].

فالقرآن الكريم مشتمل على أمرين: أحدهما: بيان ما وقع التكليف به من أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وهو من هذا الوجه هدى، وثانيهما: بين ثواب الذي يأتي بهذه الأعمال، وهو من هذا الوجه بشرى، ولما كان الأول مقدمًا على الثاني في الوجود؛ لذلك قدم الله سبحانه الهدى على البشرى[٢].

الثاني: قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

أي: إن القرآن يهدي إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويبشرهم أنَّ لهم أجرًا حسنًا، ماكثين فيه أبدًا، وأنه كلما نزل منه شيئًا فشيئًا كان أعظم هداية، وبشارة لهم[٣].

الثالث: قوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢].

هذه الآية تبين أن آيات الكتاب موصوفة بأنها هدى وبشرى، واختلفوا في وجه تخصيص الهدى بالمؤمنين على وجهين: أولهما: المراد أن يهديهم إلى الجنة وبشرى لهم؛ فلهذا اختصَّ به المؤمنون، وثانيهما: المراد بالهدى الدلالة، وفي تخصيصه بالمؤمنين وجوهًا:

أحدها: أنه خَصَّه بالمؤمنين؛ لأنه ذكر الهدى والبشرى، والبشرى إنما تكون للمؤمنين.

وثانيها: أن وجه الاختصاص أنهم تمسكوا به فخصهم بالذكر كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

وثالثها: المراد من كونها هدى للمؤمنين أنها زائدة في هداهم.

قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦][٤].

ووردت الرحمة والبشرى بعد الهداية في موضع واحد وهو: قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فالكتاب هو القرآن تبيانًا لكل شيء،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٦٢٢.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٣/ ٢١٣.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٠٤.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ١٧٨.

ودلالة إلى الحق ورحمة لهم وبشارة لهم بالجنة[1]، والمعنى: أن القرآن هدى من الضلالة، ورحمة لمن صدق به، وعمل بما فيه من أوامر ونواه، فأحل حلاله وحرم حرامه، وبشارة لمن أطاع الله وخضع له بالتوحيد، وأذعن له بالطاعة، وأن له جزيل الثواب والكرامة في الآخرة[2].

٣. اقتران الهداية بالموعظة.

وجاء اقتران الهداية بالموعظة في موضعين:

أولهما: قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

أي: زيادة بصيرة، وموعظة لكم، ومدار كونه هدى، وموعظة للمتقين إنما هو تقواهم، ويجوز أن يراد بالمتقين الصائرين إلى التقوى[3].

ومعنى البيان: الأيضاح وكشف الحقائق الواقعة، والهدى: الإرشاد إلى ما فيه خير الناس في الحال أو الاستقبال، والموعظة: هي الكلام الذي يلين القلب، ويزجر عن فعل المنهيات، وفيها التحذير والتخويف، وتكون بالترغيب والترهيب[4].

والمعنى: أن القرآن بيان وتنبيه للمكلفين، وهو أيضًا تثبيت، وموعظة للذين اتقوا من المؤمنين[5].

فالقرآن الكريم جعله الله تعالى بيانًا للناس عامة، وهدى وموعظة للمتقين خاصة[6].

والموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

أي: أن الله سبحانه وتعالى جعل الإنجيل هدى وموعظة، ولهذا أكثر فيه من المواعظ، والعبر، والقصص، أما الأحكام فغالبها مستمد من التوراة، والموعظة ما تتعظ به القلوب، وهي الأخبار المقرونة بالترغيب والترهيب، وفي الآية دلالة على أن في الإنجيل قبل تحريفه من العلم، والموعظة ما ينتفع به المتقون[7].

٤. اقتران الهداية بالنور.

اقترنت الهداية بالنور في موضعين:

الأول: في وصف التوراة.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى

---

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٢٢١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥٠٣٨.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ٨٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ٢١٩ بتصرف.
(٥) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٦٧ بتصرف.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ١٩٧٨.
(٧) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، تفسير سورة المائدة ١/ ٤٥٩-٤٦٢ بتصرف.

﴿وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

معنى الهدى: أي: العلم، والنور: أثر نافع يستنير به القلب[١]، وهذا يعني أن هناك فرقًا بين الهدى والنور، فالهدى محمول على بيان الأحكام والشرائع، والتكاليف، والنور بيان للتوحيد، والنبوة، والمعادن وقيل: إن التوراة فيها بيان الحكم الذي جاؤوا يستفتون فيه النبي صلى الله عليه وسلم، والنور بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم حق[٢].

الثاني: في وصف الإنجيل.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

أي: أن الإنجيل هدى، بمعنى أنه اشتمل على الدلائل الدالة على التوحيد، والتنزيه، وبراءة الله تعالى من الصاحبة، والولد، والمثل، والضد، وعلى النبوة، وعلى المعاد، وأما كونه نورًا فالمراد به كونه بيانًا للأحكام الشرعية، ولتفاصيل التكاليف[٣].

وجاءت الذكرى بعد الهداية في قوله تعالى: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: ٥٤].

والمعنى: أن التوراة اشتملت على الهدى والعلم بالأحكام الشرعية، وغيرها، وتذكر بالخير، وترغب فيه، وتذكر أيضًا بالشر، وترهب عنه، وليس ذلك لكل أحد، وإنما هو لأولي الألباب[٤].

٥. اقتران الهداية بالشفاء.

قرنت الهداية بالشفاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [غافر: ٥٤].

فالقرآن كتاب هداية؛ لأنه دليل على الخيرات، ويرشد إلى السعادات، وهو أيضًا شفاء؛ لأنه إذا اهتدى الإنسان فذلك شفاء له من مرض الكفر والجهل[٥].

٦. اقتران الهداية بالنور.

اقترنت الهداية بالنور في موضعين:

الأول: في وصف التوراة.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

والمعنى: أن الكتاب هو التوراة العظيمة جاءت نورًا في ظلمات الجهل، وهدى من الضلالة، وهاديًا إلى الصراط المستقيم علمًا وعملًا، وهو الكتاب الذي شاع وذاع، وملأ ذكره القلوب والأسماع[٦].

الثاني: في وصف القرآن.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ٤٥٨ بتصرف.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٣.
(٣) انظر: المصدر السابق، ١٢/ ١٠- ١١.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٢٥ بتصرف.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٧/ ١٣٥.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٢٩.

﴿مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

أي: جعلنا الروح الذي أوحيناه إليك يا محمد ضياءً ودليلًا على التوحيد والإيمان، نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا، ونرشده إلى الدين الحق[١].

٧. اقتران الهداية بالبركة.

جاءت الهداية مقترنة بالبركة في موضع واحد، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

يخبر الله تعالى بعظمة بيته المحرم، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات، وأنواع الهدايات، وتنوع المصالح، والمنافع للعالمين، وأن فيه آيات بينات، وفيه الحرم الذي من دخله كان آمنا، فلما احتوى على هذه الأمور أوجب الله تعالى حجه، وهو من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان ومكان، ولا يمكن الصلاح بدونها، فمن أذعن لذلك، وقام به فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر، فلم يلتزم حج بيته إن كان مستطيعًا فهو خارج عن الدين، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين[٢].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٦٤٨.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٥٨.

وخلاصة القول أن الهداية، والألفاظ التي قرنت بها في القرآن الكريم جاءت أوصافًا للكتب السماوية، وقد حظي القرآن الكريم بها جميعًا، وبغيرها، حيث إنه شهد للكتب السابقة، ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، والقرآن مشتمل على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، فهو الكتاب الذي يتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه، وهو الكتاب الذي فيه نبأ الأولين والآخرين، وأتم الله تعالى به الشرائع والدين، وفيه الحكم، والحكمة، والأحكام.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨][٣].

فالكتب السماوية جاءت للهداية، والإرشاد، والبيان، والموعظة، والذكرى، وفيها النور، والدلالة على الحق، والشفاء من كل شكٍّ وريب، والقرآن الكريم مصدق للكتب السابقة الموصوفة بالهدى، ومهيمنًا عليها، وشاهدًا لها، وأنَّ ذلك من تمام هدايته، اللهم اهدنا، وألهمنا رشدنا، واجعلنا هداة مهديين لا ضالين، ولا مضلين.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص٢٨٥.

الهداية الفطرية

الفطرة بكسر الفاء: الخلقة[1]، وقيل: معناها: الدين، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة)[2].

وقيل: إن معنى الفطرة: الجبلة المتهيئة لقبول الدين[3]، وقيل معناها: الخلقة التي يخلق عليها المولود في بطن أمه.

قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧].

أي: خلقني.

ويؤيد ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة)[4].

يعني: الخلقة التي فطر عليها في الرحم من سعادة أو شقاوة[5]، وقيل: هي الصفة التي يتصف بها كل موجود في أول زمان خلقته[6].

وبالنظر في التعريفات السابقة يتبين أن التعريف الأخير للفطرة هو الراجح؛ لأنه شامل لجميع المخلوقات، وأما المعاني الأخرى التي وردت في معنى الآيتين والحديثين؛ فإنها تنطبق على الإنسان فقط، والصحيح أن الفطرة تشمل كل موجود، ومن ذلك: الإلهام الفطري للحيوان.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

أي: إن النحل بفطرته يتخذ من الجبال والشجر بيوتًا، وليس ذلك فحسب بل إنها تقوم بعمل خلية تتناسب مع الرحيق الذي تجمعه من الأزهار، كل ذلك بفطرتها، والنملة بفطرتها نصحت أخواتها لئلا يكون النمل عرضة للهلاك، والتحطيم عند مرور سليمان عليه السلام وجنوده، قال سبحانه تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

أي: إن الله تعالى لم يهمل أمر كل دابة في

(١) انظر: الكليات، الكفوي، ص٦٩٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء، ١/٥٨، رقم ٢٤٧.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٢١٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، ٢/٩٤، رقم ١٣٥٨.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٣/٣٢٦.
(٦) انظر: الكليات، الكفوي، ص٥٦٠.

الأرض ولا طائر يطير بجناحيه بل، جعلها أممًا وهداها إلى غاياتها ومصالحها، فكيف لا يهدي البشر إلى كمالهم ومصالحهم؟ فهذه هي الهداية العامة[1].

يلاحظ مما سبق أن الهداية الفطرية العامة جبلة خلق الله سبحانه وتعالى المخلوقات عليها، وهداها إلى ما يصلحها، قال عز وجل: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

أي: كل مخلوق خلقه الله، وأحسن خلقه، وخلقه خلقًا يليق به، ويوافقه، فهذا عام[2]. أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، وهدى كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة المشاهدة في جميع المخلوقات، فكل مخلوق يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به على ذلك[3].

وقد ذكر ابن عطية معنى الهداية الفطرية في تفسيره، وأنها عامة في جميع الهدايات، فقال: «قال مقاتل والكلبي: هدى الحيوان إلى وطء الذكور الإناث، وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي، وقال مجاهد: هدى الناس للخير والشر، والبهائم للمراتع»، ثم قال ابن عطية: «وهذه الأقوال مثالات، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير، وفي كل هداية»[4].

قال ابن القيم: «الهداية العامة، وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمي لمصالحه التي بها قام أمره، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلى: ١ - ٣].

فذكر الله عز وجل أمورًا أربعة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية؛ فسوى خلقه، وأتقنه، وأحكمه ثم قدر له أسباب مصالحه في معاشه، وتقلباته، وتصرفاته، وهداه إليها، والهداية تعليم، فذكر أنه الذي خلق وعلم»[5].

وهذا يعني: أن الله تعالى قدر تقديرًا تتبعه جميع المقدرات فهدى إلى ذلك جميع المخلوقات، وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية[6].

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ١/ ٢٧٦.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٠١.
(٣) انظر: المصدر السابق، ص٦٨٤.
(٤) المحرر الوجيز، ٥/ ٤٦٩.
(٥) مفتاح دار السعادة، ١/ ١٠٥.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨٣.

وخلاصة القول أن الله سبحانه وتعالى قدر أجناس الأشياء، وأنواعها، وصفاتها، وأفعالها، وأقوالها، وآجالها، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه، وينبغي له، ويسره لما خلق له، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها، وهدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والسعادة والشقاوة، وهدى للرشد والضلالة، وهدى الأنعام لمراعيها.

وقيل: قدر أرزاقهم، وأقواتهم، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنسًا، ولمراعيهم أن كانوا وحشًا، وجعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له.

وقيل: خلق المنافع في الأشياء وهدى الإنسان إلى وجه استخراجها منها.

وقيل: قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر وأقل وأكثر، ثم هداه للخروج من الرحم.

فهذه أقوال ذكرها المفسرون في تفسير الآية، والأولى عدم تعيين أي هداية من هذه الهدايات التي ذكرت؛ لأنها تدخل في الهداية الفطرية العامة(١).

أنواع الهداية

إن للهداية أنواعًا متعددة، جاء بيانها في كتاب الله تعالى، منها هداية البيان والدلالة، ومنها هداية التوفيق والإلهام، وستتعرف على هذه الأنواع فيما يأتي:

أولًا: هداية البيان والدلالة:

ومعناها: الدلالة، والإرشاد على الخير والحق، مع بيان ما يعقب ذلك من السعادة، والفوز، والفلاح، فهي مما تفضل الله بها على خلقه، ومن ثم أثبتها للنبي صلى الله عليه وسلم الذي قام بدعوة الناس، وإرشادهم، ودلالتهم إلى الطريق المستقيم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢](٢).

يتبين في هذا النوع من أنواع الهداية الدلالة على الخير والشر، وطريقة النجاة والهلاك.

قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[البلد: ١٠].

وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٥٠٢ بتصرف.

(٢) انظر: نظم الدرر، ١/ ٣٦.

﴿ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

أي: بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا، واختاروا العمى، وتركوا الهدى[١].

وهذه هي هداية الأديان، والشرائع، وهي هداية لابد منها لمن استرقت الأهواء عقله، وسخر نفسه للذاته وشهواته، وسلك مسالك الشرور والآثام، وعدا على بني جنسه، وحدث بينه وبينهم التجاذب والتدافع، فبها يحصل الرشاد إذا غلبت الأهواء العقول، وتتبين للناس الحدود والشرائع، ليقفوا عندها، ويكفوا أيديهم عما وراءها[٢].

والمعنى أن هداية الدين: هي الهداية التي لا تخطئ، والمصدر الذي لا يضل، فقد يخطئ العقل، وتنجرف النفس مع اللذات والشهوات، حتى توردها موارد الهلاك، فيحتاج الإنسان إلى مقوم مرشد هادٍ لا يتأثر بالأهواء، فتسعفه هداية الدين لإرشاده إلى الطريق الأقوم، إما بعد الوقوع في الخطأ، أو قبله، وتظل هذه الهداية هي الحارس الأمين الذي يفيء إليها الإنسان للتزود بمفاتيح الخير، والتسلح بمغلاق الشر، فيأمن العثور، ويضمن النجاة، وتعرفه بحدود ما يجب[٣].

من خلال ما تقدم يتضح أن هداية البيان والدلالة هي هداية الدين والشرائع، وتحتاج إلى العلم والإرشاد والبيان والدعوة، فالإنسان يحتاج إلى هداية الدين التي تفضل الله بها عليه، ووهبه إياها حتى يسلك طريق الخير، ويبتعد عن طريق الشر.

ثانيًا: هداية التوفيق والإلهام:

التوفيق: الفوز والفلاح في كل عمل صالح، وسعي حسن، وحصول ذلك يتوقف على كسب العامل، وطلبه من الطريق الموصل إليه، وتيسير الأسباب التي يسهل معها الحصول عليه، وذلك إنما يكون من الله وحده[٤].

إن هداية التوفيق هي التي أمرنا الله عز وجل بطلبها في قوله سبحانه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ١٧].

وهي هداية تصحبها معونة للقدرة على طاعة الله، وامتثال أمره، والسير في طريق الخير، وترك الشر.

والمراد بطلب الهداية في الآية السابقة أن يدل الله سبحانه وتعالى عبده دلالة تصحبها من لدنه معونة غيبية تحفظه من الوقوع في الخطأ والضلال، وهذه الهداية خاصة بالله سبحانه وتعالى لم يمنحها أحدًا من خلقه[٥].

فالهداية نوعان: هداية البيان، وهداية

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ١/ ٢٧٦، ٢٧٧ بتصرف.
(٢) انظر: نظم الدرر، ١/ ٣٥.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ٥٩.
(٤) انظر: نظم الدرر، المراغي، ١٢/ ٧٤.
(٥) انظر: المصدر السابق ١/ ٣٦.

التوفيق، فالمتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية تامة[1].

وهداية التوفيق والإلهام لا تكون إلا بعد هداية البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل، فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه، وتزيينه في قلبه، وجعله مؤثرًا له، راضيًا به، راغبًا فيه[2].

وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١٧].

وفي قوله تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له)[3].

والمتأمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

يجد أن الله تعالى نفى عن النبي هداية التوفيق، وقال: إنك يا محمد لا تقدر على هداية من أحببت هدايته هداية توفيق، فليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، والله هو الذي يستطيع هداية من يشاء هداية توفيق وشرح صدر، بأن يقذف نورًا في قلبه، أي: فيحيى به، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾[الأنعام: ١٢٢][4].

والله سبحانه وتعالى أثبت للنبي هداية الدعوة والبيان في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].[5].

ولا تناقض بين الآيتين؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقدر على أن يهدي أحدًا هداية توفيق، ولكنه يقدر على هداية الدعوة والبيان، والله سبحانه يهدي من يشاء بقدرته.

وقد منح الله سبحانه وتعالى للإنسان خمس هدايات يتوصل بها إلى سعادته، وهي[6]:

١. هداية الإلهام الفطري: وتكون للطفل

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٩.

(٢) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم ٨٦٨.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٠/ ١٢٢.

(٥) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ١/ ٢٧٧ بتصرف.

(٦) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ٥٩.

منذ ولادته، فهو يحس بالحاجة إلى الطعام والشراب، فيصرخ طالبًا له إن غفل عنه والداه.

٢. هداية الحواس: وهي متممة للهداية الأولى، وهاتان الهدايتان يشترك فيهما الإنسان والحيوان، بل هما في البداية أكمل في الحيوان من الإنسان، إذ إلهام الحيوان يكمل بعد ولادته بقليل، ويكتمل في الإنسان تدريجيًا.

٣. هداية العقل: وهي أسمى من الهدايتين السابقتين، فالإنسان خلق مدنيًا بالطبع ليعيش مع غيره، ولا يكفي الحس الظاهر للحياة الاجتماعية، فلا بد له من العقل الذي يوجهه إلى مسالك الحياة، ويعصمه من الخطأ والانحراف، ويصحح له أغلاط الحواس، والانزلاق في تيارات الهوى.

٤. هداية الأديان والشرائع.

٥. هداية المعونة والتوفيق للسير في طريق الخير والنجاة: وهي أخصُّ من هداية الدين، وهذه الهداية خاصة به سبحانه وتعالى.

والملاحظ أن أنوع الهداية التي ذكرت لا تعدو نوعين فقط، فهداية الإلهام، والحواس، والعقل، والدين كلها هدايات تندرج تحت الهداية العامة، والهداية الخاصة هي هداية المعونة والتوفيق.

وقد جعل ابن القيم أنواع الهداية أربعة(١):

النوع الأول: أحدها الهداية العامة، وهذه هي الهداية الفطرية المشتركة بين الخلق.

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة.

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام.

النوع الرابع: غاية هذه الهداية، وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

وقال الله تعالى على لسان أهل الجنة فيها: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٣-٢٢].

وبالنظر إلى أنواع الهداية التي ذكرها ابن القيم يتبين أن النوع الأول منها هداية عامة فطرية، وأما النوع الثالث فإنه هداية خاصَّة، وتحتاج إلى التوفيق من الله عز وجل، ولا يكون ذلك إلا بالنوع الثاني، وهو هداية البيان والدلالة، وغاية الهدايات النوع الرابع؛ لأن المتقين هم الذين يوفقهم

(١) انظر: بدائع الفوائد، ١/ ٢٧٧ بتصرف.

الله تعالى إلى دخول الجنة بعد دلالتهم وإرشادهم، والآيات السابقة تدل على هداية التوفيق لدخول الجنة.

ويدل على ذلك أيضًا ما جاء في صحيح مسلم: (أن أعرابيًا عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في سفر فأخذ بخطام ناقته، أو بزمامها، ثم قال: يا رسول الله، أو: يا محمد أخبرني بما يقربني من الجنة، وما يباعدني من النار، قال: فكف النبي صلى الله عليه وسلم، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: لقد وفق، أو لقد هدي، قال: كيف قلت؟ قال: فأعاد فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم، دع الناقة)(١).

والشاهد من الرواية السابقة قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لقد وفق، أو لقد هدي)، وفي ذلك دليل على هداية التوفيق من الله عز وجل؛ لدخول الجنة، والله أعلم.

والخلاصة: الهداية نوعان: هداية عامة: وهي الدلالة إلى مصالح العبد في معاده، وهذه تشمل هداية الإلهام، والحواس، والعقل، والدين، وهداية خاصة: وهي الإعانة والتوفيق للسير في طريق الخير والنجاة، وهذه تحتاج إلى البيان والدلالة(٢).

أسباب الهداية

إن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد يوجه المؤمنين إلى الأسباب التي توصلهم إلى الطريق المستقيم الذي غايته التوفيق.

ومن تلك الأسباب:

أولًا: الاعتصام بالله تعالى:

لقد حثَّ القرآن الكريم المسلمين على الاعتصام بالله تعالى، ورغب في ذلك، وأن ذلك سبب في تحصيل الهداية، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

أي: إن المؤمنين جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم، وقيل: إن المعنى: أن الذين آمنوا بالله، واعتصموا بالقرآن سيرحمهم الله عز وجل، ويدخلهم الجنة، ويزيدهم ثوابًا ومضاعفةً ورفعًا في درجاتهم من فضله عليهم، وإحسانه إليهم، ويهديهم طريقًا واضحًا قصدًا قوامًا لا اعوجاج فيه، ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل الجنة، وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة، رقم ١٣.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ٦٠.

المفضي إلى روضات الجنات[1].

والله سبحانه وتعالى جعل الهداية للذي يعتصم به جل وعلا، فقال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[آل عمران: ١٠١].

والمعنى: أن من اعتصم بالله، وتوكل عليه، وتمسك بدينه، وبالقرآن الكريم فقد هدي، ووفق إلى الطريق القويم الذي يوصله إلى المراد.

قال ابن كثير: «أي: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد»[2].

وقد أمر الله بالاعتصام بالقرآن، والتمسك بالدين، وعدم الفرقة في قوله سبحانه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والمتأمل في هذه الآية يجد أنها ختمت بقوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وهذا يعني أن الله تعالى يوضح آياته، ويفسرها، ويبينها، ويعطي الهداية لمن تمسك بتوحيد الله، واهتدى بهدي القرآن الكريم.

قال الشيخ السعدي: «إن الله تعالى يبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال لعلكم تهتدون بمعرفة الحق، والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل على أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرًا له ومحبة، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها»[3].

وجاء هذا المعنى في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به) فحث على كتاب الله ورغب فيه[4].

يتبين مما سبق أن الاعتصام بالله والتمسك بالقرآن الكريم، وبهدي النبي صلى الله عليه وسلم طريق إلى الهداية، والله الموفق.

ثانيًا: تدبر القرآن، واتباعه:

إن التمسك بكتاب الله يكون بتلاوته، وتدبره، والعمل بما جاء فيه، والمتدبر لسورة البقرة يجد في أولها قول الله سبحانه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٨١ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٤١.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان، رقم ٢٤٠٨.

وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وبعد ذلك ذكر صفات المتقين الذين يتدبرون القرآن، ويعملون بما جاء فيه أنهم على هدى من ربهم، ومما يدل على أن القرآن الكريم سبب من أسباب الهداية قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

قال الشنقيطي: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين جل وعلا يهدي للتي هي أقوم، أي: الطريقة التي هي أسدُّ، وأعدلُ، وأصوبُ، وقال الزجاج، والكلبي، والفراء: يهدي للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله، والإيمان برسله، وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق، وأعدلها، وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة»[1].

ولا تكون الهداية إلى خيري الدنيا والآخرة بدون تدبر آيات الله سبحانه وتعالى، والعمل بما جاء فيها، وفي ذلك طرق الاستقامة، والسلامة، والنجاة؛ لأن القرآن الكريم كتاب الهدى والنور، ويهدي إلى الطريق القويم الذي لا اعوجاج فيه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد ورد ما يدل على تدبر آيات الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ومعلوم أن في كتاب الله تعالى العقيدة الصافية، والتشريع، والأخلاق، والقيم، وهو كتاب الهداية والنور، من تمسك به، وبهدي النبي صلى الله عليه وسلم خرج من الظلمات إلى النور، وهُدِيَ إلى صراط مستقيم.

قال الله سبحانه تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

يلاحظ مما تقدم أن من أسباب الهداية إلى الطريق المستقيم التمسك بالقرآن الكريم، وتدبر آياته، وإن الذي يوفق إلى الهداية من اهتدى بهدي القرآن في الدنيا

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٣٧٢.

حتى ينال السعادة في الآخرة، وبالله التوفيق.

ثالثًا: اتباع الرسول عليه السلام:

لقد أكرم الله سبحانه وتعالى هذه الأمة الإسلامية، وأرسل إليها خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، وأمر بطاعته، وجعل اتباعه سببًا من أسباب الهداية.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وليس ذلك فحسب بل إن الذي يطيع الرسول يطيع الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

والله عز وجل قرن طاعة الرسول بطاعته، وأن في ذلك الفوز العظيم، وهذا في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

حتى إن الله جعل القرآن هداية لمن يشاء من عباده، وأثبت الهداية للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

واتباعه صلى الله عليه وسلم علامة من علامات حب الله تعالى للعبد، ومغفرة الذنوب، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

والذي يطيع الله والرسول صلى الله عليه وسلم يكون من الذين أنعم الله عليهم ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

حتى إن أعمال العباد لا تقبل إلا باتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)[1].

وطاعته صلى الله عليه وسلم سبب في دخول الجنة، قال عليه الصلاة والسلام: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى، قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)[2].

والحاصل أن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه من أسباب الهداية التي فيها محبة الله عز وجل للعبد، وفيها مغفرة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم ١٧١٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٧٢٨٠.

الذنوب، وقبول الأعمال، والفوز والفلاح، ودخول الجنة.

رابعًا: الدعاء:

لقد أرشد الحق سبحانه وتعالى عباده إلى طلب الهداية والتوفيق منه جل وعلا وجاء ذلك في أول سورة من سور القرآن الكريم في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].

قال السعدي: « أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط، واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علمًا وعملًا، فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك»[(١)].

والله سبحانه وتعالى أمرنا بطلب الهداية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم)[(٢)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨.

(٢) الجامع الصغير وزيادته، الألباني، ٢/ ٨٠٠،

وقد جاء في صحيح مسلم أن الذي يسأل الله عز وجل الهداية يستجيب له، ويعطيه مسألته، قال رسول الله، قال الله تعالى: (فإذا قال العبد: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]. قال الله تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[(٣)].

ولا بد من طلب الدعاء من الله سبحانه وتعالى من أجل تحقيق هداية التوفيق، والاهتداء والسير على منهج الحق والعدل، والالتزام بطريق الاستقامة، والنجاة في الدنيا والآخرة.

وسؤال الهداية فيه التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم، حيث إنه قال: (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى)[(٤)].

وقد أرشدنا الله تعالى إلى طلب الهداية منه؛ ليكون عونًا لنا، وينصرنا على أهوائنا، وشهواتنا بعد أن نبذل ما نستطيع من الجهد في معرفة أحكام الشريعة، ونكلف أنفسنا الجري على سننها؛ لنحصل على خيري الدنيا والآخرة[(٥)].

رقم ٤٣٤٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم ٣٩٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل،رقم ٢٧٢١.

(٥) انظر: نظم الدرر، المراغي ١/ ٣٦.

والمسلم عليه إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، والاستعانة، والدعاء، والإرشاد، وطلب العون للوصول إلى الهداية، وإلى الدين الحق، والصراط المستقيم[١].

والذين آمنوا يدعون الله عز وجل، ويسألونه الهداية، فإذا أعطوها دعوا ربهم عز وجل أن يثبتهم عليها، ويسلمهم من الزيغ والضلال، قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

ويتبين من الأدلة السابقة أن الدعاء سبب من أسباب الهداية، فلا بد من طلبها، وسؤال الله تعالى الثبات على الهداية التي تنجي صاحبها من الزيغ والضلال، والسلامة لا يعدلها شيء.

خامسًا: الجهاد:

لقد شرع الجهاد في سبيل الله حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حَمِيَّةً، ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[٢].

قال النووي في شرح هذا الحديث: «فيه بيان أن الأعمال إنما تحسب بالنيات الصالحة، وأن الفضل الذي ورد في المجاهدين في سبيل الله يختصُّ بمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا»[٣].

ومن فضائل الجهاد في سبيل الله أنه سبب في الهداية، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال ابن عطية في تفسير الآية: « والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبل الثبوت على الإيمان،

والسبل هاهنا يحتمل أن تكون طرق الجنة ومسالكها، ويحتمل أن تكون سبل الأعمال المؤدية إلى الجنة والعقائد النيرة»[٤].

قيل: إن معنى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: أي: من جاهد في الطاعة هداه سبل الجنة. وقيل: نظروا في دلائلنا ليحصل فيهم العلم بنا[٥]، والمعنى: نبصرهم سبلنا، أي: طرقنا في الدنيا والآخرة[٦].

وقال الشوكاني « أي: جاهدوا في

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١/ ٥٣.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم ١٩٠٤.
(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ٦/ ٥٣٠.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٣٢٦.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ٩٥.
(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢٤٥.

شأن الله لطلب مرضاته، ورجاء ما عنده من الخير ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: أي: الطريق الموصل إلينا »(١).

وقيل: الذين جاهدوا فينا بالثبات على الإيمان لنهدينهم إلى ما لم يعلموا(٢)، وقيل: لنهدينهم سبل السير إلينا، والوصول إلى جنابنا، أو لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير(٣).

وقال ابن عطية: « وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته »(٤)، وهذا يدل على أن الجهاد في الآية لا يقتصر على القتال.

وقال القرطبي: « قال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وعِظَمُهُ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر »(٥).

وهذا يعني أن الذين جاهدوا وثبتوا على الإيمان سيهديهم الله تعالى سبل السير إليه، أي: إن المجاهد سيهتدي إلى سبيل كل خير، ومن ذلك الهداية ودخول الجنة، قال سبحانه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ - ٦].

وجاء في سورة الفتح ما يدل على أن الجهاد سبب من الأسباب المؤدية إلى الهداية.

وهذه الهداية للذين جاهدوا سواء قتلوا، أو لم يقتلوا، والدليل قراءة: (قاتلوا) بزيادة ألف بعد القاف، وتاء مفتوحة، وهي قراءة سبعية متواترة(٦).

والفتح المبين لمكة المكرمة، ولغيرها من البلاد كان بالجهاد، وذكر الله تعالى من فضائله: أن فيه المغفرة، وإتمام النعمة، وأنه من أسباب الهداية، والنصر العزيز، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣].

أي: إن الله تعالى أتم النعمة بإعلاء الدين، وانتشار الإسلام، وفتوح البلاد شرقًا وغربًا، ورفع شأن النبي صلى الله

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٩٩.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان، ٧/ ١٥٥.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٤٨.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٣٢٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٣٩٠.
(٦) انظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد، ص٦٠٠.

عليه وسلم في الدنيا والآخرة، وليرشده إلى الطريق القويم بما يشرعه له من الشرع العظيم، ويثبته على الهدى، ولينصره الله على أعدائه نصرًا غالبًا منيعًا، لا يتبعه ذل، أو هو عزيز المنال فريد المثال(١).

من خلال ما سبق يظهر أن الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا سبب من الأسباب المؤدية إلى سبل الخير، ومنها الهداية، ودخول الجنة.

سادسًا: الاقتداء بأهل الهدى:

لقد دعا الإسلام للاقتداء بأهل الإيمان والصلاح والتقوى، والله عز وجل أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بالأنبياء قبله، وجعل في ذلك الهداية.

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾(٢) [الأنعام: ٩٠].

قال الثعالبي في تفسير هذه الآية: «الظاهر في الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى المذكورين قبل من الأنبياء، ومن معهم من المؤمنين المهديين، ومعنى الاقتداء: اتباع الأثر في القول، والفعل، والسيرة، وإنما يصح اقتداؤه صلى الله عليه وسلم بجميعهم في العقود والإيمان، والتوحيد الذي ليس بينهم فيه اختلاف، وأما أعمال الشرائع فمختلفة، وقد قال عز و جل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وأعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم هو وغيره مخاطب بشرع من قبله في العقود والإيمان والتوحيد، فإن آدم عليه السلام فمن بعده دعا إلى توحيد الله عز وجل دعاء عامًا»(٣).

وقد دل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ على إبطال الشرك، وإثبات التوحيد، كما دل قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ على وجوب اتباع هدي الأنبياء المشترك، وهو أصل التوحيد، وعبادة الله، والفضائل والأخلاق الشريفة، وجميع الصفات الحميدة، واحتج العلماء بهذه الآية على أن رسولنا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الله أمره بأن يقتدي بهم بأسرهم(٤).

والمعنى أن الله تعالى يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بالأنبياء، والسير على طريقتهم في الإيمان بالله، وتوحيده، والأخلاق الحميدة، والأفعال المرضية، والصفات الرفيعة(٥).

وقال الشوكاني في معنى الآية: «إن الإشارة إلى الأنبياء المذكورين لا إلى المهاجرين والأنصار؛ إذ لا يصح أن يؤمر

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٦/ ١٥١.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٤٥٢.
(٣) الجواهر الحسان، الثعالبي، ١/ ٤٩٧.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٧/ ٢٨٥.
(٥) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ٤٢٩.

النبي صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهداهم، وتقديم ﴿فَبِهُدَاهُمُ﴾ على الفعل يفيد تخصيص هداهم بالاقتداء، والاقتداء طلب موافقة الغير في فعله، وقيل: المعنى: اصبر كما صبروا، وقيل: اقتد بهم في التوحيد، وإن كانت جزئيات الشرائع مختلفة، وفيها دلالة على أنه مأمور بالاقتداء بمن قبله من الأنبياء »[1].

وقال الألوسي في معنى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾، أي: « هديناهم إلى الحق والصراط المستقيم والالتفات إلى الاسم الجليل للإشعار بعلة الهداية، وحفظ المهدي إليه اعتمادًا على غاية ظهوره ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، أي: اجعل هداهم منفردًا بالاقتداء، واجعل الاقتداء مقصورًا عليه، والمراد بهداهم عند جمع طريقهم في الإيمان بالله تعالى، وتوحيده، وأصول الدين »[2].

ويتضح من ذلك أن الله تعالى ذكر الأنبياء، وأمر النبي أن يقتدي بهم، وأمره صلى الله عليه وسلم أمر لنا؛ لأنه قدوتنا؛ ولأن الله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١][3].

والله سبحانه وتعالى أمر باتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

هذا أمر من الله تعالى بالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله، وصبره ومصابرته، ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه عز وجل، والمعنى: لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة صالحة، ومثل أعلى يحتذى به، فهلا اقتديتم، وتأسيتم بشمائله صلى الله عليه وسلم، فهو مثل أعلى يقتدى به، إذا كنتم تريدون ثواب الله وفضله، وتخشون الله وحسابه فعليكم باتباعه صلى الله عليه وسلم؛ لأن في ذلك الهداية[4].

ومما سبق يتضح وجوب الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة الكرام، وأهل العلم، والصالحين من هذه الأمة، وأن ذلك من أسباب الهداية، وجاء في أبواب الحديث باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فوعظنا موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون،

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ١٧٧.
(٢) روح المعاني، الألوسي، ٥/ ٣١٤.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٦/ ٨٠.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٢٧٣.

فقيل: يا رسول الله: وعظتنا موعظة مودع فاعهد إلينا بعهد، فقال: عليكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبدًا حبشيًا، وسترون من بعدي اختلافًا شديدًا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمور المحدثات فإن كل بدعة ضلالة»[1].

وخلاصة القول: إن الاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، والاهتداء بهديهم سبب من الأسباب التي تحقق الهداية التي يسعى العبد للوصول إليها.

سابعًا: التفكر في الكون:

إن في خلق السموات والأرض، وما بث الله سبحانه وتعالى فيهما من الآيات الكونية، والمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار تدل على وجود الله تعالى، وتوحيده، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، ولم يخلق الله ذلك إلا لحكمة، ومصلحة للإنسان، وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات الكونية، مثل: رفع السماء بغير عمد، ومد الأرض، وجعل الجبال الرواسي فيها، وتسخير الشمس والقمر، وما فيهما من فوائد، وهذه الآيات، وغيرها فيها علامات قاطعة على أن الله تبارك وتعالى خالقها، وهو الرب المعبود وحده، وفي معرفة ذلك هداية الإنسان، وصلاح أموره في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٢-٣].

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيتين السابقتين من الآيات الكونية ما يدعو الإنسان للتدبر، والتفكر، واليقين حتى يميز الحق من الباطل، وأن الذي يتفكر في هذه المخلوقات يعلم أن الله عز وجل خالقها، ولا يكون ذلك إلا من أصحاب العقول السليمة التي لا تحيد عن الحق، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وهذه الآيات الكونية، وغيرها فيها الهداية، قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) أخرجه ابن ماجه، المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، ١/ ٢٠، رقم ٤٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٠٥، رقم ٤٣٦٩.

رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥-١٦].

والمعنى: أن ما على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف، وهداية للإنسان، وهذه المخلوقات لما كانت مجعولة كالتكملة للأرض، وموضوعة على ظاهر سطحها عبر عن خلقها، ووصفها بالإلقاء الذي هو رمي شيء على الأرض، ولعل خلقها كان متأخرًا عن خلق الأرض، إذ لعل الجبال انبثقت باضطرابات أرضية كالزلزال العظيم، ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار، وأما السبل والعلامات فتأخر وجودها ظاهر، فصار خلق الأرض، والرواسي، والأنهار، والسبل شبيهًا بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه، والعلامات: الأمارات التي ألهم الله الناس أن يضعوها أو يتعارفوها لتكون دلالة على المسافات، والمسالك المأمونة في البر والبحر فتتبعها السابلة.

والله سبحانه وتعالى هدى الإنسان بالنجم، وهذه منة بالاهتداء في الليل؛ لأن السبيل والعلامات إنما تهدي في النهار، وقد يضطر السالك إلى السير ليلًا؛ فمواقع النجوم علامات لاهتداء الناس السائرين ليلًا تعرف بها السموات، وأخصُّ من يهتدي بها البحارة؛ لأنهم لا يستطيعون الإرساء في كل ليلة فهم مضطرون إلى السير ليلًا، وهي هداية عظيمة في وقت ارتباك الطريق على السائر، والمقصود بذلك النجوم التي تعارفها الناس للاهتداء كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧][١].

والله سبحانه وتعالى ألقى في الأرض الجبال العظام؛ لأجل عباده؛ لئلا تميد بهم، وتضطرب بالخلق فيتمكنون من حرث الأرض، والبناء، والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهارًا على وجه الأرض يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها؛ لسقيهم وسقي مواشيهم وحروثهم، وجعل أيضًا أنهارًا في بطنها يستخرجون الماء منها بحفرها بما سخر الله لهم من الأدوات، والآلات، ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سبلًا، أي: طرقًا توصل إلى الديار المتنائية، حتى إنك تجد أرضًا مشتبكة بالجبال مسلسلة فيها، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين، وهذا كله من لطف الله، وهدايته[٢].

والآيات الكونية في القرآن الكريم كثيرة، وإنَّ المتأمل في مخلوقات الله يجد أنها تدلُّ

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/ ١٢١ بتصرف.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٧، بتصرف.

على الخالق جل وعلا، وأن هذه الآيات تقود أصحاب العقول السليمة إلى توحيد الله تبارك وتعالى.

زيادة الهداية

إن العبد إذا آمن بالقرآن الكريم، وأخذ حظوظه منه، واهتدى به مجملًا، وقبل أوامره، واجتنب نواهيه، وصدق بأخباره كان ذلك سببًا لحصول هداية أخرى له على التفصيل؛ لأن الهداية لا نهاية لها، فإذا زاد الإيمان، وزادت التقوى عند العبد زادت الهداية.

قال ابن القيم: « إن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملًا، وقبل أوامره، وصدق بأخباره كان ذلك سببًا لهداية أخرى تحصل له على التفصيل فإن الهداية لا نهاية لها، ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى، وكلما فوّت حظًا من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هداه، وكلما اهتدى زادت تقواه.

قال تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠].

وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

ونظير ذلك قوله: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]»(١).

يتبين من كلام ابن القيم أن الهداية تزيد بالرجوع إلى القرآن الكريم، والتقوى، والتوبة، والذكرى، والأعمال الصالحة، وفي المقابل فإنها تنقص مع نقص الإيمان والتقوى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

أي: إيمانًا، وإيقانًا على يقينهم(٢).

وقال السعدي في تفسير هذه الآية: «لما ذكر أنه يمد للظالمين في ضلالهم، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقًا في العلم، والإيمان، والعمل الصالح زاده الله منه، وسهله عليه، ويسره له، ووهب له أمورًا أخر لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١].

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

ويدل عليه أيضًا الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور، أعظم تفاوت»(٣).

والآيات السابقة تدل على أن الإيمان يزداد وينقص.

قال النووي: «مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. قال ابن بطال: فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص: قال: فإن قيل: الإيمان في اللغة: التصديق. فالجواب: أن التصديق يكمل بالطاعات كلها، فما ازداد المؤمن من أعمال البر كان إيمانه أكمل، وبهذه الجملة يزيد الإيمان، وبنقصانها ينقص، فمتى نقصت أعمال البر نقص كمال الإيمان، ومتى زادت زاد الايمان كمالًا، هذا توسط القول في الإيمان، وأما التصديق بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فلا ينقص»(٤).

يتبين مما تقدم أن الإيمان حينما يزيد تزيد الهداية، وإذا نقص الإيمان نقصت الهداية، وهذا ما أخبرنا عنه القرآن أيضًا في

(١) الفوائد، ابن القيم، ص١٦٠.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٠٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٧٣.
(٤) شرح صحيح مسلم، النووي، ٢/ ٧.

قصة أصحاب الكهف.

قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣].

قال ابن جرير الطبري في معنى هذه الآية: « نحن يا محمد نقص عليك خبر هؤلاء الفتية الذين أووا إلى الكهف بالحق، يعني: بالصدق، واليقين الذي لا شك فيه ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، يقول: إن الفتية الذين أووا إلى الكهف الذين سألك عن نبئهم الملأ من مشركي قومك، فتية آمنوا بربهم، ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، يقول: وزدناهم إلى إيمانهم بربهم إيمانًا، وبصيرة بدينهم، حتى صبروا على هجران دار قومهم، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ولينه، إلى خشونة المكث في كهف الجبل »[1].

ويتبين من ذلك أن أصحاب الكهف عندهم قيم صحيحة، ولديهم الصدق واليقين، وزيادة الإيمان، والصبر مما جعلهم يفرون بدينهم خوفًا من الطاغية صاحب القيم الزائفة، من أجل ذلك زادهم الله هدى بالتوفيق، والثبات والصبر.

وحول هذا المعنى، قال الزمخشري:« زادهم الله هدى بالتوفيق والتثبيت والربط على قلوبهم وتقويتها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم، والفرار بالدين إلى بعض الغيران، وتجسيرهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام، إذ قاموا بين يدي الطاغية الجبار من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم: ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾»[2].

وهذا يدل على إيمانهم بالله وحده فزادهم الله من الهدى، قال السعدي: « هؤلاء الفتية آمنوا بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان، زادهم الله من الهدى، الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦]»[3].

وجاء ما يوافق هذا المعنى كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

أي: من أجل الإيمان زادهم الله هدى، وقيل: زادهم النبي صلى الله عليه وسلم هدى، وقيل: زادهم ما يسمعونه من القرآن هدى، أي: يزيد يقينهم، وقيل: زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى، وقيل: زادهم نزول الناسخ هدى، وفي

(١) جامع البيان، الطبري، ١٥/ ٢٠٧.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٤٧٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٣٤.

الهدى الذي زادهم أربعة أقاويل: أحدها: زادهم علمًا، والثاني: أنهم علموا ما سمعوا، وعملوا بما علموا، والثالث: زادهم بصيرة في دينهم وتصديقًا لنبيهم صلى الله عليه وسلم، والرابع: شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان[(١)].

وعلى كل تقدير فالمراد أنه سبحانه وتعالى زادهم إيمانًا، وعلمًا، وبصيرة في الدين، وهذه الأشياء كلها فيها الهداية، وزيادتها[(٢)].

وحول هذا المعنى، قال ابن كثير: « إن الذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها، وزادهم منها »[(٣)].

وقد يكون معنى زيادة الهداية: بزيادة التفهيم والأدلة، أو بورود الشرائع، والنواهي، والأخبار.

قال ابن عطية: « قوله تعالى: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ يحتمل أن يكون الفاعل في ﴿زَادَهُمْ﴾ : الله تعالى، والزيادة في هذا المعنى تكون إما بزيادة التفهيم والأدلة، وإما بورود الشرائع، والنواهي، والأخبار؛ فيزيد الاهتداء؛ لتزيد علم ذلك كله، والإيمان به، وذلك بفضل الله تعالى، ويحتمل أن يكون الفاعل في: ﴿زَادَهُمْ﴾ قول المنافقين واضطرابهم؛ لأن ذلك مما يتعجب المؤمن منه، ويحمد الله على إيمانه، ويزيد بصيرة في دينه، فكأنه قال: المهتدون والمؤمنون زادهم فعل هؤلاء المنافقين هدى، أي: كانت الزيادة بسببه، فأسند الفعل إليه، وقالت فرقة: إن هذه الآية نزلت في قوم من النصارى، آمنوا بمحمد، فالفاعل في: ﴿زَادَهُمْ﴾ محمد عليه السلام كان سبب الزيادة فأسند الفعل إليه، وقوله على هذا القول: ﴿اهْتَدَوْا﴾ يريد في إيمانهم بعيسى عليه السلام، ثم زادهم محمد هدىً حين آمنوا به، والفاعل في ﴿وَآتَاهُمْ﴾ يتصرف بحسب التأويلات المذكورة، وأقواها أن الفاعل الله تعالى، ﴿وَآتَاهُمْ﴾، معناه: أعطاهم، أي: جعلهم متقين له»[(٤)].

والراجح أن الفاعل في: ﴿زَادَهُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى؛ لأن الهداية المذكورة هداية التوفيق التي نفاها الله عز وجل عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يعني أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يمتلك هداية التوفيق، وغيره لا يمتلكها من باب أولى.

والملاحظ مما سبق أن الهداية تزيد بزيادة الإيمان، والأعمال الصالحة، والثبات على الدين، وتجنب الفتن.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٩/ ٢٦٣، ٢٦٤، بتصرف يسير.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٤٢،.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٠٢.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ١١٥.

اسباب الحرمان من الهداية

إن للهداية أسبابًا، والسعيد من التزمها، وثبت عليها، وعمل على زيادتها، والخاسر من حرم منها، فمن الناس من يطرق بابها ولكنه لا يوفق إليها؛ وذلك لوجود موانع تمنعه من تحصيلها.

فمن أسباب الحرمان من الهداية:

أولًا: الكفر:

لقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على أن الله عز وجل يحرم الكافرين، ويمنعهم من التوفيق للهداية.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

قال الشوكاني في معنى الآية: « إن المصرين على كفرهم المستمرين عليه لا يهديهم الله عز وجل إلى هداية توصلهم إلى المطلوب، وأما الهداية بمعنى الدلالة على الحق والإرشاد إليه فقد نصبها الله سبحانه لجميع عباده »[١].

والمعنى: إن الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، وأصبحت قاسية، ومطبوع عليها يحرمون الهداية حتى لو جاءتهم كل آية، لم يهتدوا.

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

قال السعدي في معنى الآية: « هذا من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قومًا اختاروا الكفر والضلال بعدما آمنوا، وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البينات والبراهين القاطعات »[٢].

فالذي يكفر الكفر الأكبر المخرج من الملة، ويصر عليه يحرم الهداية، ولكن لا يستهان بالكفر الأصغر؛ فقد يَجُرُّ صاحبه إلى الكفر الأكبر، والسلامة لا يعدلها شيء.

ثانيًا: الظلم:

إن الظلم مانع من موانع الهداية، وسبب من أسبابها، والظلم الذي يحرم صاحبه الهداية هو الظلم الأكبر المخرج من الملة.

ودليل ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

فهذه الآية تدل دلالة واضحة على تحريم موالاة اليهود والنصارى، ولفظ الظالمين يشمل كلَّ ظالم، والله تعالى لا يهدي الظالمين، والهداية المنفية في هذه الآية هي هداية التوفيق؛ فيحرم منها كل من

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٤٥٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣١٢.

والى اليهود والنصارى؛ لأنهم أعداء الله، ورسوله، والمؤمنين.

والمعنى: إن في الآية تعليل لكون الذين يتولون اليهود والنصارى لا يهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأنهم؛ فيقعون في الكفر والضلالة، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تنبيهًا على أن توليهم ظلم لما أنه تعريض لأنفسهم للعذاب الخالد، ووضع للشيء في غير موضعه، وهذا سبب حرمانهم الهداية[1].

والذي يظلم نفسه ظلم الاعتقاد المخرج من الملة، ويوالي أعداء الله عز وجل يكون قد ارتكب محرمًا؛ فيحرم الهداية من الله تعالى، وقد فسر القرآن الكريم الظلم بالشرك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وهذا يعني أن الشرك سبب من أسباب الحرمان من الهداية.

ثالثًا: الفسق:

الخروج عن طاعة الله تبارك وتعالى يؤدي إلى زيغ القلوب، وحرمان الهداية.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

أي: الذين لم يزل الفسق وصفًا لهم، ليس لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظلمًا منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال، والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه، وتقليب القلوب عقوبة لهم وعدلًا منه بهم؛ فهؤلاء يحرمون الهداية[2].

والمعنى: إن بني إسرائيل لم يتبعوا نبيهم موسى عليه السلام، وتركوا الحق الذي جاءهم به، وآذوه، عند ذلك أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الحيرة والشك، وصرفها عن الحق، وكان ذلك سببًا في حرمانهم من الهداية، وكل من فعل فعلهم يحرمها؛ لأن الله تعالى لا يوفق للحق، ولا يرشد للهداية القوم الفاسقين الفسق الأكبر المخرج من ملة الإسلام.

والنفاق من الفسق، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

فالآية تدل على أن النفاق فسق؛ فيكون النفاق مانعًا من موانع الهداية، وسببًا من

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤٨/٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٩٦.

أسبابها.

رابعًا: الكذب:

إن الله عز وجل لا يرشد، ولا يوفق للهداية كل من افترى عليه الكذب، وقال حسب زعمه: إن لله ولدًا، وإن الآلهة تشفع له، وتقربه إلى الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ [الزمر: ٣].

والمعنى: إن الله لا يوفق للدين الذي ارتضاه، وهو دين الإسلام، ولا يعطي هداية التوفيق من كذب على الله، وافترى عليه، وقلبه كافر بآياته، وحججه وبراهينه[١]، وليس ذلك فحسب بل إنه يمنع من هدايته.

وجاء هذا المعنى في آيات أخرى من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

خامسًا: الكبر:

إن المتكبر عرضة للطبع على قلبه؛ فيكون من المسرفين.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

فالآية تدل على أن هذا الطبع إنما حصل من الله؛ لأنه كان في نفسه متكبرًا جبارًا، والمعنى أن الله تعالى يخلق دواعي الكبر والرياسة في القلب؛ فتصير تلك الدواعي مانعة من حصول ما يدعون إلى الطاعة والانقياد لأمر الله[٢].

ومعنى ذلك أن الله تعالى يطبع على قلوب المسرفين والمتكبرين الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، فيحرمون الهداية؛ لأن القلب المطبوع عليه لا يستقبل هدى بسبب الكبر.

سادسًا: الخيانة:

الخيانة خصلة ذميمة تحرم صاحبها الهداية، ودليل ذلك ما ورد في سورة يوسف، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

قال الألوسي في معنى الآية: « أي: لا ينفذه ولا يسدده بل يبطله ويزهقه؛ فهداية الكيد مجاز عن تنفيذه، ويجوز أن يكون المراد لا يهدي الخائنين بسبب كيدهم؛ فأوقع الهداية المنفية على الكيد، وهي

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٣/ ٢٤٦ بتصرف.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٧/ ٦٤.

واقعة عليهم تجوزًا للمبالغة؛ لأنه إذا لم يهد السبب علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى»[1].

والآية تدل على أن الله تعالى نفى عن الخائنين الهداية؛ حيث إنهم يحرمون منها بسبب الكيد.

سابعًا: الضلال:

الضلال نقيض الهداية، ولا يمكن للضال أن يجمع بين الهداية والضلالة في آنٍ واحدٍ، فالجمع بين النقيضين مستحيل، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية: «أي: من حقَّ عليه القضاء بضلالة فما له من هاد يهديه إلى الرشد، ويخرجه من الضلالة»[2].

قال السعدي: «﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه، والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء»[3].

ويتضح من الآية أنَّ الضالَّ لا يوفق إلى المطلوب، ويكون محرومًا من الهداية، وليس له سبيل إلى الهدى.

(١) روح المعاني، الألوسي، ١٢/ ٣٩٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٥٥٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٠٠.

ثامنًا: اتباع خطوات الشيطان:

إن الشيطان يزين للإنسان عمله حتى يرى السيِّئ حسنًا، وليس ذلك فحسب بل إنه يصده عن سبيل الهداية.

قال تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

والمعنى: أن الهدهد وجد ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله، والسبب في ذلك أنَّ الشيطان زين لهم سوء أعمالهم؛ ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾، أي: وجد هذه الملكة، وقومها يعبدون الشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان قبيح أعمالهم، فصاروا يرون السيِّئ حسنًا، ومنعهم الشيطان عن طريق الحقِّ، وعبادة الله الواحد الأحد، فأصبحوا لا يهتدون؛ وهذا يعني أنهم حرموا الهداية[4].

ويتبين من ذلك أنَّ الشيطان يغوي الإنسان، ويزين له سوء عمله، ويضله، حتى يحرمه الهداية، وخطوات الشيطان عامة في منع الهداية.

قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٩/ ٢٨٥.

أثر الهداية في الدنيا والآخرة

إن للهداية أثرًا عظيمًا لمن التزمها؛ فالمهتدي يجد صلاح البال، والسعادة، والأمن في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

والمعنى: إنَّ الله سبحانه وتعالى أرسل إلى بني آدم رسلًا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه، وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدوِّ المبين، وأنهم، أي: وقت جاءهم ذلك الهدى الذي هو الكتب والرسل، فإن من اتبعه اتبع ما أمر به، واجتنب ما نهي عنه، فإنه لا يضل في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا يشقى فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة، وله السعادة، والأمن في الآخرة[1].

والله سبحانه وتعالى نفى الخوف والحزن عمن اتبع الهدى، فقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

قال السعدي: «نفى الله الخوف والحزن عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا، حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفى الضلال والشقاء عمن اتبع هداه، وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه حصل له الأمن والسعادة الدنيوية، والأخروية، والهدى»[2].

والآية تدلُّ دلالة واضحة أنَّ الله تعالى نفى عن المهتدي الخوف والحزن، وأثبت له الأمن والهدى، والسعادة في الدنيا والآخرة.

والله تعالى يجعل من المهتدين أئمة من أجل هداية غيره، قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

أي: إنَّ الله تعالى جعل منهم أئمة يقتدى بهم، علماء بالشرع، وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، ويهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وهم على الهدى، وأتباع مهتدون بهم[3].

والله عز وجل جعل نصرته للمهتدين في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٢-٣].

والآية تعني أن النصر على الأعداء يكون لمن هداهم الله، وقال ابن عطية: «النصر العزيز: هو الذي معه غلبة العدو، والظهور عليه»[4].

وأهل الجنة يدخلونها، ويسلم الله

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٢٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٢.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٩٠٥.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/١٢٦.

صدورهم من الغل، ويحمدون الله على ذلك، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ « أي: لهذا الجزاء العظيم، وهو الخلود في الجنة، ونزع الغل من صدورهم، والهداية هي الهداية لسببه من الإيمان، والعمل الصالح، وما كنا نطيق أن نهتدي لهذا الأمر لولا هداية الله لنا، أي: لولا هداية الله لنا ما كنا لنهتدي»[١].

وجاء في سورة محمد ما يدل على أن المهتدين يصلح الله بالهم، ويدخلهم الجنة.

قال تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٥-٦].

فجاءت الهداية قبل صلاح البال، ودخول الجنة، والمعنى كما قال الزحيلي « أي: سيوفقهم الله تعالى للعمل بما يحبه ويرضاه، ويرشدهم إلى طريق الجنة، ويصلح حالهم، وأمرهم، وشأنهم في الآخرة، أي: تحفظ أعمالهم وتخلد لهم، ويدخلهم روضات الجنات يحبرون فيها، وقد عرفهم بها، وأعلمهم وبينها لهم من غير استدلال، حتى إن أهلها يهتدون إلى بيوتهم ومساكنهم من غير مرشد ولا دليل »[٢].

ومما سبق يتضح أن الهداية لها أثر على من اهتدى في الدنيا والآخرة، والله الموفق، والهادي إلى سواء السبيل.

موضوعات ذات صلة:

الإصلاح، الدعوة، الصلاح، الضلال، الفلاح، النجاة، النصيحة

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٢٦٢.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٦/ ٨٧.

الهزيمة

عناصر الموضوع

مفهوم الهزيمة	١٦٤
الهزيمة في الاستعمال القرآني	١٦٥
الألفاظ ذات الصلة	١٦٦
عوامل الهزيمة	١٦٨
أنواع الهزائم	١٨٤
آثار الهزيمة	١٩٣

مفهوم الهزيمة

أولًا: المعنى اللغوي:

مادة (هـ ز م) لها معانٍ كثيرة ومتنوعة، منها:

أولًا: (هزم) وهو الأشهر، بمعنى: كسر وشقق وحطم، وأصل (الهزم) كسر الشيء، وفي هزم العدو كسر له[1].

ثانيًا: الهزم بمعنى: الذبح، واهتزمه بمعنى: ذبحه، «والاهتزام: الذبح»[2].

ثالثًا: الهزم بمعنى النقر والحفر، هزم الشيء إذا غمزه بيده فصارت فيه حفرة[3].

رابعًا: الهزم بمعنى الصوت، وهو خروج صوت للرعد أو الريح «وهزم القدر إذ يسمع لها صوت عند شدة الغليان»[4].

خامسًا: الهزم بمعنى المنخفض من الأرض، وكل موضع منخسفٍ فهو هزمة[5].

وإذا تتبعنا هذه المعاني مجتمعة، ونظرنا فيها وجدناها كلها يصح إطلاقها على معنى الهزيمة الذي نحن بصدد دراسته.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

المعنى الاصطلاحي يدور حول المعنى اللغوي ولا يختلف عنه، فهي انكسار يعتري الخصم، سببه قتل أو أسر أو ضرر نفسي وقع من الطرف الآخر.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ٥١، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٠٨.
(٢) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد ١/ ٢٩٦، الصحاح، الجوهري ٥/ ٣٣٦.
(٣) انظر: شمس العلوم، نشوان الحميري ١٠/ ٦٩٢٧، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٥٠٩، تاج العروس، الزبيدي ٣٤/ ٩٢.
(٤) المنجد في اللغة، علي بن الحسن الأزدي ص ٣٥٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ١٥٠٩.
(٥) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد ١/ ٢٩٦.

الهزيمة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (هزم) في القرآن الكريم (٣) مرات [١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة:٢٥١]
الفعل المضارع	١	﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر:٤٥]
اسم المفعول	١	﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص:١١]

وجاءت الهزيمة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: الحطم والكسر، وصارت الهزيمة متعارفًا عليها في فرار الجيش من الغلبة [٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٣٧، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهاء ص١٣٧٥.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٣٢٤، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٢٥١.

الألفاظ ذات الصلة

١ التولي:

التولي لغة

تولى عن الشيء، أي: أدبر عنه، و ولى عنه أي: أعرض عنه أو نأى[(١)].

فَتَوَلَّى إذا عُدِّي بنفسه اقتضى معنى الولاية، وحصوله في أقرب المواضع منه، يقال: وَلَّيْتُ سمعي كذا: أقبلت به عليه، وإذا عدي ب (عن) لفظا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراض[(٢)].

التولي اصطلاحًا

قال المناوي: التولي هو الإعراض المتكلف بما يفهمه التفعل[(٣)].

صيغة تفعل هنا تفيد التكلف كما في قولهم: تحلم، أي: تكلف الحلم[(٤)].

الصلة بين التولي والهزيمة

بالنظر لمعاني التولي اللغوية والمعنى الاصطلاحي تتضح لنا العلاقة الكبيرة بين الهزيمة وبين التولي الذي هو من مظاهر الهزيمة وعلاماتها؛ لأن المنهزم يحول ظهره ودبره إلى جهة الذي هزمه هربًا إلى ملجإٍ يلجأ إليه؛ ليدفع عن نفسه القتل أو الأسر[(٥)].

٢ الغلب

الغلب لغة

(غ ل ب) غلبه يغلبه غلبًا وغلبة بمعنى: قهره، والغلب بفتح فسكون: القهر، وتغلب على بلد كذا: استولى عليه قهرًا، وإذا قالت العرب: غلب فلان، فهو غالب[(٦)].

الغلب اصطلاحًا

هو القهر والاستيلاء على نفسٍ أو مالٍ أو بلدٍ ما بشيءٍ.

الصلة بين الغلب والهزيمة

في معظم التفاسير نجد بكل صراحة تأويل الغلب في القرآن الكريم بالهزيمة، كما في

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٤٠٥.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٨٧.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢١٦.
(٤) انظر: موسوعة نضرة النعيم في الحاشية ١، ٩/ ٤٣٠٨.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ١/ ٣٥١، التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٢١٧.
(٦) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٨٣، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٥/ ٥٣١، شمس العلوم، الحميري ٨/ ٤٩٩٢، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٥١، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٥٠.

تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران:١٢].

وقوله تعالى: ﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الروم:١-٣].

٣ الفرار

الفرار لغة

ورد في صحاح العربية[١]: (فرر) يفر فرارًا: هرب، وتفاروا: أي تهاربوا، وفرس مفر بكسر الميم: يصلح للفرار عليه، والمفر: الفرار، ومنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ [القيامة:١٠].

وعند صاحب اللسان[٢]: الفرار: الروغان والهرب، فر يفر فرارًا: هرب، وفرار وصف بالمصدر فالواحد والجمع فيه سواء، يقال أفررت الرجل أفره إفرارًا: إذا عملت به عملًا يفر منه ويهرب، ويحمله على الفرار، والفرار يكون للجماعة والواحد.

وقد ربط ابن سيده الفرار بالهزيمة فقال: «الهزيمة الفرار عن القتال»[٣]، وفي موضع آخر يقول: «الفرار: الهرب، وفر: جد في الذهاب»[٤].

الفرار اصطلاحًا

لا يخرج عن معناه اللغوي، وهو الهروب والروغان.

الصلة بين الفرار والهزيمة

وقد عبر القرآن الكريم عن الفرار - في بعض الآيات - بالإدبار والهرب، وعبر بالفرار للدلالة على قوة الإعراض[٥].

قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح:٦].

---

(١) الصحاح، الجوهري ٢/ ٣٤٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٥٠.
(٣) المخصص، ابن سيده ٢/ ٥٠.
(٤) المصدر السابق ٣/ ٣٥٨.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ١٩٤.

عوامل الهزيمة

إن لِكُلِّ أمرٍ عوامل وأسباب، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض عوامل الهزيمة، ومنها:

أولًا: الذنوب والمعاصي

المعاصي من عوامل الخذلان للمؤمنين والكفار على السواء وهزيمتهم في خارج المعركة أو داخلها، والطاعة والثبات والاستقامة من أسباب النصر والغلبة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام:٦].

في هذه الآية وعيد لأهل مكة، وتهديد لهم بإهلاكهم كما أهلك من قبلهم من القرون بسبب ذنوبهم التي كانوا يجترحونها، فلم تغن عنهم قوتهم وتمكينهم شيئًا، وفي هذه الآية ما يوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الأمم السالفة والقرون الخالية: فإنهم مع ما كانوا فيه من القوة وسعة الرزق وكثرة الأتباع؛ أهلكهم الله لما كفروا وطغوا وظلموا، فكيف حال من هو أضعف منهم وأقل عددًا، فالذنوب سبب الانتقام وزوال النعم(١).

والمصائب في الدنيا التي تنزل بالناس كالمرض والفقر والضيق وسائر النكبات، بسبب معاصيهم أيضًا، وهي عقوبة من الله لهم بما ارتكبوا من موبقات، واجترحوا من سيئات، وارتكبوا من الآثام فيما بينهم وبين ربهم(٢).

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:٣٠].

وإن التاريخ يشهد أن الأمم دأبها الكفر والتكذيب والظلم في الأرض، وعقاب الله إياها هو جار على سنته تعالى المطردة في الأمم، وذلك لكفرهم وفسادهم وظلمهم لأنفسهم.

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٤٠].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٢، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١١٩، التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١١٨، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٣/ ١٢٠٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٠٨.

فكل من سبق من المذكورين من الأمم الذين كذبوا رسلهم، عاقبهم الله بما اقترفوا من ظلم وفساد؛ وأخذ كل هؤلاء بذنبهم، لا بذنب غيرهم[1].

وإن اتباع الشيطان هو سبب الذنوب والمعاصي الذي به تنزل الهزائم ويستحق الخذلان، فإذا اتبعه الناس ورضوا وسوسته؛ أسلمهم لعدوهم، وتركهم يلاقون الموت والهزيمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال:٤٨].

ورد في السيرة النبوية لابن هشام أن «إبليس استدرج الكفار، وتشبه لهم بسراقة ابن مالك بن جعشم، حين ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب، فقال لهم: لا غالب لكم اليوم من المؤمنين، وحلف لهم بأنه مجير ومعين لهم، فلما تراءت الفئتان، نظر عدو الله إلى جنود الله من الملائكة الذين أيد الله بهم رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على عدوهم، فرأى ما لم يروا، وقال: إني أخاف الله، وكانوا يرونه في كل منزل في صورة سراقة لا ينكرونه، حتى التقى الجمعان فنكص على عقبيه ورجع، فأوردهم ثم أسلمهم»[2].

ويتحدث القرآن عن أهم أسباب الهزيمة التي جرت يوم أحد، ألا وهو ما قد يكتسبه بعض المؤمنين من ذنوب قبل دخولهم في المعركة أو خلالها، وذاك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٥].

فجعل الله عقوبتهم بالهزيمة درسًا وتربية وتمحيصًا، والمعنى: إن المؤمنين الذين انهزموا وتركوا أماكنهم يوم التقاء الجمعين من المسلمين والمشركين في أحد؛ إنما أوقعهم الشيطان فريسة له في الزلل والخطأ، فبسبب ما كسبوا من ذنوبهم، انهزموا يوم أحد، وكان السبب في توليهم الأدبار أنهم أطاعوا الشيطان، حيث زين لهم أعمالهم بتركهم المراكز، واستجابوا لما وسوس إليهم من الهزيمة، فاقترفوا ذنوبًا أدت بهم إلى منع التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا، فالمصائب والعقوبات والهزائم آثار للأعمال السيئة[3].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما شعرت

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٦٣٣، تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٨١.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ٣/ ٢١٥.

(٣) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري ١/ ٢٧٧، التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١٣١.

أن أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى كان يوم أحد؛ فقد أرادوا النهب رغبةً في الدنيا، فوقعوا في الغنائم وعصوا، ونسوا عهده الذي عهده إليهم، وخالفوا إلى غير ما أمرهم به، وتركوا ما أمروا به من الطاعة التي عليها ثواب الآخرة[1]، وذلك قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

وإن تمام النصر هو في الثبات لا في الانهزام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران:١٥٢].

بعد أن أراهم الله الغلبة يوم أحد أول الأمر؛ ثم تركوا منازلهم التي عهد إليهم النبي صلى الله عليه وسلم ألا يتركوها، وتنازعوا وفشلوا، وعصوا الرسول؛ أوجفت الخيل فيهم قتلًا، ثم بين سبب التنازع، وهو الطمع في الغنيمة، فحين خالفوا أمر الرسول في الثبوت وعصوه انهزموا[2].

فالمعاصي تجلب الهزائم.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران:١٦٥].

فلا تعجبوا أيها المؤمنون مما حل بكم في أحد، فإن خذلانكم فيها لم يبلغ مبلغ ظفركم في بدر، فقد كان ظفركم في بدر ضعفي نصرهم في أحد، فقد قتل منكم سبعون رجلًا في أحد، وقتلتم من المشركين سبعين رجلًا في بدر وأسرتم سبعين رجلًا، وأنتم الآن تتساءلون: كيف حدث هذا؟ وأنتم تدافعون عن الإسلام، وهم يدافعون عن الشرك؟، جاء الجواب عن تساؤلهم، فأجابهم موبخًا ومقرعًا، ورادًا عليهم بما من شأنه أن يعيد إليهم صوابهم، وبما يعرفهم السبب الحقيقي في هزيمتهم، وهو أن ما حدث كان من عند أنفسكم وبشؤم معصيتكم، إذ كان سببه فشلكم وتنازعكم في الأمر ومخالفتكم أمر رسولكم وعصيانكم[3].

ولقد كانت أوجه العصيان كثيرة منها:

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٨٦، تفسير ابن أبي حاتم ٣/٧٨٨، الكشف والبيان الثعلبي ٥/ ٥٠١، الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٧١.

(٢) انظر: تفسير القرآن، ابن المنذر النيسابوري ٢/ ٤٤٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٥٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٣٦.

(٣) انظر: أيسر التفاسير، أسعد حومد ص ٤٥٨.

١. رجوع ثلث الجيش الإسلامي مع عبد الله بن أبي ابن سلول.

أمر الرسول الرماة بلزوم أماكنهم، وبعدم تركها مهما كانت نتيجة المعركة؛ فتركوها حينما لاحت بشائر النصر للمسلمين، وتطلعت أنفسهم إلى الغنائم فاشتغلوا بها وتركوا النصيحة.

٢. تفرقوا عن رسول الله في ساعة الشدة والعسرة.

لهذه المخالفات التي نبعت من أنفسهم أصابهم ما أصابهم في أحد؛ فكان هجوم فرسان المشركين من الخلف؛ فتبدل نصر المسلمين إلى هزيمة، فكان سبب انهزام المؤمنين يوم أحد تأثير الشيطان وإغواءه ووسوسته، وما اقترفوه من ذنوب ومعاصٍ[١].

فما أحوج الناس في كل زمان ومكان إلى الأخذ بهذا الدرس، فإن كثيرًا منهم يُقَصِّرون في حق الله وفي حق أنفسهم، ولا يباشرون الأسباب التي شرعها الله للوصول إلى النصر، فإذا ما أصابتهم الهزيمة مسحوا عيوبهم في القضاء والقدر، ثم قالوا: أنى هذا؟ وما دروا لجهلهم أن الله قد جعل لكل شيء سببًا، فمن باشر أسباب النجاح وصل إليها بإذن الله، ومن أعرض عنها حرمه الله من عونه ورعايته[٢].

ونختم بقوله تعالى عن المجاهدين الربيين: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران:١٤٧].

في قولهم ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ هذا إيماء إلى أن الذنوب والإسراف في الأمور من عوامل الخذلان[٣].

ثانيًا: الاغترار بالكثرة

الكثرة في القرآن الكريم ترد أحيانًا في موضع المدح، وفي الأعم الأغلب فإنها ترد في موضع الذم.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣].

يقرر القرآن الكريم أن هذه الظاهرة هي طبيعة معظم الناس لا أهل مكة وحدهم[٤]، وقد أخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال[٥].

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾

(١) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١٣٣.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٣/ ٧٩٢.

(٣) انظر: نظم الدرر ٤/ ٩٣.

(٤) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٧٩، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٢٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٢٢.

[الأنعام:١١٦].

وانتقد القرآن طبيعة بني إسرائيل، حيث إن أكثرهم يتولون المشركين من عبدة الأوثان(١).

قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة:٨٠].

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن المؤمنين يصفهم دومًا بالقلة.

قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

وفي كل مرة، يهلك الله الضالين، وينجي النفر القليل من المؤمنين(٢)، وكثير هم الضالون من حيث العدد مقارنة بالمؤمنين(٣)، حيث قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤].

ولقد وبخ القرآن الكريم قارون على اغتراره بقوته وكثرة ماله وجمعه وأتباعه، فأهلكه ومن سبقه جميعًا ممن هم أكثر منه جمعًا وعددًا(٤).

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص:٧٨].

وفي قصة طالوت وجنوده ما يؤكد أن الكثرة دومًا مغلوبة إذا اعتقدت أنها تنصر بالعدد دون المدد الإلهي والتوكل على الله.

قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩].

فلما رأوا كثرة العدو أيقنوا بهلاك أنفسهم، واستقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فكان رد العالمين منهم: كم من فئةٍ قليلةٍ وجند قليل يغلبون فئةً كثيرةً عدتهم بإذن الله ونصره وأمره(٥).

وشواهد التاريخ تثبت أن القلة غلبت الكثرة، مثل غزوة بدر والخندق ومؤتة، فعن البراء بن عازبٍ قال: (كنا نتحدث أن أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم الذين كانوا يوم بدرٍ ثلاثمائةٍ وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جاوزه معه إلا مؤمنٌ)(٦).

ولو بحثنا عن كلمة (أكثر الناس) في

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٩٦.
(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٥٣٢.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٥٤.
(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٢٧٦.
(٥) تفسير السمرقندي ١/ ١٦٤.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب عدة أصحاب بدر، ٤/ ١٤٥٧، رقم ٣٧٤٠.

القرآن لوجدنا بعدها: (لا يعلمون-لا يشكرون-لا يؤمنون).

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود:١٧].

ولو بحثنا عن كلمة (أكثرهم) لوجدنا بعدها (فاسقون- يجهلون- معرضون- لا يعقلون- لا يسمعون- مشركون- لا يؤمنون- لا يعلمون- لا يشكرون).

قال تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:١١١].

وقال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات:٤].

وقال تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت:٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

وقال تعالى: ﴿نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:١٠٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٣٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس:٦٠].

بعد هذا العرض الموجز لإطلاقات الكثرة في القرآن الكريم، وكلها كما لاحظنا وردت في موضع الذم، نأتي الآن لمناقشة الآيات التي تحدثت عن علاقة الاغترار بالكثرة والخذلان، وكيف تكون سببًا من أسباب الهزيمة.

فحلول الخذلان يكون بسبب العجب والاغترار بالكثرة.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥)﴾ [التوبة:٢٥].

والمعنى: لما توكلتم على أحوالكم وقوتكم وكثرتكم، وعاينتم القوة من أنفسكم دون الله؛ رماكم الله بالهزيمة وضيق الأرض عليكم[1].

وكان هذا في يوم حنين إذ كان المسلمون في عدد عديد، حتى لقد قال قائلهم: إننا لن نغلب اليوم من قلة، فقد كانوا في اثني عشر ألفًا، ومع هذا فإنه ما كاد المسلمون يلتقون

(١) حقائق التفسير، أبو عبد الرحمن السلمي ١/ ٢٧٢.

بهوازن في وادي حنين قرب مكة، حتى ولوا مدبرين، وانكشف رسول الله للعدو، ولم يثبت معه إلا قليل، فوقعت الدائرة على المسلمين، وتبدد جيشهم، وتناثرت جموعهم، وذهبت ريحهم، وما كان لقوة في الأرض أن تجمع هذا الكيان الممزق، وأن تبعث فيه الحياة والقوة من جديد، ولكن أمداد السماء، ونفحات الحق، جاءت في وقتها، فأحالت الهزيمة نصرًا حاسمًا، وفي هذا درس للمسلمين حتى يروا أن القوة لله، وأن النصر والعزة لا مبغى لهما إلا بالتوكل على الله، وطلب العون والمدد منه تعالى، فمن رغب عن ذلك، ونظر للعدد والقوة المادية، وآثر كثرته واغتر بها، فلن يلقى إلا الذلة والهوان[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران:١٤٧].

في هذا إيماء لطلبهم النصر من الله مع كثرة عددهم التي دل عليها قوله: ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾، فهم لا يعولون على كثرة العدد؛ بل يطلبون العون والمدد الروحاني من الله بثبات الأقدام[2].

وختامًا: فإن التجاء الإنسان إلى الله عند الشدائد سبب لنجاته، وإجابة دعوته لقوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فالقلة المؤمنة هي التي غلبت، وأما اعتماد الإنسان على نفسه، واعتداده بها فسبب لخذلانه كما في حنين، فلقد نصرهم الله بعدما هزمهم العدو بإعجابهم بالكثرة، فالنصر والظفر بالله لا بكثرتهم وقوتهم، فالمؤمن يقبل على الأسباب ولا ينسى المسبب، فحينما نظر المسلمون إلى الأسباب فقط؛ ذاقوا طعم الهزيمة، وبعد أن أعطاهم الدرس التأديبي نصرهم[3].

ثالثًا: البطر والرياء:

البطر: هو الفخر والأشر والطغيان عند النعمة، وإن من سنة الله عز وجل إهلاك الأمم إذا بطرت وطغت.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص:٥٨].

فقد كفروا نعمة الله عليهم وعاشوا في البطر، حيث أكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام[4].

---

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٧٢٦.

(٢) تفسير الشيخ المراغي ٤/ ٩٣.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٥/ ٣٢٣، تفسير الشعراوي ٣/ ١٧١٠.

(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٥٦، الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٠٤.

ونعود لقصة قارون الذي تبطر واختال على الناس في زينته وافتخر على قومه بالعزة والمال والملك، فاستحق الهزيمة وعوقب بالخسف والهلاك، وذلك تحقيقًا لسنة الله على المتجبرين وأهل البطر.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]، فالله لا يحب الفرحين الأشرين البطرين المتكبرين؛ الذين لا يشكرون الله سبحانه على ما أعطاهم، فلم يستجب للنصح، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص:٧٩]، فانتقم الله منه وجعله عبرة لغيره.

قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص:٨١].

فكان جزاؤه الهلاك والخسف والهزيمة، وذلك جزاء المتكبرين الذين يريدون البطر والرئاء[1].

والنعم إذا كثرت من الله تعالى على العبد فصرفها في المفاخرة على الأقران، وكاثر بها أبناء الزمان، وأنفقها في غير طاعة الرحمن، فذلك هو البطر، والرياء: هو إظهار الجميل ليراه الناس، فكفار قريش حين خرجوا إلى بدر، كان لهم فخر وبغي[2].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

وذلك أن أبا سفيان لما أحرز عيره بعث إلى قريش وقال: إن الله قد سلم عيركم فارجعوا، فأتى رأي الجماعة على ذلك، وخالف أبو جهل، وقال: والله لا نفعل حتى نأتي بدرًا؛ فننحر عليها الإبل، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، ويهابنا الناس، وذلك ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، فلما وصلوا بدرًا ما انتصروا وما نالوا مرادهم، بل سقوا كأس المنايا بدل الخمور، وناحت عليهم النوائح بدل القينات، وكانت أموالهم غنائم بدلًا من بذلها في الإسراف واللهو، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم في طلب الرياء والسمعة؛ ولكن أخلصوا لله النية، وقاتلوا احتسابًا في نصر دينكم، ولا تطلبوا غيره، وكونوا أهل تقوى وإخلاص[3].

فسنة الله في الناس أن يقصم ظهور المتكبرين، ويذل المتجبرين المرائين المختالين المتكبرين على الناس بصلفهم وغرورهم، ويجعل الله نهايتهم الخذلان والموت والهزيمة عقابًا لهم على بطرهم وفخرهم ورئائهم.

رابعًا: النفاق و المنافقون:

لقد بين كتاب الله ما عليه المنافقون

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٦.
(٢) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ١٠٢.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٩، روح المعاني، الألوسي ٧/ ١٠٣.

من صلف وكبر، وما يقومون به من تثبيط العزائم، وبث روح الهزيمة في نفوس المؤمنين، وإن كلمة النفاق لم تعرفها العرب من قبل، وأخذت الكلمة من نافقاء اليربوع؛ لأن جحره له بابان إذا طلب من أحدهما هرب من الآخر؛ فاستخدم في الإسلام علامة على تلك الطائفة التي تبطن الكفر وتظهر الإسلام، وتكمن الغيظ والبغض وتعلن الرضاء والمودة، وهي تضمر الحقد والحسد وتجهر بخلافهما[1].

وصفات المنافقين التي ذكرها القرآن الكريم كثيرة جدًا، وهي تفضحهم وتظهر عوارهم، وتحذر من وجودهم في الصف المسلم، وتدعو المسلمين إلى تنقية وتنظيف صفوفهم من هؤلاء الذين يؤخرون النصر ويستجلبون الهزيمة، ويفرحون بها.

فمن صفات المنافقين أنهم يكرهون القتال.

قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران:١٦٧-١٦٨].

تهتم هذه الآيات الكريمة اهتماما خاصا بفريق من المنافقين الذين أدخلوا الفشل على المؤمنين من أول لحظة في يوم أحد، وهذا الفريق كان يتزعمه المنافق المدعو عبد الله بن أبي ابن سلول الذي فارق ركب رسول الله الذي كان يتألف من ألف رجل، وهو لا يزال في أثناء الطريق بين المدينة وأحد، وتابعه ورجع معه ثلث الركب ممن ينطوون على النفاق، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل ونيف، وكان فريق من المؤمنين لا يزالون يظنون خيرًا بزعيم المنافقين ومن معه من المتخلفين، إذ لم يكن قد انكشف نفاقهم بعد.

فتبعوهم من ورائهم يحرضونهم على العودة للقتال إعلاء لكلمة الله بجانبهم، أو على الأقل مساعدتهم فيما قد يحتاجون إليه، وتكثير سوادهم أمام العدو إن لم يقاتلوا، أو ليدفعوا الأعداء عن المجاهدين، أو ليدفعوا العدو عن أنفسهم وعن أموالهم وذراريهم، فما كان من المنافقين وزعيمهم إلا أن تعللوا بأنهم لا يتوقعون من المشركين في هذا اليوم أي قتال، إذن فلا موجب لمواصلة السير في ركاب رسول الله.

وتحدث زعيم النفاق ابن أبي ابن سلول حديثًا كشف به عن ذات نفسه فقال: والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٥٦، التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري ٦/ ٢٣٦.

الناس، فجاءت هذه الآيات لتظهر نفاقهم للناس وتفضحهم؛ ليعلموهم علم عيان ورؤية وظهور، إذ أن نصر المسلمين فى بدر فتح الطريق أمام المنافقين للتظاهر باعتناق الإسلام، وعدم انتصارهم فى أحد كشف عن هؤلاء المنافقين وأظهرهم على حقيقتهم، فإن من شأن الشدائد أنها تكشف عن معادن النفوس، وحنايا القلوب[1].

موقف المنافقين في الماضي والحاضر هو اتهام المجاهدين بإهلاك أنفسهم، وهو ما تدل عليه هذه الآيات، حيث قال المنافقون للمسلمين: إنكم ما وصلتم لهذا إلا لخطأ رأيكم وزللكم عن الصواب، ولا يقال لمثله قتال، إنما هو إلقاء بالنفس إلى التهلكة، هذا هو موقف المنافقين فى غزوة أحد، وهو موقف يدل على فساد قلوبهم، وخبث نفوسهم، وجبنهم عن لقاء الأعداء.

وحالهم بعد انتهاء المعركة أشد شرًا، هؤلاء المنافقون لم يكتفوا بما ارتكبوه من جنايات قبيل غزوة أحد وخلالها، بل إنهم بعد انتهاء المعركة قالوا متحدثين عمن استشهدوا: لو أن هؤلاء الذين استشهدوا فى أحد أطاعونا وقعدوا معنا في المدينة لما أصابهم القتل، ولكنهم خالفونا فكان مصيرهم إلى القتل، فرد القرآن عليهم بما يبطل أقوالهم عن طريق الحس والمشاهدة، وذلك ببيان أن القعود عن الجهاد لا يطيل الحياة، كما أن الخروج إلى ساحات القتال لا ينقص شيئا من الآجال، فكم من مجاهد عاد من جهاده سالمًا، وكم من قاعد أتاه الموت وهو في عقر داره[2].

والمنافقون يسعون لنشر البلبلة في صفوف المسلمين ويشككون بنصر الله لأوليائه، فقد اتخذوا موقفهم بالانسحاب بثلث الجيش بعدما بيتوه فيما بينهم لبث البلبلة في صفوف المسلمين وإرباكهم، وإضعاف روحهم المعنوية أمام المشركين، وشككوا بنصر الله لأوليائه فقالوا: لو كان الأمر كما قال محمد إن أولياء الله هم الغالبون لما غلبنا قط، ولما قتل من المسلمين من قتل في هذه المعركة، ويربطون بين النبوة والنصر، وأنه لو كان محمد نبيا ما هزم، وفاتهم أن النصر من عند الله وبتوفيقه، وأن الهزيمة بسبب مخالفات المسلمين.

فرد الله عليهم بأن الآجال والأعمار بيد الله، وأن النصر من عند الله، وأن من كتب عليه القتل فلا بد أنه مقتول، فلو كان في بيته وانتهى أجله، لخرج إلى مكان مصرعه،

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ٥٢٣، بيان المعاني، العاني ٥/ ٤٢٤، التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري ١/ ٢٧٧.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ٧٩٤.

والحذر لا يمنع القدر، والأمر كله بيد الله، وقد فعل الله ما فعل من إلحاق الهزيمة بالمسلمين في نهاية غزوة أحد، ليمتحن ما في صدور المؤمنين من الإخلاص والثبات، وليميز ما في القلوب من أمراض ووساوس الشيطان[1].

فهؤلاء المنافقون إذا دعوا إلى القتال في سبيل الله، أو إلى الدفاع عن النفس والأهل والوطن، أجابوا: لو نعلم أنكم تلقون قتالًا في غزوتكم لاتبعناكم وسرنا معكم، ولكننا نعلم أنكم لا تقاتلون، وهذا يدل على تأصل النفاق في قلوبهم، وأن غايتهم التلبيس والتدليس والاستهزاء وتعمية الحقائق، مع أن جمع المشركين في أحد، وخروج المسلمين لمقابلتهم قرينة قاطعة على إرادة القتال[2].

ومن صفاتهم أيضًا: عدم التهيؤ والاستعداد للقتال، وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة:٤٦].

فلو أنهم أرادوا الجهاد لتأهبوا للسفر، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف، فحبسهم الله عنك وخذلهم؛ وقد أوقع الله في قلوبهم القعود، وهو عبارة عن الخذلان، وقد بين القرآن الكريم المفاسد التي تترتب على خروجهم، فهؤلاء خروجهم لن يزيدكم إلا فسادًا وشرًا؛ لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس والقعود عن الغزو أفسدنا الناس وحرضنا على المؤمنين، وفي ذلك تسلية للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم، ولأوضعوا فيكم الهزيمة والتخذيل والإفساد والتحريض والنميمة، ويبغيتهم أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف والأراجيف فيما بينكم أو الرعب في قلوبكم؛ ويثبطون المؤمنين بقولهم: لقد جمعوا لكم كذا وكذا، ولا طاقة لكم بهم، وإنكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم، ونحو ذلك من الأحاديث الكاذبة التي تورث الجبن والفشل.

قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة:٤٧].

وفي قوله: ﴿سَمَّاعُونَ﴾ تحذير من العيون والعملاء الذين ينقلون إليهم الأخبار منكم، ويحدثونهم بأحاديثكم وهم عيون لهم[3].

---

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري ١/ ٢٧٧، التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١٣٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٥٦.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٤٩، فتح

والمنافقون يمتازون بالدهاء، ويتحججون بالعجز والأعذار، وهم صنف مبالغ في النفاق، استأذنوا دون اعتذار، وذلك أن بعضهم قال نستأذنه، فإن أذن في القعود قعدنا وإلا قعدنا دون إذن، فهم عزموا على العصيان أذنت لهم أو لم تأذن، فقد قال تعالى:﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة:٤٣].

ومن جملة حججهم وأعذارهم قوله تعالى عنهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ [التوبة: ٤٩].

نزلت في: (الجد بن قيس، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تجهز لغزوة تبوك قال له: يا أبا وهب، هل لك في جلاد بني الأصفر تتخذ منهم سراري ووصفاء؟ فقال: يا رسول الله لقد عرف قومي أني رجل مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن؛ فلا تفتني بهن، وائذن لي في القعود عنك فأعينك بمالي، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: قد أذنت لك، فأنزل الله تعالى هذه الآية)[1].

وأشد صفة تكشف حقدهم: أنهم يستاؤون من نصر المسلمين ويفرحون لهزيمتهم.

قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة: ٥٠].

فالحسنة هنا هي: الغنيمة والظفر، والمصيبة هي: الهزيمة والخيبة كهزيمة أحد، وذلك أنه إن تصبكم نعمة من الله بنصر وغنيمة تسؤهم وتحزنهم؛ لفرط حسدهم وكراهتهم لكم، وإن تصبكم مصيبة تؤلمكم كالذي أصابكم يوم أحد من الجراح والهزيمة، يقولوا مغتبطين لتخلفهم، وحامدين لرأيهم وسياستهم؛ قد احتطنا وأخذنا أمرنا من قبل المصيبة بتلافيها، حيث اعتزلنا المقاتلين، وقعدنا عن الحرب، ودارينا الكفرة وواليناهم، وسلمنا مما أصابهم من قتل وجرح، وينصرفوا وهم كثيرو الفرح بهزيمة المسلمين، ونجاة أنفسهم بأخذهم حذرهم واحتياطهم بالتخلف عنكم[2].

وهم يوالون الكفار ويداورنهم ويناصرونهم عليكم، قال الله فيهم: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة:٥٢].

فالدائرة هي: الهزيمة، والمنافقون

البيان، صديق خان ٥/ ٣١٤.

(١) أسباب النزول، الواحدي ص٢٥٢.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٣/ ١٧١٤.

يسارعون بالاعتماد على الكفار دون الله، ويعللون اعتذارهم عن موالاتهم بأنهم يخافون خوفًا بالغًا أن تحل بهم المصائب والدوائر[1].

ويثبطون الناس ويوهنون من عزائمهم.

قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨].

وكان من جملة قولهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحمًا لالتهمهم أبو سفيان وحزبه، فخلوهم وتعالوا إلينا[2].

ويظنون بالله الظنون الباطلة ويستبطئون النصر ويكرهون الشهادة في سبيل الله ويعتبرونها قتلًا للنفس، فهم يظنون أن لا ينصر الله محمدًا، كما ظن الجاهلية حيث اعتقدوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل في المعركة أو أنه لا ينصره الله[3]، وذلك يوم الخندق حين قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢].

وذلك هو ظن الجاهلية الغبية، التي لا تفهم معنى النبوة، ومعنى التأييد الإلهي، قال تعالى عنهم: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

وقد قال بعضهم لبعض لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة ولم تقتل رؤساؤنا، أي: «لو كان الاختيار لنا لم نخرج، ولما قتل من قتل منا في هذه المعركة، وهذا كان رأي ابن أبي وغيره»[4].

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤].

ومن صفاتهم أنهم مشككون ومترددون ومذبذبون، ففي غزوة الخندق شكت قلوبهم، وكان ديدنهم أنهم يتحيرون، إذ كانوا تخطر لهم صحة أمر النبي أحيانًا، وأنه غير صحيح أحيانًا فهم مذبذبون[5]، وقد قال الله فيهم: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥].

ويعرفون بوجوههم عند ذكر الموت والقتال، فهم لا يطيقون سماع ذكر القتال، وتتغير معالم وجوههم رعبًا وخوفًا، قال الله فيهم: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠]، يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله، وأمر به نكل عنه كثير من الناس، وهم المنافقون الذين في قلوبهم مرض، وحالهم عند نزول سورة مشتملة على حكم القتال ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت؛ لشدة فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء[6].

وقال أيضًا: فحالهم عند حد الجد، وبذه

(١) نظم الدرر، البقاعي ٦/ ١٨٨.
(٢) الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٦٣.
(٣) السراج المنير، الشربيني ١/ ٢٠٨.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٩.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٧.

المعركة والقتال، تراهم تدور أعينهم رعبًا وخوفًا لا يدرون ما يصنعون، فيصيرون كالذي يعاني سكرات الموت ويبحث عمن ينقذه، ولو أنهم استمسكوا بدينهم وكانوا مع أهله يدًا على من سواهم، لم يقدر عليهم عدو، ولم ينهزم جيش المسلمين لوجود منافقين في صفهم من أمثال هؤلاء[1].

وتتنوع أوصاف المنافقين في طبائعهم، فتارة تعرفنهم في لحن القول، وتارة في الأفعال كترك الطاعات، وتارة في فعل القبيح، وأكثر فسادهم في أحوال الجهاد كما تبين معنا، وكثيرة الآيات التي تتحدث عما يظهر منهم من آثار الكفر في الأقوال والأفعال مما جاء به القرآن، ولا مجال لحصرها في هذه الدراسة، لذلك سنكتفي بالقدر الذي أوردناه.

خامسًا: التنازع والفرقة:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران:١٥٢].

فالآية الكريمة ذكرت المؤمنين بأن الله قد حقق وعده معهم في أول المعركة بأن سلطهم على المشركين، يقتلونهم بتأييده ورعايته قتلًا ذريعًا، وأراهم من النصر والظفر بالمشركين ما وعدهم، حتى إذا تنازعوا واختلفوا في أمر الله، قذف عليهم عدوهم، وخرجت خيل المشركين عليهم من ورائهم، ولقد بين سبب التنازع وهو طلب الدنيا والغنيمة، فحصل بذلك الانهزام، وهو النتيجة الحتيمة للتنازع والتخاصم والتخالف، والتقدير: حتى إذا فشلتم وصرتم فريقين انهزمتم، والمعنى: حتى إذا عجزتم عن مقاومة أهوائكم وتنازعتم فيما بينكم، منع الله عنكم نصره، وتحول نصركم إلى هزيمة، وفقدتم أنفسكم وما جمعتموه من غنائم[2].

وفيها تصوير بديع للمعركة، وعرض كامل لمشهدها، ولتداول النصر والهزيمة فيها، فبعد أن ولى المشركون الدبر، وامتلأ الوادي بما خلفوه من الغنائم، وحين رآها الرماة، ورأوا إخوانهم المسلمين ينتهبونها دونهم؛ عصفت بهم ريح الطمع، واختلفوا فيما بينهم، وخلا ظهر المسلمين، رجع المشركون إلى الميدان، وأحاطوا بهم من الخلف والأمام، وأكثروا فيهم القتل والجراح، ودارت الدائرة عليهم بعد أن

(١) نظم الدرر، البقاعي ١٨/٢٤٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/٢٨٩، الكشف والبيان، الثعلبي ٣/٤٩٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/٢٢٨، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/٢٩٨.

كانت لهم[١].

ثم أمرهم بالطاعة، ونهاهم عن التنازع الذي هو أكبر أسباب الفشل والهزيمة.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال:٤٦].

والتنازع غالبا يكون بسبب الأغراض الشخصية، وتقديم الأغراض والمصالح الدنيوية على المصالح العامة، وتلك أكبر أسباب النزاع، وهذه أكبر البلايا التي يأتي من قبلها الشر للمسلمين؛ لأنه قد يخالف بعض المسلمين فتكون العقوبة عامة للجميع، والفرقة من أكبر أسباب الضعف والخور وعدم انتظام الكلمة، وهذا النزاع والتفرق والاختلاف هو مشكلة عظمى في أقطار الأرض؛ لأن من يتسمون باسم المسلمين ينازع بعضهم بعضًا، ويعادي بعضهم بعضًا، فأنى ينصرهم الله؛ فمن تنازعوا فشلوا وذهبت قوتهم ودولتهم، ويصير الأمر إلى غيرهم؛ وهذه وصايا سماوية، وتعاليم من رب العالمين عظيمة، من أخذ بها ظفر، ومن تركها فشل وذهبت ريحه لا شك[٢].

ونحن نرى اليوم في عالمنا الإسلامي ما يمكر به الأعداء لأمتنا الإسلامية من السير على قاعدة (فرق تسد)، وما يثونه من نعرات تؤدي إلى النزاع والاختلاف والفرقة وشق الصف، وما وضعوه من حدود وهمية بين البلاد الإسلامية، واختلقوا حواليها المشكلات الدائمة، وشغلوهم بها في قضايا دولية، ومحاكم وهمية لا تقدم ولا تؤخر في قراراتها؛ حتى لا تجتمع كلمتهم على مقاتلة الأعداء والتجهز للتغيير.

سادسًا: مخالفة أوامر القيادة:

إن طاعة القائد شرط أساسي للنصر، وفي قصة طالوت عندما خرج بالجنود من بيت المقدس، قال لهم: إن الله مختبركم وممتحن مقدار صدقكم في لقاء عدوكم، واستجابتكم لأوامر قائدكم بنهرٍ يعترض طريقكم، فإياكم والشرب منه، فمن غلبته شهوته وشرب من مائه، فليس من أتباعي؛ لأنه إذا عصاني اليوم، فهو أحرى أن يعصي أمري وقت اشتداد الحرب فتحدث الهزيمة، ومن لم يذق ماءه استجابة لهذا الأمر وصبر، فإنه مني، وهو ضالع معي في لقاء العدو[٣].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٩].

هذه الآية تشير إلى أن السر كامن في طاعة القيادة العليا، وامتثال أوامرها الرشيدة

(١) انظر: تيسير التفسير، إبراهيم القطان ١/ ٢٢٩.

(٢) انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٥/ ٨١.

(٣) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٤٢٣.

دون تردد ولا اعتراض، فهذا هو مفتاح النجاح والنصر في مختلف المعارك وفي مختلف العصور، فالمحارب الذي انكب على النهر يشرب من مائه حتى يمتلئ وهو في طريقه مباشرة إلى الميدان، محكوم عليه مسبقا بالهزيمة والخسران، إذ هو محارب فاقد للصبر، غير قادر على الاحتمال، قد أثقله العرق وأبطأ به اللهث، وقد أعطى الدليل قبل دخول المعركة وهو في طريقه إليها على أنه لا يعير لأوامر قائده الأعلى أدنى اهتمام، بل إنه يعصي هذه الأوامر دون تردد ولا إحجام، فهل يعتمد على مثل هذا في الحصول على النصر، أم أنه عامل أساسي من عوامل الهزيمة؟، وإن المحاربين المتحلين بروح الامتثال والطاعة لقيادتهم، هم الذين تحملوا عبء المعركة، وهو من الأسباب المباشرة في كل هزيمة لحقت المسلمين، مثل أحد والغزوات والمعارك التي بعدها[1].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران:١٦٥].

فعندما تقولون: من أين جاءنا هذا الخذلان والرسول معنا؟!؛ فالجواب قل لهم إن هذا الانكسار والهزيمة بسبب مخالفتكم، فأنتم الذين خالفتم أمر قائدكم حين أبيتم إلا الخروج من المدينة مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار عليكم بالبقاء فيها، وأنتم الذين خالفتم وصيته أيها الرماة بترككم أماكنكم التي حددها لكم وأمركم بالثبات فيها، وأنتم الذين تطلعت أنفسكم إلى الغنائم فاشتغلتم بها وتركتم النصيحة، وأنتم الذين تفرقتم عن رسول الله في ساعة الشدة والعسرة، فلهذه المخالفات التي نبعت من أنفسكم أصابكم ما أصابكم في أحد ولذلك خذلتم، وأصابتكم هذه المصيبة عقوبة لمعصيتكم لنبيكم[2].

إن الذين يظنون أن النصر دائمًا في جانب المسلمين مهما عصوا وخالفوا أوامر الله، يجيبهم الله عن تساؤلهم موبخًا ومقرعًا لهم بأن ما وقع حدث بشؤم معصيتكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمركم ألا تبرحوا مكانكم؛ فانهزمتم وأذاقكم الله الغم بفعلكم.

قال تعالى: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٥٣].

فقد غممتم رسول الله صلى الله عليه

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري ١/ ١٦٢.

(٢) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ٣٣٠، بيان المعاني، العاني ٥/ ٤٢٣، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ٣٢٨.

وسلم بمخالفة أمره، فجزاكم الله بذلك الغم القتل والهزيمة عقوبة لكم على مخالفته، ففاتتكم بذلك الغنيمة، فقد جعل الله المسببات نتائج للأسباب، فكل عسكر يعصي قائده ويكشف ظهره لعدوه يصاب بمثل ما أصبتم به[1].

أنواع الهزائم

الهزائم على نوعين:

أولًا: الهزيمة العسكرية:

وإن من سنن الله في خلقه أنه جعل الحياة صراعًا دائمًا بين الحق والباطل، ونزاعًا موصولًا بين الأخيار والأشرار، فالحرب سنة طبيعية في الخلق من يوم أن اقتتل ابنا آدم، وهي على ما فيها من ضرر وخطر لا تخلو من نفع وخير؛ إذ لولا أن الله يدفع الناس بعضهم ببعض، ويسلط جماعة على جماعة لفسدت الأرض وعمت الفوضى بغلبة الكفر، وتمكن الطغيان وأهل المعاصي، ولانتشر الظلم وهدمت أماكن العبادة التي يذكر فيها اسم الله، فلو ترك الفاسقون من غير أن يدافعوا ويقاوموا لنشروا فسوقهم وفجورهم وطغيانهم في الأرض، ولكن الله ذو فضل على الناس جميعا حيث يسلط على الظالم من يبيده ويهلكه، فإذا نبت ظالم آخر أرسل له من يفتك به، وهكذا ينصر الله رسله بالغيب، وفي قصة المؤمنين من بني إسرائيل مع طالوت ما يدل على تجلي عظمة الله وقدرته بأجلى مظهر، فقد هزمت الفئة القليلة الفئة الكثيرة بإذن الله وإرادته هزيمة عسكرية بالقتال.

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٣٤، السراج المنير، الشربيني ١/ ٢٠٦، أيسر التفاسير، أسعد حومد ص٤٥٩.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة:٢٥١].

فانكسر عدوهم رغم كثرته، وقتل رأس الطغيان وقائد الجبابرة واندحر جيشه، فلم يبق منهم أثر ولا عين، وفي ذلك ترغيب للمؤمنين في الجهاد، وتحذير من الضعف والفرار حذر الموت[١].

والهزيمة هنا تدل على فرار الجند والعسكر خوفًا من القتل، فقد كسروهم كسرةً انتهت بدفعهم من المعركة، وهروبهم منها مقهورين مغلوبين، وقد تكون الهزيمة بدون إبادة كل الجنود، بل بقتل أئمة الكفر فيهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ وهو زعيم جيش الكفار الذي هرب، فطارده داود وقتله[٢].

وقال تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص:١١].

أي: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، أخبر الله نبيه وهو بمكة أنه سيهزم جند المشركين، واسم الإشارة يدل على مصارعهم في بدر فكفار مكة وأحزابهم سيهزمون، وقد تحقق وعد الله فقهروا وأهلكوا[٣].

وقال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر:٤٥].

وكان ذلك يوم بدر والمعنى: هؤلاء الجمع المكذبون سيهزمون ويغلبون، ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب الذين تحزبوا على الرسل، فذاقوا الهزيمة وقهروا وغلبوا، وإنَّ أهل مكة الذين قالوا واثقين بشوكتهم: نحن جماعة أمرنا مجتمع، ونحن جماعة منصورون، سيهزمون ويتفرق شملهم، ويغلبون حين يلتقي جيشهم وجيش المؤمنين، وهذا من أخبار الغيب ودلائل النبوة، حيث هزمت جموعهم، وولوا الأدبار، وفروا من أمام جيش المسلمين، فالله توعدهم بقتل صناديدهم وبانصرافهم من الحرب منهزمين.

وفي الإفراد في قوله ﴿ٱلدُّبُرَ﴾ إشارة إلى أنهم في التولية والهزيمة كنفس واحدة، فلا يتخلف أحد عن الهزيمة، ولا يثبت أحد

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٩٤، التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ١/ ١٦٤، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٥٧٧.
(٢) انظر:المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٣٨٩، تفسير الشعراوي ٢/ ١٠٥٧.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٨٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٨، التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ٣/ ٥٧٦.

للزحف، فهم في ذلك كرجل واحد، أو إنَّ كل واحد من الجيش منهم يولي دبره ويفر هاربًا[1].

والتعبير بالسين لتأكيد أمر هزيمتهم في المستقبل القريب، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران:١٢].

لقد قالها الرسول مبلغًا عن الله، والمسلمون في حالة من الضعف واضحة، فتساءل عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أي جمع هذا الذي سيهزم؟، والمسلمون ضعاف لا يقدرون على ذلك، ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وأسباب الانتصار غير موجودة، لكن الواقع جاء ليثبت صدق الحق في قوله تعالى: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾، فقد تم انتصار المسلمين بالفعل، فهزموا الكافرين وغلبوهم، وجعلوهم يولون الدبر[2].

وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١٤-١٥].

أي: قاتلوا هؤلاء الكفار، فإنهم إذا جاء الوغى يفرون ويولونكم الأدبار، بل وتنزلون فيهم الذل والخزي وتشفون صدوركم منهم قتلًا وأسرًا، والدليل هزيمتهم يوم بدر وتوليهم الأدبار يومئذ، حيث قتل رؤساء الشرك وأساطين الكفر، كذلك توليهم الأدبار في جمع آخر وهو جمع الأحزاب في غزوة الخندق؛ حيث فروا بالليل منهزمين مقهورين[3].

ومع قصة الخندق وغزوة الأحزاب لنا حديث في تحديد نوع الهزيمة، فلقد جمع الكفار جموعهم على إبادة المسلمين واستئصال شأفتهم، لكن الله هزمهم وردهم بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال، فالشاهد هنا هو أن الكفار هزموا واندحروا وولوا الأدبار من دون قتال، فالهزيمة العسكرية لها وجه آخر، وهو (عدم تحقيق الأهداف)، فإذا عجز الخصم عن تحقيق أهدافه ورجع من حيث أتى فقد هزم عسكريًّا، وكما يقولون: (إذا لم يستطع القوي أن ينتزع استسلامًا من الضعيف فقد هزم هزيمة نكراء).

بقي أن ننوه لموضوع مهم في هذا المطلب وهو: الإعداد الجيد لهزيمة الأعداء عسكريًّا، أمر الله المسلمين بإعداد القوة لكبح جماح أعداء الإسلام، بشكل

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٣٧٥، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٢١، نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٩٣، البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٥٣٤.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢٧/ ٩٨، تفسير الشعراوي ٢/ ١٢٩٦، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٤/ ١١٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢١٣.

عام، وخصّ كتاب الله بالذكر من بين أنواع القوة الخيل، وقد كانت الخيل في الحروب الماضية تحتل مكانًا بالغ الأهمية، وذكر (الخيل) هو إنما ورد على وجه التنبيه، نظرًا؛ لأن الخيل كانت في العهد الإسلامي الأول أهم شيء في الحرب[1]، وذلك حتى يقيس المسلمون عليها غيرها، ويهتموا في مستقبل الأيام بكل ما يستحدث ويجد من أدوات القوة ووسائلها الفعالة، فالعبرة أولًا وأخيرًا إنما هي بإعداد القوة التي لا تضام، والاستعداد التام للعدو على الدوام.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

ثانيًا: الهزيمة النفسية:

كتاب الله عندما يتحدث عن القوة ويدعو المسلمين إلى إعدادها بكل الوسائل لا يقصد بلفظ القوة معناها المادي المجرد وحده، المتمثل في الآلات والأدوات الحربية، وإنما يقصد معناها المادي الروحي في آنٍ واحدٍ، بل إنَّ القوة الروحية عنده بالنسبة إلى القوة المادية تعتبر كالجوهر بالنسبة للعرض، والروح بالنسبة للجسد، فالقوة الروحية في نظر الدين والأخلاق، والروح المعنوية العالية، في نظر المختصين من رجال الدراسات النفسية والأبحاث العسكرية هي منبع كل قوة، وأساس كل نصر، وبدونها تضطرب القلوب وتنهار الأعصاب، وتصبح الهزيمة من كل جيشٍ قاب قوسين أو أدنى، لكن إذا كانت قوة الإيمان بالله وتقوى الله تقود جنود الإسلام، في خطواتهم إلى الأمام فبشرهم من عند الله بالفتح المبين والنصر والتمكين، ووقتئذ يتم وعد الله بالغلبة على الكافرين[2].

وإن الإيمان بالله واليوم الآخر يزيد الثقة بالنفس فلا تضعف ولا تخور أمام المنعطفات، بل تواجه المواقف بصلابة ورباطة جأش، تجعلهم يقبلون على القتال والموت دونما وَجَلٍ أو خوفٍ، ومثال ذلك ما ذكره القرآن الكريم في قصة طالوت، حيث عقد مقارنة بين الهزيمة النفسية والمعنوية العالية بين ضعاف الإيمان والمؤمنين الصابرين.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري ٢/ ٣٤٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٣٤٥.

لما اجتاز طالوت النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب، ولما أصبحوا على مقربة من جيش العدو، و كانوا «قرابة مائة ألف»[1].

فلما رأوا عدوهم يقودهم قائدهم الجبار (جالوت)، ورأوا كثرة عددهم وتفوقهم، فزعوا واضطربوا واعتراهم الخوف، وقال الكافرون والمنافقون، والشك والنفاق منهم، من الذين شربوا وعصوا أمر قائدهم: لا قدرة لنا اليوم ولا طاقة لنا بمحاربة الأعداء ومناضلتهم فضلًا عن التغلب عليهم، فنحن قلة وهم كثرة كاثرة، فأعلنوا انهزامهم، وانصرفوا فارين عن طالوت، ولم يشهدوا القتال[2].

لكن في المقابل، فإن المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو الله فمجازيهم على أعمالهم، وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت قالوا: لا تغرنكم أيها القوم كثرتهم، فكثيرا ما غلبت فئة قليلة العدد فئةً كثيرة العدد بقوة إيمانها وإرادة ربها[3].

وهكذ نلحظ أن التعبئة الروحية الإيمانية تتمثل في تعميق الثقة بما أعده الله فى الآخرة لعباده المؤمنين، فيؤثرون الآخرة على الدنيا، ويزهدون فيها طمعًا بما عند الله، فلا يلتفتون إلى ما وراءهم من أهل وولد ومال، ولم يخفهم الموت الراصد لهم فى يد أعدائهم، ولم يهابوا العدو وكثرته وقوته، فرأوا أنهم فى قلتهم المؤمنة الصابرة أقوى من عدوهم الذي لا يؤمن بالله ولا يصبر على المكروه، ولا يقاتل إلا طمعًا فى مغانم الدنيا ومتاعها، وهذه المعنوية العالية تقابل الهزيمة النفسية والروحية التي تخوف أصحابها، فلا يقدرون على المواجهة، ويتجرؤون العيش في جو الهزائم[4].

التوجيهات القرآنية لهزيمة الأعداء نفسيًا:

أولًا: لقد دعا القرآن إلى تطبيق أقصى درجات التخويف والتنكيل على المنافقين والكافرين وغيرهم، وذلك هدمًا لنفسيتهم وكسرًا لأنفتهم، وتأثيرًا على معنويات غيرهم، فلا يتجرءون على مقاتلة المسلمين خوفًا منهم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال:٥٧].

أي: نَكِّل بهم، واجعلهم أداة لتشريد من خلفهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون به عبرة لمن بعدهم، وعليك أن

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٢٠٨.
(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ١/ ١٦٤.
(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢١٧، أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٢٣٨.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١/ ٣١٠.

تؤدبهم أدبًا يجعل الذين وراءهم يخافون منكم، ويبتعدون عنكم، وكلما رأوكم أصابهم الخوف والهلع، لعل الذين من خلفهم يحذرون أن يصيبهم ما أصابهم، وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجر لمن عملها أن لا يعاودها[1].

فالمطلوب أن نجاهدهم بقوة وبدون شفقة حتى لا يفكر في مساندتهم من جاؤوا خلفهم ممن هو على مثل رأيهم في المنافرة للإسلام أن ينصروهم أو يؤازروهم بالدخول معهم في القتال، ولا تحدثهم أنفسهم في أن يستمروا في المعركة، وذلك كي تكون هذه التجربة درسًا لهم؛ فلا يفكروا مرةً أخرى في حربٍ معك؛ لأنهم سوف يتذكرون ما حدث لهم ولغيرهم فيبتعدوا عن مواجهتك، ولا يجسر عليك بعدهم أحد، اعتبارًا بهم واتعاظًا بحالهم[2]، وهذا الإرشاد الحربي في استعمال القسوة مع المحاربين، والناقضين لعهود السلم، متفق عليه بين قواد الحرب في هذا العصر.

أي: فرق بهذا الذي تأخذهم به من بلاء ونكال كل مجتمع للضلال، وكل من يبيت السوء للمسلمين، فكل من تحدثه نفسه بخيانة عهد المسلمين من بعد تلك الضربة التي نزلت بهؤلاء الخائنين، سيجد أمام ناظريه مثلًا حيًا لما ينتظره من بلاء ونكال، وإن هذه الآية الكريمة لمن أحكم الآيات التي ترشد المؤمنين إلى وجوب أخذ المستمرين على كفرهم وعنادهم ونقضهم العهود أخذًا شديدًا رادعًا، حتى يبقى للمجتمع الإسلامي أمانه واستقراره وهيبته أمام أعدائه، فالآية الكريمة ترسم صورة بديعة للأخذ المفزع، والهول المرعب الذي يكفي السماع به للهرب والشرود، فما بال من يحل به هذا الأخذ الشديد؟، وبذلك تبقى لدين الله هيبته وسطوته[3].

ثانيًا: أمر بإثخان المشركين قتلًا في ساحات المعركة من دون رأفة، وذلك ليكون صيت جيش المسلمين يسبق تحركه لأي بلد وأي حرب، والغرض هو التأثير على نفسيات الأعداء وروحهم المعنوية، وذلك يظهر من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال:٦٧].

فالإثخان شدة التقتيل، وذلك حتى تتحطم قوة العدو وتتهاوى، فلا تعود به

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٢٤.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢١٩، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤، تفسير الشعراوي ٦/ ٣٣١٣.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٦٤٦، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٦/ ١٣٥.

قدرة على هجوم أو دفاع، فتكون لهم الغلبة التامة، والسيطرة الكاملة، فتصير قوتهم في موضع التفوق المطلق على الأعداء، فلا يستطيع هؤلاء الأعداء الثأر والعودة إلى القتال إذا سنحت لهم الفرصة، لأن الملك والدولة إنما تقوى وتشتد بالقتال والقتل، فكثرة القتل توجد الرعب وشدة المهابة، وذلك يمنع الأعداء من الجرأة والإقدام على حرب المسلمين، فالإثخان في الأرض يرهب الأعداء[1].

ثالثًا: وجه القرآن المؤمنين للسعي في إدخال الرعب لقلوب الأعداء؛ لأن ذلك سيهزمهم نفسيًا وروحيًا قبل الهزيمة العسكرية، فلا يصمدوا ولا تحدثهم نفسهم بالمواجهة.

قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران:١٥١].

قال البيضاوي في تفسير هذه الآية: ذكر القرآن ما قذف في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب، فلما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا وعزموا أن يعودوا عليهم ليستأصلوهم؛ فألقى الله الرعب في قلوبهم؛ لأنه لا أحد يخالف دين الإسلام إلا وفي قلبه خوف ورعب[2].

رابعًا: بيّنَ القرآن الكريم أن الهزيمة النفسية تورث أصحابها الذل والخنوع والقعود عن مواجهة الأعداء ومقاتلتهم، كما قال تعالى على لسان أصحاب موسى الذين أحجموا عن قتال الجبارين: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة:٢٤].

فلا غرابة في إحجامهم عن قتالهم؛ لأن كُلّ قوم تربوا في أحضان الذلّ والاستعمار يألفون القعود ولا يألفون الحرية والكرامة[3].

وبهذا يظهر التفاوت بين سائر الأمم، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم التي تربت على النفسية الإسلامية، وارتوت من نبع القرآن الصافي، حيث قال الصحابة له حين شاورهم في القتال يوم بدر: يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك وما تخلف عنك أحد، ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤].

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٠/ ٣٥، في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٤٣٥.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٠٢.

(٣) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ١/ ٥٠٢.

مقاتلون[1].

خامسًا: لقد تناول القرآن الكريم موضوع الإشاعة وحاربها.

قال تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

والإرجاف هو من الرجفة بمعنى الزلزلة، وسميت بذلك لإحداثها الاضطراب والزلزلة في المجتمع وفي قلوب الناس، والمرجفون: هم الذين يثيرون الشائعات الكاذبة، ويطلقون الأراجيف المصطنعة، ليشغلوا الناس بها، ويفسدوا عليهم حياتهم، وذلك أن ناسًا منهم كانوا إذا خرجت سرايا رسول الله يوقعون في الناس أنهم قتلوا وهزموا، ومن الكذب الذي كان يذيعه أهل النفاق أيضًا: قد أتاكم العدو بعدد وعدة، فيخوفون ويرهبون من الأعداء، ويحدثون بكثرتهم وقوتهم، وضعف المسلمين؛ فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين؛ لتضعف قلوبهم ويحزنوا، ويحبون أن يفشوا الأخبار[2].

وتمثل الإشاعة طريقًا مضمونًا لتحقيق الهزيمة النفسية؛ لأنها سريعة الانتشار، وتصادف أناسًا جهالًا، ونفوسًا مريضة يرددونها دون تفكير؛ فيذيعون كل ضار ومفسد، لذلك يستعملها الأعداء دومًا في توهين جانب المسلمين، وإظهار تفوق المشركين وغلبتهم عليهم، والإشاعة تنشر القلق والخوف والاضطراب، وتضعف من معنويات الجماعة مما يسهل هزيمتهم، وانتصار الأعداء عليهم، وتقتل فيهم روح الإقدام[3].

فكان جزاؤهم أينما ثقفوا ووجدوا أخذوا بالضرب والتنكيل والاحتقار، ولا غرابة في ذلك، فالأمم الحديثة الآن لا تعرف الرحمة مع الجواسيس والخارجين على الدولة الذين يطعنون من الخلف، ويتعاونون مع العدو مع تظاهرهم بالإخلاص، وتلك سنة الله مع المنافقين وأصحاب الإشاعات في كل زمن.[4]

سادسًا: ضرب القرآن المثل بأن نفاذ الصبر والشك واستبطاء وعد الله دليل على الهزيمة النفسية، وقد تحدث القرآن عن ذلك في قصة موسى وبني إسرائيل، حيث وصل قلقهم وخوفهم إلى حد لم يصبروا معه؛ فاشتكوا واستبطؤوا النصر، وكانت نفسيتهم منهزمة متأثرة بالريبة والشك.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٢٨.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣١٥٥، الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٦٤.

(٣) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١١٢/٢٢.

(٤) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ١١٨/٣.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ [الأعراف:١٢٩].

فكان استبطاؤهم للنصر بقولهم: متى يكون ما وعدتنا به يا موسى من زوال ما نحن فيه؛ فجزعوا ولم يصبروا على هذا البلاء الذي أخذهم فرعون به، وألقوا اللوم والسخط على موسى[١].

وتلك هي طبيعة الانهزاميين: فلقد كان ردهم يدلُّ على سفاهتهم، فقد قالوا له: نحن لم نستفد من رسالتك شيئًا، فإلى متى نسمع منك تلك النصائح التي لا جدوى من ورائها؟[٢].

سابعًا: أعطى القرآن حلًّا واقعيًّا يعالج مشكلة الهزيمة النفسية، وهو الحث على التحلي بروح الثقة بالله والاستعانة به على ما يعتري الإنسان من خواطر نفسية، فدعا إلى التأسي بالعباد المؤمنين الذين ينظرون إلى ما عند الله، وإلى الدار الآخرة فلا تنكسر نفسياتهم، ولا تنال منهم الهزيمة.

قال تعالى: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه:٧٢].

قالوا لفرعون: إن ما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا الفانية، وكلُّ ما تصنعه أو تحكم به ينقضي ويزول ولا يضرنا، ولا رغبة لنا في البقاء فيها، بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره فإنه دائم عظيم، وإنَّ أمرك وسلطانك في هذه الحياة الدنيا سيزول عن قريب، ونحن نرغب في سكنى الدار الدائمة، بسبب موتنا على الإيمان، وذلك من ثباتهم على الإيمان، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون ووعيده رغبة فيما عند الله[٣].

استخدام الدعاية والإشاعة في الحرب النفسية، كالتي يشنها الأعداء على الأمة اليوم، فهي لها أثر كبير في تحقيق الهزيمة بها، وبأقل الخسائر في الأرواح والمعدات، وهي تجرد الأمة من أثمن ما لديها وهي الإرادة القتالية، فهي تستهدف العقل والتفكير والقلب والعواطف؛ لكي تحطم الروح المعنوية لدى أبنائها، وقد بلغ من تأثير الحرب النفسية أنَّ كثيرًا من الأمم استسلمت لأعدائها قبل أن تطلق جيوشها طلقة واحدة، ومن أعظم الدروس التي تستخلص من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في صراعه مع الأعداء، هو استخدام العامل النفسي في الصراع لتحقيق الأهداف الإستراتيجية، فمن بين ثمانٍ وعشرين غزوة قادها بنفسه، نجد تسع عشرة غزوة حققت أهدافها بلا قتال، إذ فرَّ الأعداء تحسبًا لنتائج مواجهة قوة المسلمين.

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٥٠، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٧٤، نظم الدرر، البقاعي ٣/ ٨٨.

(٢) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٥/ ٣٥٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٤٢، أضواء البيان، الشنقيطي ٢١/ ١٢٧.

آثار الهزيمة

الهزيمة إذا وقعت في قوم وحلت بهم، فإنَّ لها ما بعدها من الآثار المدمرة على حياتهم ومعيشتهم ومعنوياتهم ونفسياتهم، فالهزيمة العسكرية لا بد أن تكون درسًا تعليميًّا يتخذ منه العبر؛ لتلافي الأخطاء التي حصلت في المستقبل؛ فتصير هذه الهزيمة عبارة عن كرة من الكرات تؤدي مستقبلًا إلى النصر والظفر، أما إذا كانت هزيمة مكنت العدو من الأرض ومن نفسية الإنسان وعقله، فإن آثارها أكبر وأعظم، وتؤدي إلى النهاية والاستئصال، وتورث في عقليات أصحابها الذلة والخنوع والهوان، وعدم السعي للتغيير.

لكنَّ القرآن الكريم عندما نزلت الهزيمة بالمسلمين، أراد لهم التعلم والاستفادة من أخطائهم التي وقعوا فيها، وحذَّرهم من مغبة الركون إلى اليأس والقنوط من تحقيق وعد الله لهم، وهذا ما سيظهر لنا من خلال دراستنا لهذا المبحث الذي يبين آثار الهزيمة في القرآن، وما هي معالجات القرآن لها بشكل موجز، يتضمن العديد من الفوائد.

ومن تلك الآثار:

١. الشعور بالغمِّ خلال المعركة وبعدها.

قال تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ [آل عمران:١٥٣].

الغمُّ الأول هو أنهم غموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره، فجزاهم الله بذلك الغمَّ الثاني وهو القتل والهزيمة عقوبةً لهم على مخالفتهم، فصاروا مغمومين بعد ذلك لِمَا أصابهم من القتل والهزيمة، ولفوت الغنيمة عنهم(١).

٢. الندم على التقصير في الإعداد لمتطلبات النصر قبل المعركة أو داخلها.

فالناس في كل زمان يعيشون في الأحلام والخيالات، فهم ينتظرون النصر منحة إلهية خالصة للمؤمنين، دون أن يقوموا بواجباتهم ويعملوا بما تقتضيه متطلبات الحروب مع العدو، فهم المكلفون من الخلق بالجهاد وحمل الأمانة، فإذا جاهدوا وصبروا وثبتوا أيدتهم العناية الإلهية، وتحقق لهم النصر والفوز، والله صادق الوعد بنصر المؤمنين ما داموا على الحق ثابتين، وفي ميدان المعارك مجاهدين صابرين مطيعين، متوحدين غير متفرقين، وأما الجبن والضعف والتفرق، والنزاع والأطماع الدنيوية فهي أسباب الخذلان والهزيمة المنكرة، وتورث بعد ذلك الندم على ما فات، ولقد صور القرآن الكريم ذلك في معركة أحد، ففي بداية المعركة صدق الله وعده للمؤمنين، وأراهم

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٣٤.

الفتح حين صرع صاحب لواء المشركين وقتل معه سبعة نفر، وولى المشركون الأدبار، وتركوا أموالهم وهربوا، فلما عصى المسلمون وخالفوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالثبات على الجبل، واشتغلوا بالغنيمة أعقبهم البلاء، وأدى بهم إلى الجراح والقتل والهزيمة والفرار، فتحصلوا على الندم بعد المعركة على تقصيرهم، ولكن هيهات أن يرجع الماضي[1].

٣. الخزي.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة:١٤].

و«الإخزاء: الإذلال، ويكون بالقهر والأسر والفقر لمن لم يقتل منهم»[2]، فقوله تعالى ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ يعني: «يذلهم بالهزيمة؛ لأن الله تعالى قد وعد المؤمنين على لسان النبي صلى الله عليه وسلم أن يعذب الكفار بأيديهم ويخزهم وينصرهم عليهم، فأنجز وعده ولم يظهر خلاف ما وعد لهم»[3].

وقال الإمام الرازي في تفسيره: «إنَّ الإخزاء واقعٌ بهم في الدنيا، ومعناه: ما ينزل بهم من الذل والهوان حيث شاهدوا أنفسهم مقهورين في أيدي المؤمنين ذليلين مهينين؛ فلما حصل الخزي لهم بسبب كونهم مقهورين فقد حصل النصر للمسلمين بسبب كونهم قاهرين»[4].

معالجة القرآن لآثار الهزيمة النفسية:

لكننا نجد أن القرآن قد عالج آثار الهزيمة التي حدثت فور وقوعها، حتى لا تتفشى في نفسيات الناس وعقولهم، وحافظ على رفع الروح المعنوية، وأعطى الدعم النفسي، وهيأ الناس لمواجهات قادمة، بتجديد الروح والعزيمة لديهم، وتعميق ثقتهم بدينهم ونبيهم، وبتحقيق وعد الله لهم بالنصر على أعدائهم فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٩-١٤٠].

ومن تلك المعالجات:

١. النعاس.

من معالجات القرآن الكريم لآثار الهزيمة في معركة أحد، ما ألقاه عليهم من النعاس أو النوم بعد هذا الغم الذي أصابهم؛ ليشعرهم بالأمن، وليجددوا عزائمهم، وترتاح نفوسهم من بعد هذه الهزيمة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل

(١) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١٣١.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٠/٦٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٣٥.

(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ٤٢.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٦.

عمران:١٥٤].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٢].

فيها إشعارٌ بالهدف الأسمى، وهو أخذ الدرس والعبرة، حتى وإن حصلت المخالفة والذنوب، فالهدف أننا نريد أناسًا عمليين، يخطئون فيتعلمون من أخطائهم، وليس كما يفعل اليوم بالإقصاء والتغيير، وإعفاء من المهمات، بل إن الأخطاء تعطي هذا الجندي أو القائد حنكة وتجربة يكتسبها ويتعلمها من أخطائه، فيجعل الله على يديه نصرًا في معارك أكبر وذات شأن، فالمصاعب والشدائد هي التي تصقل الرجال، وتخرج المقاتلين(١).

٢. إنزال السكينة.

من معالجات القرآن الكريم لآثار الهزيمة في غزوة حنين بعد الفرار والتولي، هو إنزال السكينة عليهم بعد الذي أصابهم، فقد أحاط بهم العدو، وأوقع في صفوفهم الفوضى والاضطراب، وهذا الأمر يسلم إلى الهزيمة التي لا مفر منها، فما كان للمسلمين أن يفروا بأي حال كانوا عليه، وعلى أي تقدير يقدرونه لنتائج المعركة، فلتكن الهزيمة واقعة بهم، ولكن الذي كان يجب ألا يكون منهم، هو الفرار، فهذا أمر لا يصح أن يقع من المسلمين في ميدان القتال، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

فأي مسلم هذا الذي تحدثه نفسه بالفرار من المعركة، وهو يعلم حكم الله فيمن يفر ويولي العدو دبره، ولكن الذي حدث هو أن المسلمين فروا وولوا الأدبار، ومن هنا كان هذا الأمر منهم حدثًا غريبًا، ما كان ينبغي أن يكون في ميدان القتال، لكن معالجة القرآن الكريم لهذه الهزيمة، إذ أنزل الله سكينته عليهم، ونزع ما كان قد استولى على قلوبهم من خوف وهلع، وأمدهم بجنود من عنده كانوا ردءًا لهم، ويدًا قوية ضاربة معهم، فكان لهم النصر والظفر(٢).

٣. التحذير من الإشاعات والأراجيف.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران:١٤٩].

تصور الآية ما حدث بعد معركة أحد من بلبلة في الأفكار وإرجاف من المشركين، فلقد انتهز المنافقون والكفار واليهود جميعًا

---

(١) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٤/ ١٣١.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٧٣٠.

ما أصاب المسلمين من الهزيمة، وأخذوا يثبطون من عزائمهم، ويخوفونهم عاقبة السير مع محمد صلى الله عليه وسلم، ويصورون لهم مخاوف الحرب ضد مشركي قريش وحلفائهم، وإشاعة عدم الثقة في القيادة، وتزيين الانسحاب من المعركة، ولا شك أنَّ أصلح الأجواء لبلبلة النفوس هو جوُّ الهزيمة.

فانظر إلى هذه الحكمة البالغة في النهي عن الإنصات لهذه الفئات، بل وينهاهم عن متابعة الكفار والمنافقين في أمر ولو كان صغيرًا، والمعنى: إن تطيعوا أعداء الله الذين أرجفوا يوم أحد وقالوا: إنَّ محمدًا قد قتل، وإنه لو كان رسولًا حقًّا لما هزم، فإنهم سيطلبون إليكم أن ترجعوا إلى الدين الذي كنتم عليه، وبذلك تخسرون الدنيا والآخرة، وأيُّ خسارة أشد من الارتداد عن الإيمان إلى الكفر[1].

ولقد امتن الله على عباده المؤمنين بحفظهم من شَرِّ هذا السلوك الشائن من بعض المنافقين وضعفاء الإيمان، حيث رحمهم بالحفظ من تصديق ما يذيعه الأعداء وضعاف الإيمان وذوو الغفلة، فلولا هذا الفضل وتلك الرحمة مِنَ الله بهذه الأمة؛ لضل الكثير من أبنائها باتباع سبيل الشيطان، ولكان مصيرها الضياع والانهزام، وضعف الثقة في النفوس، لكن هناك قلة امتازوا من المسلمين بقوة العزيمة، وثبات الإيمان، فإنهم هم الذين يكونون بمنجاة من التأثر بهذه الأخبار، فلا يصدقونها ولا يذيعونها[2].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء:٨٣].

وقد أضافت هذه الآية معنىً جديدًا وهو: كتمان أخبار القتال، وصيانة أسراره، فطبيعة الجهاد تقتضي كتمان أخبار القتال وصيانة أسراره إذا ما أريد له النجاح، وبخاصة ما يستفيد منها الأعداء، ومن أخطر الأمور التي تضر بالمسلمين وبجيشهم المقاتل؛ إذاعة ما يسمعه المرء من أخبار النصر أو الهزيمة، قبل أن يعرضه على أولي الأمر، فإنهم أعلم بما إذا كان إفشاء هذه الأخبار مما يضرُّ الصالح العامَّ أم لا.

فيجب على الناس أن يسوسوا أنفسهم، ويروضوها على صيانة أخبار أمن الدولة، وكل ما يتعلق بالجانب العسكري من معلومات، ذلك لأن إفشاء أخبار الدولة، يسهل للعدوِ مهمة التجسس، ومعرفة مواطن

(١) انظر: تيسير التفسير، القطان ١/ ٢٢٨.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ٨٦٤.

الضعف والقوة لدى المسلمين، ويكشف عن عيوبهم، ويستوي في ذلك الأخبار المتعلقة بالنصر أو الهزيمة؛ لأن أخبار النصر قد تؤدي إلى التواكل والإهمال؛ فلا يأخذ المسلمون حذرهم، وبهذا يكونون فريسة سهلة لأعدائهم، وأخبار الهزيمة تلقي الرعب في قلوب ضعفاء الإيمان؛ فتنهار الروح المعنوية، ولا يستطيع الجيش ملاقاة الأعداء[1]، لذلك حذر القرآن منهم، وسماهم منافقين ومرجفين.

قال تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٠].

٤. تقوية الجبهة الداخلية.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ﴾ [الحشر:٣].

فلقد كانت لغزوة أحد التي هزم فيها جيش المسلمين، أثر عميق في نفوس المنافقين واليهود والكفار من قبائل العرب؛ مما كان سببًا في حوادث تتابعت كيوم الرجيع، (وفيه قتلت هذيل عاصمًا في سبعة نفر من خيار الصحابة وأسرت ثلاثة قتلت منهم واحدًا في الطريق، وباعت اثنين لقريش فقتلوهما)، وقد ذكر البخاري في صحيحه القصة كاملة[2]، وكيوم بئر معونة، (وفيه قتل من المسلمين أربعون غيلةً)، ووجد المنافقون واليهود فيما أصاب المسلمين في بئر معونة والرجيع وغزوة أحد ما شجعهم على الانتقاص من هيبة محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه، وفكر النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا في هذا الأمر، فذهب إلى يهود بني النضير وأجلاهم عن المدينة، فعمل بذلك على تقوية الجبهة الداخلية، حتى لا يكون هناك خلاف في وجهة النظر في المدينة وما حواليها[3].

ونهي عن التودد للكفار وموالاتهم حتى في حالات الضعف والانهزام، بل حرم ذلك أشد التحريم.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:٥١].

وقال في موضع آخر: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة:٢٢].

حتى ولو كانت الموادة بحجة النفع

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ٨٦٣.

(٢) أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة وحديث عضل والقارة وعاصم بن ثابت وخبيب وأصحابه، رقم ٣٨٥٨، ٤/ ١٤٩٩.

(٣) انظر: التفسير الواضح، محمد محمود حجازي ٣/ ٦٤٢.

العام، أو تحقيق المصالح للمسلمين.

قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ [المائدة:٥٢].

فقال لهم: إذا ما حدثتكم أنفسكم بأنه قد يترتب على الميل إليهم قدرٌ من الحماية والنصر (وهذا ما يفعله بعض حكام المسلمين مع أميركا في الوقت الحاضر)؛ فاعلموا أن ذلك وهمٌ خادع، واعلموا أن الله مولاكم، وهو ناصركم ومعينكم وحاميكم، فلا تطلبوا منهم نصرة، بل لا تستسلموا لهم، ولا تعينوهم على إخوانكم[1].

بهذا السرد الموجز يظهر لنا أن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتوجيه، فقد وضع معالجاتٍ قيمةً لآثار الهزيمة، تصحُّ أن يؤلف منها المصنفات في علم الحروب العسكرية والسياسية، وضوابط تُنَظِّمُ الدول وتسوس الجند، وترعى الناس في الأزمات والنكبات.

موضوعات ذات صلة:

الثبات، الجهاد، الدفع، القتال، النصر، الوهن

(١) انظر: تيسير التفسير، القطان ١/ ٢٢٨.

الهم بالشيء

عناصر الموضوع

مفهوم الهم بالشيء	٢٠٠
الهم بالشيء في الاستعمال القراني	٢٠١
الالفاظ ذات الصلة	٢٠٢
مجالاته وميادينه	٢٠٣
توابع الهم بالشيء و اثاره	٢٢٢

مفهوم الهم بالشيء

أولًا: المعنى اللغوي:

الهاء والميم: أصل صحيح يدل على ذوب وجريان ودبيب وما أشبه ذلك، ثم يقاس عليه، همني الشيء: أذابني، والهاموم: الشحم الكثير الإهالة، والهموم: البئر الكثيرة الماء، وأما الهم الذي هو الحزن فعندنا من هذا القياس؛ لأنه كأنه لشدته يهم، أي: يذيب، والهم: ما هممت به، وكذلك الهمة، ومهم الأمر: شديده، وأهمني: أقلقني، والهمام: الملك العظيم الهمة، والهميمة: المطرة الضعيفة، والهميمة: الريح اللينة، وهمم في رأسه، إذا جعل أصابعه في خلال شعره يجيء بها ويذهب لينام، والهميم: الدبيب[1].

الهم: الحزن والجمع الهموم، وأهمني الأمر، إذا أقلقك وحزنك، ويقال: همك ما أهمك، والمهم: الأمر الشديد، والهمة: واحدة الهمم، يقال: فلانٌ بعيد الهمة أيضًا بالفتح، وهممت بالشيء أهم هما، إذا أردته، ويقال: لا مهمة لي بالفتح، ولا همام، أي أهم بذلك ولا أفعله[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الهم: «هو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل، من خير أو شر»[3].

وقيل: «الهم دواعي الإنسان إلى الفعل من خير أو شر»[4].

ويظهر أن الهم متعلق بالنية والإرادة قبل وقوع الفعل، فإن فعله كان حقيقة واقعة، وإن لم يفعله يبقى في دائرة النية والرغبة والإرادة.

فالمعنى الاصطلاحي راجع إلى أحد المعاني اللغوية وهو الإرادة.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٣، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٨٩٢.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢٠٦١، مختار الصحاح، الرازي، ص٣٢٨.

(٣) التعريفات، الجرجاني، ص٢٥٧.

(٤) الكليات، الكفوي، ص٩٥٢.

الهم بالشيء في الاستعمال القرآني

ورد (الهم بالشيء) في القرآن الكريم(٨) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤]

وجاء الهم بالشيء في القرآن بمعناه في اللغة وهو: الإرادة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ [التوبة: ٧٤]. أي: أرادوا قتل الرسول وإخراجه[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٧٣٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٤٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ القدرة:

القدرة لغة:

الطاقة والقوة على الشيء والتمكن منه، والغنى والثراء، يقال: رجل ذو قدرة ذو يسار وغنى [١].

القدرة اصطلاحًا:

الصفة التي تمكن الحي من الفعل وتركه بالإرادة[٢]، والقدرة: صفة تؤثر على قوة الإرادة» [٣].

الصلة بين الهم بالشيء والقدرة:

الهم: إجماع النفس على الأمر والإزماع عليه، وتحقيقه يكون بالقدرة وهي القوة على فعل الشيء، فقد يحصل الهم بالشيء ويتخلف حصوله لعدم القدرة على تحقيقه.

٢ العزم:

العزم لغة:

«عزم على الشيء: عقد ضميره على فعله، وعزم عزيمة: اجتهد وجد في أمره»[٤].

العزم اصطلاحًا:

«العزم: عقد القلب على إمضاء الأمر»[٥].

الصلة بين الهم بالشيء والعزم:

الهم: إجماع النفس على الأمر والإزماع عليه، والعزم: عقد القلب على إمضاء الأمر[٦].

وقيل: الهم: أقل من التصميم على الفعل وإرادة وقوعه، والعزم: تصميمٌ وإرادةٌ قويةٌ للفعل.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٤٠، مختار الصحاح، الرازي ص ٢٤٨، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٩٢.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٧٣، الكليات، الكفوي ص ١٠٨.

(٣) التعريفات، الجرجاني ص١٧٣.

(٤) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٠٨.

(٥) المفردات، الراغب ص٥٦٥.

(٦) الكليات، الكفوي، ص١٥٣٩.

مجالاته وميادينه

بين القرآن الكريم مجالات للهم بالشيء، منها الهم في القتال، وفي الأخلاق، وفي مجابهة الدعوة، والهم بإيذاء الرسل والدعاة، وسوف نتناول ذلك بالتوضيح فيما يأتي:

أولًا: الهم في ميادين القتال:

إن ساحات القتال من أعظم المواطن التي يظهر فيها صدق الصادقين؛ حيث تذهل النفوس، وتتطاير الرءوس، ولا يثبت إلا أناسٌ يحبون الموت كما يحبون الحياة، فيبذلون مهجهم في سبيل الله في هذا الموطن تصاب بعض النفوس بعوارض نفسيةٍ شديدةٍ؛ من الخوف، والقلق، والهم بالفرار، أما الكافر والمنافق فما ثم إلا الظنون السيئة، وأما المؤمن فعلى قدر استعانته بالله يثبته الله، وفي يوم أحدٍ كان لطائفةٍ من المؤمنين شأنٌ، فأحدٌ -كما قال صاحب الظلال- لم تكن معركةً في الميدان وحده، إنما كانت معركةً كذلك في الضمير[1].

قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

والطائفتان: بنو سلمة وبنو حارثة، حيان من الأنصار، هموا بأمر فعصمهم الله من ذلك، وكان همهما الذي هما به من الفشل: الانصراف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين؛ حين انصرف عنهم عبد الله بن أبي بن سلول بمن معه[2]. فأدى هذا الإنصراف إلى ضعف قلوب البعض، فراودت النفس بالفشل.

والفشل في البدن: الاعياء، وفي الحر: الجبن، والخور، وفي الرأي: العجز والفساد[3].

وهذا الهم إنما هو حركة قلب عند من السر عنده علانية، وقد علم ذلك منهم. فهل كان همهم بالفشل عزمًا على الرجوع عن لقاء المشركين يوم أحدٍ، وترك النبي صلى الله عليه وسلم جبنًا منهم، ثم لم يفعلا. أو كان همهم بالفشل مجرد حديث نفس خطر على أذهانهم؟

ظاهر الآية يدل على أن همهم هنا كان عزمًا على الفشل والترك. ولعل الصواب: أن الهم هنا دون العزم، فهو خاطرٌ قلبي، وحديث تردد في النفس، ولم يترجح ليصبح عزمًا على الفعل؛ بدليل قوله بعدها: ﴿وَٱللَّهُ

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٥٧.

(٢) انظر: العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر ٢/ ٧٤٢، جامع البيان، الطبري ٧/ ١٦٥. والمراد بهذه الوقعة يوم أحد عند الجمهور، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد. أما ما ورد أنه يوم الأحزاب. فغريب لا يعول عليه. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٠٩.

(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٢٤.

﴿وَلِيُّهُمَا﴾ فولاية الله لهما دلالة على عدم وقوع العزم على ترك النبي صلى الله عليه وسلم إذ هو معصية.

قال الرازي: «الهم قد يراد به العزم، وقد يراد به الفكر، وقد يراد به حديث النفس، وقد يراد به ما يظهر من القول الدال على قوة العدو وكثرة عدده؛ لأن أي شيء ظهر من هذا الجنس صح أن يوصف من ظهر ذلك منه بأنه هم بأن يفشل من حيث ظهر منه ما يوجب ضعف القلب»[1].

ونحوه ذكر الشيخ الشنقيطي، بأن جعله كهم يوسف عليه السلام الذي هو خاطرٌ قلبيٌّ صرفه عنه وازع التقوى؛ لأن قوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يدل على أن ذلك الهم ليس معصيةً؛ لأن اتباع المعصية بولاية الله لذلك العاصي إغراءٌ على المعصية. والعرب تطلق الهم وتريد به المحبة والشهوة[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أضمروا أن يرجعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا». وهذا الهم غير مؤاخذٍ به؛ إذ ليس بعزيمة، إنما هو ترجيح من غير عزم. ولا شك أن النفس عندما تلاقي الحروب ومن يجالدها يزيد عليها مثلين وأكثر، يلحقها بعض الضعف عن الملاقاة، ثم يوطنها صاحبها على القتال فتثبت وتستقر[3].

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: ناصرهما على ذلك الهم الشيطاني، الذي لو صار عزمًا لكان سبب شقائهما، فلعناية الله بهما برأهما الله من فعل ما همتا به[4].

فهمهما في الآية على ما ذكر مجرد حديث نفس وخاطر قلبي، بالتراجع عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ دعاهم إليه الضعف والوهن، ثم دفعه المولى سبحانه عنهما بفضله وعنايته. كما يدلل هذا على أن الهموم تتفاوت؛ فبعضها أعظم من بعض، وهم الجبن والانصراف عن المعركة ليس كالهم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي موقفٍ عظيم مهيب للمسلمين في صلاتهم، هم المشركون بالإغارة عليهم؛ إذ أنهم في موقف حرب -والحرب خدعةٌ- فعن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: (لما أراد الله عز وجل ما أراد بي من الخير قذف في قلبي الإسلام وحضرني رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمدٍ، فليس موطنٌ أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمدًا سيظهر، فلما خرج رسول الله إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين، فلقيت رسول الله في أصحابه بعسفان فقمت بإزائه

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣٤٧.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٠٧.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٣٢٨.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٧٠.

وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر أمامنا، فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا، وكانت فيه خيرةٌ، فأطلع على ما في أنفسنا من الهموم فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف فوقع ذلك منا موقعا وقلت: الرجل ممنوعٌ»[1].

فانتهى همهم هنا في صدورهم؛ إذ لم يتحقق عزمهم على الأمر أول مرة، ثم حمى الله عباده، بما شرع في الصلاة التي تليها -فلله الحمد من قبل ومن بعد- ثم كان وقوع هذا الأمر على مرأى من خالد بن الوليد، داعيته إلى الإسلام والإقبال على الدين.

وهاتان الواقعتان تربيان في المسلم عظمة خالقه سبحانه المطلع على خلجات النفوس؛ فيرتجف قلبه رهبةً مما حاك في صدره مما لا يرضي الله، فيسعى للخلاص منه.

ثانيًا: الهم في ميادين الأخلاق:

إن تربية المسلم نفسه على الفضائل من أوجب ما يجب عليه، وهو مطالبٌ بتهذيبها وتزكيتها، وأن يجنبها مداخل الشيطان التي يلج منها. والدنيا قد تتزين للعبد، ولكونه خلق ضعيفًا فقد ترديه نفسه الأمارة بالسوء والشيطان والهوى في شباك المعصية وفي ظل غياب الرقيب -في نفسه- فلم يغب الرقيب الأعلى سبحانه إنما غاب الإيمان في قلبه حين هم بمعصية الله، وفي قصر العزيز يقص الله علينا أحداث ذلك الهم وما آل إليه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

همت امرأة العزيز بالمعصية همًا مؤكدًا محققًا، أما هم يوسف عليه السلام فاختلف فيه المفسرون. ولئن عد البعض هذه المسألة شائكة واختلفت فيها الأقوال فإنه يتوقف ولا يخوض غمارها؛ لذا فإنني أفتتحها بذكر أقوال المفسرين حول هم يوسف عليه السلام؛ لتتبين المسألة بجلاء لمن لا يعرفها. وهذه الأقوال هي:

- أنه هم بها أن يضربها حين راودته عن نفسه ولم يهم بمواقعتها.
- أن قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ كلامٌ تامٌ قد انتهى، ثم ابتدأ الخبر عن يوسف، فقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ومعنى الكلام: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها[2]. وحكم الطبري بفساده،

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب ذكر إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه. ٢/ ٣٣. وانظر: أسباب النزول، الواحدي ص ١٢٠، المحرر في أسباب نزول القرآن، خالد المزيني ١/ ٤٣٧.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٤.

فقال: «يفسد هذا القول أن العرب لا تقدم جواب ﴿لَوْلَآ﴾ قبلها، لا تقول: (لقد قمت لولا زيد)، وهي تريد: (لولا زيد لقد قمت)، هذا مع خلافهما جميع أهل العلم بتأويل القرآن، الذين عنهم يؤخذ تأويله»[1].

- هم يوسف بالمرأة، ولكن همه بها لم يكن عزمًا وإرادةً، وإنما كان تمييلًا[2] بين الفعل والترك، ولا حرج في حديث النفس إذا لم يقترن به عزمٌ ولا فعلٌ، وأصل الهم: حديث النفس حتى يظهر، فيصير فعلًا[3].
- أنه هم بمواقعتها وعزم عليه[4]. وأن ابن عباس، سئل عن هم يوسف ما بلغ؟ فقال: «حل الهميان، وجلس منها مجلس الخائن»[5].
- أنه لم يقع منه همٌ بها ألبتة[6].

وظاهر الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف عليه السلام هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه. والقرآن العظيم بين براءته -عليه الصلاة والسلام- من الوقوع فيما لا ينبغي. وتأويل هم يوسف بأنه قارب الهم ولم يهم بالفعل؛ كقول العرب: قتلته لو لم أخف الله. أي: قاربت أن أقتله. وتأويل الهم بأنه هم بضربها، أو هم بدفعها عن نفسه؛ فكل ذلك غير ظاهرٍ، بل بعيدٌ من الظاهر ولا دليل عليه[7].

والقول الراجح في بيان همه عليه السلام على ما وجه أهل العلم؛ من وجهين:

الوجه الأول: إن المراد بهم يوسف بها خاطرٌ قلبي صرفه عنه وازع التقوى، وقال بعضهم: هو الميل الطبيعي والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى، وهذا لامعصية فيه؛ لأنه أمرٌ جبلي لا يتعلق به التكليف؛ كما في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: (اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك)[8] يعني: ميل القلب الطبيعي.

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٩.

(٢) التمييل بين الشيئين: كالترجيح بينهما. وفي حديث أبي ذر: «دخل عليه رجل فقرب إليه طعامًا فيه قلة فميل فيه لقلته، فقال أبو ذر: إنما أخاف كثرته ولم أخف قلته». ميل أي: تردد هل يأكل أو يترك، تقول العرب: إني لأميل بين ذينك الأمرين، و أمايل بينهما أيهما آتي. انظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٣٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٦٦.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٩.

(٦) البحر المحيط ٦/ ٢٥٧.

(٧) أضواء البيان ٢/ ٢٠٥.

(٨) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، رقم ١١٤٠، ٣/ ٤٤٦، وأبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، رقم ٢١٣٦، ٢/ ٢٠٨، والنسائي في سننه، كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، رقم ٣٩٤٣، ٧/ ٦٣، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، رقم ١٩٧١، ٣/ ١٤٤، وأحمد في مسنده رقم ٢٥١١١، ٤٢/ ٤٦.

ومثال هذا: ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد، مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة)[1]؛ لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفًا من الله، وامتثالًا لأمره؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١][2].

قال شيخ الإسلام: «وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فالهم: اسم جنس تحته نوعان، كما قال الإمام أحمد: الهم همان: هم خطراتٍ وهم إصرار. وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه، وإذا تركها لله كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له سيئةٌ واحدةٌ، وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة. ويوسف صلى الله عليه وسلم هم همًا تركه لله؛ ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو الهم، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله، فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنةٌ يثاب عليها، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]»[3].

الوجه الثاني: وهو اختيار أبي حيان: أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ أصلًا، بل هو منفيٌّ عنه لوجود البرهان.

قال أبو حيان: «طول المفسرون في تفسير هذين الهمين، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق. والذي أختاره: أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ بها ألبتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفت لولا أن عصمك الله، ولا تقول: إن جواب (لولا) متقدم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلفٌ في جواز تقديم أجوبتها عليها. وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو زيد الأنصاري، وأبو العباس المبرد. بل نقول: إن جواب (لولا) محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه؛ كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالمٌ إن فعلت. فيقدرونه: إن فعلت فأنت ظالم. ولا يدل قوله: أنت ظالم على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم ٦١٢٦، ٥/ ٢٣٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، رقم ١٨٧، ١/ ٣٢٣.

والحديث معلول بالإرسال.

(2) أضواء البيان ٢/ ٢٠٥.

(3) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ٢٦٢.

وجود الفعل. وكذلك هنا التقدير: (لولا أن رأى برهان ربه لهم بها)، فوجود الهم معلقٌ على تقدير انتفاء رؤية البرهان، فلما وجد البرهان انتفى الهم -إلى أن قال ردًا على ابن عطية-: أما قوله: يرده لسان العرب. فليس كما ذكر. وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب، قال الله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

فقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ إما أن يتخرج على أنه الجواب على ما ذهب إليه ذلك القائل، وإما أن يتخرج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب، والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به. وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحدٍ منهم شيء من ذلك؛ لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضا، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين؛ فضلا عن المقطوع لهم بالعصمة»(١).

وذكر أهل العلم القائلين بذلك دلائل عدة تبين نفي الهم عن يوسف عليه السلام، منها:

١. أن يوسف لم يقع منه الذنب، وإلا لكان استغفر بعده وذكر في الآية.

فإن الله ذكر عن أنبيائه عليهم السلام استغفارهم ورجوعهم فور الذنب أو فعل خلاف الأولى، فلما لم يذكر دل على عدم وقوع مالا يليق منه ولو يسيرًا، بل إن ما حصل منه حسنة تئول إلى الثواب، وتوجب المدح؛ إذ كف نفسه ابتغاء وجه الله فتركها من خشيته.

قال شيخ الإسلام: «وأما يوسف الصديق فلم يذكر الله عنه ذنبًا؛ فلهذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار، بل قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوءٌ ولا فحشاء»(٢).

٢. أن الله عز وجل ذكر أنه صرف عنه السوء.

فقال في ختام الآية: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ ذكر أنه من المخلصين، وهي إما بكسر اللام، أي: الذين أخلصوا طاعة الله. أو بفتح اللام، أي: الذين أخلصهم الله لرسالته، فكيف يكون موصوفا بهاتين الصفتين، وفيه همٌ أو ميلٌ للسوء؟!

قال الرازي: «فكيف يليق برب العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئًا من السوء مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء والفحشاء. وأيضًا فالآية تدل على قولنا من

(١) انظر: البحر المحيط ٦/ ٢٥٧.

(٢) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٥/ ٢٦٢.

وجه آخر؛ وذلك لأنا نقول: هب أن هذه الآية لا تدل على نفي هذه المعصية عنه، إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكي عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة ثم إنه يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح والأثنية عقيب أن حكى عنه ذلك الذنب العظيم»[1].

٣. أن القرآن أكد همها.

فقد أكد الفعل بـ (قد، ولام القسم)؛ ليفيد أنها عزمت عزمًا محققًا، و كانت جادةً فيما راودته لا مختبرةً. والمقصود من ذكر همها به التمهيد إلى ذكر انتفاء همه بها؛ لبيان الفرق بين حاليهما في الدين؛ فإنه معصوم[2]. فتأكيد همها وتقديمه دلالة على الفارق الكبير بينهما، فقد عزمت، وهو لم يهم أصلًا.

٤. أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية.

ومن له تعلقٌ بهذه الواقعة: يوسف عليه السلام وتلك المرأة وزوجها، والنسوة، والشهود، ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب، وإبليس أقر ببراءته أيضًا عن المعصية[3]. ولا شهادة بعد شهادة القرآن ببراءته عليه الصلاة والسلام.

(١) مفاتيح الغيب ١٨/ ٤٤٠.
(٢) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٥٢.
(٣) مفاتيح الغيب ١٨/ ٤٤٠.

وبهذين الجوابين نعلم أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بريء من الوقوع فيما لا ينبغي، وأنه إما أن يكون لم يقع منه همٌّ أصلًا بناءً على أن الهم معلق بأداة الامتناع التي هي (لولا) على انتفاء رؤية البرهان، وقد رأى البرهان فانتفى المعلق عليه، وبانتفائه ينتفي المعلق الذي هو همه بها. كما تقدم إيضاحه في كلام أبي حيان.

وإما أن يكون همه خاطرًا قلبيًا صرفه عنه وازع التقوى، أو هو الشهوة والميل الغريزي المزموم بالتقوى. كما سبق[4].

أما توجيه الروايات الواردة في ذلك، فقد نقل الألوسي في تفسيره عن الطيبي قوله -بعد أن اختار أن الهم هنا-: «همٌّ عارض، وهو: الخطرة وحديث النفس من غير اختيارٍ ولا عزمٍ فقال: إن هذا التفسير هو الذي يجب أنْ نذهب إليه ونتخذه مذهبًا، وإن نقل المفسرون ما نقلوا؛ لأن متابعة النص القاطع، وبراءة المعصوم عن تلك الرذيلة، وإحالة التقصير على الرواة أولى بالمصير إليه، على أن أساطين النقل المتقنين لم يرووا في ذلك شيئًا مرفوعًا في كتبهم، وجل تلك الروايات -بل كلها- مأخوذٌ من مسألة أهل الكتاب».

نعم قد صحح الحاكم بعضًا من الروايات التي استند إليها من نسب تلك الشنيعة إليه

(٤) انظر: أضواء البيان ٢/ ٢١٤.

عليه السلام، لكن تصحيح الحاكم محكومٌ عليه بعدم الاعتبار عند ذوي الاعتبار»[1].

والذي أميل إليه وأؤيده أنه عليه السلام لم يهم بها ألبتة؛ فرؤيته برهان ربه صرف عنه الهم بالسوء، وكيف لا يحفظ الله عبدًا خصه لرسالته من الهموم والخواطر الرديئة! وهو الولي الحفيظ، اللطيف الخبير سبحانه.

نلحظ أن الباعث لامرأة العزيز على الهم بهذه المعصية هو المحبة؛ فالشهوات مزلقٌ خطيرٌ ينبغي أن يزم بزمام التقوى، وإلا عاش المرء حياته كالمخمور بسكرة الهوى، لايرى إلا شهوته. ومايلبث أن يفيق حتى يرجع.

والهم في ميدان الأخلاق يشمل كذلك: الآداب والفضائل التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن ويكون عليها؛ ليرتقي بأخلاقه، فينمي في نفسه كل هم يدعوه إلى السمو للمعالي وإن لم يكن واجبًا، ويحاول التخلص من كل هم يسقط همته، ويزري بها، وإن لم يكن حرامًا. وذكر عن الإمام الشافعي رحمه الله قوله: «والله لو علمت أن الماء البارد يثلم من مروءتي، ما شربته إلا حارًا»[2].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلةً، فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوء. قلنا: وما هممت؟ قال: هممت أن أقعد وأذر النبي صلى الله عليه وسلم)[3].

فجعل رضي الله عنه همه للقعود وتحديث نفسه بذلك أمرًا سوءًا؛ لكونه مخالفًا للأدب معه صلى الله عليه وسلم.

مع كون ذلك جائز منه -كما اتفق العلماء- سواء في فريضة أو نافلة[4].

(١) روح المعاني، الألوسي ٦/ ٤٠٧.
وقال العلامة الشنقيطي «هذه الأقوال التي نسبت إلى العلماء منقسمة إلى قسمين:
١. قسمٌ لم يثبت نقله عمن نقله عنه بسند صحيح. وهذا لا إشكال في سقوطه.
٢. وقسم ثبت عن بعض من ذكر، ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك. فالظاهر الغالب على الظن المزاحم لليقين: أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات، لأنه لا مجال للرأي فيه، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه صلى الله عليه وسلم.
وبهذا تعلم أنه لا ينبغي التجرؤ على القول في نبي الله يوسف بأنه جلس بين رجلي كافرة أجنبية، يريد أن يزني بها، اعتمادًا على مثل هذه الروايات، مع أن في الروايات المذكورة ما تلوح عليه لوائح الكذب، كقصة الكف التي خرجت له أربع مرات، وفي ثلاث منهن لا يبالي بها، لأن ذلك على فرض صحته فيه أكبر زاجر لعوام الفساق، فما ظنك بخيار الأنبياء؟! مع ما تقدم من دلالة القرآن على براءته من جهات متعددة».
انظر: أضواء البيان ٢/ ٢١٥.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، السبكي ٢/ ٧٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب طول القيام في صلاة الليل، رقم ١٠٨٤، ١/ ٣٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم ١٨٥١، ٢/ ١٨٦.
(٤) شرح صحيح مسلم، النووي ٣/ ١٢٤.

فمن أدبه لنفسه رضي الله عنه وسعيه للكمال لم يدع النبي صلى الله عليه وسلم ويجلس، رغم المشقة التي لحقته، وهكذا يأخذ المؤمن نفسه بكل مكرمة ترقيه عند الله عز وجل.

ثالثًا: الهم في مجابهة الدعوة:

اتخذ أعداء الله لمجابهة الدعوة طرقًا وأساليب يصدون بها عن سبيل الله، فتارةً يوجهون طعنهم لحامل الرسالة، وتارةً يطعنون فيما جاء به، وتارةً يقترحون الآيات، ويتعنتون في السؤالات، ويؤلبون الأعداء، ويحاولون ترويج الباطل على النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه ما اسطاعوا إلى ذلك سبيل، والله متفضل على رسوله من الوقوع في حبائلهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

فقد كشفت الآية لرسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر؛ ليقوم ميزان العدل. ويأبى الله إلا أن يحق الحق ويبطل الباطل، فهذه الآية نزلت في طعمة بن أبيرق[1]، واختلف في سبب نزولها فيه: فقال الحسن: إنه كان سرق درعًا وطعامًا فأنكره، واتهم غيره وألقاه في منزله، وأعانه قوم من الأنصار. وخاصم النبي صلى الله عليه وسلم عنه أو هم بذلك، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية إلى قوله: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ١١٢].

يعني: الذي اتهمه السارق وألقى عليه السرقة[2].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [النساء: ١١٣]. أي: لولا أن الله تفضل عليك يا محمد، فعصمك بتوفيقه وتبيانه لك أمر هذا الخائن، فكففت لذلك عن الجدال عنه، ومدافعة أهل الحق عن حقهم قبله ﴿لَهَمَّت﴾ فرقة منهم، أن يزلوك عن طريق الحق؛ وذلك لتلبيسهم أمر الخائن عليه صلى الله عليه وسلم، وشهادتهم للخائن عنده

(١) طعمة بن أبيرق بن عمرو الأنصاري ذكره أبو إسحاق المستملي في الصحابة وقال: «شهد المشاهد كلها إلا بدرًا». وقد تكلم في إيمان طعمة.
انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر ٣/ ٥١٨.

(٢) مع اختلاف المفسرين في سبب النزول إلا أنهم متفقون على أنها في سارق بني أبيرق، وأخرج الترمذي القصة مطولة في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء، رقم ٣٠٣٦، ٥/ ٢٤٤.
وقال الدكتور خالد المزيني في المحرر في أسباب نزول القرآن ١/ ٤٤٤: وكونها سببًا لنزول الآيات، فالسبب المذكور في نزولها معلول بالإرسال، ولعله يتأيد بموافقته للسياق القرآني، واعتماد المفسرين عليه في نزول الآيات والله أعلم.

بأنه بريء مما ادعي عليه، ومسألتهم إياه أن يعذره، وما يضل هؤلاء إلا أنفسهم[1].

وقيل: ﴿لَهَمَّت﴾ معناه: لجعلته همها وشغلها حتى تنفذه، والمعنى: ولولا عصمة الله لك لكان في الناس من يشتغل بإضلالك ويجعله هم نفسه، كما فعل هؤلاء، لكن العصمة تبطل كيدهم[2].

والظاهر أن الهم هنا بمعنى: العزم على إضلاله عن الحق في هذه الواقعة؛ لعلمهم أنه سارق، ثم هم يجادلون عنه، ويطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم ذلك. فقد قيل: إن قوم طعمة كانوا قد عرفوا أنه سارق، ثم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يدفع ويجادل عنه، وينسب السرقة إلى اليهودي، فتعاونوا على الإثم والعدوان[3].

وحتى على فرض أنهم لم يكونوا يعلمون، بل قالوا ذلك ظنًا منهم أنه لم يسرق[4] فحينها سيكون عزمهم أشد، وطلبهم من النبي صلى الله عليه وسلم المدافعة عنه أقوى وأكثر؛ جهلًا منهم بحقيقته.

فتبين أن همهم هنا عزمٌ مؤكد منهم، سواء من علم، أو من لم يعلم منهم أنه سرق، فكان كما قال ابن عطية: «معصيةٌ من مؤمنيهم، وخلقٌ مقصود من منافقيهم، عصم الله رسوله منه»[5].

رابعًا: الهم بإيذاء الرسل والدعاة:

من عناية الله بخلقه أن أرسل الرسل وأنزل الكتب؛ لئلا يكون للناس حجةٌ؛ فسعوا في الأرض ينشرون دينه، لا يرجون أجرًا ولا يتطلعون لدنيا. ومع ذلك نجد من طبع الله على قلبه سخر وقته للنيل منهم، فآذوهم، وطردوهم، ونقضوا عهودهم، وأغروا بهم سفهاءهم، ومن لم يستطع منهم ذلك فإنه لم يأل جهده في العزم عليه، والسعي له، والفرح به إن تحقق، ومن منة الله على عباده: حفظهم من كيد أعدائهم وهمهم السيء بهم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

اختلف المفسرون في سبب نزول الآية وأشهر ما ذكر: «أن رجلًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل رجلين من بني سلم وبين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قومهما موادعة، فجاء قومهما يطلبون الدية فأتى النبي صلى الله عليه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ١٩٩.
(٢) البحر المحيط ٤/ ٦١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب ١١/ ٢١٦.
(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٢٦٦.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٩٣.

وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف -رضوان الله عليهم أجمعين-، فدخلوا على كعب بن الأشرف[١] وبني النضير يستعينهم في عقلهما، فقالوا: يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجةً، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، فجلس هو وأصحابه، فجاء بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لم تجدوا محمدًا أقرب منه الآن، فمن يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرةً، فيريحنا منه؟ فقال عمر بن جحاش بن كعب[٢]: أنا، فجاء إلى رحًى عظيمة ليطرحها عليه، فأمسك الله تعالى يده، وجاء جبريل عليه السلام وأخبره بذلك، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله تعالى هذه الآية»[٣].

وورد أيضًا عن جابر رضي الله عنه (أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل منزلًا وتفرق الناس في العضاه يستظلون تحتها، فعلق النبي صلى الله عليه وسلم سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذه فسله، ثم أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: من يمنعك مني؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (الله)، فشام[٤] الأعرابي السيف، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالسٌ إلى جنبه لم يعاقبه)[٥].

وقصة هذا الأعرابي -وهو غورث بن الحارث- ثابتة في الصحيح[٦].

وجعل الطبري القول الأول أولى الأقوال

(١) كعب بن الأشرف الطائي، من بني نبهان: شاعر جاهلي. كانت أمه من بني النضير فدان باليهودية، وكان سيدًا في أخواله. أكثر من هجو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم، والتشبيب بنسائهم. أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله، فانطلق إليه خمسة من الأنصار فقتلوه في ظاهر حصنه، وحملوا رأسه إلى المدينة.
انظر: الأعلام، الزركلي ٥/ ٢٢٥.

(٢) عمرو بن جحاش بن كعب بن بسيل النضري، أخو بني النضير.
انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/ ٥٧.

(٣) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص١٢٩، جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٠١.

(٤) الشين والياء والميم: أصلان متباينان، وكأنهما من باب الأضداد إذ أحدهما يدل على الإظهار، والآخر يدل على خلافه. تقول: شمت السيف، إذا سللته. وشمت السيف، إذا قربته.
انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٣٦.

(٥) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص١٢٩، جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٠٦.

(٦) غورث بن الحارث الذي قال: من يمنعك مني؟ قال: الله. فوضع السيف من يده. ذكر بعضهم أنه أسلم، والصحيح أنه لم يسلم كما قال ابن حجر في الإصابة.
انظر: الإصابة، ابن حجر ٥/ ٣٢٨.
وقصته أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع، رقم ٣٩٠٥، ٤/ ١٥١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توكله على الله تعالى وعصمة الله تعالى له من الناس، رقم ٨٤٣، ٤/ ١٧٨٤.

بالصحة[1].

بينما رد ابن عاشور ذلك، وذكر أن المراد: «قومٌ يعرفهم المسلمون يومئذ؛ فيتعين أن تكون إشارة إلى واقعة مشهورة أو قريبة من تاريخ نزول هذه السورة»[2].

وأيًا كان سبب نزول الآية ومن المراد بها، ففيها تذكير بنعمته تعالى لما قصد قوم وهموا بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم، أو قتل المسلمين، أو أن ينالوهم بشرٍ، فمنعهم الله، وحفظ عباده المؤمنين.

والهم هنا قيل إنه: حديث النفس بالفعل، ويقال: أهم بالشيء واهتم به، إذا عني به[3].

والذي يظهر لي أنهم قد حدثوا أنفسهم بالتخلص من النبي صلى الله عليه وسلم أو المؤمنين، ولكن لم يقف همهم عند هذا الحد من إضمار الغدر بالنبي صلى الله عليه وسلم في أنفسهم، بل إنهم عزموا على التخلص منه والفتك به عزمًا جازمًا، في محاولة بيتوا فيها الغدر والخيانة؛ إذ لم يقدروا على ذلك علانية. فأظهر الله مكرهم وأبطل كيدهم وحمى أهل طاعته.

والتعبير ببسط اليد يوحي بذلك، فبسط اليد مجاز في البطش.

قال تعالى: ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: ٢].

كما أن كف اليد مجاز عن الإعراض عن السوء خاصة.

قال تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠][4].

فالهم هنا بمعنى العزم المؤكد على إيقاع السوء به صلى الله عليه وسلم. وظاهر الآية والسنة الصحيحة الصريحة يدلل على ذلك.

وهؤلاء قومٌ ديدنهم الخيانة والغدر والفتك بالداعين إلى الله، فأصبح لا يجدي معهم إلا أن تستأصل شأفتهم، ويقطع دابرهم. يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله، حاضًا لهم على جهاد أعدائهم من المشركين: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

ألا تقاتلون هؤلاء المشركين الذين نقضوا العهد الذي بينكم وبينهم، وطعنوا في دينكم، وظاهروا عليكم أعداءكم، وهموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم فأخرجوه[5].

ولقتالهم ثلاثة أسباب يوجبه كل واحد منها بانفراده فكيف بها مجموعة؟!

وهي:

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/١٠٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٦/ ١٣٧.
(٣) تفسير السمعاني ٢/ ١٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٦/ ١٣٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٥٨.

١. نكثهم العهد؛ حيث نكث كفار مكة أيمانهم بعد عهد الحديبية، وأعانوا بني بكر على خزاعة.

٢. همهم بإخراج الرسول؛ فإن هذا من آكد ما يجب القتال لأجله. سواءً إخراجه من مكة حين هاجر، أو من المدينة لما أقدموا عليه من المشورة والاجتماع على قصده بالقتل. أو هموا بإخراجه من حيث أقدموا على ما يدعوه إلى الخروج وهو نقض العهد، وإعانة أعدائه، فأضيف الإخراج إليهم توسعًا لما وقع منهم من الأمور الداعية إليه. وقوله: ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ إما بالفعل وإما بالعزم عليه، وإن لم يوجد ذلك الفعل بتمامه.

٣. قوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إما بالقتال يوم بدر؛ لأنهم حين سلم العير قالوا: لا ننصرف حتى نستأصل محمدًا ومن معه. أو أراد أنهم قاتلوا حلفاء خزاعة فبدءوا بنقض العهد -على قول الأكثرين- وإنما قال: ﴿بَدَءُوكُمْ﴾ تنبيهًا على أن البادئ أظلم[1].

والتحضيض معناه: الطلب بحثٍ وشدةٍ. والمعنى: إن الله هنا طلب منهم بحثٍ وشدة أن يقاتلوا هؤلاء الكفرة أئمة الكفر[2].

فجعل همهم بإيذاء الرسل والداعين إلى الله، من آكد الأسباب التي تستوجب قتالهم وقطع دابرهم، سواء وقع ذلك منهم بالفعل، أو لم يقع، وظاهره أن همهم هنا بمعنى العزم، فقد دلت آيات أخر على حرصهم على ذلك كل الحرص، وسعيهم إليه بكل سبيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال أيضًا: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦].

ثم إنه بعد هذا الحث أمر بقتالهم صراحة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

وفي الآية السابقة تهديد للكفار والمنافقين وإنذارٌ لهم، وفي الآية التالية يدعوهم إلى التوبة؛ فقد تردى حالهم من الاستهزاء بالله ورسوله، وإضمار النفاق، والأيمان الكاذبة، والهم بالسوء.

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ

---

(١) مفاتيح الغيب ١٥/ ٥٣٥.

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، ٥/ ٣٠٧.

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

فقد كان المنافقون إذا خلا بعضهم إلى بعض سبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فنقل ذلك له، فلما كلمهم حلفوا ما قالوا شيئًا من ذلك، فأنزل الله الآية إكذابًا لهم.

وقيل في سبب نزولها أيضًا: «اقتتل رجلان؛ رجل من جهينة ورجل من غفار، فظهر الغفاري، فنادى ابن أبي: يا بني الأوس انصروا أخاكم، فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، فوالله ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

فسمع بها رجل من المسلمين، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فأرسل إليه، فحلف بالله ما قال، وأنزل الله الآية»[١].

وقيل: «كان الجلاس بن سويد[٢] ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك وقال: لئن كان هذا الرجل صادقًا لنحن شر من الحمير، فرفع عمير بن سعيد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف ما قلت، فأنزل الله الآية»[٣].

والأقوال تدل على أن المنافقين حلفوا كذبًا على كلمة كفر تكلموا بها أنهم لم يقولوها أيًا كانت هذه الكلمة من إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم أو المؤمنين أو الطعن في دينهم وعن من صدرت من المنافقين.

ثم ترتب على ذلك أن هموا بأمر، وثم دسيسة سوء بيتوها، ففضحهم الله عز وجل.

فقيل: هم المنافقون بقتل المسلم الذي سمع قولهم: لنحن شرٌّ من الحمير؛ لكي لا يفشيه.

وقيل: قالوا إذا قدمنا المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبي تاجًا، فلم يصلوا إليه[٤].

وربما كان همهم بأمر آخر لا علاقة له بما وقع عليه الحلف، وفيه إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم؛ حيث إن هذه الروايات كما قال صاحب الظلال: «لا تنسجم مع قوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤]»[٥].

وورد في سبب نزولها: هموا أن يدفعوا

(١) أسباب النزول، الواحدي ص ١٦٩.
(٢) الجلاس بن سويد بن الصامت من بني حبيب ابن عمرو بن عوف، كان متهما بالنفاق، وهو ربيب عمير بن سعد زوج أمه، وهو ممن تخلف من المنافقين في غزوة تبوك، وكان يثبط الناس عن الخروج. نزل فيه قرآن، وقيل: «إنه تاب بعد ذلك وحسنت توبته». انظر: الإكمال، ابن ماكولا ٣/ ١٧٠، الوافي بالوفيات، الصفدي ١١/ ١٣٧.
(٣) لباب النقول، السيوطي ص ١١٥.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٧٥.
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٧٧.

ليلة العقبة، وكانوا قومًا قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم معه يلتمسون غرته حتى أخذ في عقبة، فتقدم بعضهم وتأخر بعضهم، وذلك كان ليلًا قالوا: إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي، وكان قائده في تلك الليلة عمار بن ياسر وسائقه حذيفة، فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل، فالتفت فإذا هو بقوم متلثمين، فقال: إليكم يا أعداء الله فأمسكوا، ومضى النبي عليه الصلاة والسلام حتى نزل منزله الذي أراد، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾[1]. فهذه الواقعة تصور ما بيتوه مستخفين فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأطلعه عليه من علم السرائر جل وعلا.

وهمهم لقتل النبي صلى الله عليه وسلم أو إخراجه من المدينة، أو قتل رجل من المسلمين، وإن لم ينالوه، فهو همٌّ محقق بمعنى العزم دل عليه ظاهر الآية.

والدلالة نفسها تحملها آية غافر في بيان حال أعداء الله مع رسل الله، وما هموا به من أمور تستوجب قتالهم وأخذ الله لهم بجريرة مافعلوا.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

فلم يكتفوا بالتكذيب والاستكبار والتجبر في الأرض بغير الحق، حتى وجهوا سهامهم ليبطشوا برسلهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾[غافر: ٥].

أي: ليحبسوه ويعذبوه، وقيل: ليقتلوه. والأخذ يرد بمعنى الإهلاك، كقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤][2].

واختير هذا الفعل (الأخذ) هنا ليشمل مختلف ما همت به كل أمةٍ برسولها من قتل أو غيره، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

والمعنى: إن الأمم السابقة من الكفرة لم يقتصروا على تكذيب الرسول، بل تجاوزوا ذلك إلى غاية الأذى من الهم بالقتل كما حكى الله عن ثمود: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

وقد تآمر كفار قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة دار الندوة ليقتلوه، بأن يتجمع نفر من جميع عشائرهم فيضربوه بالسيوف ضربة رجل واحد؛ كي لا يستطيع

(١) أسباب النزول، الواحدي ص ١٦٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٩٣.

أولياؤه من بني هاشم الأخذ بثأره[1]. وقد حرصوا على قتله بكل ممكن، ومن الأمم من قتل رسوله[2].

فأخذ الله الأمم عقوبة لهم على همهم برسلهم فأهلكهم واستأصلهم. وتفريع قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ على قوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ إنذار المشركين أن همهم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم هو منتهى أمد الإمهال لهم، فإذا صمموا العزم على ذلك أخذهم الله كما أخذ الأمم المكذبة قبلهم، حين همت كل أمة برسولهم ليأخذوه، فإن قريشًا لما هموا بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم أنجاه الله منهم بالهجرة ثم أمكنه من نواصيهم يوم بدر[3].

فالهم الواقع من أعداء الله لأوليائه من الرسل والدعاة، لا ريب أنه عزمٌ منهم على الأخذ، تعذيبًا وقتلًا ونحوه.

خامسًا: الاشتغال والعناية بالنفس الداعية للهم:

المؤمن الحق يرخص روحه في سبيل نصرة دين الله وحماية رسوله، أما المنافق فهمه نفسه وحمايتها؛ سلم غيره أم لا فمن همه بنفسه اشتعل صدره خوفًا وقلقًا لتخليصها كيفما اتفق. وفي ميدان (أحد) حيث القتال والهزيمة والفرار، يمحص الله بابتلاءاته القلوب، فيطفو النفاق جليًا على بعض النفوس الظآنة ظن الجاهلية، ويحملها على لوم النفس -لما هي هاهنا- حتى حل الفزع منها محل النوم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

يقص الله عز وجل في الآية أحداث ماجرى، حيث أنزل على المؤمنين من بعد الغم الذي أصابهم أمنةً؛ وهي الأمان على أهل الإخلاص منهم واليقين، دون أهل النفاق والشك.

وهذه الأمنة التي أنزلها عليهم، هي النعاس وطائفة قد أهمتهم أنفسهم -وهم المنافقون- لا هم لهم غير أنفسهم، فهم من حذر القتل على أنفسهم، وخوف المنية عليها في شغل، قد طار عن أعينهم الكرى، يظنون بالله الظنون الكاذبة، ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله، شكًا في أمر الله،

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ٨٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٢٩.
(٣) التحرير والتنوير ٢٤/ ٨٥.

وتكذيبًا لنبيه صلى الله عليه وسلم، ومحسبةً منهم أن الله خاذل نبيه[1].

ومعنى ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ حملتهم على الهم، يقال: أهمني الشيء أي: كان من همي، وأهمني الأمر: أقلقني[2]. فكان همهم خلاص أنفسهم، فهم أصلًا لم يحضروا إلا لطلب الغنيمة[3].

وقد حدثتهم أنفسهم بما أدخل عليهم الهم؛ وذلك لعدم رضاهم بقدر الله، وبشدة تلهفهم على ما أصابهم، وتحسرهم على ما فاتهم مما يظنونه منجيًا لهم لو عملوه: أي من الندم على ما فات، وإذ كانوا كذلك كانت نفوسهم في اضطراب وتحرق يمنعهم من الاطمئنان ومن المنام، وهذا كقوله الآتي: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦][4]. والإنسان إذا اشتد اشتغاله بالشيء واستغراقه فيه، صار غافلًا عما سواه، فلما كان أحب الأشياء إلى الإنسان نفسه، فعند الخوف على النفس يصير ذاهلًا عن كل ما سواها، فهذا هو المراد من قوله: ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾[5].

وقيل معنى ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾: أدخلت

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣١٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٤١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٩/ ٣٩٣.
(٤) التحرير والتنوير ٤/ ١٣٤.
(٥) مفاتيح الغيب ٩/ ٣٩٣.

عليهم الهم بالكفر والارتداد[6]. فهو من هم بالشيء أراد فعله. والمعنى: أهمتهم أنفسهم المكاشفة ونبذ الدين، وهذا على قول من قال: قد قتل محمد فلنرجع إلى ديننا الأول[7].

فالهم هنا إما أن يكون بمعنى اشتغال النفس بالشيء اشتغالًا يحملهم على الهم، وإما أن يكون أهمتهم بمعنى حملتهم ودعتهم للردة عن الدين. وكلا المعنيين وارد، ولا تعارض بينهما، فقد يكون وقع منهم هذا وذاك، وقد يكون همهم بالارتداد دعاهم إليه انشغالهم بأنفسهم وقلقهم على خلاصها، فتكون الردة سبيل خلاصهم على حسب ظنهم السيئ.

ولعل في معنى ما ورد بعده: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ ما يشير إلى القول الثاني، فإن كان معنى هذا القول -ما لنا من الأمر- استفهام إنكاري[8] أي: مالنا من النصر والظهور شيء، فيكونوا أساءوا الظن بربهم وبدينه ونبيه، وأن الله لا يتم أمر رسوله، وهذه الهزيمة هي القاضية على

(٦) التحرير والتنوير ٤/ ١٣٤.
(٧) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٨، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٩٢.
(٨) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٣.
وقيل: استفهامٌ معناه الجحد تقديره: ما لنا من الأمر من شيء. قال الحسن: «قالوا لو كان الأمر إلينا ما خرجنا، و إنما أخرجنا كرهًا».
انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٨١.

دينه، فما من محيص سوى الردة عنه.

وقولهم هذا إنكار منهم، وتكذيبٌ بقدر الله، وتسفيةٌ منهم لرأي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم؛ فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ فالأسباب -وإن عظمت- إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئًا، بل لابد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة[1].

وإن كنت أميل كما أشرت آنفًا أن كلا المعنيين وارد، ولا تعارض بينهما.

وهذه العقيدة تعلم أصحابها -فيما تعلم- أن ليس لهم في أنفسهم شيء، فهم كلهم لله، وأنهم حين يخرجون للجهاد في سبيله يخرجون له، ويتحركون له، ويقاتلون له، بلا هدفٍ آخر لذواتهم في هذا الجهاد، وأنهم يسلمون أنفسهم لقدره، فيتلقون ما يأتيهم به هذا القدر في رضى وفي تسليم، كائنًا هذا القدر ما يكون. فأما الذين تهمهم أنفسهم، وتصبح محور تفكيرهم وتقديرهم، ومحور اهتمامهم وانشغالهم فهؤلاء لم تكتمل في نفوسهم حقيقة الإيمان[2].

وهم الاشتغال بالنفس، الداعي إلى الغم والحزن، الغالب فيه هو خوف الموت وانتهاء الحياة، أو يكون داعيه الخوف من المستقبل وماسيحصل له، وقد عالجت الآيات ذلك، فالموت لا مفر منه قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد حدد الله الأجل والأعمار، من لم يمت بالسيف مات بغيره. فلابد من تفويض الأمر لله سبحانه الذي بيده كل شيء.

أما ما يحصل للمؤمن في هذه الحياة من الهم والغم الذي هو سنة ربانية لاينفك عنها عبد، فليس المطلوب منه محاربة ذلك، وإنما تجنب أسباب الوقوع فيه، فإذا وقع داواه بكثرة ذكر الله، فبذكر الله تطمئن القلوب المضطربة، وتسكن النفوس القلقة قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وأعظم ذكر تنشرح به الصدور قراءة كلامه عز وجل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ولما ضاق صدر النبي صلى الله عليه وسلم بما يقوله المشركون أمره الله بذكره.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١٥٣.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٩٦.

صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩].

كذلك الدعاء بأن يجنبه الله أسباب الهموم، ففي الحديث: عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال)[1].

والتفطن لحال الدنيا، وأنها مهما عظمت لذتها فانية، وأن كدرها مهما طال فزائل، فليعلل نفسه من طال ليل همه، بأن الصبح قريب.

وفي ختام هذه السطور يتضح من خلال ما تقدم أن القرآن الكريم تفرد في استعمال الهم بالشيء في معرض الذم في المجالات جميعها؛ ولعل ذلك -والله أعلم- لأن الإنسان حريص كل الحرص على إخفاء النوايا والهموم والخواطر السيئة، أما نيته وهمه بالخير فلا يحرص على إخفائه -وإن كان يبطنه مرات- ولكن ليس بدافع الحرج منه، والخوف من إظهاره. فجاءت الآيات مبينةً لهذا الهم السيئ الخفي؛ فضحًا للكافرين، وليتداركه المؤمنون، مستشعرين فضل الله عليهم وولايته لهم في ذلك.

وورد الهم في الحديث على حدٍ سواء في معرض المدح والذم كما هو في اللغة.

كذلك غلب استعمال الهم بالشيء في القرآن بمعنى العزم. فالسياقات الواردة غالبها دلالة الهم بالشيء فيه تتوجه إلى العزم على الفعل، دون حديث النفس أومجرد الفكر وخطورته في القلب، ودون اشتغال النفس بالشيء اشتغالًا يحملها على الهم والقلق؛ ولعل القصد -والعلم عند الله- لأنها جميعًا جاءت في معرض الذم، ثم إن العزم هو الذي ينبغي الحذر منه، فليس بعد العزم إلا صدور الفعل ووقوعه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من الجبن والكسل، رقم ٦٠٠٨، ٥/ ٢٣٤٢.

توابع الهم بالشيء وآثاره

تحدث القرآن الكريم عن توابع الهم بالشيء وآثاره، وسوف نتناولها بالتوضيح فيما يأتي:

أولًا: جزاء الكافرين على همهم السيء:

لأهل الهم السيء من الكفار المكذبين لرسلهم، الساعين بكل سبيل للحط من شأنهم وماجاءوا به من الدين، جزاء وعقوبة استحقوها في الدنيا، سوى ماينتظرهم يوم القيامة من الخزي والنكال.

١. معاداة الكفار وقتالهم في الدنيا.

الهم في ميادين القتال، أو ضد ميادين الدعوة، وسواء كان همهم لإيذاء الرسل أو المؤمنين والدعاة، فإن لهممهم تبعةً وأثرًا في الدنيا، من عدم موالاتهم، ولا التسليم والأمن لهم، ووجوب قتالهم وأخذ الحيطة والحذر منهم.

توابعه وآثاره:

إذا ما ظهر من الكافرين همٌ بغدرٍ أو خيانة، فقد أوجبوا لأنفسهم من المؤمنين الانتصار، ونصبوا أنفسهم لغيرهم محل اعتبار، ووجب معاداة ومواجهة أصحاب الهمم الفاسدة في همهم بإخراج الرسل، أو إضلالهم، وإيذاء المؤمنين بما يستحقون.

ففي قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة: ١٣].

الآية فيها تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠][1].

فلما ظهر منهم الهم بإخراج الرسول استحقوا القتل في الدنيا. وانظر لجميل ما ختمت به الآية من بديع القول الداعي لمعاداة أولئك الناكثين، وقتالهم أشد القتال: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣].

ففي هذا الكلام تقوية داعي القتال من وجوه:

الأول: أن تعديد الموجبات القوية وتفصيلها مما يقوي هذه الداعية.

الثاني: أنك إذا قلت للرجل: أتخشى خصمك؟! كان ذلك تحريكًا له فيستنكف أن ينسب إلى كونه خائفًا من خصمه.

الثالث: أن قوله: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ يفيد ذلك، كأنه قيل: إن كنت تخشى أحدًا فالله أحق أن تخشاه؛ لكونه في غاية القدرة والكبرياء والجلالة. والضرر المتوقع منهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١١٧.

غايته القتل، أما المتوقع من الله فالعقاب الشديد في القيامة، والذم اللازم في الدنيا.

الرابع: أن قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ معناه: إنكم إن كنتم مؤمنين بالإيمان وجب عليكم أن تقدموا على هذه المقاتلة، ومعناه إنكم إن لم تقدموا عليها وجب أن لا تكونوا مؤمنين، فثبت أن هذا كلام مشتمل على أنواع من الأمور التي تحملهم على مقاتلة أولئك الكفار الناقضين للعهد[1].

* حماية النبي صلى الله عليه وسلم من فتك الكافرين به وترصدهم لقتله، كما حصل من هم اليهود، وقبلهم كفار مكة ليلة الهجرة، وكما حصل من غورث بن الحارث، وكلهم يدفعهم حصن: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].
* حماية النبي صلى الله عليه وسلم من إضلال الكافرين له، وعصمته من الزلل. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣].
* تذكير المؤمنين بهم الكافرين بإيذائهم، وحفظ الله لهم، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: ١١]. اذكروا نعمته تعالى عليكم عندما قصد ﴿قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بأن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك. وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة إلى بيان رجوع ضرر البسط وغائلته إليهم. والفاء في ﴿فَكَفَّ﴾ للتعقيب المفيد تمام النعمة وكمالها، وإظهار الأيدي لزيادة التقرير، وتقديم المفعول الصريح على الأصل أن منع أيديهم أن تمد إليكم عقيب همهم بذلك وعصمكم منهم، وليس المراد أنه سبحانه كفها عنكم بعد أن مدوها إليكم، وفي ذلك ما لا يخفى من إكمال النعمة ومزيد اللطف[2]. فأنعم عليهم بكف أيدي عدوهم، ورد كيدهم في نحورهم، وقد هموا بأمر، ظنوا أنهم قادرون عليه، فلم يدركوا مقصودهم، وكان نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروه عليه، وهو يشمل كل من هم وأراد المؤمنين بشر، من كافر ومنافق وباغ، كف الله شره عن المسلمين؛ فإنه داخل في هذه الآية[3].
* تأييد المؤمنين بإخوانهم والشد من عزمهم وتقويتهم بمعاونتهم لهم،

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١٥/ ٥٣٦.

(٢) انظر: روح المعاني ٣/ ٢٥٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٢٤.

فهو سبحانه الذي يثبتهم ويربط على قلوبهم، ويتولى من توكل عليه، فلا يجبن ولاينكص، بل ينزل عليهم الملائكة تثبتهم، والنعاس يؤمنهم.

أما المنافقون فلا هم لهم سوى أنفسهم وتخليصها من الموت؛ فدعتهم إلى التقاعس عن فعل الخير، فهم مشغولون بأنفسهم لا يفكرون في أي أمر آخر، سوى ظنونهم السيئة في الله ورسوله. ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وأما الكافرون فهم في وادٍ آخر من محاولة التنكيل بالمؤمنين والنيل منهم واستئصالهم، والله يتولى من آمن به، ويخزي الكافرين.

٢. العذاب الأليم لأهل الهم السيئ منهم يوم القيامة.

فأهل الهموم السيئة في الله ودينه ورسله، انطوت نفوسهم على دسائس عظيمة من الشبهات أوجبت جهادهم في الدنيا، وعقاب الله الشديد لهم يوم الخزي والندامة.

توابعه وآثاره:

استحقاق عذاب الله للمكذبين لرسلهم، ولأهل الهم السيئ بهم في الدنيا ويوم القيامة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

فالمقصود من تعداد جرائم الأمم السابقة من تكذيب الرسل، والهم بقتلهم، والجدال بالباطل: تنظير حال المشركين النازل فيهم قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [غافر: ٤].

بحال الأمم السابقين سواء؛ لينطبق الوعيد على حالهم أكمل انطباق في قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[1].

ومن هنا يكون السبب المسبب عنه الأخذ المذكور في قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ قيل: مجموع التكذيب، والهم بالأخذ، والجدال بالباطل، واختار الزمخشري كونه الهم بالأخذ فقط؛ وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟﴾ هو التكذيب بعينه، والأخذ يشاكل الأخذ، وإنما التكذيب موجب استحقاق العذاب الأخروي المشار إليه بعد، ولا ينكر أن كليهما يقتضي كليهما، لكن لما كان ملاءمة الأخذ للأخذ أتم، والتكذيب للعذاب الأخروي أظهر أنه متعلق بالأخذ؛ تنبيهًا على كمال الملاءمة[2].

ولا ضير أن يكون مجموع ما صدر منهم من التكذيب، والهم بالرسل والجدال

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ٨٥.
(٢) روح المعاني ١٢/ ٢٩٨.

بالباطل سببًا للأخذ، أو أن يكون أخذ الرسل وحده سببًا؛ لعظمته، وقد استوجبوا الأخذ والخزي والعذاب الشديد جزاء ما فعلوا.

ثانيًا: هم المؤمنين بالسوء:

أما المؤمنين فهمهم بالسوء -كما ظهر من الآيات- قد يكون باعثه الشهوات التي تستحكم أحيانًا، وقد يكون سببه ما جبل عليه البشر من حب الحياة، وهؤلاء لم ينسلخوا من بشريتهم بتلك الهموم، وإنما هي مشاعر إنسانية رافقت أحداثًا، يحسن التفطن لها، والاستعانة بالله في تهذيبها.

١. الربط على قلوب المؤمنين والتجاوز عن همهم.

فلجوؤهم إلى الله واعتصامهم به كان سببًا في ربط الله على قلوبهم، وتنجيتهم من الهم السيء، ومن ثم التجاوز عنهم.

توابعه وآثاره:

* تذكير المؤمنين بهمهم بالسوء، ثم ربطه على قلوبهم وتجاوزه عن همهم.

فيعرف عجزهم عن صرف ذلك عن أنفسهم، وفقرهم لعون مولاهم -جل وعلا- فإن توكلوا عليه تولاهم؛ فكفاهم شر أنفسهم وشر عدوهم. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

ففي قوله تعالى المتقدم: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢].

عبر بالطائفتين دون ذكرها إشارةً لطيفة إلى الكناية عن من يقع منه ما لا يناسب والستر عليه؛ إذ لم يعين بأنفسهما، ولا صرح بمن هما منه من القبائل سترًا عليهما[(١)]، وهو غاية في حفظه سبحانه لهم والعناية بهم؛ مما جعل همهم ذلك يئول إلى السرور.

فعن جابر رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ بني سلمة وبني الحارثة، وما أحب أنها لم تنزل، والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[(٢)].

ومعنى ذلك: فرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله تعالى، وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية، وأن تلك الهمة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى[(٣)]، فصرف عنهم الهم السيء بتوليه لهما.

* حفظ عباده المؤمنين مما لا يليق من الهم.

فيوسف عليه السلام حفظه الله من الوقوع في براثن الرذيلة أو حتى الهم بها، ودلائل الآي تبين ذلك؛ فالمراودة تقتضي

(١) البحر المحيط ٣/ ٣٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)، رقم ٣٨٢٥، ٤/ ١٤٨٨، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار رضي الله عنهم، رقم ٦٥٦٩، ٧/ ١٧٣.
(٣) مفاتيح الغيب ٨/ ٣٤٧.

تكرير المحاولة منها، قيل: المفاعلة تقديرية بأن اعتبر العمل من جانب والممانعة من الجانب الآخر، فهي تحاول الإيقاع به، وامتنع واعتصم بالله الذي أحسن مثواه.

وفي هذا الكلام عبرة عظيمة من العفاف، والتقوى، وعصمة الأنبياء قبل النبوة من الكبائر.

وفي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤].

الصرف: نقل الشيء من مكان إلى مكان، وهو هنا مجاز عن الحفظ من حلول الشيء بالمحل الذي من شأنه أن يحل فيه، عبر به عن العصمة من شيء، والتعبير عن العصمة بالصرف يشير إلى أن أسباب حصول السوء والفحشاء موجودة ولكن الله صرفهما عنه(١). وهذا غاية الحفظ لعبده الذي لجأ إليه، فلم يضيعه.

وفي السيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين كلتاهما عصمني الله تعالى فيهما. قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي؛ حتى أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان. فقال: بلى. قال: فدخلت، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفًا بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ فقيل: تزوج فلان فلانة. فجلست أنظر، وضرب الله تعالى على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي. فقال: ما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئًا، ثم أخبرته بالذي رأيت. ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي؛ حتى أسمر بمكة. ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فسألت. فقيل: فلانٌ نكح فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي. فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء. ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك، حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته)(٢).

❁ عظم الجزاء والأجر لمن هم بالخير وإن لم يعمله بعد ذلك.

وهذا من فضل الله وكرمه سبحانه حتى في مجرد الهم والخاطر القلبي، وإن لم تظهر صورة العمل على أرض الواقع، وهو أيضًا من أثر الهم بالخير وبركته. وربما يكون العمل القلبي أعظم من عمل الجوارح، وكم

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٥٠-٢٥٥.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٣، والبزار مختصرًا في مسنده، رقم ٦٤٠، ٢/ ٢٤٠.
وضعفه الألباني في تعليقه على فقه السيرة ص٦٧.

من عملٍ صغيرٍ عظمته النية.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يروي عن ربه عز وجل قال: قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة)[1].

فمن قصد وحدث نفسه بفعل الخير، كتبت له حسنة وإن لم يعمل لعائق حال بينه وبين فعلها. وإن ترك السيئة خوفًا من الله عز وجل، لا عجزًا عنها، استحقها حسنة كاملة لم تنقص بسبب الهم والقصد إلى فعلها؛ لأنه إنما تركها أيضًا لأمر عظيم قام في قلبه. وليس بعد هذا الفضل فضل.

٢. معالجة هم المؤمن بالسوء.

الذي يقع في النفس من قصد المعصية على خمس مراتب: الأولى- الهاجس وهو ما يلقى فيها، ثم جريانه فيها وهو الخاطر، ثم حديث النفس وهو ما يقع فيها من التردد هل يفعل أو لا؟ ثم الهم وهو ترجيح قصد الفعل، ثم العزم وهو قوة ذلك القصد والجزم به[2].

والمراتب الثلاث الأولى لا يؤاخذ عليها العبد وهي ترد عليه، وباستطاعته دفعها والانصراف عنها، قبل أن تصبح همًا يتردد، أو عزمًا على المعصية وقصدًا يؤاخذ به.

وفي خضم الحياة، يواجه المؤمن سيلًا من الفتن، التي إن لم يتحصن منها بحصن قوي زلت به القدم. وهاهنا وقفة لمعالجة ذلك:

❁ تقوية الإيمان بالله.

فيوسف ذكر امرأة العزيز بالله رجاء أن تنتهي عن فعلها ومراودتها له، فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].

أي: أعتصم بالله من الذي تدعوني إليه، واستجير به منه.

وبعض هذه الهموم والخواطر لا يمكن دفعها وقطعها، فهي كما يقول ابن القيم: «تهجم عليه هجوم النفس»[3].

كيف وقد استحكمت في امرأة العزيز حتى دفعتها للمجاهرة بهذا الأمر من غير حياء ولا خجل. والسبيل لقبول أحسن هذه الخواطر والهموم ودفع سيئها، يكون بقوة الإيمان والعقل؛ فكلما قوي الإيمان دفع ماعداه، والعكس؛ فإنها تشوش الإيمان وتضعفه. لذا كان أول ماذكرها به يوسف

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الأشباه والنظائر، السيوطي ص ٧٦.

(٣) انظر: فوائد الفوائد، ابن القيم ص٢٦٩.

عليه السلام الله عز وجل.

❁ التذكير بالنعمة.

فذكرها يوسف عليه السلام بنعمة مولاه عليه، المستوجبة لحفظها ومراعاتها؛ سواء كان المراد بربه: الله عز وجل، أو ربه بمعنى سيده[1].

و ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي: أحسن منزلتي، وأكرمني وائتمنني؛ فلا أخونه[2].

قال ابن عاشور: «وذكر وصف الرب على الاحتمالين؛ لما يؤذن به من وجوب طاعته وشكره على نعمة الإيجاد بالنسبة إلى الله، ونعمة التربية بالنسبة لمولاه العزيز»[3].

وهكذا ينبغي أن يؤدب العبد نفسه ويردعها بتذكيرها بفضل الله عليه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

ما الذي جرأك عليه حتى عصيته؟!! ألأنه أكرمك ونعمك؟!!

وإيثار تعريف الله بوصف ﴿بِرَبِّكَ﴾ دون ذكر اسم الجلالة لما في معنى الرب من الملك والإنشاء والرفق؛ ففيه تذكير للإنسان بموجبات استحقاق الرب طاعة مربوبه؛ فهو تعريض بالتوبيخ.

وكذلك إجراء وصف ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ دون غيره من صفات الله للتذكير بنعمته على الناس ولطفه بهم؛ فإن الكريم حقيق بالشكر والطاعة[4]. لا بالمعصية.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧-٨].

لمسة عتاب مبطنة بالوعيد لهذا الإنسان الذي يتلقى من ربه فيوض النعمة في ذاته وخلقته، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها، ولا يعرف لربه قدره، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة، فتذكيره بنعمة الله الأولى عليه من خلقه في هذه الصورة السوية، على حين يملك ربه أن يركبه في أي صورة تتجه إليها مشيئته، ولكنه اختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة تكرمًا عليه من ربه، راعيه ومربيه سبحانه[5].

❁ التخويف من العاقبة.

فقد قال يوسف في ذلك: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فإجابتها لمراودته ظلم؛ لأن فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصية مما اتفقت الأديان على أنها كبيرة، وظلم سيده الذي آمنه على بيته وآمنها على نفسها إذ اتخذها زوجًا وأحصنها[6].

فلابد من النظر للعاقبة، فكم أعقبت المعصية ألـمًا، وكم أورثت ندمًا، وكم منعت رزقًا، وحرمت توفيقًا، وكم أنست علمًا، وجلبت همًا وغمًا. ومن تعجل شيئًا

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٢.
(٢) المصدر السابق ١٦/ ٣٢.
(٣) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٥٢.
(٤) المصدر السابق ٣٠/ ١٧٥.
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٤٥- ٣٨٤٧.
(٦) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٥٢.

قبل أوانه، عوقب بحرمانه[1].

وليحذر من المعصية مهما صغرت، فليس بينك وبين الله نسب، وقد أخرج آدم عليه السلام من الجنة بلقمة، وإبليس بترك سجدة، ودخلت امرأة النار في هرة.

وما أحسن هذا التنصل من الوقوع في السوء. فيوسف عليه السلام استعاذ أولًا بالله الذي بيده العصمة وملكوت كل شيء، ثم نبه على أن إحسان الله أو إحسان العزيز الذي سبق منه، لا يناسب أن يجازى بالإساءة، ثم نفى الفلاح عن الظالمين وهو الظفر والفوز بالبغية، فلا يناسب أن أكون ظالمًا أضع الشيء غير موضعه، وأتعدى ما حده الله تعالى لي[2].

وقد أبدع ابن القيم في علاجه؛ حيث يذكر طرقًا في حراسة الخواطر وحفظها، إذ هي مبدأ الفعل بعدها، فلابد من حفظها والحذر من إهمالها والاسترسال معها، فإن أصل الفساد كله من قبلها، فهي بذر الشيطان والنفس في أرض القلب، فإذا تمكن بذرها تعاهدها بسقيه حتى تصير إرادات، ثم يسقيها بسقيه حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال، ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم.

وطرق حفظ الخواطر -كما قال- عديدة؛ أوجزها في الآتي:

١. العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك، وعلمه بتفصيل خواطرك؛ فتستحيي منه.
٢. إجلاله لله أن يرى تلك الخواطر في بيته (القلب) الذي خلق لمعرفته ومحبته، والخوف من السقوط من عينه.
٣. إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته.
٤. الخشية من أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شررها، فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله.
٥. العلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحب الذي يلقى للطائر ليصاد به.
٦. العلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة.
٧. العلم أن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس، وعزلته عن سلطانها[3].

ولما كانت تلك الخواطر خفيةً، احتيج في التخلص منها إلى عبادات قلبية خفية، من إجلال الله، والحياء والخوف منه، وخشيته وإيثار محبته، ولا يتحقق ذلك إلا

(١) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ص٥٢.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٥٧.
(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ص ٢٧٤.

بالإيمان والعلم؛ إذ يثمران له اليقين بوعد الله ورجاء ثوابه، فيحتقر كل لذة دونها.

وقبل الختام نقول لمن اعتلجت في صدره هموم سوء: النفس مثل الرحى تدور بما يرمى فيها، فإن كانت خواطرها وأفكارها وهمومها خيرًا أخرجت خيرًا والعكس[1]. فاحرص على تنقية فكرك مما يشوبه من الشبهات والشهوات تنج.

موضوعات ذات صلة:

الإخلاص، الثبات، العزم، الغم

(١) انظر: فوائد الفوائد ص٢٦٩.

هود عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بهود عليه السلام	٢٣٢
ذكر هود عليه السلام في القرآن الكريم	٢٣٩
حديث القرآن عن قصة هود	٢٤٠
مظاهر انحراف قوم هود	٢٥٢
معالم دعوة هود عليه السلام	٢٥٦
موقف عاد من نبيهم ورده عليهم	٢٦٩
عاقبة القوم ومصيرهم	٢٨٣

التعريف بهود عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

يقول الإمام الطبري رحمه الله معرفا بنسب هود عليه السلام بأنه هود بن عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح(١).

وقال ابن قتيبة عن وهب: «هو هود بن عبدالله بن رياح بن حارث بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح»(٢).

ثم قال الطبري: «ومن أهل الأنساب من يزعم أن هودا هو عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح»(٣). وذكره ابن قتيبة على أنه هو المرجع عنده.

والقولان الأول والثاني أوجه من القول الثالث؛ لأن تسميته بما سماه به القرآن الكريم أولى، ولأن الثالث يدل على قرب عهد هود بنوح عليهما السلام، ومثل هذا الزمن القريب يستبعد فيه انتشار الوثنية وعودة الناس إلى الكفر إلى درجة أنهم نسوا ما كان عليه أسلافهم ولم يذكروا إلا أسلافا قد انغمسوا في الكفر، كما أن قبيلة عاد كانت على مستوى من التمكين الذي يقتضي كثرة العدد، ولا يظن أن تكون قد بلغت هذا المبلغ في هذه الفترة الزمنية القصيرة. كما أن هذا القول يخرج نسب هود عليه السلام من قوم عاد ويجعله لا يلتقي معهم إلا في سام بن نوح، والمعلوم أن أخا القوم منهم.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠].

أي: أخوهم في النسب لا في الدين، وأخو القوم واحد منهم، قال الرازي: «واعلم أنه تعالى وصف هودًا بأنه أخوهم ومعلومٌ أن تلك الأخوة ما كانت في الدين، وإنما كانت في النسب، لأن هودًا كان رجلًا من قبيلة عادٍ، وهذه القبيلة كانت قبيلةً من العرب ونظيره ما يقال للرجل: يا أخا تميمٍ ويا أخا سليمٍ، والمراد رجلٌ منهم»(٤).

لهذا فالأمر يدور بين القول الأول والثاني والاختلاف بينهما في اسم الجد الثاني هل اسمه الخلود أم الحارث، ولا يمكن الترجيح بينهما لعدم وثوق المصادر، ولكنهما يقتضيان رجوع نسب هود عليه السلام إلى عاد، وهذا النسب هو المشتهر عند المؤرخين والنسابين

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٢١٦.
(٢) المعارف، ابن قتيبة ص٢٨.
(٣) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٢١٦.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٦٢.

وليس عليه دليل قطعي، إلا أن المقطوع به أنه لا يخرج عن الانتساب إلى نوح عليه السلام الأب الثاني للبشرية لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ [الصافات:٧٧].

وكان هود عليه السلام رجلا آدم كثير الشعر حسن الوجه(١).

وعاد قبيلة من قبائل العرب التي كانت معلومة للعرب قبل نزول القرآن، «وهي من العرب العاربة ومنهم عادٌ وثمود وطسمٌ وجديسٌ وأميمٌ وجرهمٌ والعماليق وأممٌ آخرون لا يعلمهم إلا الله كانوا قبل الخليل وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام وفي زمانهم أيضًا»(٢).

وسميت عاد نسبة إلى جدها فهي تنتمي إلى عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح، وهي عاد الأولى(٣).وأما قبائل ثمود وطسمٌ وجديسٌ وأميمٌ وجرهمٌ والعماليق فتنتمي إلى لاوذ بن إرم بن سام بن نوح(٤)، ومع أن هذه القبائل أقرب إلى نوح عليه السلام في سلسلة النسب إلا إن الإخباريين يقدمون عادا في الذكر، يعلل ذلك الدكتور جواد علي فيقول:« ولكن الإخباريين يقدمون عادًا على غيرهم، ويبدؤون بهم، وهم عندهم أقدم هذه الأقوام، ويضربون بهم المثل في القدم. ومثلهم في ذلك مثل إخباريي العبرانيين الذين عدوا العمالقة أول الشعوب. ولعل هذه النظرية تكونت عند الجاهليين من قدم عاد وثمود وشهرتهما، وتعزز ذلك من كثرة ورود اسم عاد وثمود في القرآن الكريم واقترانهما في سور عديدة، ولهذا صاروا إذا ذكروا «عادا» ذكروا «ثمودا» بعدها في الترتيب. لذا قدما على بقية الأقوام(٥).

وقد لفت الطبري النظر إلى عدم ذكر عاد عند أهل الكتاب إذ قال: «فأما أهل التوراة، فإنهم يزعمون أن لا ذكر لعاد ولا ثمود ولا لهود وصالح في التوراة، وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والإسلام كشهرة إبراهيم»، ثم قال:« ولولا كراهة إطالة الكتاب بما ليس من جنسه، لذكرت من شعر شعراء الجاهلية الذي قيل في عادٍ وثمود ما يعلم به صحة ذلك»(٦).

وقد استدل الإمام الرازي على أن أخبار العرب البائدة والأمم القريبة من بلاد العرب كانت مشهورة متداولة عند العرب، بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر:٦]:أي:« ألم

---

(١) المعارف، ابن قتيبة ص٢٨.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ١٨٧.
(٣) انظر: تاريخ الرسل والملوك الطبري ١/ ٢١٦.
(٤) انظر: جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي ١/ ٤٦٢.
(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي ١/ ٢٩٩. بتصرف.
(٦) تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٢٣٢.

تعلم لأن ذلك مما لا يصح أن يراه الرسول وإنما أطلق لفظ الرؤية هاهنا على العلم لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة بالتواتر! أما عاد وثمود فقد كانا في بلاد العرب وأما فرعون فقد كانوا يسمعونه من أهل الكتاب، وبلاد فرعون أيضًا متصلة بأرض العرب وخبر التواتر يفيد العلم الضروري، الذي يجري مجرى الرؤية في القوة والجلاء والبعد عن الشبهة، فلذلك قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى: ألم تعلم»[1].

ومما يؤكد عدم علم أهل الكتاب بأخبار العرب «أن المسلمين حينما راجعوا اليهود يسألونهم عن عاد وأمثالهم، أخبروهم بعدم وجود ذكرهم في التوراة. والواقع أن التوراة لا علاقة لها فيهم؛ فأحاديث عاد وثمود وهود وصالح إنما هي أحاديث عربية، توارثوها وتحدث بها الجاهليون، وليس لها ذكر في كتب يهود، ولكن أهل الأخبار ربطوا مع ذلك بينها وبين التوراة، وأوجدوا لها صلةً ونسبًا»[2]. «وكانت عاد ثلاث عشرة قبيلة، ينزلون الرمل، وبلادهم أخصب البلاد»[3].

ثانيًا: مكانه وزمانه:

المكان والزمان حيزان ضروريان من لوازم الأحداث التي تجري في عالم الإنسان، لأن حياة الإنسان محكومة بالزمان والمكان، ولكن إظهار ذلك وذكره في القصة القرآنية يدور مع الغرض منه. وقد يبينه القرآن بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ولا سبيل إلى تحديد القرن الذي بعث فيه هود عليه السلام ولا الزمن الذي كانت به عاد تعمر الأرض، بلغة الأرقام لعجز المصادر التاريخية عن ذلك، وتجلد التواريخ الرقمية بين الأمم ونسبيتها، فكل أمة تؤرخ بحدث بارز في تاريخها، وأما مصادر أهل الكتاب مع عدم الثقة بها لما لحقها من التحريف والتبديل فإنها لم تتعرض للحديث عن الأمم التي لا صلة لهم بها، والمصدر الوحيد الذي يركن إليه فيما غمض من تاريخ البشرية هو القرآن الكريم، مع أنه ليس كتاب تاريخ يقصد إلى تأريخ الأحداث بقصد التأريخ فهو كتاب هداية وإرشاد.

ولكن ذلك لا يمنع أن يذكر الأحداث التي تهدف إلى الهداية والعبرة مقترنة بأزمنتها محددا لأوقاتها فهو تنزيل ممن يعلم السر وأخفى، والقرآن الكريم لا يلتزم طريقة محددة

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٥٢.
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي ١/ ٢٩٩. بتصرف.
(٣) المعارف، ابن قتيبة ص٢٨.

في ربط الأحداث بأزمنتها فقد يكون ذلك تصريحا أو تلميحا[1]، كأن يربط الأحداث برباط نسبي كما أخبرنا عن زمن قوم عاد بقوله على لسان هود عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

وهذا التعبير يؤدي أغراضا منها؛ التذكير والعبرة[2] ومنها التحديد الزماني من حيث أنهم جاءوا بعد قوم نوح أي: «فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم، لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها»[3]، ومن الطبيعي أن يكون ذلك بعد أجيال مضى أولها على الإيمان والصلاح من ذرية نوح عليه السلام ومن نجا معه في السفينة، ومضت أجيال حتى ذهبت معالم رسالة نوح عليه السلام وخلفهم خلوف ظهر فيهم الكفر وعبادة الأصنام، وجاءت أجيال لم يعرفوا إلا هذه الأصنام حتى قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣٧﴾ [الشعراء:١٣٧].

فلما درست معالم رسالة نوح عليه السلام واحتاجت البشرية إلى من يردها عن الضلال ويهديها إلى الله. وكانت عاد هي القوة المتمكنة ذات النفوذ والسلطان، التي استخلفت في الأرض بعد قوم نوح عليه السلام، عندها أرسل الله تعالى هودا عليه السلام في وسط هذه البيئة التي تمثل في عصرها قمة الحضارة المادية في الأرض.

والمكان كذلك من لوازم الحدث ولكن لا يلتزم القرآن ذكره «إلا إذا كان للمكان وضع خاص يؤثر في سير الحدث أو يبرز ملامحه أو يقيم شواهد العبرة والعظة منه»[4].

أما مكان عاد فقد صرح القرآن به في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١].

والأحقاف على قول ابن كثير: «جبال الرمل، وكانت باليمن بين عمان وحضرموت، بأرضٍ مطلةٍ على البحر يقال لها الشحر، واسم واديهم مغيثٌ»[5].

وقال الحموي: «الأحقاف: جمع حقف من الرمل. والعرب تسمي الرمل المعوج حقافا وأحقافا، واحقوقف الهلال والرمل: إذا اعوج، فهذا هو الظاهر في لغتهم[6] والأحقاف المذكور في الكتاب العزيز: واد بين عمان وأرض مهرة قال ابن إسحاق: الأحقاف رمل فيما

---

(١) انظر: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب ص٨٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه، عبدالكريم الخطيب ص٩٢.
(٥) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٢٠.
(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩ / ٥٢.

بين عمان إلى حضرموت، وقال قتادة: الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن، وهذه ثلاثة أقوال غير مختلفة في المعنى»[1].أي: أنها تلتقي بمعنى الرمل المعوج وإن اختلفت الأماكن.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن ﴿إِرَمَ﴾ في قوله تعالى:﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر:٧]» اسم موضع، فقالوا: إرم مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن، وقال محمد بن كعب: هي الإسكندرية، وقال سعيد بن المسيب والمقري: هي دمشق، وكذا قال مالك بن أنس بلغني أنها دمشق رواه عنه ابن وهب. وهذان القولان ضعيفان. لدلالة المعنى اللغوي على أن الحقف: ما التوى من الرمل، وليس كذلك دمشق ولا الإسكندرية[2].وإنما يستند أصحاب هذا القول إلى قوله تعالى:﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾ الدال على وجود أعمدة، وما في كل من المدينتين من أعمدة أثرية، ولا أرى هذا كافيا لتحديد المكان لكثرة المدن الأثرية التي تكثر فيها الأعمدة. هذا مع احتمال أن تكون ذات العماد صفة ل إرم نفسها والمراد: ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالأعمدة[3]، وأما أن تكون مدينة عظيمة كانت في اليمن ولا تزال آثارها موجودة في هذا الوقت فقريب من حيث موافقتها لمعنى الأحقاف وهو ما التوى من الرمل، وقد يكون بين عمان وحضرموت على ما هو المشهور عند المفسرين، ويتعزز ذلك إذا كانت لهم بقايا آثار من المباني التي كانوا يشيدونها على ما شرف من الأرض تدل على أماكن سكناهم وتكون آية على ما حل بهم لقوله تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت:٣٨].

وعلى ما ذهب إليه أكثر المفسرين من أن ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيانٍ لعادٍ[4] فهو تسمية للقبيلة باسم جدها. ولا تعارض بين ذلك وبين أن تكون إرم اسما لمدينتهم على قول السدي: «إن إرم بيت مملكة عادٍ»[5]

فيكون التقدير:(أهل إرم)، أو أن تكون المدينة سميت باسم جدهم. أما المدينة التي يذكرها ابن الجوزي في زاد المسير[6] فلا يعول على خبرها، إذ لو كان لها وجود على

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي ١/ ١١٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٧٧، إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس ٥/ ١٣٧.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٣٣٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٥٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٥. وقال: وهذا قولٌ حسنٌ جيدٌ قويٌ.
(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٤١- ٤٤٢.
وقد أعرضت عن ذكرها لعدم ثبوتها فهي مروية عن عبد الله بن قلابة ولم أجد له ذكرا في كتب

تلك الصفة لاشتهر أمرها وما خفي حالها، ولكانت معلما سياحيا يؤمه الناس من كل مكان(١).

ولا بد أن تكون لهم بقايا من المعالم والآثار التي حل عليهم بها العذاب لتكون شاهدة على ما حل بهم كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت:٣٨].

قال المفسرون: «يعنى ما وصفه من إهلاكهم من جهة مسكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها»(٢)، وذلك لظهور آثار العذاب؛ «خرابها وخلاؤها منهم بوقائعنا بهم، وحلول سطوتنا بجميعهم»(٣)، وكانت معلومة حيث «كان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها»(٤)، أي: أن لهم آثارا من المساكن والمباني التي تعد اليوم من المواقع الأثرية.

وذكر المؤرخون «عن «بطلميوس» أن قوم «عاد»، كانوا يسكنون في الأرضين الشمالية الغربية من جزيرة العرب في منطقة «حسمي»، أي: في أعالي الحجاز، وعلى مقربة من مناطق ثمود(٥)، وقالوا: إن المكان الذي ورد عند «بطلميوس»، وهو «إرم»، أو «إرم ذات العماد». ويقال له الآن «رم» وقد أظهرت الحفريات التي قام بها «المعهد الفرنسي» في القدس، تأييد هذا الرأي؛ إذ ورد في الكتابات «النبطية» التي عثر عليها في خرائب معبد اكتشف في «رم» أن اسم الموضع هو «إرم». فيتضح من ذلك أن هذا الموضع حافظ على اسمه القديم، غير أنه صار يعرف أخيرًا بـ«رم» بدلا من «إرم».

وفي سنة ١٩٣٢ قام هورسفيلد من دائرة الآثار في المملكة الأردنية الهاشمية بحفريات في موضع جبل «رم»، ويقع على مسافة (٢٥) ميلا إلى الشرق من العقبة، ويقع المكان الذي بحث فيه عند وادٍ، وعلى مقربة منه «عين ماء»، ووجد في جانب الجبل آثارًا جاهلية قديمة. وقد حملت اكتشافاته هذه واكتشافات «سافينياك» واكتشافات كليدن على القول: إن هذا

التراجم والرجال، وابن منبه يكثر من الإسرائيليات، ويعزز ذلك قول ابن كثير: فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين، من وضع بعض زنادقتهم، ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك» ثم قال بعد أن أشار إلى هذه القصة: فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك. وهذا مما يقطع بعدم صحته». تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٦.

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ص١٢٠.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٥٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠ / ٣٤.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٥٤.
(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي ١/ ٣٠١- ٣٠٥.

المكان هو موضع «إرم» الوارد ذكره في القرآن، والذي كان قد حل به الخراب قبل الإسلام، فلم يبق منه عند ظهور الإسلام غير عين ماء كان ينزل عليها التجار وأصحاب القوافل الذين يمرون بطريق الشام-مصر-الحجاز»[1].

وهذا القول يتوافق مع ما نسبه بعض المفسرين إلى ابن عباسٍ والضحاك من القول بأن الأحقاف: جبلٌ بالشام[2].

ولعل هذا القول هو الأقرب للواقع لأسباب منها التوافق في المعنى اللغوي فالجبال المجاورة لجبل رم رملية يصدق عليها معنى الأحقاف، ولقربها من ديار ثمود الذين اقترن ذكرهم بعاد في كثير من الآيات، ولذكر ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وناهيك به مرجعا، وللتوافق في الاسم مع المذكور في القرآن الكريم. كما أن مخالفة من يعتد برأيهم للقول الأول كابن عباس والإمام مالك وابن وهب ومحمد بن كعب يدل على عدم القطع به وإن اشتهر بين المفسرين، فمرد شهرته روايته عن ابن اسحق واشتهار كتبه لكونها في بداية عصر التدوين وتعويل من بعده عليها.

(١) المصدر السابق ١/ ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) انظر: جامع البيان الطبري ٢٢/ ١٢٣، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٦، رقم ١٨٥٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٠٤.

ذكر هود عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر هود عليه السلام في القرآن الكريم (٧) مرة، في (٣) سور.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
الأعراف	٦٥-٧٢
هود	٥٠-٥٨
الشعراء	١٢٤-١٤٠

حديث القرآن عن قصة هود

لم يرد ذكره عليه السلام منفصلًا، بل بسياقات متصلة مع ذكر قومه، كان بعضها بإشارات سريعة، وبعضها بتفصيلات متفاوتة تختلف من سورة إلى سورة، يكمل بعضها بعضا، وبعضها بتعقيبات خاطفة تشير إلى نتائج وخلاصات أو اعتبار، وكل نجم منها جاء متلائما مع سورته متسقا في سياقه، وإليك بيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الآيات التي تحمل الإشارات:

أما الإشارات السريعة؛ وهي التي تعطي ملامح موجزة عن القوم وتمهد وتشوق للتفصيل عن أخبارهم، فكانت في سور الفجر والنجم و(ق) والفرقان والعنكبوت، ففي سورة الفجر يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر:٦-٨].

وفي سورة النجم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾ [النجم:٥٠-٥٢].

وفي سورة (ق) قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق:١٢-١٤].

وفي سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ فَقُلْنَا اذْهَبَآ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ الرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ الرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩﴾ [الفرقان:٣٥-٣٩].

وفي سورة العنكبوت قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾ [العنكبوت:٣٨].

ثانيًا: الآيات التي تحمل التفصيلات:

وهي الآيات التي حملت لنا زخما من أخبار القوم، وجاءت تحمل الكثير من التفاصيل لأحداث القصة، وقد وردت في سور عديدة تعطي بمجموعها الصورة المتكاملة لقصة القوم، مع ملاحظة أن كل نجم من هذه الآيات ورد في سورته متناسبا مع موضوعها متوافقا مع سياقه، وهذه السور هي الأعراف، وهود، والشعراء، وفصلت، والأحقاف، وفي سورة المؤمنون على اختلاف اقوال المفسرين فيمن تتحدث عنهم كما سيأتي بيانه، كما وردت آيات

تحمل التفصيل لنهاية القوم وصورة العذاب الذي حل بهم في سور الذاريات، والقمر والحاقة.

ففي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾ [الأعراف:٦٥-٧٢].

هذه السورة تعالج موضوع «العقيدة من حيث مساره التاريخي في الحياة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها وفي هذا المدى المتطاول تعرض موكب الإيمان الكريم من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهو يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ. يواجه بها البشرية جيلا بعد جيل، وقبيلا بعد قبيل.

ويرسم سياق السورة في تتابعه: كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة»[1].

وجاءت قصة هود عليه السلام مع قومه بعد الفراغ من ذكر قصة نوح عليه السلام مع قومه وما حل بهم من العذاب، ثم تبعتها قصة كل من صالح ولوط وشعيب عليهم السلام مع أقوامهم، مشكلة حلقة مهمة من الحلقات الكبرى في تاريخ البشرية مع أنبيائها كما وعد الله تعالى بإرسالهم آمرا بني آدم باتباعهم محذرا من مخالفتهم وعصيانهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ۙ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٤٤، بتصرف.
وانظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ٣/ ٣.

﴿٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾ [الأعراف:٣٥-٣٦].

وقد جاءت كل قصة منها باختصار، ليست فيها التفصيلات التي ترد في مواضع أخرى من القرآن في سياق يتطلب تلك التفصيلات، ذلك لأن الهدف هنا هو تصوير المعالم الأساسية لمسار العقيدة من حيث طريقة التبليغ، وطبيعة استقبال القوم لها، وموقفهم منها، وحقيقة مشاعر الرسول، وتحقق النذير وعاقبة كل فريق. وبهذا تكون القصة قد أدت غرضها ودورها في سورتها[١].

وفي سورة الشعراء قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٢٥ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢٧ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ١٣٠ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣٥ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠﴾ [الشعراء:١٢٣-١٤٠].

موضوع هذه السورة الرئيسي هو موضوع السور المكية جميعا؛ العقيدة ملخصة في عناصرها الأساسية: توحيد الله، والخوف من الآخرة، والنبوة، ثم التخويف من عاقبة التكذيب، إما بعذاب الدنيا الذي يدمر المكذبين وإما بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين.

ولكنها جاء بأسلوب متميز يحمل من اسمها نصيب؛ يتحدى الشعر والشعراء وما يجيش في النفوس من المشاعر والأحاسيس التي تحمل على الزهو والخيلاء، فإذا كان الشعر خفقة قلب وهمسة خاطر فإن الذي يتأمل هذه السورة الكريمة يجد لها من الخصائص التي تذكي المشاعر وترهف الاحساس ما لا يجده لعيون الشعر[٢].

وتهدف إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن، وإلى طمأنة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذوا في سبيلها من الظالمين كما ثبت من قبلهم من المؤمنين، ولكن بأسلوبها الذي يتجلى في نبراتها من أولها إلى آخرها في

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٠٨.

(٢) انظر: قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس ص١٨٠.

مجابهة الزهو والخيلاء والكبر وأسبابه عند المكذبين وما تبثه في نفوس المؤمنين من مشاعر رحمة الله بهم وعزة النصر على الكافرين والاعتزاز بالله العزيز الرحيم.

«وجسم السورة هو القصص الذي يشغل ثمانين ومائة آية من مجموع آيات السورة كلها. والسورة هي هذا القصص مع مقدمة وتعقيب. والقصص والمقدمة والتعقيب تؤلف وحدة متكاملة متجانسة، تعبر عن موضوع السورة وتبرزه في أساليب متنوعة، تلتقي عند هدف واحد ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقة أو الحلقات التي تؤدي هذه الأغراض»[1].

وحين تحدثت عن قوم عاد أبرزت ما كان عندهم من الزهو والخيلاء ومظاهر القوة والجبروت مع الترف والتمكين الحامل على التكبر والغرور والإعراض واللامبالاة، وكيف آل أمرهم إلى الهوان والذلة والهلاك بقوة عاتية لا طاقة لهم بمقاومتها أو الصمود أمامها.

وفي سورة هود قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾ [هود: ٥٠-٦٠].

نزلت هذه السورة في مرحلة اشتدت بها المحن على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بعد وفاة أبي طالب فكانت من أحرج الفترات وأشقها في تاريخ الدعوة بمكة، حيث بلغت الذروة في تحدي قريش وتعذيبها فجاءت هذه السورة تعالج هذه الحال بتثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه على الحق وهذا ما صرحت به السورة في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٨٣.

﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠﴾ [هود: ١٢٠].

كما جاءت تسري عنه ما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة في المجتمع الجاهلي. وذلك من خلال الحقائق التالية(١):

استعراض السورة لحركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشري كله، من لدن نوح عليه السلام إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم وتقرير أنها قامت على حقائق أساسية واحدة: هي الدينونة لله وحده بلا شريك، والعبودية له وحده بلا منازع والتلقي في هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ. مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا إنما هي دار ابتلاء لا دار جزاء وأن الجزاء إنما يكون في الآخرة وأن حرية الاختيار التي أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى أو الضلال هي مناط هذا الابتلاء، ولا شك أن دعوة هود عليه السلام تشكل حلقة هامة من حلقات هذا التاريخ البشري، وجولة من جولات الإيمان في أعنف صور صراعه مع الكفر.

عرض مواقف الرسل-صلوات الله وسلامه عليهم-ومن بينهم هود عليه السلام وهم يتلقون أشد ما بلغت إليه صور الإعراض والتكذيب، والسخرية والاستهزاء، والتهديد والإيذاء، بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق، وفي نصر الله نجاة المؤمنين، وقد عرضت هذه السورة لأشد ما لقيه هود عليه السلام من قومه حيث أنكروا البينات فقالوا: ﴿مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ وأعلنوا أشد صور الرفض والعناد والاصرار فقالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، بهذا الأسلوب القاطع، ولم يكتفوا باتهامه بالسفاهة كما في سورة الأعراف، بل زادوا فقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ فأدخلوا الحوار إلى أعنف صور التحدي(٢).

توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلالته إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل الكرام أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به والتسرية عنه بما أصاب إخوانه الكرام قبله، وبما أولاهم الله من رعايته ونصره وتوجيهه.

(١) حيث يفهم من زمن نزول هذه السورة التي نزلت في أواخر العهد المكي بعد سورة الإسراء ويونس أنها نزلت في الفترة التي اشتدت بها المحن على النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك بعد وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها.
انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/١٩٣، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/١٨٤١-١٨٤٣.

(٢) انظر: قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس ص٢١٧.

وفي سورة فصلت قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٣-١٦].

وفي سورة الأحقاف قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢١-٢٦].

هذه السورة تعالج قضية العقيدة قضية الإيمان بوحدانية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه وما فيه. والإيمان بالوحي والرسالة وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول سبقته الرسل.

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل، وتوقع فيها على كل وتر، وتعرضها في مجالات شتى، مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية. كما أنها تجعلها قضية الوجود كله-لا قضية البشر وحدهم-فتذكر طرفا من قصة الجن مع هذا القرآن كذكرها لموقف بعض بني إسرائيل منه. وتقيم من الفطرة الصادقة شاهدا كما تقيم من بعض بني إسرائيل شاهدا سواء بسواء.

ثم هي تطوف بتلك القلوب في آفاق السماوات والأرض، وفي مشاهد القيامة في الآخرة. كما تطوف بهم في مصرع قوم هود وفي مصارع القرى حول مكة. وتجعل من السماوات والأرض كتابا ينطق بالحق كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء.

ويمضي سياق السورة في أربعة أشواط مترابطة، كأنها شوط واحد ذو أربعة مقاطع»[١].

وتشكل قصة عاد الشوط الثالث من هذه السورة حيث يرجع مصرعهم عندما كذبوا بالنذير. ويعرض من القصة حلقة الريح

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٥٢.

العقيم، التي توقعوا فيها الري والحياة فإذا بها تحمل إليهم الهلاك والدمار، والعذاب الذي استعجلوا به وطلبوه.

«وهذا الشوط جولة في مجال آخر، يخدم القضية التي تعالجها السورة، وتأخذ القلب البشري من جانب غير الجوانب التي عالجها الشوطان الأولان جولة في مصرع عاد ومصارع غيرها وقد وقفوا من رسولهم وأخيهم هود عليه السلام موقف المشركين من رسولهم وأخيهم محمد صلى الله عليه وسلم واعترضوا اعتراضاتهم، وأجابهم نبيهم بما يليق به من أدب النبوة في حدود بشريته وحدود وظيفته. ثم أخذهم ما أخذهم من العذاب المدمر، حين لم يسمعوا النذير. فلم تغن عنهم قوتهم -وكانوا أقوى- ولم يغن عنهم ثراؤهم -وكانوا أغنى- ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم -وكانوا أذكياء- ولم تغن عنهم آلهتهم التي اتخذوها تقربا -بزعمهم- إلى الله»[1].

وبعض السور انفردت بالحديث عن صورة العذاب التي حلت بعاد كما في سور القمر والذاريات والحاقة:

ففي سورة القمر قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر:١٨-٢٢].

وفي سورة الذاريات قال سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات:٤١-٤٢].

هذه السورة التي حملت صورة تبديد الباطل أمام صولة الحق مهما بدا منتفخا وظهر منتفشا وطغى زبده وطال أمده، فاختصت هذه السورة بذكر الريح العقيم التي حلت بقوم عاد فلا تذر شيئا تأتي عليه إلا بددته وجعلته كالرميم[2].

وفي سورة الحاقة: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة:١-٨].

ومن الملاحظ أن بعض هذه السور تذكر عادا في أمر مشترك مع أمم وقبائل وأقوام، كما في سورة إبراهيم وغافر والحج وص والتوبة، وفي مواطن تذكر معها ثمود وحدها، كما في سورة فصلت والعنكبوت،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٥.

(٢) انظر: قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس ص٢٢١.

وفي الحاقة ذكرتا معا، ثم فصلت كل منهما بتفصيل يخصها، ويجمع عادا وثمود أنهم من العرب البائدة، وأن ثمود جاءت بعد عاد، فهم خلفاء قوم عاد كما دل على ذلك القرآن، بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف:٧٤].

وفي سور أفردت عاد بالذكر وحدها في حكم يخصها، كما في سور الفجر والذاريات والحاقة.

هل الآيات في سورة المؤمنون تتحدث عن هود عليه السلام مع قومه؟

بعد الفراغ من الحديث عن قوم نوح عليه السلام في سورة (المؤمنون) قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾ [المؤمنون:٣١-٤١].

لم تذكر هذه الآيات اسم النبي ولا القوم الذين أرسل فيهم، وهذا يحتمل ثلاثة أوجه؛

الأول: أنهم عاد ونبيهم هود عليه السلام وذلك لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

وهؤلاء القوم جاءوا بعد قوم نوح عليه السلام، وفي مطلع هذه الآيات بعد الفراغ من الحديث عن قوم نوح يقول: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾،كما احتجوا بمجيء قصة هود على أثر قصة نوح في الأعراف وهود والشعراء، ونسبه الزمخشري والرازي لابن عباس وهو قول أكثر المفسرين[(١)].

الثاني: أنهم صالحٌ عليه السلام وثمود، لأن قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا بالصيحة، وأما عاد فأهلكوا بالريح، وهو قول الطبري، حيث يقول: «وعنى بالرسول في هذا الموضع: صالحًا، وبقومه: ثمود»[(٢)].

وبه قال ابن جزي[(٣)]، ورجحه ابن عاشور للأدلة المذكورة[(٤)] ولقوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)﴾ [المؤمنون:٤٠].

مع قوله في سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣)﴾ [الحجر:٨٣].

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٨٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٧٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩ / ٢٨.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥١.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٨/ ٤٩-٥٠.

فكان هلاكهم في الصباح وللإجابة عن سؤال متوقع لماذا خصهم بالذكر دون عاد وهم الذين جاءوا بعد قوم نوح فقال:« ولعل تخصيصهم بالذكر هنا دون عادٍ خلافًا لما تكرر في غير هذه الآية لأن العبرة بحالهم أظهر لبقاء آثار ديارهم بالحجر كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

كما رجحه الشيخ السعدي فقال: «الظاهر أنهم « ثمود » قوم صالح عليه السلام، لأن هذه القصة تشبه قصتهم»(١).

وفات هؤلاء العلماء عليهم رحمة الله ما وقع من التشابه في جزء من عقوبة كل من عاد وثمود وهي الصاعقة، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت:١٣]. مع انفراد كل بما اختصت به.

وذكر القرطبي القولين مع دليل كلٍ ثم قال: «وممن أخذ بالصيحة أيضًا أصحاب مدين قوم شعيب، فلا يبعد أن يكونوا هم، والله أعلم»(٢).وذكر فريق من المفسرين القولين من غير ترجيح(٣).

الثالث: جائز أن يكونوا قوما آخرين غير عاد وثمود وذلك لعدم وجود دليل قطعي يرجح أحدهما على الآخر، ولدلالة القرآن على وجود أمم كثيرة لم تذكر أسماؤها في القرآن منتشرين على مر الزمان من لدن نوح عليه السلام إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم:٩].

«قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ نفى العلم بهم، وذلك يقتضي نفي العلم بذواتهم»(٤).

وقال:﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: ٣٧-٣٩].

«وفي قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ إضافة للكثير من الأقوام الضالين، الذين احتواهم الزمن بين قوم نوح، وبين عاد وثمود وأصحاب الرس فهناك كثيرون من الرسل، قد بعثهم الله سبحانه وتعالى إلى أقوام عديدين، في تلك الحقبة، بين

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٥١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٢١.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٨٦.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٦٨.

نوح، وبين عاد وثمود وأصحاب الرس وأن هؤلاء الأقوام لم يختلف موقفهم مع رسلهم، عن موقف عاد وثمود وأصحاب الرس، من رسلهم»[1].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨].

حيث ترك ذكر أمم كثيرة لم يقص خبرها، وأمم لم يتتبع تفاصيل أحداثها، اكتفاء بما ذكر لتشابه المضامين والمقاصد في دعوات الرسل وتشابه المواقف في ردود أقوامهم ونهاياتهم.

وتتبع هذه السورة بيان موقف الناس على مر الزمن من دعوة الرسل يقول سيد قطب رحمه الله: «ينتقل في هذا الدرس من دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، إلى حقيقة الإيمان التي جاء بها الرسل جميعا ويبين كيف كان استقبال الناس لهذه الحقيقة الواحدة التي لا تتبدل على مدار الزمان، وتعدد الرسالات، وتتابع الرسل، من لدن نوح عليه السلام فإذا نحن نشهد موكب الرسل، أو أمة الرسل، وهم يلقون إلى البشرية بالكلمة الواحدة، ذات المدلول الواحد، والاتجاه الواحد، حتى ليوحد ترجمتها في العربية-وقد قيلت بشتى اللغات التي أرسل بها الرسل إلى أقوامهم- فإذا الكلمة التي قالها نوح عليه السلام هي ذاتها بنصها يقولها كل من جاء بعده من المرسلين، فتجيب البشرية جوابا واحدا، تكاد ألفاظه تتحد على مر القرون!»[2].

ثم يقول: «إن استعراض قصص الرسل في هذه السورة ليس للتقصي والتفصيل إنما هو لتقرير الكلمة الواحدة التي جاء بها الجميع، والاستقبال الواحد الذي لقوه من الجميع. ومن ثم بدأ بذكر نوح عليه السلام ليحدد نقطة البدء وانتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة قبل الرسالة الأخيرة. ولم يذكر الأسماء في وسط السلسلة الطويلة، كي يدل على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية. إنما ذكر الكلمة الواحدة في كل حلقة والاستقبال الواحد، لأن هذا هو المقصود»[3].

ولشدة التشابه بين هذه الأمة وكل من عاد وثمود وقعت الحيرة عند المفسرين بأنها هذه أو هذه. ويميل الباحث إلى ترجيح القول الثالث؛ لأن القرآن لو أراد أن يحدد هذه الأمة على وجه التخصيص لنصب من العلامات ما يقطع ببيان هويتها لو كان الغرض من إيرادها لا يتحقق إلا بذلك، كما أن هذه القصة انفردت بالكشف عن منهج

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ١٠/ ٢٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٦٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٦٦.

المترفين من دعوة الإصلاح، الذين لم يرد التصريح به في قصة كل من عاد وثمود.

ثالثًا: الآيات التي تحمل التعقيبات:

أما التعقيبات ففي سور إبراهيم، وص، والحج، والتوبة.

ففي سورة إبراهيم قال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾ [إبراهيم:٨-٩].

حيث يحذر موسى عليه السلام قومه من تكذيب الرسل وما يترتب عليه من عواقب وخيمة، جاعلا ما حل بهذه الأقوام عبرة ومثلا.

وفي سورة التوبة قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٧٠﴾ [التوبة:٧٠].

حيث تعقب هذه الآية من السورة على موقف المنافقين، وتحمل الظالمين مسؤولية ظلمهم في عدم انتفاعهم بالرسل وبيناتهم، وكانت هذه السورة من أواخر السور المدنية نزولا وهي تتحدث في مقطع منها عن المنافقين وتكشف عما تنطوي عليه نفوسهم من الفسق والحرص على الدنيا والغفلة عن الله تعالى، فيفتنون عن مصدر القوة والنعمة الحقيقية، ويحرمون من الانتفاع بسيد الرسل وما جاء به من البينات القاطعة، فيعقب القرآن على موقفهم جاعلًا لهم عبرة فيمن سبق من الأمم.

فإن «هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة الضالة، ليست جديدة، ففي تاريخ البشرية لها نظائر وأمثال. ولقد حوى تاريخ البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز. ولقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة والطريق القويمة، بعد ما استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم في هذه الأرض. وكانوا أشد قوة وأكثر أموالًا وأولادًا فلم يغن عنهم من ذلك كله شيء.

والقرآن يذكر القوم بما كان من أسلافهم، ويبصرهم بأنهم يسلكون طريقهم، ويحذرهم أن يلاقوا مصيرهم. لعلهم يهتدون ويلتفت السياق من خطابهم إلى خطاب عام، كأنما يعجب من هؤلاء الذين يسيرون في طريق الهالكين ولا يعتبرون»[1].

وفي سورة الحج: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٧٣-١٦٧٤.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج:٤٢-٤٤].

حيث ذكرت مع مجموعة من الأمم التي كذبت الرسل في سياق التعقيب على موقف قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من تكذيب ومقاتلة وإخراج للمؤمنين من ديارهم فلم تفلح ووعده بالنصر والغلبة عليهم مسليا له ومعلما بسنة الله في المكذبين في إملائهم ثم أخذهم.

قال الإمام الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين فيما تقدم إخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق، وأذن في مقاتلتهم وضمن للرسول والمؤمنين النصرة وبين أن لله عاقبة الأمور، أردفه بما يجري مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم في الصبر على ما هم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره، فقال: وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم سائر الأمم أنبياءهم، وذكر الله سبعة منهم»[1].

وفي سورة (ص) قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص:١٢-١٤].

مبينا التلازم المطرد بين تكذيب الرسل وتحقق العقاب من الله.

هذه هي السور التي تحدثت عن هود عليه السلام أو عنه وعن قومه، وكلها كما ترى سور مكية، وهو الغالب على قصص الأنبياء عليهم السلام باستثناء تعقيبين في سورة الحج التي جمعت بين المكي والمدني، والتوبة المدنية.

ولا يفوتنا أن نذكر ورود ذكر عاد في سورة غافر على لسان مؤمن آل فرعون محذرا قومه من عاقبة تكذيب المرسلين في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر:٣٠-٣١].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٣١.

مظاهر انحراف قوم هود

تحدث القرآن الكريم عن مجموعة من مظاهر الانحراف في قوم هود عليه السلام، والتي منها:

أولًا: تقليد الآباء في عبادة الأصنام:

قال محمد بن إسحاق: «وكان من حديث عادٍ فيما بلغني والله أعلم أنهم كانوا قومًا عربًا، وكانوا أصحاب أوثانٍ يعبدونها من دون الله؛ صنمٌ يقال له: صداءٌ، وآخر يقال له: صمودٌ، وصنمٌ يقال له: الهباء، فبعث الله عز وجل لهم هودًا فأمرهم أن يوحدوا الله، ولا يجعلوا معه إلهًا غيره، وأن يكفوا، عن ظلم الناس»[1].

وقال ابن كثير: «كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة: صدا، وصمودا، وهرا»[2].

فلما دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله تعالى وحده أنكروا عليه أن يدعوهم إلى ما يخالف ما كان عليه آباؤهم وقالوا: «﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة، وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه، حبًا لما نشؤوا عليه، وإلفًا لما صادفوا آباءهم يتدينون به»[3]. ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف:٧٠].

«والمعنى: أجئتنا لأجل أن نعبد الله وحده ونترك ما كان يعبد آباؤنا معه من الأولياء والشفعاء فنحقرهم ونمتهنهم برميهم بالكفر، ونحقر أولياءنا شفعاءنا عند الله بترك التوجه إليهم عند التوجه إليه وهم الوسيلة، وهو المقصود بالدعاء والاستغاثة بهم التعظيم لصورهم وتماثيلهم وقبورهم والنذر لهم وذبح القرابين عندهم؟ وهل يقبل الله عبادتنا مع ذنوبنا إلا بهم ولأجلهم؟ استنكروا التوحيد، واحتجوا عليه بما أبطله الشرع والعقل من التقليد»[4].

ومما يؤكد اتباعهم للآباء في عقيدتهم قول هود عليه السلام: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف:٧١].

حيث نسب تسمية الآلهة التي يعبدونها لهم ولآبائهم. وهم من الأمم التي كذبت رسلها جمودا على تقليد الآباء، فلا يقبلون جديدا ولو كان أهدى مما كان عليه آباؤهم، معرضين عن كل حجة ولو كانت مثل وضح

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٥/١٥٠٨، رقم ٨٦٤٦.
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ص١٢١.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/١١٧.
(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/٤٤٣.

الشمس.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف:٢٣-٢٥].

ثانيًا: الاغترار بالقوة والمال:

قال تعالى مخبرًا عن قول هود عليه السلام لقومه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣١].

في هذه الآيات يكشف هودٌ عليه السلام عن الأحوال التي كان عليها قومه، منكرا عليهم صنيعهم لما فيها من مظاهر الفساد والعلو والإمعان في الغفلة، وهذه الأعمال وإن كانت في أصلها مشاريع نافعة، ولكن المنكر في تحويلها عن مسارها واستعمالها في غير غايتها وهي ثلاثة:

فأولها قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ الريع: وهو المكان المرتفع، ومنه قوله كم ريع أرضك وهو ارتفاعها[١].

«قال النحاس: ومعروف في اللغة أن يقال لما ارتفع من الأرض ريع وللطريق ريع»[٢]. أو الفج بين جبلين. والآية: العلم، أو العلامة «وتطلق الآية على المصنوع المعجب لأنه يكون علامةً على إتقان صانعه أو عظمة صاحبه»[٣].

والمعنى يحتمل أربعة وجوه:

أحدها: الريع هو المكان المرتفع: عن ابن عباسٍ أنهم كانوا يبنون بكل ريع علما، أي: أنهم يبنون في كل مكان مرتفع مشرف بناء شامخا كالقصر ونحوه فيكون بارزا ظاهرا للسائرين أو للناظرين، ولما كانوا مبالغين في هذا الفعل لكثرته وفشوه فيهم كما يدل على ذلك لفظ: (كل)، وكانوا غير محتاجين إليه كان فعلهم عبثا لا طائل منه لا ينتفع به، فلا يقصد به إلا التفاخر والتعالي.

الثاني: الريع: الطريق، لذا ذهب فريق إلى أنهم كانون يبنون على كل الطرق الواقعة تحت سلطانهم بناء يتخذونه مرصدا للمارة يعبثون فيه بمن يمر في الطريق إلى هودٍ عليه السلام، أو يعبثون بمن يمر في الطريق عموما-وهو الأولى:فيسخرون منهم.

والثالث: أخذ من تغليب معنى: ﴿ءَايَةً﴾ وهي العلامة وحملوها على المعالم التي يهتدي بها السائرون فقالوا: إنهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا في

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٦٧.

طريقهم أعلامًا طوالًا فكان ذلك عبثًا لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم[(١)].

ذهب ابن عاشور أن هذه المعالم كانت في الأصل لغرض صحيح ثم تحولت عنه إلى العبث فقال: «فمن سابق أعمال عاد أنهم كانوا بنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدل على الطريق كيلا يضل السائرون في تلك الرمال المتنقلة التي لا تبقى فيها آثار السائرين واحتفروا وشيدوا مصانع للمياه وهي الصهاريج تجمع ماء المطر في الشتاء ليشرب منها المسافرون وينتفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا حصونا وقصورا على أشراف من الأرض، وهذا من الأعمال النافعة في ذاتها لأن فيها حفظ الناس من الهلاك في الفيافي بضلال الطرق، ومن الهلكة عطشا إذا فقدوا الماء وقت الحاجة إليه، فمتى أريد بها رضى الله تعالى بنفع عبيده كانت جديرة بالثناء عاجلا والثواب آجلا»[(٢)].

ثم قال: «فأما إذا أهمل إرضاء الله تعالى بها واتخذت للرياء والغرور بالعظمة وكانوا معرضين عن التوحيد وعن عبادة الله انقلبت عظمة دنيوية محضة لا ينظر فيها إلى جانب النفع ولا تحث الناس على الاقتداء في تأسيس أمثالها وقصاراها التمدح بما وجدوه منها. فصار وجودها شبيها بالعبث لأنها خلت عن روح المقاصد الحسنة فلا عبرة عند الله بها لأن الله خلق هذا العالم ليكون مظهر عبادته وطاعته»[(٣)].

الرابع: بنوا بكل ريع: بروج الحمام دليله: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾ أي: تلعبون، أي تبنون بكل مكانٍ مرتفعٍ آيةً علمًا تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها[(٤)].

وإنما صار فعلهم هذا مذمومًا لدلالته إما على السرف، أو على الخيلاء. أقول: وتخصيص البناء ببروج الحمام أخذا من لفظ تعبثون تخصيص بلا مخصص فإن العبث لا يقتصر على اللعب بالحمام.

وثانيها: قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾. «والمصانع: جمع مصنع وأصله مفعلٌ مشتقٌ من صنع فهو مصدرٌ ميميٌ وصف به للمبالغة، و«الصنع: إجادة الفعل ويعبر عن الأمكنة الشريفة بالمصانع»[(٥)].

والمصنع ما يصنع لجمع الماء نحو البركة والصهريج والمصنعة بالهاء لغةٌ والجمع مصانع[(٦)]. فقيل: «هو الجابية المحفورة في الأرض»[(٧)]. وقيل «المصانع مآخذ الماء،

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٢٦.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٣.
(٥) المفردات، الراغب ص ٤٩٣.
(٦) المصباح المنير، الفيومي ٣/ ٣٤٨.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٦٧.

وقيل: مآخذ للماء ومجاري تحت الأرض أو برك الماء، وهذه المعاني كلها تتعلق بالماء جمعا وتخزينا وتوزيعا. وقيل القصور المشيدة والحصون المحكمة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ترجون الخلد في الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد»[1].

ويبدو كذلك من قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ إذا حملنا معنى مصانع على مدلولها اللغوي دون تخصيصها بما يتعلق بالمياه فإن عادا كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغا يستحق أن يذكر حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور، وتشييد العلامات على المرتفعات وحتى ليجول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشؤونه بوساطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت، ووقايتهم من مؤثرات الجور ومن غارات الأعداء[2].

وإنما صار هذا الفعل مذمومًا لدلالته على الأمل الطويل والغفلة التامة عن الآخرة مع الإقبال على الدنيا ونسيان أنها دار ممرٍ لا دار مقرٍ.

وثالثها: قوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾، «البطش: التناول عند الصولة. والأخذ الشديد في كل شيء: بطش به»[3]. و«أصل الجبر: إصلاح الشيء بضرب من القهر، يقال: جبرته فانجبر واجتبر والإجبار في الأصل: حمل الغير على أن يجبر الآخر لكن تعورف في الإكراه المجرد والجبار في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم، كقوله عز وجل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم:٣٢].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢].

وقوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

أي: متعال عن قبول الحق والإيمان له»[4].

فهود عليه السلام يخاطب قومه في هذه الآية زاجرا لهم عن فعل مذموم في طريقة استعمال القوة التي تميزوا بها، قال الرازي: «بين أنهم مع ذلك السرف والحرص فإن معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين، وهذا الوصف في العباد ذم وإن كان في وصف الله تعالى مدحا فكأن من يقدم على الغير لا على طريق الحق ولكن على طريق الاستعلاء يوصف بأن بطشه بطش جبار[5]. والمعنى: أنكم إذا بطشتم بآلة من آلات

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٠٩.
(٣) العين، الفراهيدي ٦/ ٢٤٠.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٨٤.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣.

الضرب كسوط أو سيف كان ذلك ظلما وعلوا لا رحمة فيه، استجابة لأنفه دواعي الغضب. مع المبادرة والتعجيل دون إنظار ولا إمهال ولا تثبت في استحقاق المبطوش به، ولا تفكر في العواقب[1]. وذلك لفرط قوتهم واستهانتهم بالضعفاء من الخلق.

«وحاصل الأمر في هذه الأمور الثلاثة أن اتخاذ الأبنية العالية، يدل على حب العلو، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو، فيرجع الحاصل إلى أنهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو وهذه صفات الإلهية، وهي ممتنعة الحصول للعبد، فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية، وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان كل كفر ومعصية»[2].

وهكذا يضع هود عليه السلام يده على العلل الجوهرية لفساد القوم وضرورة معالجتها.

معالم دعوة هود عليه السلام

جاءت دعوة هود عليه السلام واضحة المعالم، مكتملة الأصول والفروع، متناسبة مع حال قومه، تعالج واقعهم، وتحمل الدواء الكافي والملائم لعللهم ومظاهر فسادهم، كما كان هود عليه السلام متصفا بصفات تؤهله لمواجهة ما بلغه قومه من العتو والتكبر، وما هم عليه من قدرات عقلية جعلتهم على مستوى عال من القدرة على المناظرة والمحاجة، ولا شك أن الله تعالى أعده وأهله لهذه المهمة الخطيرة؛ فإن النبوة اصطفاء وإعداد رباني، من لوازمها الفطنة والذكاء، ولا يكلف الله تعالى إلا من اصطفاه وأعده ليكون على قدر الموقع الذي وضعه الله تعالى فيه.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

ويمكن أن نبين معالم دعوة هود عليه السلام وأصولها وفروعها وأسلوبه في الدعوة، وقدرته على أداء رسالته من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الدعوة إلى الإيمان بالله وحده:

أرسل الله تعالى إلى عاد أخاهم هودا فهو واحد من أنفسهم! مطلع على واقعهم بصير بأعمالهم وابن بيئتهم ليفهموه، ويفهم منهم، فيكون أقدر على معالجة أحوالهم.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣.

فهم يعرفونه ويعرفون شمائله وأخلاقه، فيكون ذلك أدعى إلى تصديقه[1].

وقد بنيت دعوته عليه السلام على أسس عقائدية ثلاثة هي التي قامت عليها جميع رسالات الأنبياء وهي:

١. الدعوة إلى الإيمان بالله وعبادته وحده وترك كل ما ابتدعه الناس من آلهة باطلة.

حمل هود عليه السلام لواء الدعوة إلى الله تعالى في زمانه، متوافقا مع الأساس الذي قامت عليه دعوة الأنبياء من قبله ومن بعده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

ولقد كان هود عليه السلام علما من سلسلة الأنبياء الذين تعاقبوا في تاريخ البشرية داعين إلى الله، سبقه فريق منهم واستمرت قافلة الإيمان من بعده.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف:٢١].

قال ابن الجوزي في تفسير هذه الآية: «قد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده بإنذار أممها ألا تعبدوا إلا الله والمعنى: لم يبعث رسولٌ قبل هود ولا بعده إلا بالأمر بعبادة الله وحده»[2].

وعلى هذه الحقيقة قامت دعوة هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف:٦٥] وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود:٥٠].

وقال: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف:٢١].

وهي دعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له مصحوبة بدليلها وبرهانها، فقوله ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ جوهر الحقيقة التي هي مفتاح صلاح حالهم واستقامة أمرهم، ووقوفهم على الحق الذي ما سواه باطل وضلال، فإن العبادة لا تنبغي إلا له وحده، والبرهان على هذه الدعوى قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ فهي الحقيقة الواضحة التي لا ينكرها عاقل، ولا تخفى على ذي لب، فهل في الوجود إله تفرد بكل خصائص الألوهية من خلق وإيجاد ورعاية وإمداد وتدبير للكون كله سمائه وأرضه غير الله؟ وهل من معبود يصلح أن يعبد سواه؟

وهذه الدعوة مع برهانها تتضمن ترك كل ما يعبدون من آلهة مفتراة لا تحمل من مقومات الألوهية ومعانيها شيئا، وهي آلهة

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد الحجازي ١/ ٧٢٩.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١٠.

ظاهرة البطلان مخلوقة عاجزة، عابدها في ضلال مبين، متذلل لما لا يستحق التعظيم غافل عمن يستحقه. «﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تخافون عقاب الله بعبادتكم شيئا دونه، وهو الإله الذي لا إله لكم سواه»[1].

قال الإمام الرازي: «اعلم أن هودا عليه السلام دعا قومه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالدليل القاطع وذلك لأنه بين أن نعم الله عليهم كثيرة عظيمة وصريح العقل يدل على أنه ليس للأصنام شيء من النعم على الخلق لأنها جمادات والجماد لا قدرة له على شيء أصلا وظاهر أن العبادة نهاية التعظيم، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام، وذلك يدل على أنه يجب عليهم أن يعبدوا الله وأن لا يعبدوا شيئا من الأصنام. ومقصود الله تعالى من ذكر أقسام إنعامه على العبيد هذه الحجة التي ذكرها ثم إن هودا عليه السلام لما ذكر هذه الحجة اليقينية لم يكن من القوم جواب عن هذه الحجة التي ذكرها إلا التمسك بطريقة التقليد فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠]»[2].

وقد تولى هود عليه السلام كشف ضلالهم وضلال آبائهم وفرط جهالتهم في اتخاذ آلهة ظاهرة البطلان، وأنها مجرد أسماء فارغة مجردة من أي من صفات الألوهية وخصائصها حين قال: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف:٧١].

حيث أنكر عليهم مجادلتهم في آلهة ظاهرة البطلان تحمل أسماء اختلقوها هم وآباؤهم؛ «وذلك لأنهم كانوا يسمون الأصنام بالآلهة مع أن معنى الإلهية فيها معدومٌ، وهذا صنيع الكافرين حيث سموا واحدًا منها بالعزى مشتقًا من العز والله ما أعطاه عزًا أصلًا، وسموا آخر منها باللات وليس له من الإلهية شيءٌ»[3].

وقال ابن جزي: «أتجادلونني في أسماءٍ سميتموها يعني الأصنام: أي تجادلونني في عبادة مسميات أسماء، ففي الكلام حذف، وأراد بقوله: سميتموها أنتم وآباؤكم جعلتم لها أسماء، فدل ذلك على أنها محدثة، فلا يصح أن تكون آلهة، أو سميتموها آلهة من غير دليل على أنها آلهة، فقولكم باطل. فالجدال على القول الأول في عبادتها، وعلى القول الثاني في تسميتها آلهة»[4].

«وقوله: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ عبارةٌ عن خلو مذاهبهم عن الحجة والبينة»[5].

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٨.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٠٢.
(٣) المصدر السابق ١٤/ ٣٠٣. بتصرف.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٩٣.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٠٣.

وقد جعل هود عليه السلام الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده منطلقا إلى عناصر العقيدة، وركيزة إلى منهج الحياة.

فمرة ربط الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده بالتقوى التي يراد بها الاستقامة على أمر الله بطاعته وطلب رضوانه، والحذر من معصيته المفضية إلى التعرض لغضبه وعقابه، فقال: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف:٦٥].

وقال: ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المؤمنون:٣٢].

ومرة أخرى قرنها بالتحذير من الكذب وجعلها مدخلا للزجر عن الافتراء الذي تقوم عليه حياتهم ومعتقدهم، وهو ادعاء ما لا علم لهم به، ولا دليل عليه مما هو ظاهر بطلانه ومخالفته للحق فقال: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [هود:٥٠].

قال الرازي في تفسير هذه الآية: «يعني: أنكم كاذبون في قولكم: إن هذه الأصنام تحسن عبادتها، أو في قولكم: إنها تستحق العبادة، وكيف لا يكون هذا كذبا وافتراء وهي جمادات لا حس لها ولا إدراك، والإنسان هو الذي ركبها وصورها فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيما لها»[1].

ومرة أخرى جعله مدخلا للدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر والتحذير من عواقبه، فقال: ﴿ ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحقاف:٢١].

وجعلها كذلك المستند لإدراك مفهوم النبوة وقيمتها وفضلها وأهميتها في اعتمادها الطريق الوحيد للفوز برضوان الله فلا سبيل للنجاة إلا بطاعة نبيهم، فهو دليلهم الهادي إلى ما ينجيهم من سخط الله ويوصلهم إلى أبواب رضوانه ورحمته وهي الأساس الثاني من الأسس العقدية لدعوة هود عليه السلام، حيث قال: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢٥-١٢٦].

وهكذا يبرز هود عليه السلام أن عقيدة التوحيد هي الأساس الذي يبنى عليه كل صلاح.

٢. الإيمان بالنبوة ولوازمها.

لقد أرسل الله تعالى هودا رسولا إلى قومه كما أخبر عن ذلك في آيات عديدة منها تصريحا باسمه كما في سورتي الأعراف وهود، حيث قال: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف:٦٥].

---

(١) المصدر السابق ١٨/ ٣٦٣.

عطفا على قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف:٥٩].

أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا، وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود:٥٠] عطفا على قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ [هود:٢٥].

ومنها بصفته من حيث صلته مع قومه كما في الأحقاف حيث قال: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف:٢١].

وذكره في عداد الرسل كما في سورة فصلت، حيث قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [فصلت:١٣-١٤].

وجعل هود عليه السلام الدعوة إلى النبوة والرسالة ومقتضياتها من العناصر الأساسية في دعوته لقومه كما هي في دعوة كل نبي إعلانا للحقيقة التي اختاره الله تعالى لها، ولا بد من إعلامهم بهذه الحقيقة بصراحة ووضوح مع إقامة الحجة وإظهار البينة حتى يقع الإلزام بالاستجابة إليه وطاعته فيما يأمر وينهى، فما هو إلا مبلغ عن الله تعالى. وقد جاءت هذه الحقيقة واضحة في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الشعراء:١٢٤-١٢٧].

وفي موضع الرد على تسفيههم له يقول: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٧-٦٩].

وقد تضمنت هذه الآيات عدة أمور تتعلق بالرسالة والرسول؛ من حيث حقيقتها ودليلها وصفات الرسول والرد على شبهات القوم حولها.

فحقيقتها أنه رسول من رب العالمين، أي: الله أرسلني فأتلقى الوحي والعلم منه، فأنا أبلغكم رسالات ربي، وأؤديها إليكم كما أمرني أن أؤديها. وجاءت في سياق الرد على وصفهم له بالسفه فقال: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ استدراكٌ مما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في الغاية القصوى من الرشد والأناة والصدق والأمانة، فإن الرسالة من جهة رب العالمين موجبةٌ لذلك حتمًا؛ كأنه قيل ليس بي شيء مما تنسبوني إليه ولكني في غاية ما يكون من الرشد والصدق[1] ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ وما علي إلا أن أبلغكم على أتم وجه رسالات ربي التي أوحاها إلي لما فيها من سوق الخير إليكم ودفع الشر عنكم.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٣٨.

«وتخصيص ربوبيته تعالى له عليه السلام بعد بيان عمومها للعالمين للإشعار بعلة الحكم الذي هو تبليغ رسالته تعالى إليهم فإن ربوبيته تعالى له من موجبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته»[1].

«وجمع الرسالات مع أن رسالة الأنبياء واحدة رعاية لاختلاف أوقاتها، أو تنوع المعاني التي فيها، أو باعتبار حاملها، أي: أنه أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كإدريس وشيث عليهما السلام»[2].

﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ «قال الأصمعي: الناصح: الخالص من العسل وغيره، وكل شيء خلص فقد نصح»[3].

فمعنى: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ أي: أخلص النية لكم عن شوائب الفساد. وذلك أني أتحرى ما فيه صلاحكم بناء على أن النصح تحري ذلك قولا أو فعلا، وقيل: هو تعريف وجه المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه، والمعنى هنا: أبلغكم أوامر الله تعالى ونواهيه بصدق وأمانة لا أكذب فيه ولا أزيد ولا أبدل، بل أبلغ ما أمرت كما أمرت»[4]. وأرغبكم في قبولها وأحذركم عقابه إن عصيتموه[5].

وعبر عنها بصيغة اسم الفاعل وذلك؛ «أن القوم رموه بالسفاهة وهي من صفات النفس وصفات النفس ثابتة، يتولد عنها الخفة، والعجلة المذمومتين، وهي ضد الحلم، وهو معنى ثابت، يتولد عنه الأناة المحمودة، فأجابهم بصيغة الاسم الدال على ثبات النصح والاستمرار فيه»[6].

وجيء باللام هنا في: ﴿لَكُمْ﴾ لإفادة أنهم مخصوصون بالنصيحة، فالنصح لهم وليس لغيرهم؛ بمعنى: أن نفعه يعود عليهم لا عليه عليه السلام وهذا مبني على أن اللام للاختصاص لا زائدة[7].

واحتج على صدقه في رسالته بتجرده وقطع طمعه عن مكاسب الدنيا أو منازعتهم ومنافستهم على ما في أيديهم من متاعها، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود:٥١].

ما من رسول إلا كانت غايته نزيهة سامية نبيلة، وكثير منهم واجه قومه بهذا القول، لأن شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يمحصها ولا يمحضها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع، كما أن الدعوة إلى الله تعالى إذا كانت مطهرةً عن دنس الطمع، قوي تأثيرها في القلب.

(١) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٩٠- ٣٩١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٤٧. بتصرف.
(٣) الصحاح، الجوهري ١/ ٤١١.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٤.
(٥) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٩٠-٣٩١.
(٦) درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي ٢/ ٦٠٥. بتصرف.
(٧) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٣٩١.

ثم وجه إليهم سؤالا إنكاريا بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، داعيا إياهم إلى استعمال عقولهم لمعرفة المحق من المبطل والمصيب من المخطئ[1]. محذرًا من رد نصيحة من لا يطلب عليها أجرًا إلا من الله، وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك[2].

ثم دخل إلى إعماق نفوسهم ببراعة فائقة ليطارد فيها أسباب التكذيب والإعراض عن دعوته، كاشفا أن ذلك لا يقوم على مستند أو دليل تقوم به الحجة وإنما هو مجرد الاستبعاد والاستغراب الذي سرعان ما يتبدد أمام الفكر الحر والتدبر السليم لمن كان عاقلا فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٩].

أي: « استبعدتم وعجبتم أو أكذبتم وعجبتم أو أنكرتم وعجبتم ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: وحي وموعظة على رجل منكم أي: على لسان رجل منكم تعرفونه، ولم يكن ذلك على لسان من لا تعرفونه أو لا تعرفون لغته، وقيل: ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى: مع، أي: مع رجل منكم لأجل أن ينذركم به ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ ما يخالفه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بسبب ما يفيده الإنذار لكم والتقوى منكم من التعرض لرحمة الله سبحانه لكم ورضوانه عنكم»[3]. أو على رجلٍ منكم أي: من جملتكم، أو من جنسكم وكانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤]»[4].

وهكذا جعل هود عليه السلام الدعوة إلى النبوة وإقامة البرهان على ثبوتها هي الخطوة الثانية للإصلاح.

٣. الإيمان باليوم الآخر.

الإيمان باليوم الآخر وما يترتب على ذلك من حسن الاستعداد له بالعمل الصالح واستثمار الحياة الدنيا فيما يحقق حسن الاستخلاف الذي ابتلي به الإنسان في دار البلاء وأنه سيحاسب على أعماله فيها، وأن الآخرة هي دار الجزاء هو الأساس الثالث لدعوة هود عليه السلام. وقد حذر هود عليه السلام قومه من عاقبة هذا اليوم واصفا إياه بأنه يوم عظيم.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف:٢١].

وقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء:١٣٥].

فما كان منهم إلا التكذيب بهذا اليوم

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٣٨.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٠٢.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٤٧.
(٤) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٢٢٩.

الذي وصفه الله تعالى بالقارعة فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ [الحاقة:٤].

ثم ذكر تكذيبهم الإجمالي المتضمن للتكذيب بكل ما جاء به هود عليه السلام من الإيمان بالله تعالى، وبنبوة هود عليه السلام المتضمنة للتكذيب بالرسل جميعا، ثم التكذيب باليوم الآخر. ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٨﴾ [القمر:١٨].

وكيف جعلهم الله عبرة لكل مكذب بالرسل[1].

ومما يدل على تبليغ هود عليه السلام قومه حقيقة اليوم الآخر والتحذير من عواقبه ما جاء في سورة المؤمنون – عند من يرجح أنها في قوم هود–من تكذيبهم بلقاء الله وعرض شبههم التي تشبثوا بها في تبرير تكذيبهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾ [المؤمنون:٣٣-٣٨].

فالقوم مكذبون بالآخرة مكذبون بالبعث بعد الموت مستبعدون أن يعودوا للحياة بعد أن يصيروا ترابا وعظاما. وقد تولى الإجابة المترفون من قومه كما هي سنتهم يحملون كبر تكذيب الرسل وتنفير العامة منهم؛ قائلين على سبيل الاستفهام الإنكاري التكذيبي: «أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابًا في قبوركم، وعظاما قد ذهبت لحوم أجسادكم، وبقيت عظامها أنكم مخرجون من قبوركم أحياء، كما كنتم قبل مماتكم؟»[2].

وكل ذلك يدل على أن دعوة هود عليه السلام إلى الإيمان باليوم الآخر وما يجري فيه من حساب كانت واضحة بينة، كذب بها القوم وجحدوها كما فعل من قبلهم ومن بعدهم من الكافرين.

ومع الجهود المضنية المتواصلة التي بذلها هود عليه السلام واستفرغ لها حياته كلها بما أوتي من فصاحة وحجة لم يؤمن به إلا قليل، وقد استدل الزمخشري على أنه استجاب له بعض أشرافهم من نظم الآية في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٦٦].

فقال: «فإن قلت: لم وصف الملأ الذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؟ قلت: كان في أشراف قوم هود من آمن به، منهم مرثد بن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٨٥.

(٢) المصدر السابق ١٩/ ٢٩.

سعد الذي أسلم وكان يكتم إسلامه فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن»[1].

وهكذا كان الإيمان باليوم الآخر وتهيئة النفوس لتحمل مسؤولية إعمالها وما يترتب على ذلك من الثواب والعقاب هي الركيزة الثالثة للإصلاح.

ثانيًا: الدعوة إلى الإصلاح:

تقدم الحديث عن مظاهر الفساد عند عاد من خلال قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١].

وهذه الآيات مع ما تحمله من الدلالة على ما بلغته عاد من الحضارة المادية، فإنها تكشف عن مظاهر الفساد وصورة الانحراف عن المنهج السليم في استثمار المنجزات الحضارية والقوة المادية التي يحققها الإنسان إذا هيأ الله تعالى له أسباب التمكين في الأرض.

كما تحمل لنا بيان منهج هود عليه السلام في الإصلاح، حيث لم تقتصر دعوته عليه السلام على القضايا الدينية العقدية، وإنما وجه نظره إلى تصويب قومه وتصحيح مسارهم في سائر مرافق الحياة، حيث لا فصل للدين عن الحياة في رسالات الأنبياء عليهم صلاة الله وسلامه.

«فينكر عليهم الترف في البنيان لمجرد التباهي بالمقدرة، والإعلان عن الثراء، والتكاثر والاستطالة في البناء من غير حاجة إليه، كما ينكر غرورهم بما يقدرون عليه من أمر هذه الدنيا، وما يسخرونه فيها من القوى، كل ذلك مع غفلتهم عن تقوى الله ورقابته، والاستعداد للقائه، حيث قال منكرا عليهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾؟، وكان القصد من ذلك هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة، ومن ثم سماه عبثا. ولو كان لهداية المارة، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم: «تعبثون» فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد، وتنفق البراعة، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة»[2].

كما ينكر عليهم اتخاذ المصانع وهي صهاريج المياه مع وسائل جمعها وتصريفها وما تحققه من الرفاهية والنعيم والمتعة بما يجعل همهم منصرف إلى الدنيا مقبلين عليها بكل طاقاتهم مع كمال الغفلة عن الآخرة حيث تنصرف النفوس عن أي عمل خير مجرد عن مطامع الدنيا، أو التقصير فيه، أو محاسبة النفس على فعل الشر، حتى

---

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١١٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٠٩.

غلب عليهم الوهم بأنهم مخلدون.

كما أنكر عليهم طريقة استعمالهم لما تميزوا به من قوة فإذا بطشوا بطشوا بطشة الجبارين من غير رحمة ولا حق.

فهود عليه السلام لم ينكر على قومه المباني التي تكون مظنة النفع في الإيواء وعلامات لهداية المارة في مجاهيل الصحراء لإرشادهم. ولا اتخاذ المصانع التي تحقق جمع الماء عند نزول الأمطار وتخزينه واستثماره وقت الحاجة، فهو سر الحياة وحفظ الأنفس ووسيلة الخصب والنماء.

ولم ينكر عليهم امتلاك القوة الذي قد يكون أحيانا في موضعه مع من يستحقه، ولكنه ينكر عليهم تحويل مسار هذه المنافع في غير وجهها فلا تكون المباني والإكثار منها لغير حاجة إلا للعبث والإمعان في الغفلة والتفاخر والتباهي، كما ينكر اتخاذ المصانع التي تهيء لهم أسباب الترف والانغماس في التنعم، غافلين عن شكر الله على هذه النعم، ممعنين في الاغترار بالدنيا غافلين عن الآخرة، ليس لهم هدف ولا مطلب شريف، وكذلك استعمال القوة في غير موضعها دون رحمة أو حكمة.

بهذا يضع يده على العلة الحقيقية التي يعاني منها قومه من انطواء نفوسهم على السوء لا يعرفون إلا التفاخر لا يدركون للحياة هدفا ولا غاية، مع قسوة القلب في التعامل مع من هو أضعف منهم، فلا خيرهم مأمول ولا شرهم مأمون.

ثالثًا: التذكير بنعم الله:

لما ذكر هودٌ عليه السلام ما كان عليه قومه من مظاهر الفساد كاشفا لهم عن عللهم وأسقامهم واستخدامهم لنعم الله في غير موضعها قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: احذروا غضب الله في جحود نعمته وعدم شكره، وأطيعون لأبين لكم طريق مرضاته وسبيل زيادة نعمته وذلك توجيها لهم إلى الآخرة؛ وزجرا لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر، ثم وصل بهذا الوعظ ما يؤكد القبول؛ وهو التنبيه على نعم الله تعالى عليهم بالإجمال أولًا ثم التفصيل ثانيًا، فأيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حيث قال: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء:١٣٢].

ثم فصلها من بعد بقوله: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء:١٣٣-١٣٤].

ثم حذر من عقاب الله في حال التقصير والإعراض فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء:١٣٥].

فبلغ في دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية. فكان جوابهم

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء:١٣٦].

حيث أظهروا قلة اكترائهم بكلامه، واستخفافهم بما أورده. وعبروا عن قلة مبالاتهم بقولهم: ﴿أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ ولم يكتفوا بالقول أوعظت أم لم تعظ مع أنه أخصر وظاهر المعنى واحدٌ، وذلك لما في تعبيرهم من زيادة إظهار اللامبالاة مع الاستخفاف بوعظه، فالمعنى ليس واحدًا، وبينهما فرق؛ «لأن المراد سواءٌ علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلًا من أهله، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أوعظت أم لم تعظ»[1].

والتذكير بالنعم من المداخل المهمة التي يقيم بها الأنبياء الحجة على الخلق في وجوب الشكر، وقد مضت سنة الله تعالى في الخلق أن يزيدهم بالشكر ويعاقبهم على الكفران بالنعم.

رابعًا: أخذ العبرة من مصير الأقوام المتقدمين:

مما يعطي الموعظة بلاغة في القول وتأثيرا في النفس تعزيزها بالأمثلة والنظائر، فلم تخل دعوة نبي من ضرب الأمثال، كما قال تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ٣٩﴾ [الفرقان: ٣٨-٣٩].

والمعنى: «وكلًا ضربنا له الأمثال بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين؛ إنذارًا وإعذارًا، فلما أصروا أهلكوا كما قال: ﴿وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾ فتتناه تفتيتًا»[2]، وذلك لما فيه من الكشف عن سنن الله تعالى في الأمم؛ حيث جرت سنة الله تعالى بإرسال الرسل لإصلاح ما فسد من أحوال الأمم، وأيدهم بالآيات القاطعة بصدقهم، الكافية لإقامة الحجة على من عاندهم، فإن استجابوا اهتدوا وصلح حالهم، وإن كذبوا حل بهم ما حل بغيرهم من المكذبين مهما بلغت قوتهم أو طال أمدهم.

ولما كانت عاد من أوائل الأمم، ولم يذكر القرآن تصريحا قبلهم غير قوم نوح، كانت العبرة من قوم نوح أبلغ العبر؛ حيث حل بهم الطوفان الذي لم ينج منه إلا المؤمنون بنبيهم -أصحاب السفينة- فقال هود عليه السلام مذكرا بما حل بهم: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف:٦٩].

ولا شك أنه يخاطبهم بما لهم به علم، ولا يخفى عليهم خبر قوم نوح.

وهذا التعبير يؤدي أغراضًا، منها تذكيرهم بما حل بقوم نوح من العذاب؛ إذ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٣.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٢٥.

عصوا رسولهم، وكفروا بربهم، فليتقوا الله أن يحل بهم نظير ما حل بهم من العقوبة، فيهلكهم ويبدل منهم غيرهم، سنته في قوم نوح قبلهم، على معصيتهم إياه وكفركم به»[1].

ومنها: التحديد الزماني من حيث إنهم جاءوا بعد قوم نوح أي: «فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم؛ لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها»[2]. ولا ينفك عن التحذير أن يصيبهم مثل ما أصابهم.

خامسًا: الأمر بالاستغفار والتوبة:

قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ [هود:٥٢].

ثم قصد استمالتهم وترغيبهم في الإيمان من باب الإصلاح الجذري لما هم عليه من الفساد، وذلك بالإقلاع عن الباطل والالتزام بالحق الذي عبر عنه بقوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ آمنوا به ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ لما يترتب عليه من كثرة المطر وزيادة القوة، فقدم إليهم في باب الدعوة إلى الدين والترغيب فيه من خلال ما تصبوا إليه نفوسهم، وما كانت همتهم معقودة به؛ ليحصل في ضمنه الغرض الكلي والمقصود الأصلي وهو الفوز بالسعادات الأخروية[3].

وذلك من خلال التوجه إلى الله تعالى الذي بيده خزائن كل شيء بالاستغفار؛ وذلك بطلب المغفرة لما مضى من عبادة غيره، والتوبة إليه وذلك بالإقلاع عن ذلك فيما يستقبل، وذلك أن الدين يحقق لهم من المطالب أعز وأنفس مما يطلبونه بغير الدين، حيث يحقق لهم الكثرة والزيادة في الدنيا ويضمن لهم الفوز بالآخرة حين يقبل توبتهم ويغفر لهم.

وقد بين الإمام الرازي ما بين الاستغفار والتوبة من فروق فقال: «الوجه الأول: أن معنى قوله: وأن استغفروا اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم، ثم بين الشيء الذي يطلب به ذلك وهو التوبة، فقال: ثم توبوا إليه لأن الداعي إلى التوبة والمحرض عليها هو طلب المغفرة، وهذا يدل على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من عند الله إلا بإظهار التوبة، والأمر في الحقيقة كذلك؛ لأن المذنب معرِضٌ عن طريق الحق، والمعرض والمتمادي في التباعد ما لم يرجع عن ذلك الإعراض لا يمكنه التوجه إلى المقصود بالذات، الذي هو محو الأوزار السالفة إلا بالإقلاع عن الأوزار المستقبلة فثبت أن الاستغفار مطلوبٌ بالذات، وأن التوبة مطلوبةٌ لكونها من متممات الاستغفار، وما

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٥ .بتصرف
(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٣١.

كان آخرًا في الحصول كان أولًا في الطلب؛ فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة.

الوجه الثاني: في فائدة هذا الترتيب أن المراد: استغفروا من سالف الذنوب، ثم توبوا إليه في المستأنف.

الوجه الثالث: وأن استغفروا من الشرك والمعاصي، ثم توبوا من الأعمال الباطلة.

الوجه الرابع: الاستغفار طلبٌ من الله؛ لإزالة ما لا ينبغي، والتوبة سعيٌ من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه فإنه هو الذي يقدر على تحصيله، ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة؛ لأنها عملٌ يأتي به الإنسان ويتوسل به إلى دفع المكروه، والاستعانة بفضل الله تعالى مقدمةٌ على الاستعانة بسعي النفس»[1].

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ وكأنه إنما خصص هذين النوعين من السعادات الدنيوية من كثرة المطر وزيادة القوة؛ لأن القوم كانوا حراصًا على جميع الأموال من وجوه العمارة والزراعة، فقد كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حراصًا عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء. وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة القوة والبطش والبأس والنجدة، مفتخرين بها ومستحرزين بها من العدو، مهيبين في كل ناحية»[2].

وقدم الأول؛ لأنه أصل جميع النعم، والثاني أصل في الانتفاع بتلك النعم»[3].

وفي هذا الأسلوب يسلك هود عليه السلام مع قومه سبيلًا رشدًا؛ حيث يتجنب محاربة مشاعرهم ومهاجمة عواطفهم، فهو يعلم مدى حرصهم على المال واعتزازهم بقوتهم، كما أن هذه الغرائز ليست مذمومة لذاتها وإنما الخلل في طريقة تعاملهم معها، فلو واجههم بطريق الذم والإنكار؛ لأحدث ردة فعل تزيدهم نفورًا، ولكنه سلك سبيلًا يوجههم فيه إلى حسن استخدام هذه المطالب فيما يحقق منافعها ويجنب مفاسدها؛ ترغيبا بزيادتها والمحافظة عليها، بدلًا من سلبها والحرمان منها. وذلك من خلال الإصلاح الذي عبر عنه بالاستغفار والتوبة[4].

وخلاصة هذا المنهج النبوي لهود عليه السلام أنه يسير بخطوات واضحة على بصيرة؛ حيث يحدد أسس البناء السليم الذي يريد إعلاءه، وعلل الفساد التي يريد اجتثاثها، ويدخل إلى النفوس من جميع المداخل المؤثرة بقوة وأسلوب حكيم غير

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٣١٥.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٠٢.

(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٣١، بتصرف.

(٤) انظر: قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس ٢٢٤- ٢٢٥.

منفر، واضعًا البدائل وما يترتب عليها من الثمرات.

موقف عاد من نبيهم ورده عليهم

أولًا: التكذيب والإنكار:

لم تختلف عاد عن الأمم الذين كذبوا الرسل، حيث ذكرهم القرآن في عداد أمثالهم من المكذبين في مواطن عديدة، منها قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق:١٢-١٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان:٣٧-٣٩].

وفي سورة إبراهيم قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم:٩].

كما قرن القرآن ذكر عاد مع ثمود في مواطن عديدة مع ما تشابهتا به في جرم التكذيب فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ [الحاقة:٤].

وفي مواطن خص عادا بالذكر مبرزًا موقفها من نبيها هود عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾ [القمر:١٨].

وأن تكذيبها به تكذيب بالأنبياء جميعًا فقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ [الشعراء:١٢٣-١٢٥].

ووصفها هنا بتكذيب المرسلين؛ لأن دعوى المرسلين واحدة وموقفهم منهم جميعًا لا يتغير. وأما صيغة التكذيب كما جاء في السورة نفسها: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء:١٣٦-١٤٠].

وفي سورة المؤمنون-عند من يرجع أنها في قوم هود- أنكروا النبوة بحجة البشرية والمثلية قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون:٣٣-٣٨].

أي: يقول الملأ للعامة تنفيرًا من اتباع رسولهم بحجة أنه بشر يماثلهم في البشرية ولوازمها مما يستبعد أن يكون مرسلًا من الله: كيف يبعث الله إلينا رسولًا من جنسنا، ويخصه بالرسالة دوننا، وهو إنسان مثلنا، يأكل مما نأكل منه من الطعام، ويشرب مما نشرب، فليس له فضلٌ ولا مزية علينا؛ لأنه محتاجٌ إلى الطعام والشراب مثلنا؟! وكيف لم يرسل الله ملكا من عنده يبلغنا رسالته؟! وذلك إمعانا منهم في تكذيبه في دعوى الرسالة؛ لتوهمهم أن البشرية تنافي أن يكون صاحبها رسولًا من الله.

ثم يزيدون في تحذيرهم من اتباع الرسول البشر من عواقب لا تحمد، إذ يعدونهم بأمور مستبعد حصولها فيقولون: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾، أي: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ﴾ فاتبعتموه، وقبلتم ما يقول وصدقتموه ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها القوم ﴿إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ أي: إنكم إذن لمغبونون حظوظكم من الشرف والرفعة في الدنيا باتباعكم إياه[1] بالعمل ليوم مستبعد الوقوع تاركين العمل لنيل نصيبكم من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٩٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ١٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٥٢.

حاضر دنياكم.

ويظهر كذلك اقتراحهم نزول الملائكة من خلال قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت:١٤].

والمعنى: «لو شاء ربنا أن نوحده، ولا نعبد من دونه شيئًا غيره؛ لأنزل إلينا ملائكة من السماء رسلًا بما تدعوننا أنتم إليه، ولم يرسلكم وأنتم بشر مثلنا، ولكنه رضي عبادتنا وما نعبد؛ فلذلك لم يرسل إلينا بالنهي عن ذلك ملائكة. ثم عقبوا على ذلك بإعلانهم الكفر الصريح قائلين: ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: قالوا لرسلهم: فإنا بالذي أرسلكم به ربكم إلينا جاحدون غير مصدقين به»[1].

وترتب على دعوى المنافاة بين البشرية والرسالة أن قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود:٥٣].

أي: وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لا يصدق مثلنا مثلك أبدا، فليس قولك حجة تحملنا على طاعتك.

فأجابهم هود عليه السلام بقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٩].

أي: أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكرٌ أي: تذكير ووعظ من ربكم على لسان رجلٍ منكم أي: من جملتكم، أو من جنسكم[2]. مبينًا أنهم لا يملكون حجة على التكذيب ولا دليلًا معتبرًا على الإنكار إلا التعجب والاستبعاد.

وإنكار بشرية الرسول، وطلب نزول الملائكة أمور تتكرر عند المكذبين، وقد وقع الجواب عليه في مواطن كثيرة من القرآن منها قول الأنبياء: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم:١١].

والمعنى: «أن الأنبياء سلموا أن الأمر كذلك، لكنهم بينوا أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لأن هذا المنصب منصبٌ يمن الله به على من يشاء من عباده، فإذا كان الأمر كذلك فقد سقطت هذه الشبهة»[3].

كما جاء على لسان نوح عليه السلام قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود:٢٨].

ردًا على قول الملأ من قومه: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود:٢٧].

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/٤٤٣.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٢/٢٢٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٧٤.

أي: إن خفاء الأمر عليكم لا ينفيه ولا يبطله فلا يصلح حجة لرفضه.

وفي الرد على طلب نزول الملائكة يكشف القرآن عن أن هذا الطلب لا يعدو أن يكون مغالطة منهم لأنفسهم؛ حيث أورد شبهتهم وأجاب عنها بوجهين فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام:٨-٩].

أما الوجه الأول: ﴿لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: اي :بهلاكهم بعذاب الاستئصال إن كذبوا بعد ظهور آية باهرة. أما الثاني: فإذا نزل الملك فإما أن يظهر بصورته الملائكية وعندها ستزهق أرواحهم؛ لعدم تحمل حواسهم رؤية الملك، وإما أن يظهر بصورة بشر وعندها سيقع الالتباس فيقولوا: إن أنت إلا بشر[1].

ثانيًا: إنكار البينة:

لم يدخر هود عليه السلام جهدًا في دعوة قومه، سواء في محاورتهم العقلية من طرح الحجج والأدلة التي تهدف إلى الإقناع، وإزالة الشبهات التي يثيرونها أو الإتيان بالمعجزات التي تقطع دابر الشبهة وتقطع اللجاجة، إلا أن القوم أنكروا ظهور البينات وذلك مبالغة منهم في إنكار دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ حيث قابلوها بالجحود والاستكبار، وإنما يأتي الجحود من شدة الغفلة، ويكون الإصرار بعد معرفة الحقيقة ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود:٥٩].

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود:٥٣] فجحدوا هودًا ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾، كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم[: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد:٢٧].

«ولم يشتهر منه معجزة ولكن العلماء قالوا: إظهار الدعوة مع أولئك الأقوام من غير مبالاة وتوان آية من الآيات»[2].

وكان ذلك الإنكار مكابرة منهم وجحودًا لنزول البينات، فقد جاءتهم البينات الظاهرة والمعجزات الباهرة، وإن لم يعين لنا بعضها[3] كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/٢٦٧، الكشاف، الزمخشري ٢/٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/٤٨٦.

(٢) غرائب القرآن،النيسابوري ٤/ ٣٢.

(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢٧٩.

كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾ [التوبة:٧٠].

وفي سورة إبراهيم ذكر عادًا مع أقوام آخرين فقال: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [إبراهيم:٩].

«بالبينات: يعني بحجج ودلالاتٍ على حقيقة ما دعوهم إليه من معجزاتٍ»[١].

كل ذلك يؤكد تأيد الله تعالى لهود عليه السلام بالبينات، ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[٢].

ومعنى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: «ردوا عليهم قولهم وكذبوهم»[٣].

ثالثًا: الغفلة والغرور:

في كثير من المواضع التي فصل القرآن فيها الحديث عن قوم هود كشف عما كانوا عليه من الإيغال في الغفلة، والبعد عن الانتفاع بتحذيرات نبيهم عليه السلام، وقد جاءت هذه الآيات كاشفة عن صورة الغفلة ومظاهرها، مبينة أسبابها ودوافعها: أما أسبابها فيمكن أن نبينها بالنقاط الآتية:

١. الإعجاب والغرور بما هم عليه من القوة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ [فصلت:١٥].

أي: فأما عادٌ فمنعهم من قبول الهدى استكبارهم. والاستكبار: المبالغة في الكبر، أي التعاظم واحتقار الناس وكان الحامل لهم على هذا الكبر قوتهم، التي عبروا عنها بقولهم: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾«فتعظموا فيها على أهلها من غير استحقاق، وغلب عليهم الشعور بأنه لا قوة تقف أمام قوتهم، وقد اعتادوا أن يستهينوا بالآخرين، ولا يبالوا بحقوقهم مما حملهم على البطش بلا رحمة.

فلما جاءهم هودٌ بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك؛ لأنهم اعتادوا العجب بأنفسهم وأحوالهم فكذبوا رسولهم. وبلغ بهم التمادي أنهم غفلوا عن قوة الله التي لا تقهر، والتي جاء نبيهم يذكرهم بها.

وفي قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ استفهام إنكاري أي: إنه ينكر عليهم عدم علمهم بأن الله أشد منهم

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٣٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان بما نزل على نبينا، رقم ٢٣٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٣٤.

قوةً؛ حتى أعرضوا عن رسالة رسول ربهم، وعن إنذاره إياهم إعراض من لا يكترث بعظمة الله تعالى؛ حتى بلغ بهم الغرور أنهم اعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله! لأنهم لو حسبوا لعجزهم عن ذلك حسابه؛ لتوقعوا عذابه فلأقبلوا على النظر في دلائل صدق رسولهم[1].

٢. الإيغال في الترف والتنعم.

حيث كان حاملًا على التكذيب والانصراف عن سماع دعوة الأنبياء، أو التفكر فيها والانهماك في محاربتها وصرف الناس عنها.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون:٣٣].

«فالترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب ومثل هؤلاء لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ودقة التدبير في أطوارها للوصول بها إلى غايتها البعيدة. هذه الغاية التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض. فالخير لا يلقى جزاءه الكامل في الحياة الدنيا مثل هؤلاء لا يدركون هذه المعاني ولا يستدلون من أطوار الحياة الأولى على أطوارها الأخيرة ولا يتنبهون إلى أن القوة المدبرة لتلك الأطوار التي لا تقف بالحياة عند مرحلة الموت والبلى كما يظنون»[2].

لقد كان هذا الحال شاغلًا لهم عن التفكير الجاد مستغرقًا منهم كامل جهدهم واهتماماتهم، حملهم على التباهي والتفاخر في البناء، والتوسع في المعايش، كما سبق بيانه من خلال الحديث عن مظاهر الانحراف والفساد من خلال قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء:١٢٨-١٢٩].

٣. التقليد الأعمى.

حيث هو من أكبر الصوارف عن قبول دعوة الإصلاح والتجديد حيث قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الشعراء:١٣٦-١٣٧].

أي: «ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم، كانوا يدينونه ويعتقدونه، ونحن بهم مقتدون»[3].

٤. تزيين الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٥٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٦٩، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١١٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٦٧.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٧.

مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٨].

أي: حسن بوسوسته وإغوائه، فأراهم أعمالهم القبيحة حسنة فغرر بهم. فصدهم عن السبيل وهي طريق الإيمان بالله ورسله. وذلك أن الشيطان أتاهم من هذه الثغرة المكشوفة، وهي غرورهم بأنفسهم، وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال، وانخداعهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع[1].

﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ أي: « معدودين بين الناس من البصراء العقلاء جدًا؛ لما فاقوهم به مما يعلمون من ظاهر الحياة الدنيا»[2].

أما مظاهر هذه الغفلة وصورها فتظهر في كثير من أقوالهم وأعمالهم فمن الأقوال:

- ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الشعراء:١٣٦]
- ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف:٢٢]. وقد سبق بيان معاني هذه الآيات.
- ومنها ما جاء في سورة المؤمنون على لسان الملأ بعد أن بثوا ما في جعبتهم من الشبهات، عقبوا عليها بما يدل على غاية التكذيب والاستبعاد، الدال على انطماس القلوب، وشدة الإمعان في الغفلة والإعراض فقالوا: ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون:٣٦-٣٨].

«عن ابن عباس في قوله: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ يقول: بعيد بعيد»[3].

«استبعد القوم بعثهم بعد الموت؛ إغفالًا منهم للتفكر في بدو أمرهم، وقدرة الله على إيجادهم، وأرادوا بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبدًا، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يعنون: ما الحياة إلا ما نحن فيه، وليس بعد الموت حياة»[4].

أما الأفعال التي تدل على الإمعان في الغفلة فهي:

١. الجحود وإنكار الآيات.

الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥].

وقوله: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣].

﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود:٥٩].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٣٥.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ٤٣٧-٤٣٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٠.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٦٢.

٢. التكذيب.

الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الشعراء:١٣٧-١٣٩].

٣. عدم الانتفاع بأدوات الفهم والعلم.

الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٦].

٤. البقاء في حمأة الجهل.

كما وصفهم نبيهم عليه السلام بعد أن بذل أقصى ما في وسعه من التبليغ والبيان قال تعالى: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف:٢٣].

٥. الاستمرار على ما هم عليه.

وعدم الاكتراث بكل ما جاء به هود عليه السلام: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:٥٣].

فأكدوا عدم إيمانهم بالجملة الاسمية مع زيادة الباء، وتقديم المسند إليه المفيد لتقوية جوابهم، دلالة على أنهم لا يرجى منهم ذلك بوجه من الوجوه(١).

وقال: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٧٢].

(١) روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢٨٠.

رابعًا: الاتهام بالجنون والسفه والكذب:

وجهت عاد إلى نبيها هود عليه السلام عدة اتهامات أظهرها الاتهام بالسفه والجنون والكذب، وإليك بيان ذلك من خلال الآيات التي دلت عليه:

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف:٦٦-٦٨].

بينت هذه الآيات الاتهام الأول وهو السفه بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾. والسفاهة: مصدر يعبر به عن الحال المهلهلة الرقيقة التي لا ثبات لها ولا جودة، والسفه في الثوب خفة نسجه(٢)، أي: «متمكنا في خفة عقل راسخًا فيها؛ حيث فارقت دين آبائك»(٣). حيث «جعلوا قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف:٦٥] كلامًا لا يصدر إلا عن مختل العقل؛ لأنه من قول المحال عندهم»(٤).

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في دعوى الرسالة، وظن

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤١٧.
(٣) روح البيان ٣/ ١٨٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢٠٢.

على بابه؛ لأنهم لم يكن عندهم إلا ظنون وتخرص[1].

«وفي تعبيرهم ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾ جعلوا السفاهة ظرفا على طريق المجاز، أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها[2].

وفي أسلوب الإجابة الذي واجههم به، بطريق الحلم والإغضاء مع رميهم له بالسفاهة، وترك المقابلة بما قالوه مع علمه بما هم عليه من السفاهة أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويحلمون عليهم»[3].

واكتفى بنفي السفاهة عن نفسه بإثبات ما يضادها فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث يستحيل أن يرسل الله سفيهًا.

وفي مضمون الإجابة بقوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ «أي: عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة، فما حقي أن أتهم. أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه، أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه»[4].

ولما كانت السفاهة من صفات النفس وهي ضد الحلم، وهو معنى ثابت يولد الخفة والعجلة المذمومتين، والحلم معنى ثابت يولد الأناة المحمودة، فقد أجابهم هود عليه السلام بما يتناسب مع قولهم وينفي عن نفسة ما رموه به بإثبات صفة ثابتة في النفس تبطلها[5].

فوصف نفسه بأن ناصح بصيغة اسم الفاعل الدال على الثبوت، ولم يقل أنصح بصيغة الفعل الدال على الحدوث. وفي هذه الإجابة ما يدل على بطلان قولهم من المقال، ومن واقع الحال، فإن الناصح الأمين لا يكون سفيهًا أبدًا وفي طريقة إجابته لهم بنفي السفه عن نفسه دون أن ينسبهم إلى السفاهة ولو كان حقًا، فلو قال: بل أنتم السفهاء لكان صادقًا ولكنه أعرض عن مواجهة السفهاء بأسلوبهم، وكان في غاية الرزانة حيث لم يستثيروه ولم يستفزوه؛ ليخرج عن حدود الحلم والحكمة والأدب، وهذا من أبلغ الأحوال الدالة على نزاهته من السفاهة.

وفي جوابه ترفق بهم وتجرد عن حظ نفسه لا يخفى، فلم يستثرهم بما يحملهم على النفور ولم يلمزهم بوصفهم بالسفه انتصارًا لنفسه؛ كي لا يتحول الحوار إلى مساجلات شخصية.

أما الاتهام الثاني وهو الجنون فقد ورد في قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ

(1) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤١٧.
(2) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١١٧.
(3) المصدر السابق بتصرف.
(4) المصدر السابق.
(5) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي ٢/ ٦٠٥- ٦٠٦.

﴿ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[هود:٥٤].

أي: لا نجد قولًا نقوله فيك إلا أن بعض آلهتنا أصابك بمس من جنون أو خبل؛ لإنكارك لها؛ وصدك إيانا عن عبادتها، والمراد أن أصنامهم كافأته على سوء فعله بسوء الجزاء أي: إن ما تقوله لا يصدر إلا عمن أصيب بشيء اقتضى خروجه عن قانون العقل، فلا يعتد به؛ لأنه من قبيل الخرافات والهذيانات التي لا تصدر إلا عن المجانين فكيف نؤمن بك؟![1].

وأوردوا تعبيرهم بصيغة الحصر الموهم أنهم قد سبروا غور كل الاحتمالات المتوقعة التي تناسب حاله فما وجدوا أصوب ولا أمثل ولا أجدر في إصابة الحق من هذا القول.

الاتهام الثالث: الكذب حيث ادَّعوا أنه يفتري عليهم الكذب فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف:٢٢].

« الإفك: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾، استعملوا الإفك في ذلك لما اعتقدوا أن ذلك صرف من الحق إلى الباطل فاستعمل ذلك في الكذب»[2].

أي: أنهم أتهموا نبيهم بأنه يريد إزالتهم عن عبادة آلهتهم بالإفك. ولما عقبوا عليه بقولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٢٢].

أضمروا الإصرار، أي: لن ننصرف عن آلهتنا، فأتنا بالعذاب الذي تتوعد به، ونزلوا الوعيد منزلة الوعد استهزاء وإمعانا في التكذيب. فقال لهم هود عليه السلام ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٣].

أي: لا علم لي بالوقت الذي عيَّنه الله لتعذيبكم، فلا معنى لاستعجالكم ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ [الأحقاف:٢٣].

وما علي إلا أن أبلغ رسالة ربي، فالأمر كله بيده وحده وما على الرسول إلا البلاغ، ثم استدرك عليه السلام فأعلن ما استقر في إدراكه من حالهم قائلا: ﴿وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف:٢٣].

أي: أعلمكم علمًا هو كالرؤية ﴿قَوْمًا﴾ ليعم الحكم جميعهم ﴿تَجْهَلُونَ﴾ جهلًا متجددًا، لم يحدد مفعوله ليشمل كل ما يستدعي الأمر علمه من استبانة ضلالهم من إصرار على آلهة باطلة، وتكذيب لنبي صادق، واستعجال بعذاب مستحق دون الاحتراز منه، وجهل في ادعاء قدرة النبي على العذاب ونحوه، ولا تعلمون أن الرسل بعثوا مبلغين منذرين لا معذبين مقترحين[3].

---

(١) نظم الدرر، البقاعي ١٢/ ٤٩.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٩.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٠٥/ ١١٥، نظم الدرر، البقاعي ١٨/ ١٦٧.

وأي جهل أعظم من الشرك بالله ونسبة نبي الله إلى الكذب. ومن ترك طريقة الاحتياط واستعجال ما فيه الهلاك[1].

ومن علائم جهلهم إصرارهم على طلب العذاب ولم تظهر لهم بينة على كونه كاذبًا، فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم[2].

خامسًا: التعجيز والتحدي:

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[هود:٥٣-٥٤].

جمعت هذه الآيات خلاصة موقف عاد من نبيهم هود عليه السلام وأجوبتهم له« ودلت على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت، ولا يلتفتون إلى النصح. ولا تلين شكيمتهم للرشد. وهذا يدل على جهل مفرط وبله متناه، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم، ولعلهم حين أجازوا العقاب كانوا يجيزون الثواب»[3]، واشتملت إجابتهم على أربعة أمور:

الأول: الإنكار والجحود للبينات.

الثاني: الإصرار على ما هم عليه بالتمسك بآلهتهم.

الثالث: عدم الاكتراث بقوله حيث لا تقوم به الحجة عليهم وهو إنكار للنبوة.

الرابع: ادعوا أن لآلهتهم تأثيرا عليه، وأنه قد أصابه بعضها بسوء بلغ به حد الجنون. وهذا القول يتضمن التهديد والتخويف، فهذا فعل بعضها فكيف لو اجتمعت إذا لدكته دكا[4].

فكل ما بذله من جهد وبيان لا يبلغ حد الاعتبار في نظرهم، مع التهديد والتخويف من آلهتهم، وهذا يستدعي تصعيد المواجهة بما تقوم به الحجة وهي المعجزة التي تظهر بالتحدي وإثبات تفاهة آلهتهم وعجزها الذي دلت عليه الآيات الآتية: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود:٥٤-٥٧].

ففي هذه الآيات أجاب هود عليه السلام إجابة جامعة ترد على الأمور الأربعة التي أعلنوها، وتبدد كل أباطيلهم حيث أعلن نبي الله براءته من آلهتهم مشهدا لله تعالى،

(١) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ١٢٤.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٧/ ٤٠٥.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٠٣.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٩٨.

معلنا عن ذلك بصيغة الجملة الخبرية وهي في المعنى إنشائية بمعنى(اللهم اشهد) «لأن كل إنشاءٍ لا يظهر أثره في الخلق من شأنه أن يقع بصيغة الخبر، لما في الخبر من قصد إعلام السامع بما يضمره المتكلم»[1].

ومشهدا لهم على هذه البراءة استخفافا بهم وبآلهتهم، وإعلاما لهم بعجزها، مؤيدا ذلك بالتحدي الذي يقيم البرهان على إثبات عجزها وقصورها فضلا عن أن تعتريه بسوء، وذلك بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي: «كيدوا لي، وخذوني بما تستطيعون من كيد، والكيد: إعمال الحيلة، وإحكام التدبير، لما يراد من الأمور ويستعمل الكيد غالبا في الشر، ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: أي: لا تتوانوا في إعمال كيدكم لي، والمبادرة به»[2].

وفي قوله: ﴿جَمِيعًا﴾رد على قولهم: ﴿بَعْضُ﴾أي: أنه أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعًا دون بعضٍ منها مبالغة في التحدي[3].

وجعل هذا التحدي ردًا عمليًا على قولهم ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وعلى قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ «ووجه الخطاب لقومه لئلا يكون خطابه لما لا يعقل ولا يسمع، فأمر قومه بأن يكيدوه. وأدخل في ضمير الكائدين أصنامهم مجاراةً لاعتقادهم واستقصاءً لتعجيزهم، أي: أنتم وأصنامكم، كما دل عليه التفريع على البراءة من أصنامهم»[4].

والنتيجة الحتمية لهذا التحدي الذي أثبت جدواه بعجزهم وعجز آلهتهم عن إيذائه بأي شيء دليل على صدقه وحجية قوله وأنه نبي مرسل يلزمهم ترك آلهتهم طاعة له، وهي دليل على عظمة إلهه الذي حماه وأيده ورد الكيد عنه في مثل هذا الوسط مع كثرتهم وقوتهم وشدة بأسهم، وحرصهم على تكذيبه وهو فرد ليس له نصير إلا مولاه الذي يدعو إليه.

سادسًا: استعجال العذاب:

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف:٧٠].

وقال: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف:٢٢].

وذلك أنهم طلبوا الإتيان بالعذاب إمعانا في التكذيب وتماديا في الضلال، واستهانة بوعد نبيهم عليه السلام، ويدل على أنهم

---

(١) المصدر السابق ١٢/ ٩٩.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٦/ ١١٥٦.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢١٨.

(٤) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٢/ ١٠٠.

كانوا يستبعدون العذاب ويكذبون بكل ما جاءهم به نبيهم قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨﴾ [الشعراء:١٣٨].

وبينما هم غارقون في غفلتم متمادون في تكذيبهم إذ جاءتهم بوادر العذاب بصورة يتوهمون فيها البشارة بالغيث بعد سنين من القحط ليكون وقع العذاب أنكى وأشد. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤﴾ [الأحقاف:٢٤].

قال ابن كثير: «كان أول ما ابتدأهم العذاب، أنهم كانوا ممحلين مستتين[١]، فطلبوا السقيا فرأوا عارضًا في السماء وظنوه سقيا رحمةٍ، فإذا هو سقيا عذابٍ[٢]».

أي: فلما رأوا العذاب في صورة سحاب يوهم بالغيث، حسبوه سحابًا يمطرهم، وكان المطر قد أبطأ عنهم، فلما رأوه عارضًا ظاهرا في عرض السماء ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ فرحوا واستبشروا. وكان قد جاءهم من وادٍ جرت العادة أن يأتي منه الغيث[٣].

قيل لهم ردًا على توهمهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ يعني: من العذاب الذي استعجلوه بقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وذلك استبعادًا منهم لوقوعه، ثم بين ماهيته فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم وصف تلك الريح بأوصاف مفزعة كما سيأتي بيانه.

أخرج الإمام أحمد عن الحارث بن يزيد البكري، قال: (خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمررت بالربذة، فإذا عجوزٌ من بني تميم منقطعٌ بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجةً، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها، فأتيت المدينة فإذا المسجد غاصٌ بأهله، وإذا رايةٌ سوداء تخفق، وبلالٌ متقلدٌ السيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا، قال: فجلست، قال: فدخل منزله-أو قال: رحله-فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت، فسلمت فقال: (هل كان بينكم وبين بني تميم شيءٌ؟) قال: فقلت: نعم، قال: وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوزٍ من بني تميم منقطعٌ بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزًا، فاجعل الدهناء، فحميت العجوز،

---

(١) ممحلين: أصابهم المحل وهو الشدة وانقطاع المطر.
انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ١٨١٧.
ومستتين من السنة، أي: أسنتت أرضهم: لم يصبها مطر فلم تنبت.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٢٦٧.
(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٣٤.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٠٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٨٦.

واستوفزت، قالت: يا رسول الله، فإلى أين تضطر مضرك؟ قال: قلت: إنما مثلي، ما قال الأول: معزاةٌ حملت حتفها، حملت هذه، ولا أشعر أنها كانت لي خصمًا أعوذ بالله، ورسوله أن أكون كوافد عادٍ قال: (هيه، وما وافد عادٍ؟) وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه، قلت: إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم، يقال له: قيلٌ، فمر بمعاوية بن بكرٍ، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج جبال تهامة، فنادى: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريضٍ فأداويه، ولا إلى أسيرٍ فأفاديه، اللهم اسق عادًا ما كنت مسقيه، فمرت به سحاباتٌ سودٌ فنودي منها: اختر، فأومأ إلى سحابةٍ منها سوداء، فنودي منها: خذها رمادًا رمددًا ولا تبق من عادٍ أحدًا، قال: فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح، إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا، قال أبو وائلٍ: وصدق قال: (فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم، قالوا: لا تكن كوافد عادٍ)[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال: (اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به) قالت: (وإذا خيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر. فإذا أمطرت سري عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عادٍ: (فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا)[2].

فكان صلى الله عليه وسلم أشد الناس خشية لله ويعلم من حاله ومقاله كيف يحذر المرء من غضبه ليكون حذرا من الخروج عن طاعته، غير آمن من مكره أمنا يدفع إلى الاستهانة بحق الله قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٩].

[انظر: عاد: موقفهم من رسولهم ومعجزاته]

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٥٩٥٣. قال ابن كثير في تفسيره ٧/ ٢٨٦: وهو غريبٌ جدًا من غرائب الحديث وأفراده.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، رقم ٨٩٩.

عاقبة القوم ومصيرهم

أولًا: المقدمات التي سبقت العذاب:

جاءت المقدمات التي سبقت العذاب بصور من التحذير والوعيد والإمهال ثم حلول الرجس والغضب؛ ففي مشهد من المشاهد الأخيرة من الحوار بين هود عليه السلام وقومه يقول: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود:٥٧].

محذرًا لهم من النهاية التي لا تدع منهم أحدا لهوانهم على الله واقتداره عليهم. أي: إن تتولوا أهلككم الله، ويستبدل قومًا غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه. ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ بتوليكم وإعراضكم، إنما تضرون أنفسكم، وذلك أن إهلاككم لا ينقص من ملكه شيئًا؛ لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء[1].

ثم إنه عليه السلام ذكر لهم وعيدًا مجددًا فقال: ﴿فَانتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف:٧١].

أي: فانتظروا ما يحصل لكم من عبادة هذه الأصنام إني معكم من المنتظرين.

وهو أمر يتضمن الوعيد والإمهال[2]، وقال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج:٤٤].

«أي: أمهلتهم إلى الوقت المعلوم عندي ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقبتهم»[3]، وهذه سنة إلهية ماضية في المكذبين يمهلهم إلى آجالهم، ثم يأخذهم بجميع ما صدر منهم.

وذكر استحقاقهم للعذاب وحلول النقمة من الله عليهم بجحودهم لوحدانية الله ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ [الأعراف:٧٠].

استبعدوا توحيد الله مع اعترافهم بربوبيته، ولذلك قال لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف:٧١].

أي: حق عليكم ووجب عذاب من ربكم وغضب.

أي: «أنه تعالى أخبره في ذلك الوقت بنزول العذاب عليهم فلما حدث الإعلام في ذلك الوقت لا جرم قال هودٌ في ذلك الوقت: وقع عليكم من ربكم رجسٌ وغضبٌ، أو أنه جعل التوقع الذي لا بد من نزوله بمنزلة الواقع. ونظيره قولك لمن طلب منك شيئًا قد كان ذلك بمعنى أنه سيكون ونظيره قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١].

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/٥٠٩٩، بتصرف.

(٢) انظر: المصدر السابق ٩/ ١٩٠.

(٣) المصدر السابق ١٤/ ١٠٧.

بمعنى: سيأتي أمر الله»[1].

«الرجس لا يمكن أن يكون المراد منه العذاب؛ لأن المراد من الغضب العذاب فلو حملنا الرجس عليه لزم التكرير وأيضًا الرجس ضد التزكية والتطهير. قال تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

وقال في صفة أهل البيت: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

والمراد التطهر من العقائد الباطلة والأفعال المذمومة وإذا كان كذلك وجب أن يكون الرجس عبارةً عن العقائد الباطلة والأفعال المذمومة»[2]. ويدخل فيه: الرين على القلب بزيادة الكفر[3].

«وحاصل الكلام في الآية: أن القوم لما أصروا على التقليد وعدم الانقياد للدليل زادهم الله كفرًا وهو المراد من قوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ ثم خصهم بمزيد الغضب وهو قوله: ﴿وَغَضَبٌ﴾»[4] وهو ما يوجب العذاب.

ثانيًا: صورة العذاب:

تحدثت الآيات القرآنية عن العذاب الذي حل بقوم عاد بأساليب متنوعة وصيغ متعددة، تعرض لحقيقته وصورته من عدة وجوه لا تعارض بينها؛ فأحيانا يذكر العذاب بإجمال كما في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الشعراء:١٣٩].

فرتب على التكذيب إهلاكهم دون أن يفصل في بيان طريقة الإهلاك الذي تولت بيانه سور أخرى.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص:١٤] «فوجب أو لزم وثبت أن أعاقبهم»[5].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ [الفجر:٦].

إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾[الفجر:١٣].

أي: أفرغ عليهم أشد أنواع العذاب. فالصب يعبر به عن الكثرة، والسوط يعبر به عن الشدة.

وقال كذلك على سبيل الإجمال: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [النجم:٥٠].

وقال: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج:٤٤].

وأحيانًا يذكر ما حل بهم على جهة التفصيل كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات:٤١-٤٢].

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٠٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٣٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٠٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٦٠.

﴿نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٦].

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر:١٨-٢٠].

وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة:٦-٨].

فبين في هذه الآيات أن العذاب الذي حل بهم كان بالريح الشديدة المهلكة التي وصفها بأوصاف عديدة تدل على ما جمعت من خصائص العنف والنكال.

فمرة وصفها بالعقيم «وأصل العقم: اليبس المانع من قبول الأثر، والريح العقيم: وهي التي لا تلقح سحابا ولا شجرا وهي التي لا تقبل أثر الخير، وإذا لم تقبل ولم تتأثر لم تعط ولم تؤثر»[1]. وهي التي لا رأفة فيها ولا رحمة[2].

كما وصفها بصرصر وهذا اللفظ يجمع ثلاثة معاني هي الصوت والبرد[3] والعزم[4].

فيكون وصفها أنها «الريح العاصفة الشديدة الهبوب التي يسمع لهبوبها صوتٌ شديدٌ، وعلى هذا، فالصرصر من الصرة التي هي الصيحة المزعجة. ولا يمنع أن يكون بردها واصلا درجة الإحراق مأخوذ من قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران:١١٧]. أي: فيها بردٌ شديدٌ محرقٌ»[5].

ووصفها كذلك بالعاتية، وأصلها من «عتا يعتو عتوًا وعتيًا: استكبر وجاوز الحد»[6] الريح العاتية: «أي: مبالغة في الشدة»[7] أو «شديدة الهبوب»[8].

أما دوامها على هذه الحال بما جمعت من أوصاف الشدة فقد استمرت طيلة أيامٍ وصفت في سورة فصلت بأنها ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ دون ذكر عددها، وقال المفسرون في معنى ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ قولين أحدهما: الشديدة البرد والآخر: أنها المشؤومة[9].

ولا تعارض بين المعنيين، فإن شدة البرد سبب من أسباب الشؤم. وفي سورة القمر وصف النحس بأنه مستمر للدلالة على تواصله بلا توقف ولا فتور طوال هذه المدة، مما يزيد الأمر شؤما، وفي سورة الحاقة ذكر عددها ووصفها بالحسوم فقال: ﴿سَخَّرَهَا

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٧٩.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ١٣٤.
(٣) العين، الفراهيدي ٧/ ٨٢.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٧٦.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٦.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٧.
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٣٠.
(٨) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٣٩.
(٩) المخصص، ابن سيده ٢/ ٣٩٨.

عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ﴾ قال الفراء: «الحسوم: التباع إذا تتابع الشيء فلم ينقطع أوله عن آخره»[1].

وقال الزجاج: «حسوما أي: تحسمهم حسوما أي: تذهبهم وتفنيهم»[2].

وقال ابن كثير: «كوامل متابعاتٍ»[3].

أما عن فعل هذه الريح وآثارها فقال عن فعلها بالأشياء عموما: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٥].

أي: تهلك كل شيء من الحيوان والناس، أي: تخرب كل شيءٍ مرت عليه من رجال عادٍ وأموالها. أو من بلادهم، مما من شأنه الخراب قال ابن عباسٍ: أي كل شيءٍ بعثت إليه. والتدمير: الهلاك. وكذلك الدمار ﴿بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ ومعناه أن هذا ليس من باب تأثيرات الكواكب والقرانات[4] بل هو أمر حدث ابتداءً بقدرة الله تعالى لأجل تعذيبكم[5].

أما عما فعلته هذه الريح بالناس على وجه الخصوص فقال: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر:٢٠].

أي: كأنهم «أصول نخل منقلع عن مغارسه»[6].

وتنزعهم نزعا حيث كانت «تقلعهم عن أماكنهم وكانوا يصطفون آخذًا بعضهم بأيدي بعض ويتداخلون في الشعاب ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدق رقابهم»[7].

فتصرعهم وتسقطهم على الأرض فأصبحوا مع طول قاماتهم وضخامة أجسامهم كأنهم أسافل نخل منقلع من أصله، قد سقط على الأرض. قال ابن كثير: «فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتثلغ رأسه حتى تبينه من بين جثته»[8].

فهذا صنيعها بأجساد القوم المسلطة عليهم في بداية هبوبها.

ومع هبوب الريح بصفاتها العاتية من برد شديد وجفاف ودوام لهذه المدة الطويلة جديرة بأن تفعل بأجسادهم فعلها حتى تركتهم في نهاية أمرهم كأعجاز نخل خاوية، أي: بالية نخرة[9].

قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ

(١) انظر: معاني القرآن، الفراء ٣/ ١٨٠، تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٩٩.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢١٤.
(٣) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٣٩.
(٤) أي: اقتران الثريا بالبروج السماوية وما كان يعتقده الجاهليون من تأثير ذلك على الأحداث.
انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٢٩-٢٣٠.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٧/ ٤٠٧.
(٦) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٠٣.
(٧) المصدر السابق.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٣٥.
(٩) غريب القرآن، ابن قتيبة ص٤١٢.

﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة:٧].

فتشبيههم بأعجاز نخل منقعر تصف حالهم عند بداية العذاب وهبوب الريح، وتشبيههم بأعجاز نخل خاوية عند نهاية الأمر وانتهاء المدة حيث بليت أجسادهم ونخرت.

وهكذا جاءت هذه الريح بهذه الأوصاف على القوم وهم غارقون في غفلتهم يعرضون عضلاتهم ويتباهون بقوتهم. فأتاهم المصرع المناسب لهذا العجب المرذول الغافل عن قوة الله وقدرته ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت:١٦].

إنها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة في أيام نحس عليهم. وإنه الخزي في الحياة الدنيا. الخزي اللائق بالمستكبرين المتباهين المختالين على العباد ذلك في الدنيا وليسوا بمتروكين في الآخرة: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٦][1].

وفي وسط تلك الرياح العاتية المدمرة كان هود عليه السلام ومن معه في رعاية الله بأمن وسلام ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ [هود:٥٨].

قال ابن إسحاق: «واعتزل هودٌ عليه السلام-فيما ذكر لي-في حظيرةٍ هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود، وتلذ الأنفس، وإنها لتمر على عادٍ بالظعن فيما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة»[2].

وقال تعالى في وصف العذاب الذي حل بعاد وثمود ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت:١٣].

قال ابن قتيبة: الصعق: الموت.

قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]. أي: ميتاً[3].

وقال الراغب: «الصاعقة والصاقعة يتقاربان، وهما الهدة الكبيرة، إلا أن الصقع يقال في الأجسام الأرضية، والصعق في الأجسام العلوية. قال بعض أهل اللغة: الصاعقة على ثلاثة أوجه:

- الموت، كقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨]. وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [النساء:١٥٣].
- العذاب، كقوله: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣].
- النار، كقوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١١٨. بتصرف.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٣٦-١٣٧.

(٣) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص٢٧١.

بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:١٣]»[1].

ثم قال «وما ذكروه فهو أشياء حاصلة من الصاعقة، فإن الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منها نار فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها»[2].

وما ذهب إليه يتفق مع قول المبرد بأن الصاعقة «الثائرة المهلكة لأي شيءٍ كان»[3].

وفي خصوص قوم عاد فإن الصاعقة التي حلت هي الثائرة المهلكة ذات الصوت الشديد كما قال الشنقيطي: «وهذه الريح الصرصر هي المراد بصاعقة عادٍ»[4].

ثالثًا: آثار العذاب:

وعقب القرآن الكريم على ما حل بعاد من العذاب بعبارات متنوعة تحمل الكثير من العبر والدلالات فمنها قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٥].

أي: «تدمر ما من شأنه أن تدمره الريح من الإنسان والحيوان والديار»[5]. فأصبحوا «لا ترى من بقايا عادٍ أشياء إلا مساكنهم»[6].

وهذا لأن السكان هلكوا، وهلك كل شيء يملكونه فقيل: أصبحوا وقد غطتهم الريح بالرمل فلا يرون[7].

ولم يبق ظاهرًا على وجه الأرض إلا مساكنهم أطلالا خربة تدل على من كان فيها، وتحمل في مظهرها ما يدل على ما حل بالقوم من العذاب. ليكونوا عبرة لكل معتبر. وتعقب الآيات على مشهد الدمار والخراب الذي حل بهذه الأمة التي بلغت من القوة والتمكين ووسائل الإدراك ما لم ينفعها أو يدفع عنها العذاب إذ كانت تجحد بآيات الله ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف:٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٧٢].

وهنا بين أن العذاب الذي حل بهم كان شاملا لهم جميعا لم يبق لهم بقية ولا عقب حيث استؤصلوا عن آخرهم والدابر: الآخر. والمعنى هنا قطع خلفهم من نسلهم وغيرهم فلم تبق لهم باقيةٌ. والمراد به الاستئصال، «قال قطربٌ: يعني أنهم استؤصلوا وأهلكوا»[8].

(١) المفردات، الراغب ص٤٨٤- ٤٨٥.
(٢) المفردات، الراغب ص ٤٨٥.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٥١.
(٤) أضواء البيان ٧/ ١٧.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٥٠.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٢٥.
(٧) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١١١.
(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٢٧.

وقوله سبحانه: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود:٦٠].

فلما قضى الأمر أتبعوا باللعنة «أي: أردفوا لعنة تلحقهم، وتصاحبهم في الدنيا وفي الآخرة. واللعنة: هي الإبعاد، والطرد عن الرحمة»[١].

«قال السدي: ما بعث نبيٌّ بعد عادٍ إلا لعنوا على لسانه»[٢].

وخذلتهم آلهتهم التي كانوا يدعون لها التأثير فلم تغن عنهم شيئا، بل حل بهم ونزل الذي كانوا منه يسخرون وبه يستهزئون، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وهكذا حل العذاب بعاد على وفق سنة الله تعالى في المكذبين بعد استيفاء البيان والحجة والإمهال، فأتاهم على أشد الصور حيث بدأ على صورة غمام يوهم بنزول الغيث وكانوا مستين فاستبشروا، ولكن يا لهول المفاجأة فإذا هي ريح ذات صوت مرعب وهبوب شديد مع برد وجفاف محرق تدمر كل شيء، تتبعتهم في منازلهم وأماكن احتمائهم فنزعتهم نزعا وصرعتهم صرعا كأنهم أصول نخل قلع من مغرسه وألقتهم جثثا بلا رؤوس، ودامت عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة بلا فتور حتى نخرت أجسادهم وبليت فأصبحت كأعجاز نخل خاوية، ولم تدع منهم أحدا فقد استأصلتهم عن آخرهم.

وجعل الله في إهلاكهم آية فقابلهم بجنس ما كان سبب طغيانهم، حيث جاءهم بقوة عاتية لا طاقة لهم بمقاومتها أو الوقوف في وجهها، وهم الذين كانوا يتبجحون بقوتهم ويقولون من أشد منا قوة؟!

موضوعات ذات صلة:

ثمود، شعيب عليه السلام، صالح عليه السلام، عاد، النبوة، نوح عليه السلام

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٥١١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣١.

الهوى

عناصر الموضوع

مفهوم الهوى	٢٩٢
الهوى في الاستعمال القرآني	٢٩٣
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٤
النهي عن اتباع الهوى	٢٩٦
مجالات اتباع الهوى	٣١٣
وسائل مقاومة الهوى	٣٢٣
آثار اتباع الهوى	٣٣٢

مفهوم الهوى

أولًا: المعنى اللغوي:

(هوي) «الهاء والواو والياء: أصل صحيح يدل على خلو وسقوط. أصله الهواء بين الأرض والسماء، سمي لخلوه. قالوا: وكل خال هواء، ويقال: هوى الشيء يهوي: سقط. وهاوية: جهنم؛ لأن الكافر يهوي فيها»[(١)].

والهوى مقصورٌ، هوى النفس والضمير: أي: إرادتها، والجمع الأهواء، و الهوى: محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه، تقول: هوي بالكسر يهوى هوًى أي: أحب. ورجلٌ هوٍ: ذو هوًى، وامرأة هويةٌ: لا تزال تهوى[(٢)]. «وهوى الشيء يهوي هويًا إذا سقط من علو إلى سفلٍ، وذلك لأن الإنسان إذا اتبع هواه؛ فقد هوى وسقط»[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر العلماء عدة تعريفات للهوى، منها:

- الهوى: ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع[(٤)].
- الهوى ميل النفس في الاعتقاد وغيره إلى ما يجانب الحق[(٥)].
- الهوى ميل القلب إلى ما يستلذ به[(٦)].
- الهوى كل ما خالف الحق، وللنفس فيه حظ ورغبة من الأقوال والأفعال والمقاصد[(٧)].
- وقيل: هو ميل النفس إلى ما لا ينبغي[(٨)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٥.
وانظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٢٩.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٣٧٢، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ٣٢٦.
(٣) مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ٢٧٣.
وانظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٩٩٨.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص٢٥٧، الكليات، الكفوي ص٩٦٢، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٣٤٤.
(٥) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، ٣/ ٢٣٧٩.
(٦) انظر: الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا الأنصاري، ١/ ٦٨، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٤٩.
(٧) انظر: الهوى وأثره في الخلاف، عبد الله الغنيمان، ص١٢.
(٨) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١/ ٣٦٣.

الهوى في الاستعمال القرآني

وردت مادة (هوي) في القرآن الكريم (٣٨) مرة، يخص موضوع البحث منها (٣٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٤	﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم:٢٣]
المصدر	٢٨	﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]

وجاء الهوى في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو ما تميل إليه النفس وتشتهيه[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٣٩٥.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٥٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشهوات:

الشهوات لغةً:

«الشين والهاء والحرف المعتل كلمة واحدة، وهي الشهوة. يقال: رجل شهوان، وشيء شهي»[١].

والشهوة اشتياق النفس إلى الشيء، والجمع شهواتٌ [٢].

الشهوات اصطلاحًا:

«كل شيء من المعاصي يضمره صاحبه ويصر عليه وإن لم يعمل» [٣].

الصلة بين الهوى والشهوة:

الفرق بينهما بأن الهوى يختص بالأداء والاعتقادات، والشهوة تختص بنيل المستلذات[٤].

٢ المحبة:

المحبة لغةً:

الحاء والباء أصول ثلاثة، أحدها: اللزوم والثبات، والآخر: الحبة من الشيء ذي الحب، والثالث: وصف القصر[٥]. وهو عبارة عن ميل الطبع في الشيء الملذ، فإن تأكد الميل، وكان قويًا يسمى عشقا، وأول مراتب الحب: الهوى، وهو ميل النفس، وقد يطلق ويراد به: نفس المحبوب [٦].

قال الفيروزآبادي: «ولا يحد المحبة بحد أوضح منها، والحدود لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة» [٧].

المحبة اصطلاحًا:

قال ابن القيم: حقيقة المحبة هي موافقة المحبوب في محابه، فيحب ما يحبه محبوبه[٨].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٢٢٠.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ١/ ٣٢٦.
(٣) تاج العروس، محمد الزبيدي، ٣٨/ ٤٠٢.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري، ص٥٦٢.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٦.
(٦) الكليات، الكفوي، ص٣٩٨.
(٧) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤١٦.
(٨) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٢٦١.

وقيل: «هو محبة الإنسان للشيء وغلبته على قلبه»[١].

الصلة بين الهوى والمحبة:

سئل بعض الصوفية عن الهوى والمحبة فقال: الهوى يحل في القلب، والمحبة يحل فيها القلب[٢].

٣ الشبهات:

الشبهات لغةً:

«الشين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لونا ووصفا »[٣]، والمشتبهات من الأمور: المشكلات. والمتشابهات: المتماثلات[٤].

الشبهات اصطلاحًا:

«الالتباس، وفي الشرع: ما التبس أمره، فلا يدري أحلال هو أم حرام، وحق هو أم باطل»[٥].

وقيل: هي ما بين الحلال والحرام، والخطأ والصواب[٦].

الصلة بين الهوى والشبهة:

الهوى هو ما يؤدي إلى تعتيم الحقائق، وعدم التفرقة بينها وبين غيرها، أما الشبهة فألبس في الأمور والحقائق.

(١) تاج العروس، محمد الزبيدي، ٢/ ٢١٤.
(٢) نهاية الأرب، النويري ٢/١٢٨.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٤٣.
(٤) الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٣٦.
(٥) القاموس الفقهي، سعدي أبو حبيب، ١/ ١٨٩.
(٦) انظر: تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دوزي، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد النعيمي، جمال الخياط، ٦/ ٢٤٤.

النهي عن اتباع الهوى

تنوعت أساليب القرآن في النهي عن اتباع الهوى وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي.

أولًا: أسلوب الطلب:

وهذا الأسلوب استخدمه القرآن كثيرًا في التحذير من اتباع الهوى، ومن خلال النظر في آيات التحذير من اتباع الهوى في القرآن نجد أنه لم يأت إلا بأسلوب النهي، وهذا النهي جاء على نوعين: نهي معلل، ونهي غير معلل.

النوع الأول: النهي المعلل.

وذلك بأن ينهى عن اتباع الهوى مع بيان علة ذلك النهي، والسبب الداعي إليه.

وقد جاء النهي عن اتباع الهوى معللًا في مواضع من القرآن بأكثر من علة، ومن ذلك:

١. عدم العدل.

وهذه من العلل التي ذكرها القرآن في التحذير من اتباع الهوى، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

فهذه الآية أتت «بعد أن أمر سبحانه وتعالى بالقسط في اليتامى والنساء في سياق الاستفتاء فيهن؛ لأن حقهن آكد، وضعفهن معهود؛ لتعمم الأمر بالقسط بين الناس؛ لأن قوام أمور الاجتماع لا يكون إلا بالعدل، وحفظ النظام لا يتم إلا به»[(١)].

والقيام بالقسط من أعظم الأمور التي تدل على حسن ديانة القائم به، فحري بطالب النجاة أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يبعد عن نفسه كل من شأنه تعويقها عن القيام بالقسط والعمل به.

«وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى؛ ولهذا نبه سبحانه وتعالى على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ [النساء: ١٣٥]»[(٢)].

أي: «لإقامة العدل لا تتبعوا الهوى»[(٣)].

فإنكم إن اتبعتموه وسرتم خلفه «عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلًا، والباطل حقًا، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم»[(٤)].

---

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٣٧١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٨.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ٩٢٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٨.

٢. الضلال عن سبيل الله.

الإنسان ما جاء في هذه الحياة إلا ليعبد الله، ويحسن السير إليه، فإن ضل الإنسان غايته، وابتعد عن سبيل ربه فقد خسر دنياه وأخراه؛ ولذا ذكر القرآن الضلال عن سبيله كعلة للتحذير من اتباع الأهواء.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وهكذا تتجلى الخاتمة المؤسفة، ويظهر المصير السيء الذي يؤدي إليه اتباع الهوى ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

أي: «فيضلك اتباع الهوى عن دين الله القويم، وشرعه المستقيم»[1].

ومتابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله؛ لأن «الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التي هي الباقيات الصالحات؛ لأنهما حالتان متضادتان، فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر»[2].

النوع الثاني: النهي غير المعلل.

وذلك بأن ينهى عن اتباع الهوى دون بيان علة ذلك النهي أو سببه.

ويظهر ذلك في أكثر من آية من الآيات التي حذرت من اتباع الهوى.

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨-١٥٠].

ففي هذه الآيات «تثبيت للنبي الكريم على طريقه المستقيم الذي أقامه الله عليه، وألا يأخذ بشهادة من يشهدون على هذا الزور»[3]، وكذلك نهى عن موافقة «الذين حكموا أهواءهم فكذبوا بآيات الله فيما ذهبوا إليه من تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله»[4].

وها هنا نلحظ أن النهي عن اتباع الهوى جاء مجردًا من العلة الكامنة وراءه، وكذا نلحظ هذا أيضًا في قوله سبحانه وتعالى:

(١) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٥٠.
(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٣٨٦
(٣) التفسير القرآني للقرآن ٤/ ٣٣٨.
(٤) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص١٤٨.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

ففي هذه الآية «يأمر سبحانه وتعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه السلام أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين»[1] ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨].

وكذا تحذره من الابتعاد عنهم، واتباع من غفل عن ذكر الله فأغفله الله عن ذكره، ومن اتبع هواه «أي: صار تبعًا لهواه، حيث ما اشتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه؛ فهو قد اتخذ إلهه هواه»[2]. وها هنا نلحظ التحذير والنهي عن اتباع الهوى خاليًا من ذكر العلة.

ثانيًا: وصف متبعي الهوى بأقبح الصفات:

المتأمل لآيات القرآن الكريم يجد أن الله سبحانه وتعالى ذم اتباع الهوى، وبين خطورته بأكثر من سبيل، ومن هذا وصف متبع الهوى بصفات عديدة، تدل على عظم جرمه، وشنيع فعله، وفيما يلي عرض لهذه الأوصاف:

١. الضلال.

أخبرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه أن من صفات متبع الهوى: الضلال وعدم الهداية، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

يقول الطبري: «﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ عن طريق الرشاد وسبيل السداد ﴿مِمَّنِ اتَّبَعَ﴾ هوى نفسه ﴿بِغَيْرِ﴾ بيان من عند الله؛ فإن الله لا يوفق لإصابة الحق وسبيل الرشد القوم الذين خالفوا أمر الله، واتبعوا أهواء أنفسهم»[3].

ففي هذه الآية إشارة إلى أن المتبع لهواه من أضل الناس؛ لأنه «عرض عليه الهدى، والصراط المستقيم الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته فلم يلتفت إليه، ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟!»[4].

والسر في ضلال متبع الهوى وكونه لا أضل منه «أن الضلال في الأصل خطأ الطريق، وأنه يقع في أحوال متفاوتة في عواقب المشقة، أو الخطر، أو الهلاك

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٥ بتصرف.

(٢) المصدر السابق.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٩٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١٧ بتصرف.

بالكلية على حسب تفاوت شدة الضلال، واتباع الهوى مع إلغاء إعمال النظر، ومراجعته في النجاة يلقي بصاحبه إلى كثير من أحوال الضر بدون تحديد ولا انحصار فلا جرم يكون هذا الاتباع المفارق لجنس الهدى أشد الضلال، فصاحبه أشد الضالين ضلالًا»[1].

ومما يدل على شدة ضلال متبع الهوى: «تقييد اتباع الهوى بعدم الهدى من الله»[2].

فالإنسان -من حيث هو إنسان- لا يخلو حتمًا من الهوى «فإذا كان مع الهوى هدى من الله غلب الإنسان هواه وقهره، وإذا لم يكن معه من هدى الله شيء يمسك زمام هواه كان على طريق الهوى أبدًا، لا يعدل عنه إلى طريق الحق والهدى أبدًا؛ ولهذا جاء الوصف لأصحاب الهوى الذين لا يلقاهم هدى الله مقررًا أنهم أضل الضالين كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

فقد يضل الإنسان وينحرف متبعًا هواه، ولكن حين يلقاه هدى الله على طريق غوايته يستقيم ويهتدي، أما إذا لم يلقه هدى الله فلن يهتدي أبدًا»[3].

ومن الآيات التي وصفت متبع الهوى بالضلال قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

فمن تأمل في الآية وجد أن الله تعالى وصف المتبع لهواه بثلاث صفات: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

والسبب في كل هذا الضلال هو اتباع الهوى ومخالفة الشرع، فمتبع الهوى ضال بنفسه مضل لغيره.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: (ليضلون) بفتح الياء، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ونافع بضم الياء، فمن قرأ بالفتح أشار إلى كونه ضالًا، ومن قرأ بالضم أشار إلى كونه مضلًا[4].

وفائدة القراءتين بيان وقوع الأمرين بالإيجاز العجيب، والمعنى أن من الثابت أن كثيرًا من الناس يضلون غيرهم كما ضلوا، كما أن كثيرًا منهم يضل في ذلك من تلقاء نفسه، وكلٌّ من ذلك الضلال

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٤١.
(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ٤١٢.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٠/ ٣٦٠.
(٤) انظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد ص٢٦٧، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٢٦٢.

والإضلال واقعٌ بأهواء أهله لا بعلمٍ مقتبسٍ من الوحي[1].

وأيضًا من الآيات الواصفة لمتبعي الهوى بالضلال قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

يعني: فصار من الضالين الكافرين[2].

٢. التشبيه بالكلب.

من الأوصاف البغيضة التي وصف الله سبحانه وتعالى بها المتبع لهواه والمخالف للشرع التشبيه بالكلب.

قال جل جلاله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦].

هذا مثل ضربه الله تعالى تشبيهًا لمتبع الهوى، الذي يقدم هواه على الشرع والحق، وهو تشبيه دقيق، وصورة حية لهذا الإنسان المهين الذي قدم هواه على الدين القويم، وهكذا المتبع هواه في كل حالٍ، فـ«من خرج عن حيز الهدى والعلم، وأقبل على هواه صار شبيهًا بالكلب، وبئس المثل مثله»[3].

فالكلب «من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح؛ حرصًا وشرهًا، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه؛ ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبًا واحدًا يتناول منها شيئًا إلا هر عليه وقهره؛ لحرصه وبخله وشرهه، ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة، وثياب دنية، وحال زرية نبحه، وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قوته، وإذا رأى ذا هيئة حسنة، وثياب جميلة، ورياسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه»[4].

٣. الظلم.

من الأوصاف التي وصف الله بها متبع الهوى أنه ظالم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

ففي هذه الآية تحذير شديد اللهجة من

---

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١٧.

(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٦١٨، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٧٨.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٢٣.

(٤) بدائع التفسير، ابن القيم ١/ ٤٢٦.

الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه السلام بعدم اتباع الهوى وإلا صار في عداد الظالمين؛ لأن «اتباع الهوى بعد التحقيق بالعلم يدخل متحريه في جملة الظلمة»[1].

وأي ظلم أشد وأعظم «من ظلم من علم الحق والباطل فآثر الباطل على الحق»[2]؟!.

والناظر يجد أن الذي أوجب لهم الظلم وأوقعهم فيه وسجله عليهم هو اتباعهم الهوى.

قال الله جل جلاله: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩].

ووصف اتباع الهوى بالظلم؛ لأن «الأمر ليس قصورًا في الأدلة، ولا عدم وضوح في الحجج، وإنما الظالمون اتبعوا أهواءهم، أي: ما يهوونه ويشتهونه بغير علمٍ من نفعه وجدواه لهم فضلوا لذلك»[3].

وكذا لأنهم تركوا شرع الله الواضح وهديه القيم، و«أخذوا أهواءً شتى تعارضت وتضاربت فلم يصلوا منها إلى نتيجة، وكذلك لأنهم أعطوا أنفسهم شهوة عاجلة، ولذة فانية، وغفلوا عن عاقبة ذلك، فهم إما كارهون لأنفسهم، أو يحبونها حبًا أحمق، وهذه آفة الهوى حينما يسبق العقل ويتحكم فيه»[4].

٤. الاستكبار.

وهذه من الأوصاف التي وصف الله بها متبع الهوى، قال عز وجل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فهذه الآية تصف اليهود -الذين اتبعوا أهواءهم، فقتلوا فريقًا من الأنبياء، وكذبوا فريقًا- بالاستكبار، والاستكبار هو الاتصاف بالكبر، والمراد به هنا: «الترفع عن اتباع الرسل وإعجاب المتكبرين بأنفسهم، واعتقاد أنهم أعلى من أن يطيعوا الرسل، ويكونوا أتباعًا لهم»[5].

وكان من الممكن أن يكونوا هداة، وأن يحسنوا السير وراء أنبيائهم، ولكنهم «أصغوا إلى دعاء الداعين بسمع الهوى، فما استلذته النفوس؛ قبلوه، وما استثقلته أهواؤهم جحدوه»[6].

فأعرضوا عن الحق مع ظهوره، والمتأمل يدرك أن سبب استكبارهم هذا إنما جلبه عليهم سيرهم وراء الهوى، فأن يكون دأبهم الإعراض والإيذاء مع رسل الله جميعًا فـ«تلك أمارة على أنهم إنما يعرضون عن الحق؛ لأجل مخالفة الحق أهواءهم، وإلا فكيف لم يجدوا في خلال هذه العصور، ومن بين تلك المشارب ما يوافق الحق

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٤٢٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٢.
(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ١٧٥.
(٤) تفسير الشعراوي ١٨/ ١١٤١٠ بتصرف.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٩٨.
(٦) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٠٤.

ويتمحض للنصح»؟!(١).

فدلائل الحق كانت واضحة ولكنهم ساروا وراء الهوى فاستكبروا، نعوذ بالله عز وجل من هذا الوصف المشين.

٥. التكذيب بالحق.

من الصفات التي وصف الله بها متبع الهوى التكذيب بالحق، قال عز وجل: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣].

فهؤلاء المشركون بعد ما أتتهم آيات الله، وعاينوا الدلالة على صحتها آثروا اتباع ما دعتهم إليه أهواء أنفسهم من تكذيب ذلك على التصديق(٢).

فالآية تثبت بوضوح أن التكذيب صفة من صفات متبعي الهوى، وأنه «لا دافع لهم إليه إلا اتباع ما تهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه»(٣).

فبين التكذيب والهوى إذًا صلة كبيرة «فإذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب؛ لأن الله يلبس على قلب صاحبه؛ حتى لا يستبصر الرشد»(٤).

ومن الآيات التي أكدت على أن متبع الهوى مكذب بالحق قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٠].

فتأمل كيف وضع سبحانه وتعالى الظاهر موضع الضمير؛ إذ لم يقل: ولا تتبع أهواءهم «للدلالة على أن من كذب بآيات الله وعدل به غيره أي: سوى به الأصنام فهو متبع للهوى لا غير؛ لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقًا بالآيات، موحدًا لله عز وجل»(٥) بل قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾

ومن التكذيب بالحق التكذيب باليوم الآخر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

فمن الأوصاف التي ذكرتها الآية لأهل الأهواء أنهم «على جهلهم واتباع أهوائهم لا يؤمنون بالآخرة، فيحملهم الإيمان على سماع الحجة إذا ذكروا بها»(٦).

وما ذلك إلا لأن الهوى يعلق صاحبه بالدنيا وزخرفها ومتاعها الزائل «ويطمس بصيرته فيدفعه للكفر بساعة القيامة والبعث ليوم الجزاء»(٧).

فهناك إذًا تلازم ظاهر وارتباط واضح بين الكفر بالآخرة واتباع الهوى.

قال جل جلاله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٩٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٧١.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١٧٢.
(٤) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٤٩٤.
(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٥٣٥.
(٦) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١٦٠.
(٧) انظر: معارج التفكر، حبنكة الميداني ٨/ ٥٧.

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ففي هذه الآية يظهر أثر الهوى، وكيف أنه يمنع الإيمان باليوم الآخر.

يقول صاحب معارج التفكر: «يلاحظ في هذه الآية ترتيب حلقات سلسلة الأسباب بعضها على بعض، فاتباع الهوى ينسي العمل للنجاة والظفر يوم الدين الذي يكون فيه الحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء، وهذا يؤدي للضلال عن سبيل الله، والسقوط في المعاصي وكبائر الذنوب تنازلًا حتى دركة الكفر بالله، وجحود يوم الدين، وهذا يؤدي إلى استحقاق العقاب والعذاب الشديد بقدر تنازل الدركات، ويكون لكل مذنب استحقاق من العذاب بما يناسب الدركات»(١).

وهكذا يتضح أن التكذيب باليوم الآخر من خصائص من اتبع هواه.

ومن الآيات التي أكدت على هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥ - ١٦].

فتأمل كيف أنه قرن اتباع الهوى بعدم الإيمان باليوم الآخر؛ ليدل على أنه لا داعي لهم للصد عن الإيمان بالساعة إلا اتباع الهوى، دون دليل ولا شبهة، بل الدليل يقتضي الإيمان بالساعة، كما أشار إليه قوله عز وجل: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

وبهذا يظهر أن التكذيب بالآخرة من خصائص متبع الهوى، وليس ذلك لغموض في دلائلها، ولكن الهوى يعمي صاحبه فلا يرى الحق مع فرط ظهوره.

٦. الجهل وعدم العلم.

شرع الله ظاهر وواضح لا لبس فيه، ولا غموض، ومن ابتعد وانحرف عنه، فهو لا شك ينطوي على جهل كبير؛ ولذا كانت من الصفات التي وصف الله بها متبع الهوى في القرآن أنه جاهل عديم العلم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

فها هنا ينهى الله نبيه صلى الله عليه السلام عن اتباع من «استولى عليهم الجهل، واستبد بهم العمى، فانقادوا لأهوائهم، ولم يلتفتوا إلى هذا الهدى الذي يدعون إليه»(٢).

وهدى الله سبحانه وتعالى هو «النقطة الثابتة التي يقف عليها من يؤمن به فلا تتزعزع قدماه، ولا تضطرب خطاه؛ لأن الأرض ثابتة تحت قدميه لا تتزلزل ولا

(١) المصدر السابق ٣/ ٥٤٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٢٤٠.

تخسف ولا تغوص، وكل ما حوله -عدا الحق الثابت- مضطرب مائج مزعزع مريج، لا ثبات له ولا استقرار، ولا صلابة له ولا احتمال.

فمن تجاوزه فقد الثبات والاستقرار والطمأنينة والقرار، فهو أبدًا في أمر مريج لا يستقر على حال، ومن يفارق الحق تتقاذفه الأهواء، وتتناوحه الهواجس، وتتخاطفه الهواتف، وتمزقه الحيرة، وتقلقه الشكوك، ويضطرب سعيه هنا وهناك، وتتأرجح مواقفه إلى اليمين وإلى الشمال، وهو لا يلوذ من حيرته بركن ركين، ولا بملجأ أمين»[1].

فأي علم عند متبع الهوى جعله يبتعد عن الحق الثابت، ويعرض عن الهدى الواضح الأصيل والمنهاج السليم المبرأ من الخلل؛ لتتناوحه الشكوك وتتقاذفه الأهواء إنه لا شك جاهل، بل هو أجهل الجهلاء.

وهكذا يظهر من خلال تتبع أوصاف متبع الهوى في القرآن شدة تنفيره منه، وبغضه له، وصد الناس عنه، فنسأل الله أن يعيننا على مجانبة الأهواء، والتزام الصراط المستقيم.

ثالثًا: الوعد بالجنة لمن نهى النفس عن الهوى:

استحضار الأجر والثواب من أكثر ما يعين الإنسان على الفعل، ويدفعه للصبر على لأوائه ومتاعبه، وتحمل مشاقه ومصاعبه؛ ولذا فمن الأساليب التي اتبعها القرآن في النهي عن الهوى الوعد بالجنة لمن نهى النفس عن الهوى.

قال جل جلاله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

إشارة إلى أن الإنسان «إذا لم يقم على نفسه ناهيًا ينهاها، وزاجرًا يزجرها عن اتباع هواها كلما دعتها دواعيه انقاد لهذا الهوى الذي يغلبه على أمره، ويطرحه في مطارح الضلال والهلاك»[2].

وما ذلك إلا لأن «الهوى هو الدافع القوي لكل طغيان وكل تجاوز، وكل معصية، وهو أساس البلوى، وينبوع الشر، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى»[3].

فالهوى إذا بلاء عظيم، وجهاده يحتاج لصبر وتحمل، فمقاومة النفس وصرفها عن هواها جهاد و«الله يعلم ضخامة هذا الجهاد وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها، ورفعها إلى المقام الأسنى»[4].

ونهي النفس عن الهوى مكابدة وحرمان

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٣٣٥٩ بتصرف.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٦/١٤٤٤.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٣٨١٩.

(٤) المصدر السابق.

من للذائذ وشهوات الدنيا؛ لذا كان المقابل أن تجازى بالجنة التي حكى القرآن عنها كثيرًا، وفصل في نعيمها طويلًا، وأتى بكل ما تحبه النفس، بل ما لم يمكن تصوره من حور عين لا يحيط الخيال بحسن جمالهن، وخمر لذة للشاربين، وفواكه لا نعرف عنها إلا اسمها، لكن حقيقتها لا يتصوره عقل، ولحم طير مما تشتهيه النفس، وقصور لم ولن ترى الدنيا مثلها، وغير ذلك مما وصف الله في كتابه وبين نبيه صلى الله عليه وسلم في سنته؛ ليشجع المجاهدين على الصبر في مقاومة إغراءات الهوى، ويحث الممتنعين عن الانغماس في الشهوات المحرمة على ثباتهم في مقاومة الهوى.

فمن «نهى نفسه عن هواها الذي يقيدها عن طاعة الله، وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]»[١].

وأنعم به من مأوى حيث «العيون الجارية، والسرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والنمارق المصفوفة[٢] والزرابي المبثوثة[٣] والكواعب[٤] العرب الأتراب، ولقاء الأحباب»[٥].

فلا شك أن استحضار هذا الجزاء العظيم، والخير العميم من أشد ما يعين العبد على مجانبة الهوى، ونهي النفس عنه كما أنه يقطع حجته في الميل للهوى بحجة أنه مركب في طبيعته «فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه، ونهي النفس عنه، ورفعها عن جاذبيته، وجعل له الجنة جزاءً ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى»[٦].

رابعًا: النهي عن طاعة أصحاب الهوى ومجالستهم:

ذكرنا فيما سبق أن القرآن الكريم تنوعت أساليبه في النهي عن اتباع الهوى، وكل ذلك لبيان خطره، والتنفير منه بشتى الصور التي تعين المرء على إدراك مدى بشاعته.

ومن هذه الأساليب الربانية الحكيمة: النهي عن طاعة أصحاب الهوى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩١٠ بتصرف.
(٢) وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والاتكاء عليها. تيسير الكريم الرحمن ص٩٢٢.
(٣) الزرابي أي: البسط الحسان، مبثوثة أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب. تيسير الكريم الرحمن ص٩٢٢.
(٤) الكواعب وهي: النواهد اللاتي لم تتكسر ثديهن من شبابهن، وقوتهن ونضارتهن. تيسير الكريم الرحمن ص٩٠٧.
(٥) أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٥١٥.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٩.

ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

تتحدث الآية عن تبرؤ المحبين بعضهم لبعض، وتبرؤ التابع من المتبوع بعد تقطع أسباب المودة والحب، فقد جاءت بعد بيان الله لفئة تتخذ أندادًا ونظراء؛ حبًا ومودة من دون الله، وهذا الحب غالبًا ما يكون منشأه الهوى، وميل النفس، ويعقبه تعظيم وطاعة، وهي مضمون العبادة التي وقع فيها هؤلاء فلو أنهم تبرءوا منهم وممن يعبدونهم ما تأثروا كما تأثر أترابهم وأصدقائهم.

وكذا النهي عن مجالستهم، حيث إنها طريقة من طرق محاربة هذا الصفة الذميمة، فالأفكار تنتشر عن طريق التواصل مع الآخرين، لاسيما المصاحبة والملازمة، فالصاحب -كما هو معلوم- ساحب، وقد قال صلى الله عليه السلام: (الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)[1].

والمقصود أن الإنسان يحاكي صاحبه في خلقه وسلوكه، فإن كان الصاحب متبعًا للهوى حتمًا سيؤثر في نفسه وسلوكه، وقد ذكر الله مآل أصدقاء السوء للحذر والتنفير من هذه الصداقة والمشابهة في السلوك، وبين أن مآلهم إلى الجحيم، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

والمعنى: احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين، فهم أزواج متشاكلون[2].

وعن النعمان قال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول: أشباههم قال: يجيء صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب الزنا مع أصحاب الزنا، وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر[3].

وأخبر جل جلاله: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ۝٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الصافات: ٣٣-٣٤].

وقوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ [الصافات: ٣٨].

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، ٤/ ٢٥٩، رقم ٤٨٣٣، والترمذي في سننه، أبواب الزهد، ٤/ ٥٨٩، رقم ٢٣٧٨.
وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٥٩٧، رقم ٩٢٧.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٨٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٩.

[الكهف: ٢٨].

جاءت هذه الآية بعد ذكر قصة أهل الكهف، وما كان من شأن صحبتهم الطيبة، وتعانق قلوبهم، واجتماع كلمتهم على حب الله؛ لتوجه النبي صلى الله عليه السلام إلى أهمية مصاحبة أهل التقى، وتحذره من مصاحبة أهل الأهواء الذين اقترحوا عليه طرد الفقراء والضعفاء ليجالسوه.

يقول ابن عاشور: هذه الآية جاءت ردًا على سادة المشركين، حيث إنهم زعموا أنه لولا أن من المؤمنين ناسًا أهل خصاصة في الدنيا، وأرقاء لا يدانوهم، ولا يستأهلون الجلوس معهم؛ لأتوا إلى مجالسة النبي صلى الله عليه السلام واستمعوا القرآن، فاقترحوا عليه أن يطردهم من حوله إذا غشيه سادة قريش، فرد الله عليهم بهذه الآية(١).

وفي هذه الآية أمره «بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم -وإن كانوا فقراء- فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى»(٢).

وتأمل كيف أن الله عبر عنهم بالموصول، فقال: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف: ٢٨].

وذلك «للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي: لأنهم أحرياء بذلك؛ لأجل إقبالهم على الله، فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة»(٣).

ثم قال بعدها: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: ٢٨].

وفي ذلك تأكيد «الأمر بمواصلتهم بالنهي عن أقل إعراض عنهم»(٤).

ثم راحت الآية بعد ذلك تحذر من مخالطة صاحب الهوى ومصاحبته وطاعته ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

وما ذلك إلا لأن «طاعته تدعو إلى الاقتداء به؛ ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به»(٥).

وفي التعبير عن المنهي عن الصبر معهم ومصاحبتهم بالموصول «للإيذان بعلية ما في حيز الصلة للنهي عن الإطاعة»(٦).

فمن غفل قلبه عن الذكر، وامتلأ بالهوى، وصار أمره في جميع أعماله وأحواله ضياعًا وهلاكًا، فماذا ينتظر من صحبته إلا الفساد؟!

ومما يدل على شدة التنفير من مصاحبة صاحب الهوى زيادة فعل الكون في ذيل الآية التي تدل على «تمكن الخبر من الاسم»(٧).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٥.
(٤) المصدر السابق.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٥.
(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢١٩.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٦.

أي: شدة تمكن الضياع والهلاك، فهل يرجى خير من مصاحبته بعد هذا؟!

وقد جاء في الحديث أنه صلى الله عليه السلام قال: (إنه سيخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء، كما يتجارى الكلب[1] بصاحبه، فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله)[2].

ولهذا الحديث وجه في الاستدلال على وجوب الحذر من مجالسة ومخالطة أهل البدع، وبيان ذلك أن داء الكلب فيه ما يشبه العدوى، فإن أصل الكلب واقع بالكلب، ثم إذا عض ذلك الكلب أحدًا صار مثله، ولم يقدر على الانفصال منه في الغالب إلا بالهلكة، فكذلك المبتدع إذا أورد على أحد رأيه وإشكاله فقلما يسلم من غائلته، بل غالبًا ما يقع معه في مذهبه، ويصير من شيعته، أو يثبت في قلبه شكًا يطمع في الانفصال عنه فلا يقدر.

وقد فهم هذا المعنى الدقيق ابن طاووس حين دخل عليه وعلى ابنه أحد المبتدعة فجعل يتكلم في القدر، فأدخل ابن طاووس أصبعه في أذنيه وقال لابنه: «أدخل أصابعك في أذنيك واشدد، فلا تسمع من قوله شيئًا؛ فإن القلب ضعيف»[3].

وهكذا الأهواء إذا أشربها قلب صاحبها صارت كالداء المهلك الذي لا ينجو منه إلا القليل، ومن كانت هذه حاله فقل أن ينزع أو يتوب؛ ولهذا قال سفيان الثوري: «إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن البدعة لا يتاب منها، والمعصية يتاب منها»[4].

قال المباركفوري: (تتجارى) بالتاءين، أي: تدخل وتجري وتسري (بهم) أي: في مفاصلهم وعروقهم تلك (الأهواء) جمع هوى، وهي البدع التي كانت السبب في الافتراق، وضعت موضعها وضعًا للسبب موضع المسبب؛ لأن هوى الرجل هو الذي يحمله على الابتداع في العقيدة والقول والعمل، (كما يتجارى الكلب) بفتحتين داء يعرض للإنسان من عض الكلب (الكلب) أي: المكلوب، وهو داء يصيب الكلب فيصيبه شبه الجنون فلا يعض أحدًا إلا كلب، ويعرض له أعراض رديئة ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشًا، كذا في النهاية[5].

(بصاحبه) أي: مع صاحبه إلى جميع أعضائه، أي: مثل جري الكلب في العروق، شبه حال الزاغين من أهل البدع في استيلاء

(١) الكلب: بفتح اللام، قال الخطابي: هو داء يعرض للإنسان من عضة.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب شرح السنة، ٤/ ١٩٧، رقم ٤٥٩٦، وأحمد في مسنده، ٢٨/ ١٣٤، رقم ١٦٩٣٧.
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٦١، رقم ١٧٢.

(٣) أخرجه عبد الرزاق عن معمر في المصنف ١١/ ١٢٥، رقم ٢٠٠٩٩.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٩.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ١٩٥.

تلك الأهواء عليهم، وفي سراية تلك الضلالة منهم إلى الغير بدعوتهم إليها، ثم تنفرهم من العلم وامتناعهم من قبوله؛ حتى يهلكوا جهلًا، بحال صاحب الكلب، وسريان تلك العلة في عروقه ومفاصله شبه الجنون، ثم تعديته إلى الغير، فلا يعض المجنون أحدًا إلا كلب أي: جن، ويعرض له أعراض رديئة -تشبه الماليخوليا مهلكة غالبًا- ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشًا.

وفي هذا التشبيه فوائد: منها التحذير من مقاربة تلك الأهواء ومقاربة أصحابها، هذا بخلاف سائر المعاصي فإن صاحبها لا يضاره، ولا يدخله فيها غالبًا إلا مع طول الصحبة والأنس به، والاعتياد لحضور معصيته، وقد أتى في الآثار ما يدل على هذا المعنى، فإن السلف الصالح نهوا عن مجالستهم ومكالمتهم، وأغلظوا في ذلك[1].

خامسًا: من خلال الاعتبار بقصص السابقين:

كثيرًا ما يستعمل القرآن في التعبير عن مراداته وأغراضه عنصر القصة؛ وذلك« لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس»[2].

ولأن القصة أيضًا من أقرب الوسائل التربوية إلى فطرة الإنسان، ومن أكثر العوامل النفسية تأثيرًا فيه، فالمرء يرتاح كثيرًا لسماعها، ويصغى بشوق ولهفة لتفاصيلها، ولا يمل من الصبر حتى يعرف خواتيمها، وتظهر أهمية القصة في القرآن من المساحة الواسعة التي أخذتها من القرآن الكريم.

ولقد كانت القصة أحد أهم الأساليب التي استعملها القرآن الكريم للتنفير عن اتباع الهوى، ومن ذلك:

١. قصة من أوتي العلم فانسلخ منه.

إن القرآن يحكي لنا قصة هذا الذي آتاه الله علمًا[3]، لكنه لم ينتفع، وآتاه بينات فما اتبع، بل انسلخ وجحد، وهذه قصة متكررة بين البشر تبين أثر اتباع الهوى في الانحراف عن الحق، كما تبين قبح ما يصير إليه أمثال هؤلاء من شره لا يشبع، وعطش لا يروي، ولهفة لا تنقطع فحالهم كحال الكلب دائم اللهث في العطش والري، والراحة والتعب، فما أقبحه من مآل ومصير!

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ

---

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/ ٢٧٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٩.

(٣) قيل هو: بلعم بن باعر، وقيل: بلعم بن أبر، وقيل: بلعام، وقيل: أمية بن أبي الصلت، أما مكان القصة، فقيل: حدثت في بيت المقدس، وقيل: في اليمن، وقيل: في الطائف، وقيل غير هذا.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٠٧.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ نَبَأَ الَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

إنه إذًا أنموذج لمن أوتي الهدى والآيات ولكنه لم ينتفع بها، بل انسلخ منها «والانسلاخ حقيقته: خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ عنه جلده، والسلخ: إزالة جلد الحيوان الميت عن جسده، واستعير في الآية للانفصال المعنوي، وهو ترك التلبس بالشيء أو عدم العمل به»[١].

والتعبير بالانسلاخ الذي يستعمل عند العرب في خروج الحيات من جلودها «يدل على أنه كان متمكنًا منها، ظاهرًا لا باطنًا»[٢].

وبذلك يظهر أن الآيات لم تصل لشغاف قلبه، وإنما كانت أثرًا لا صلة له بفؤاده، ولا علاقة له بقلبه؛ ولذلك انسلخ منها انسلاخ الثعابين من جلودها، وكان هذا بسبب اتباعه الهوى.

وتأمل كيف أنه قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] ولم يقل: فسلخناه منها؟ لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباعه هواه»[٣].

«ومن المعلوم أن الثعابين لا تنسلخ عن جلدها القديم إلا إذا نضج الجلد الجديد، وصلح لتحمل الطقس والجو»[٤].

فاستخدام هذا التعبير في تصوير فراقه للآيات، يدل على أن الهوى قد عظم وتمدد حتى امتلأ به صدره، فصار هو الثوب والجلد اللاتق به، فكان من أمره ما كان.

فهذا الرجل بعدما انسلخ من الآيات تسلط عليه الشيطان، وتمكن من الوسوسة له، والتلاعب به كما يريد «لأنه ترك رحمة الرحمن بترك آياته، ومن ترك رحمة الله أدخله الله تعالى حظيرة الشيطان، وصار من أتباعه»[٥].

وتظهر خطورة اتباع الهوى وتتجلى أشد ما يكون في خاتمة قصة هذا الرجل، وما آل إليه حيث شبهه الله بالكلب ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦].

«قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلًا لهذا الكافر، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٦.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٣٤٠.
(٣) بدائع التفسير، ابن القيم ١/ ٤٢٧-٤٢٨.
(٤) تفسير الشعراوي ٧/ ٤٤٥٥.
(٥) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٠٠٧.

تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث»[1].

وهكذا يتضح من هذا المثل المضروب خطورة السير وراء الهوى، والإخلاد إلى الأرض، والبعد عن الآيات والهدى، وفي هذا « عبرة وموعظة للمؤمنين، وتحذير لهم من اتباع أهوائهم، حتى لا يتزلقوا في مثل تلك الهوة التي انزلق إليها صاحب المثل بحبه للدنيا، وركونه إلى شهواتها ولذاتها»[2].

«وهل أسوأ من هذا المثل مثلٌ؟! وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى؟! وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟! وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟! من يعريها من الغطاء الواقي، والدرع الحامي، ويدعها غرضًا للشيطان يلزمها ويركبها، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض، الحائر القلق، اللاهث لهاث الكلب أبدًا»[3].

وصدق صاحب الإشارات فـ«موافقة الهوى تنزل صاحبها من سماء العز إلى تراب الذل، وتلقيه في وهدة الهوان، ومن لم يصدق علمًا فعن قريب يقاسيه وجودًا»[4].

فما أعظمه من مثل! وما أكثر ما فيه من عبر لمن تأمله ووعاه!

٢. قصص بني إسرائيل.

ومن القصص التي ذكرها القرآن للتنفير من أهل الأهواء قصص بني إسرائيل، وما كان منهم من تقتيل، وتكذيب لرسل الله وأنبيائه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

وهذا أنموذج يقصه القرآن علينا لبني إسرائيل، ويذكر كيف «أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردوه»[5].

وهذا من أكثر الأمور التي تعطل فوائد التشريع، وتضيع ثمرته؛ إذ الغرض من الرسالات والشرائع هو كبح النفس عن هواها الذي يوجب لها الخسران في الدنيا والآخرة، فإذا صار الهوى قائدًا، وكذب حملة الخير والهدى واضطهدوا، تعطلت آنئذٍ فائدة التشريع، وفاتت فائدة طاعة الأمة لهداتها، ونتج عن ذلك فساد عريض.

وما صنع بنو إسرائيل تلك الشنائع التي

(١) الفوائد، ابن القيم ١/ ١٠٢.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٩/ ١٠٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٩٧.
(٤) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٥٨٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٦.

ذكرتها الآية إلا لغلبة الهوى عليهم، وتمكنه من أنفسهم، فصور لهم أنهم الشعب المختار، وأنهم بمأمن من عقوبة الله وفتنته، فهم كما يقول صاحب الإشارات: «داروا مع الهوى؛ فوقعوا في البلاء، ومن أمارات الشقاء الإصرار على متابعة الهوى»[1].

قال تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١].

«أي: وحسبوا ألا يترتب لهم شر على ما صنعوا فترتب، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا، فلا يسمعون حقًا، ولا يهتدون إليه»[2].

وتأمل كيف أن قوله: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ [المائدة: ٧١] معطوف على ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾ [المائدة: ٧١].

بفاء السببية التي تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: إن عماهم عن الطريق القويم، وصممهم عن سماع الحق كان سببه ظنهم الفاسد الذي سوله لهم الهوى، واعتقادهم الباطل أن ما ارتكبوه من قبائح لن يعاقبوا عليه في الدنيا[3].

وهكذا أومأ القرآن إلى عدم اكتراثهم بالآخرة، وما يكون لهم فيها من شأن «ببيان أن ظنهم: لن تنزل بهم مصائب في الدنيا بسبب مفاسدهم، هذا الظن هو الذي جعلهم يرتكبون ما يرتكبون من قبائح، وهذا شأن الأمم إذا ما استحوذ عليها الشيطان، وتغلب عليها حب الشهوات، وضعف الوازع الديني في نفوس أفرادها، إنهم في هذه الحالة يصير همهم مقصورًا على تدبير شؤون دنياهم، فإذا ما وجدوا فيها مأكلهم وشربهم وملذاتهم أغمضوا أعينهم عن آخرتهم، بل وربما استهانوا وتهكموا بمن يذكرهم بها، فتكون نتيجة إيثارهم الدنيا على الآخرة الشقاء والتعاسة»[4].

وهكذا يظهر لنا من قصص السابقين مدى خطورة اتباع الهوى، وكيف أنه يورث الإنسان الشقاء، ويهبط بالأمم إلى القاع، ويحرمها من الانتفاع بهدايات السماء، وكفى بذلك معتبرًا وزاجرًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

(١) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٤٣٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٦.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ٢٣٤.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٣٤ بتصرف.

مجالات اتباع الهوى

لاتباع الهوى مجالات متعددة نوضحها فيما يأتي:

أولًا: العقائد:

للهوى آثار جسيمة، ومخاطر كبيرة؛ لأنه يدخل في مجالات كثيرة، وأبواب عديدة، ولكن أثر الهوى على العقائد من أعظمها وأخطرها؛ لأنها هي التي يترتب عليها دخول المرء في حظيرة الإيمان أو خروجه منها، ولقد تحدث القرآن عن ذلك في أمرين: توحيد الله، الإيمان باليوم الآخر، وفيما يلي عرض لذلك:

١. توحيد الله.

لقد عبر القرآن الكريم عن متبع الهوى في العقائد أن الهوى إله يعبد من دون الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الهوى إله يعبد من دون الله»[١].

وقال ابن كثير رحمه الله «أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسنا في هوى نفسه كان دينه ومذهبه»[٢].

وقد تحدث القرآن عن أثر اتباع الهوى في العقائد في غير ما موضع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

فهذه الآيات جاءت في معرض التنديد بالمشركين، وبيان أن أوثانهم التي يعظمونها ليس لها حظ من الشرف، وإنما هي محض أسماء ليس لها من الألوهية التي أثبتوها لها سوى اسمها، وأما معناها وحقيقتها فهي أبعد ما تكون عما وصفوها به، وما ذلك إلا «لأنهم لم يأخذوا ذلك عن وحي جاءهم من الله، ولا عن رسول الله أخبرهم به»[٣]. فلعبت بهم الظنون، وحركتهم الأهواء.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «وأصل الضلال اتباع الظن والهوى، كما قال الله سبحانه وتعالى في حق من ذمهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]»[٤].

ومما يوحي بشدة خطر الهوى وكيف أنه كان السبب وراء هذه الظنون التي ظنوها، والاعتقادات الفاسدة التي اعتقدوها هو «عطف ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ على

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٢٨.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٣٨٤.

﴿الظَّنَّ﴾ عطف العلة على المعلول، أي: الظن الذي يبعثهم على اتباعه أنه موافق لهواهم وإلفهم»[1].

ومع كل هذا فقد جاءهم من ربهم الهدى والخير، وتأمل التعريف في كلمة ﴿الْهُدَىٰ﴾ فإنه يدل «على معنى الكمال، أي: الهدى الواضح»[2].

فالهدى الذي أتاهم كان ظاهرًا شديد الظهور، ومع ذلك لم ينتفعوا به، وما ذلك إلا لشدة الهوى الذي كان في نفوسهم، ومتى «انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر، ولن يجدي هدى؛ لأن العلة هنا ليست خفاء الحق، ولا ضعف الدليل، إنما هي الهوى الجامح الذي يريد، ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد! وهي شر حالة تصاب بها النفس، فلا ينفعها الهدى، ولا يقنعها الدليل»[3].

ومما يزيد أمر اتباع الهوى وضوحًا في توحيد الله قوله سبحانه وتعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٨-٢٩].

فهذا مثل ضربه الله للمشركين ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم: ٢٨].

«أي: لا يرتضي أحد منكم أن يكون عبده شريكًا له في ماله، فهو وهو فيه على السواء»[4].

والمراد أن الإنسان العادي يأنف من هذا، فكيف يرضونه إذًا لرب العالمين؟!

وهذا مثل واضح وظاهر وحاسم لا مجال للجدل فيه، فكان المتوقع أن تكون الإجابة إجابتهم عقلية مساوية للحجة العقلية التي أوردتها الآية، وذلك بالإقلاع عن الشرك، وقبول الإيمان، ولكن هذا لم يصدر منهم؛ ولذلك جاء الإضراب الإبطالي؛ ليكشف عن حقيقة القوم، وعن العلة الأصيلة في هذا التناقض المريب ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩].

«إنه الهوى الذي لا يستند على عقل أو تفكير، والهوى لا ضابط له ولا مقياس، إنما هو شهوة النفس المتقلبة، ونزوتها المضطربة، ورغباتها ومخاوفها، وآمالها ومطامعها التي لا تستند إلى حق، ولا تقف عند حد، ولا تزن بميزان، وهو الضلال الذي لا يرجى معه هدى، والشرود الذي لا

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١١٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٠٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣١٢.

ترجى معه أوبة»[1].

ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩].

فمن ذا الذي يمكن أن يرد بمن أضله الله موارد الهدى؟! ومن ذا الذي يفض هذا الختم الذي ختم الله به عليه؟! ومن ذا الذي يمكنه نصرته إذ الله أراد به الهلاك؟!

٢. اليوم الآخر.

اليوم الآخر من المحاور الكبرى للعقيدة الإسلامية، وهو من المجالات التي ظهر فيها اتباع الأهواء بشكل كبير، ومما حدثنا القرآن فيه عن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥-١٦].

وهذا كلام أتى في مقام تكليف موسى بالرسالة، يؤكد فيه الرب سبحانه وتعالى على أمر الساعة، وأنها آتية لا محالة، وواقعة لا ريب فيها.

والإيمان بقدوم الآخرة منطقي ظاهر، وشواهده غاية في الوضوح، فالمجهول «عنصر أساسي في حياة البشر، وفي تكوينهم النفسي، فلا بد من مجهول في حياتهم يتطلعون إليه، ولو كان كل شيء مكشوفًا لهم وهم بهذه الفطرة لوقف نشاطهم وأسنت[2] حياتهم، وتعليق قلوبهم ومشاعرهم بالساعة المجهولة الموعد، يحفظهم من الشرود، فهم لا يدرون متى تأتي الساعة، فهم من موعدها على حذر دائم، وعلى استعداد دائم»[3].

ولكن ذلك كله لمن صحت فطرته واستقام على الجادة، أما من فسدت فطرته، واتبع هواه، فيقع في الإنكار والتكذيب، ويبقى في جهله وغيه حتى يكون من الهالكين ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦].

وتأمل كيف أنه زاد ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ «للإيماء بالصلة إلى تعليل الصد، أي: لا داعي لهم للصد عن الإيمان بالساعة إلا اتباع الهوى دون دليل ولا شبهة»[4].

ومن الآيات التي كشفت عن مجال الهوى في الآخرة أيضًا قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٦٧.

(٢) أي: فسدت، وتغيرت. انظر: تاج العروس ٣٤/ ١٧٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٣١.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢٠٣.

إن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٣-٢٥].

وهذه الآيات تكشف بوضوح وجلاء عن شأن الهوى في التصديق باليوم الآخر، وكيف أنه يصرف الإنسان عنه، ويعلقه فقط باليوم الحاضر والشهوة العاجلة، فيكذب ويعاند ويوغل في اللجج والخصومة، مع أن الأمر أظهر ما يكون، ولكن هكذا شأن الهوى في النفوس.

يقول صاحب الظلال: «اتباع الهوى هو الذي ينشيء التكليب بالساعة، فالفطرة السليمة تؤمن من نفسها بأن الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كمالها، ولا يتم فيها العدل تمامه، وأنه لا بد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للإنسان، والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال»[1].

ثانيًا: الاتباع:

العبد في هذه الحياة مأمور بالطاعة والاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ففي هذه الآية دعوة «قائمة على الناس جميعًا بأن يطيعوا الله ورسوله، وأن يستجيبوا لما يدعون إليه من الإيمان بالله ورسوله، ومن العمل الصالح الذي يدعو إليه الله ورسوله»[2].

ولكن هذه الطاعة لله والرسول والاستجابة لأمرهما التي يجب على العبد النهوض بها من المجالات التي تتدخل فيها الأهواء بشكل كبير.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٣٩-٤٠].

فهذه الآيات جاءت بعدما بين سبحانه وتعالى أنه إنما أرسل رسوله قطعًا لمعذرة الكفار حتى لا يقولوا حين نزول البأس بهم: هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبعه؟! وكيف أنهم لما جاءهم النذير جحدوا وأنكروا وراوغوا وطلبوا المعجزات الحسية، فجاءت هذه الآيات؛ لتفضح سر عدم استجابتهم ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٩-٥٠].

جاءت هذه الآية لتبين« أن الحق في هذا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٣٢.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٩٨٦.

القرآن بين، وأن حجة هذا الدين واضحة، فما يتخلف عنه أحد يعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذي يصده»[1].

يقول ابن جرير: «فإن لم يجبك هؤلاء فاعلم أنما يتبعون أهواءهم»[2].

فهما طريقان إذًا ولا ثالث لهما: «إما إخلاص للحق، وخلوص من الهوى، وعندئذٍ لا بد من الإيمان والتسليم، وإما مماراة في الحق، واتباع للهوى، فهو التكذيب والشقاق، ولا حجة من غموض في العقيدة، أو ضعف في الحجة، أو نقص في الدليل كما يدعي أصحاب الهوى المغرضون»[3].

ففي هذه الآية دليل إذًا على أن « كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول؛ فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى»[4].

ولقد ذكر القرآن نماذج عدة لأثر الهوى في الاستجابة لله ورسوله، ومن أبرزها ما كان من أمر كفار قريش مع آية انشقاق القمر.

وروى الإمام البخاري عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: (سأل أهل مكة أن يريهم آيةً فأراهم انشقاق القمر)[5].

وتلك آية عظيمة كان المفترض أن يتحولوا عن كفرهم بعدها، ويحسنوا الاستجابة والسير في طريق الهدى، ولكنهم كما قال القرآن: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

وما ذلك إلا لأن قصدهم ليس اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الهوى»[6] ولهذا قال بعدها: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣].

إذ لو «كان قصدهم اتباع الهدى؛ لآمنوا قطعًا، واتبعوا محمدًا صلى الله عليه السلام؛ لأنه أراهم الله على يديه من البينات والبراهين والحجج القواطع ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية»[7]، ولكن هكذا الهوى يطمس القلوب؛ فلا تنتفع برؤية آيات، ولا تستجيب للنذر، مهما كانت واضحة شديدة الظهور ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤-٥].

وإذا كان الله عاب على كفار قريش تركهم الاستجابة واتباع الهوى؛ فإننا نجد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٩٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٩٢ باختصار.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٩٩.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا)، ٦/ ١٤٢، ٤٨٦٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر، ٤/ ٢١٥٩، رقم ٢٨٠٢.
(٦) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٢٤.
(٧) المصدر السابق.

أننا بحاجة ماسة إلى فهم مثل هذا الأمر، وخصوصًا في هذا الزمان «الذي كثرت فيه الأهواء، وتنوعت فيه المشارب في التعامل مع النصوص الشرعية، بدعاوى كثيرة، فهذا ينصر بدعته، وهذا يروج لمنهجه في تناول النصوص، وثالث يتتبع الرخص التي توافق مراد نفسه، لا مراد الله ورسوله»(١).

وهذا ما أشار إليه الإمام ابن تيمية بقوله: «فكل من اتبع ذوقًا أو وجدًا، ومن اتبع ما يهواه حبًا وبغضًا بغير الشريعة فقد اتبع هواه بغير هدى من الله»(٢).

فالواجب على العبد أن يتعلم التسليم والطاعة والاستجابة، وأن لا يُقَدِّم على كلام الله ولا كلام رسوله أي كلام؛ فإن عدم الاستجابة إنما هي اتباع للهوى، فكل من علم من هدي النبي صلى الله عليه السلام وسنته أمرًا ثم تركه بعد معرفته به فهو متبع للهوى، كما يقول الإمام ابن القيم: «من ترك الاستجابة إذا ظهرت له سنة، وعدل عنها إلى خلافها فقد اتبع هواه»(٣).

ولا شك أن المؤمن كامل الإيمان لا يكون هواه إلا تبعًا لما جاء به الرسول صلى الله عليه السلام، وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه السلام قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)(٤).

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم أفضل الخلق؛ لما خصوا بالمزايا والصفات الكاملة، أعلاها: الميل إلى ما جاءت به الشريعة السمحة التي ليلها كنهارها في الإضاءة والوضوح، كان أحدهم يقاتل أباه وابنه، وهو في صف المؤمنين، وهما في حيز الكافرين المشركين، بذلوا رضي الله عنهم في طريقه مهجهم، وأنفقوا أموالهم، فطوبى لهم! فمن كان الهوى -وهو الباطل- المطاع المحبوب الاتباع تابعًا لطرق الهدى من الملة البيضاء والسنة الزهراء؛ حتى تصير همومه المختلفة، وخواطره المتفرقة التي تنبعث من هوى النفس، وميل الطبع همًا واحدًا، يتعلق بأمر ربه، واتباع شرعه؛ تعظيمًا لحقه، وشفقة على خلقه(٥).

قال المباركفوري: قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه» أي: ميل نفسه «تبعًا لما جئت به» هذا محمول على نفي أصل الإيمان، أي: حتى يكون تابعًا مقتديًا لما جئت به من الدين والشرع عن الاعتقاد،

---

(١) قواعد قرآنية، القاعدة الرابعة عشر، عمر المقبل ص ٩١.

(٢) الاستقامة، ابن تيمية ١/ ٢٥٣.

(٣) الصواعق المرسلة، ابن القيم ٤/ ١٥٢٦.

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في كتابه السنة ١/ ١٢، ١٥، وابن بطة في الإبانة الكبرى ١/ ٣٨٧، ٢٧٩.

وضعفه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٥٩، رقم ١٦٧.

(٥) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية، المناوي ص٦٧.

لا عن الإكراه وخوف السيف كالمنافقين.

وقيل: المراد نفي الكمال، أي: لا يكمل إيمان أحدكم حتى يكون في متابعة الشرع، وموافقته له كموافقته لمألوفاته، فيستمر على الطاعة من غير كلفة وكراهية، وذلك عند ذهاب كدر النفس وبقاء صفوتها، وهذه حالة نادرة إلا في المحفوظين من أوليائه، وقيل في معناه: حتى يحب ما أمر به، ويكره ما نهى عنه، أي: يقدم الشرع على هواه(١).

فلا يميل إلا بأمر الشرع، ولا يهوى إلا حكم الشرع، فمن كان هذا حاله؛ فهو المؤمن الكامل التوحيد، ومن أعرض عنه متبعًا لهواه، مبتغيًا لرضاه؛ فهو الخاسر في دنياه وعقباه.

قال الحافظ ابن رجب: «فجميع المعاصي إنما تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع؛ ولهذا يسمى أهلها أهل الأهواء، وكذلك المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ورسوله، ومحبة ما يحبه، كذلك حب الأشخاص الواجب فيه أن يكون تبعًا لما جاء به الرسول صلى الله عليه السلام، فيجب على المؤمن محبة الله، ومحبة من يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عمومًا؛ ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان أن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وتحريم موالاة أعداء الله، وما يكره الله عمومًا»(٢).

ثالثًا: الحكم والقضاء:

القضاء والحكم بين الناس من المجالات التي يظهر فيها اتباع الهوى بشكل كبير، ويترتب عليها آثار خطيرة في الدماء أو الأموال أو الأعراض؛ ولذا أكد القرآن على خطر هذا الأمر في غير ما موضع.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/ ٢٦٦.

(٢) جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٩٨.

﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٨-٥٠].

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال كعب بن أسد وابن صوريا وشأس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد؛ لعلنا نفتنه عن دينه! فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن اتبعناك اتبعنا يهودٌ، ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك! فأبى رسول الله صلى الله عليه السلام، فأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠][1].

ويظهر خطر الأهواء في مجال القضاء من خلال توجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه السلام، ففي هذه الآية تحذير للنبي صلى الله عليه السلام من اتباع أهوائهم «بالاستماع لهم وقبول كلامهم ولو لمصلحة في ذلك كتأليف قلوبهم، وجلبهم إلى الإسلام، فالحق لا يوصل إليه بطريق الباطل»[2].

فأن يكون الخطاب موجهًا للنبي صلى الله عليه السلام -وهو من هو- فهذا لا شك يوحي بخطورة الهوى في هذا المجال وبشدته فيه.

والذي يتأمل الآيات يلحظ أن الله سبحانه وتعالى كرر النهي عن اتباع أهوائهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]وما ذلك إلا« لشدة التحذير منها؛ ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق»[3].

وتكرار التحذير من اتباع الهوى في هذا المجال أيضًا؛ لأنه شديد التسرب فيه دون أن يلحظه الإنسان، وهكذا يظهر خطر اتباع الهوى في مجال القضاء والحكم بين الناس.

ومن الآيات التي أشارت لخطر الهوى في هذا المجال أيضًا قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

فهذا أمر رباني من الله لنبيه داود عليه السلام بأن يحكم بين الناس بالحق ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٣.

(٢) نظم الدرر ٦/ ١٣٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٤.

وبعد هذا الأمر ذكر له الآفة التي من شأنها أن تقطعه عن العدل، ولا تمكنه من التزام الحق عند الحكم فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

فـ«اتباع الهوى يبعد الحاكم عن الحكم بالحق، فالهوى في النفس له ميولات وانحرافات لا تحصر، واتباع الهوى يوصل إلى اعتناق الباطل، والاستمساك بالأفكار والمفهومات الفاسدات، ويوصل إلى الظلم والعدوان والبغي والفساد العريض في الأرض»(١).

وهكذا يظهر مدى خطورة أمر اتباع الهوى في مجال الحكم والقضاء، وكيف أنه ينحرف بالإنسان؛ ليبعده عن العدل، ويوقعه في الجور، نسأل الله سبحانه وتعالى الثبات على الحكم بما أنزل، والقضاء بما شرع.

رابعًا: العلم:

العلم من النعم الكبرى التي يعطيها الله للعبد ويمنحها إياه، كيف لا! وهو الذي ينير للمرء الدروب الحالكة، ويعصمه من ظلمات الشهوات والشبهات، ويمنحه القدرة على حسن الإبصار ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

ولذا طلب الله سبحانه وتعالى منا الاستزادة من العلم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قال القرطبي: «فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه السلام أن يسأله المزيد منه، كما أمر أن يستزيده من العلم»(٢).

ولكن من أخطر الآفات التي تصد المرء عن حسن الانتفاع بالعلم وحقائقه: الهوى؛ وذلك حينما يتسلط على القلب فيفسده ويصرفه عن حقيقته وحقائقه، وهذا ما يظهره ويجليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

وسنقف مع هذا المثل وقفات تجلي أثر اتباع الهوى في عدم التمسك بحقائق العلم:

الوقفة الأولى: هذه القصة أتت بعد حديث القرآن عن عهد الميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

أي: إن الله أودع فطر الخلق ما يدلهم عليه، ويقودهم إلى بابه، ويبصرهم بالحق

(١) معارج التفكر، حبنكة الميداني ٣/ ٥٤٣ باختصار.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٤١.

الذي أتت به الرسل، ولكن الإنسان قد يميل به الهوى والتقليد؛ فيعرض عن حقيقة العلم الكامن في الفطرة «وما ذاك إلا لإعراضه عن حجج الله وبيناته وآياته الأفقية والنفسية، فإعراضه عن ذلك ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق»[1].

وهذا الأنموذج هو الذي حدثتنا عنه الآيات في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

فمجيء قصة هذا الرجل بعد آية الميثاق السابقة فيه «إشارة للعبرة من حال أحد الذين أخذ الله عليهم العهد بالتوحيد والامتثال لأمر الله، وأمده الله بعلم يعينه على الوفاء بما عاهد الله عليه في الفطرة، ثم لم ينفعه ذلك كله»[2].

وما ذلك إلا لأنه اختار الأسفل على الأشرف، ورغب عن الهدى واتبع الهوى ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

«أي: ركن إلى الدنيا وسكن»[3].

والتعبير بالإخلاد يوحي بأن «اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض، وميل بكليته إلى ما هناك، وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام، كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض»[4].

ثم ذكرت الآية آفة الآفات التي كانت سببًا في فساده هذا، فقالت: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

«معناه: أنه أعرض عن التمسك بما آتاه الله من الآيات واتبع الهوى، فلا جرم وقع في هاوية الردى»[5].

وهكذا حرم من الانتفاع بحقائق العلم الذي كان معه وبين يديه، وانطمست بصيرته، فلم يبصر من أنواره شيئًا.

الوقفة الثانية: مما يظهر أيضًا شدة تأثير الهوى على التمسك بحقائق العلم في الآيات قوله سبحانه وتعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥].

فاستخدام ضمير العظمة هنا يوحي بعظمة ما آتاه الله، وأنه قد آتاه شيئًا عظيمًا كان من شأنه أن يرفعه، وأن يجعله من الخواص، ولكنه لما أصابته آفة الهوى حرم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٠٨ بتصرف.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٣.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٧٠.
(٤) بدائع التفسير، ابن القيم ١/ ٤٣٠.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٠٥.

بركة الآيات ونفعها على اشتداد عظمتها، وهذا يدل على شدة خطر الهوى في صرف الإنسان عن التمسك بحقائق العلم مهما كان عظيمًا.

الوقفة الثالثة: ومما يكشف لك أيضًا عن خطر الهوى في حرمان الإنسان من هدى العلم وحقائقه أن هذا المثل أتى بعد حديث القرآن عن اليهود، ومن المعلوم أن اليهود كان فيهم عدد كبير من الأنبياء، ولكن كانت آفتهم الكبرى هي اتباعهم الهوى.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فكأنما أتت هذه القصة بعد سرد قصصهم؛ لتؤكد على مدى تأثير الهوى في التمسك بحقائق العلم.

وهكذا يظهر أثر الهوى في صده المرء عن التمسك بحقائق العلم الظاهرة، وبيناته القاطعة، وحججه الواضحة، نعوذ بالله من هذه الآفة وسبيلها.

وسائل مقاومة الهوى

تعددت وسائل مقاومة الهوى التي ذكرها القرآن الكريم، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: تذكر العاقبة السيئة لاتباع الهوى:

من أعظم الأمور وأكثرها تأثيرًا في انصراف الإنسان عن أي خطأ معرفة الإنسان بعاقبة الخطأ الذي يفعله، وقد ذكر القرآن أمورًا كثيرة توضح شناعة عاقبة اتباع الهوى، ولا شك أن استحضارها وتأملها من أكثر ما يعين العبد على مقاومة الهوى ومدافعته، ومن عواقب اتباع الهوى ما يلي:

١. الحرمان من ولاية الله ونصره.

من أعظم الأمور في حياة العبد هي ولاية الله له، فمن تولاه الله أسعده ونصره، ومن عاداه خذله وأخزاه، كيف لا والله سبحانه وتعالى يقول: (من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب)[1].

ولذا كان حرمان العبد من ولاية ربه من أبشع العواقب لاتباع الهوى، وكفى بها، فحرمان العبد من ولاية الله يعني أنه هالك حتمًا، ومخذول لا محالة، وإلا فمن يملك إفلاته من قبضة الله، وإنجاءه من بأس الله؟!

ومن الآيات التي تحدثت عن هذه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٢.

العاقبة السيئة لاتباع الهوى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

كذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

ففي هاتين الآيتين يظهر حرمان العبد من ولاية ربه إذا أعرض عن هديه واتبع هواه، وتأمل كيف أن الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه السلام، فهذا «أبلغ في تقرير هذه الحقيقة التي لا تسامح في الانحراف عنها، حتى ولو كان من الرسول صلى الله عليه وسلم وحاشاه»[(١)].

ويا لها من عاقبة شنيعة لمن تأملها «فأي فلاح، وأي رجاء، وأي عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى عنه طرفة عين، ولا بدل له منه، ولا عوض له عنه، واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبين أعدى عدو له، فتولاه عدوه وتخلى عنه وليه! فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام، وأنواع العذاب[(٢)].

فحري بالعاقل أن يتأمل في هذه العاقبة السيئة لاتباع الهوى، ولا شك أن ذلك من أعظم ما يعينه على مقاومة الهوى.

٢. الوقوع في الظلم.

من العواقب السيئة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى لاتباع الهوى الوقوع في الظلم، فإن المنصرف عن الحق، المتبع لهواه يكون بهذا من الظالمين، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وكذا قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩].

وجعل الظلم عاقبة لاتباع الهوى؛ لأنه أعظم الظلم فـ«أي ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فآثر الباطل على الحق؟!»[(٣)]، ورأى النور وأبصره ثم حاد عنه وتركه، إنه -لا شك- ظلم عظيم.

وأن يؤول اتباع الهوى بصاحبه إلى الظلم فهي عاقبة موحشة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

وهو ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٦٤.
(٢) الداء والدواء، ابن القيم ص٨٢- ٨٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٢.

٥١].

بل إن ﴿لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وأي خير يرتجى لمن أبغضه رب العالمين، وصرفه عن موارد الهدى، وحلت عليه لعنته، إنه لا شك خاسر في دنياه وأخراه كيف لا؟! والله يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

٣. الوقوع في الضلال.

من العواقب التي ذكرها الله سبحانه وتعالى لاتباع الهوى الوقوع في الضلال والغواية، كما قال الله سبحانه وتعالى مخاطبًا نبيه داود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

ففي هذه الآية بيان واضح أن «متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله»[١].

وهذه عاقبة غاية في السوء؛ فالإنسان ما يضل عن هدى الله «إلا ويتخبط في القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع من طرف إلى طرف، لا يستقر ولا يتوازن في خطاه، والشقاء قرين التخبط، ولو كان في المرتع الممرع! ثم الشقوة الكبرى في دار البقاء»[٢].

وهذا يعني أنه سيحيا حياة نكدة «حياة تعسة ضالة، يضرب فيها في ظلام، لا يرى فيه بصيصًا من الأمل والرجاء»[٣]. نعوذ بالله من هذا المصير.

٤. عداوة الله لمن اتبع هواه.

من العواقب السيئة لاتباع الهوى أن المتبع لهواه يصير بذلك عدوًا لله، ومن عاداه الله أكبه وأخزاه مهما اتسع سلطانه، وعظم جاهه وماله «ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له، ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء؛ فهو في النهاية مضيع عاجز، ولو تجمعت له كل أسباب الحماية، وكل أسباب القوة التي يعرفها الناس»[٤].

فمعاداة الله للإنسان إذًا تعني خسرانه الدنيا والآخرة، وكيف يرجى فلاح لمن ناصبه العداء مدبر الأفلاك، وفاطر الأرض والسماء؟

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٨٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٥٥.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨/ ٨٣٦.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٩٠.

﴿عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٦-١٩].

فها هنا يخبر المولى سبحانه وتعالى كيف أنه أنعم على بني إسرائيل بنعم كثيرة فآتاهم الحكم والنبوة، ورزقهم خيرًا وفيرًا، وآتاهم ﴿بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [الجاثية: ١٧].

أي: «دلالات تبين الحق من الباطل»[(١)].

ولكنهم ما ارتفعوا وارتقوا بهذا، بل اختلفوا ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٧].

أي: «سيفصل بينهم بحكمه العدل، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم»[(٢)] ولهذا قالت الآيات بعدها: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩].

والآية الثانية كأنها التعليل للنهي عن اتباع الهوى في التي قبلها أي: «إنك أيها الرسول الكريم إن اتبعت أهواء هؤلاء الضالين؛ صرت مستحقًا لمؤاخذتنا، ولن يستطيع هؤلاء أو غيرهم أن يدفع عنك شيئًا مما أراده الله سبحانه وتعالى بك»[(٣)].

وتظهر شدة عداوة الله لمتبع الهوى في الآيات من خلال أن يكون المخاطب بهذا التهديد وذاك الوعيد هو النبي صلى الله عليه السلام، والخطاب لا شك لأمته أيضًا، ولكن توجيه الخطاب إليه يوحي بشدة عداوة الله لمتبع الهوى -مهما كان- حتى أن النبي صلى الله عليه السلام نفسه مع أنه يأتيه الوحي، ويحوطه ربه بالرعاية إلا أنه «إن اتبع أهواء هؤلاء القوم؛ تعرض لنقمة الله، ولم يكن له من ولي يدفع عنه بلاء الله، أو يقيه بأسه إن جاءه! فكيف بغير النبي صلى الله عليه السلام من عباد الله؟! إن الخطر شديد، وإن البلاء داهم، وإنه لا عاصم من أمر الله لمن ألقى نفسه في لجج هذا الطوفان»[(٤)].

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

هذا تعليل آخر لترك اتباع أهواء السابقين، وفيه بيان بأن الذين يحيدون عن شرائع الله، ويتبعون الأهواء هم الظلمة «فلا يواليهم ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالمًا مثلهم»[(٥)]. وقد جعلهم الله أولياء لبعضهم البعض بينما خصص ولايته للمتقين، وفي هذا تأكيد لعداوته لهؤلاء الظلمة متبعي الأهواء،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٧٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٦٧.
(٣) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٣/ ١٥٧.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ١٤٠.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٧١ بتصرف يسير.

وتحقير لشأنهم ووجهه «أنه قال: هؤلاء يتولى بعضهم بعضًا، والمتقون يتولاهم الله، فخرجوا عن ولاية الله وتبرأت منهم، ووكلهم الله بعضهم إلى بعض»(١).

ومن وكله الله إلى غيره يعني أنه سخط عليه وعاداه، وأنه لا شك خسر دنياه وأخراه.

وبذلك يظهر مدى عداوة الله لمن اتبع هواه فعلى المرء أن يحذر وأن يتدبر، وأن يسأل نفسه: أي الولايتين يريد؟

فهذه بعض عواقب متابعة الهوى وهي عواقب مؤلمة، وما في الآخرة أشد وأنكى، ولا شك أن كثرة تأملها يعين العبد بقوة على مدافعة هواه، واتباع هدى مولاه.

ثانيًا: الاستعانة بالله:

الاستعانة بالله من أعظم الأسباب التي تعين العبد على تجنب الهوى والامتناع عن اتباعه كيف لا؟! وهي لجوء إلى خالق الأكوان ومدبرها سبحانه وتعالى؛ ولهذا لما توعد فرعون بني إسرائيل بالتقتيل والتعذيب ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وجههم موسى عليه السلام إلى الاستعانة بخالقهم، واللجوء لربهم ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

«إنها رؤية النبي لحقيقة الألوهية وإشراقها في قلبه، ولحقيقة الواقع الكوني والقوي التي تعمل فيه، ولحقيقة السنة الإلهية وما يرجوه منها الصابرون، إنه ليس لأصحاب الدعوة إلا رب العالمين، إلا ملاذ واحد، وهو الملاذ الحصين الأمين، وإلا ولي واحد وهو الولي القوي المتين»(٢).

ولما جاء إخوة يوسف عليه السلام لأبيهم؛ ليخبروه بأكل الذئب لولده وحبيبه وقرة عينه يوسف عليه السلام لم يزد أن قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ولا غرو، فنحن نقف بين يدي الله في اليوم الواحد مرات ومرات لنقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وتأمل كيف أنه ذكر الاستعانة بعد العبادة مع أنها داخلة فيها «لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله سبحانه وتعالى؛ فإنه إن لم يعنه الله لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي»(٣).

يقول ابن رجب: «وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق؛ فلأن العبد

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٨٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٥٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٩.

عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله سبحانه وتعالى، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول»[1].

والاستعانة بالله من أقوى الأمور التي تحفظ العبد لاسيما في أمر الهوى الذي يعسر على النفس مخالفته، ويشق عليها تركه، وتقوى عليها مدافعته، ولا عاصم منه إلا القوي المتين سبحانه وتعالى.

يقول ابن تيمية: «يجب على المؤمن أن يستعين بالله، ويتوكل عليه في أن يقيم قلبه ولا يزيغه، ويثبته على الهدى والتقوى، ولا يتبع الهوى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]»[2].

فالمرء إن أراد أن يحفظ من الهوى وأخطاره عليه أن يكثر من اللجوء لله، وتأمل خاتمة قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

إنها كما يقول صاحب التفسير القرآني: «دعوة إلى الوقوف عند هذا المشهد الذي يرى فيه هذا الإنسان الذي اتخذ إلهه هواه، وأضله الله بعد أن جاء العلم، وختم الله على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة؛ فليأخذ كل إنسان لنفسه عظة من هذا المشهد، ولينظر إلى نفسه، فإن كان بالمكان الذي فيه هذا الضال، فليحاول أن ينخلع عن هذا المكان، وليمد يده إلى الله طالبًا العون منه، فإنه لا يطلب العون إلا منه، ولا يرجى الخلاص إلا على يده سبحانه وتعالى»[3].

وقد كان النبي صلى الله عليه السلام من أكثر الناس لجوءًا لربه، واستعانة بمولاه في هذا الأمر، فعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: (سألت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بأي شيءٍ كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي ١/ ٤٨١-٤٨٢.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن تيمية ١/ ٣٢.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٢٤٧-٢٤٨.

مستقيم)[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه السلام يقول: (اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علمًا، والحمد لله على كل حالٍ)[2].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ما خرج النبي صلى الله عليه السلام من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: (اللهم أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي)[3].

والذي يتأمل في أقوال النبي صلى الله عليه وسلم: (اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك) (انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني) (أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل) يدرك مدى حاجة العبد للجوء لربه، والانكسار والذلة لمولاه؛ حتى يصفو له حسن الاتباع، وينجو من شر الهوى، وما ذلك إلا لأن الهداية والتوفيق بيده سبحانه وتعالى.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل، ١/ ٥٣٤، رقم ٧٧٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه في صحيحه، كتاب الدعاء، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، ١/ ٩٢، رقم ٣٨٣٣.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب في النوم، باب ما يقول إذا خرج من بيته، ٤/ ٣٢٥، رقم ٥٠٦١.

ثالثًا: الخوف من الله:

لكي يستيقظ القلب الراقد من غفلته، ويصحو من سكرة هواه، لا بد له من مؤثر ضخم يهزه وينبهه، ولا شيء أفضل في هذا من الخوف من الله، فهو من أعظم الأمور التي تهز الأفئدة، وتحرك القلوب.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

فـ«الخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة، وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى»[4].

وتأمل كيف أن الله سبحانه وتعالى قدم الخوف على نهي النفس عن الهوى، وما ذلك إلا لأن «الخوف من الله هو السبب المعين لدفع الهوى»[5]. فهذا يظهر قيمة الخوف من الله في مدافعة الهوى.

يقول إبراهيم بن شيبان: «الخوف إذا سكن القلب أحرق موضع الشهوات منه، وطرد رغبة الدنيا عنه، وأسكت اللسان عن ذكر الدنيا»[6] وقال ذو النون: «الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف؛ ضلوا الطريق»[7].

حين نتأمل كتاب الله نجد هذه الحقائق

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٩.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٥٠.

(٦) شعب الإيمان، البيهقي ٢/ ٢٦٨.

(٧) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥٠٩.

المهمة من كتاب الله جل جلاله:

أولًا: الملائكة المعصومة تخاف ربها ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

ثانيًا: أن أولياء الله يتعبدون الله بالخوف منه ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

ثالثًا: أن الله أمر البشرية بالخوف منه ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

رابعًا: من أسباب الكفر والعصيان عدم الخوف، قال جل جلاله: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ [المدثر: ٥٣].

خامسًا: الخوف من الله عز وجل سبب من أسباب التمكين، قال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

وبين الله -في جلاء تام- العلاقة بين الخوف ومقاومة الهوى بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

وبين ربنا أيضًا أن الخائفين منه هم الذين ينتفعون بالقرآن والآيات، فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

سادسًا: أن جميع الأنبياء والمرسلين بدءوا دعوتهم بتحذير أقوامهم من المآل الذي ينتظرهم؛ ليحذروا غضب الله، ويخافوا عذابه؛ فيسهل عليهم مجانبة الهوى.

نماذج من تحذير الأنبياء لأقوامهم في بداية دعوتهم:

فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ٢].

وهذا إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧].

وتأمل ما قاله هود عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وكذلك روى الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. صعد النبي صلى الله عليه السلام على الصفا فجعل ينادي: (يا بني فهرٍ، يا بني عديٍ) لبطون قريشٍ، حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ، فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟) قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: (فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ)(١).

فأن يكون الخوف هو مبدأ دعوات الرسل فهذا لا شك يدل على أهميته في دفع القلب نحو مراضي الله، وأنه الدواء الناجع لمن أسره شيطانه، وغلبه هواه.

رابعًا: استحضار حساب الآخرة:

لا شك أن من أعظم أسباب مقاومة الهوى استحضار العبد لليوم الآخر، فاستحضار الآخرة في النفس يعطي الإنسان القوة في مواجهة اتباع الهوى، وبالضد فإن نسيان الآخرة عامل كبير في اتباع الإنسان لهواه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وفي هذا إشارة واضحة إلى أن «السبب الأول لحصول ذلك الضلال -الناتج عن اتباع الهوى- هو نسيان يوم الحساب؛ لأنه لو كان متذكرًا ليوم الحساب؛ لما أعرض عن إعداد الزاد ليوم المعاد، ولما صار مستغرقًا في هذه اللذات الفاسدة»(٢).

فاتباع الإنسان لهواه إنما هو نتاج لنسيان الآخرة، ولو ذكر الآخرة في حياته؛ لما خالف الشرع واتبع الهوى، فإن تذكر اليوم الآخر «يقتضي ملازمة الحق، ومخالفة الهوى»(٣).

ومن الآيات التي أكدت على هذا قوله عز وجل: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

فهذا تأكيد على أن عدم الإيمان بالآخرة هو الذي قادهم إلى اتباع أهوائهم؛ لأنهم «لو كانوا يؤمنون بالآخرة؛ لعلموا أنهم مجازون على هذا جزاء يناسب جرائمهم، ولو أنهم قدروا هذه المسألة؛ لامتنعوا عن اتباع أهوائهم»(٤).

وهكذا يظهر لنا أن استحضار اليوم الآخر عاصم كبير من اتباع الهوى -ولا غرو- فقد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (وأنذر عشيرتك الأقربين)، ٦/ ١١١، رقم ٤٧٧٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٨٧ بتصرف.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٢٥٣.
(٤) تفسير الشعراوي ٧/ ٣٩٨٢.

لفتنا الله إليه في سورة الفاتحة التي نرددها كثيرًا في قوله جل جلاله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤].

آثار اتباع الهوى

لاتباع الهوى آثار وخيمة نتناولها بالتوضيح فيما يأتي:

أولًا: الضلال:

وهذا من الآثار الوخيمة لاتباع الهوى، قال الله عز وجل: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٦].

ففي هذه الآية يأمر الرب الجليل نبيه صلى الله عليه السلام أن يواجه المشركين، ويخبرهم أنه منهي عن اتباع أهوائهم «لأن من يتبع أصحاب الهوى يضل، ولا يهتدي أبدًا»[1].

ومما يؤكد على هذا عطف ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ على ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ ﴾ ففيه دلالة «على أنه جزاء آخر للشرط المقدر، فيدل على أنه إن فعل ذلك؛ يخرج عن حاله التي هو عليها الآن، من كونه في عداد المهتدين إلى الكون في حالة الضلال، وأفاد مع ذلك تأكيد مضمون جملة ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ ﴾ لأنه نفى عن نفسه ضد الضلال؛ فتقررت حقيقة الضلال على الفرض

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/١٩٨.

والتقدير»[1].

والذي يتأمل يجد أن الله عز وجل عبر بقوله: : ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ دون التعبير بـ (لا أتبعكم) «للإشارة إلى أنهم في عبادتهم لغير الله تابعون للأهواء الباطلة، نابذون للأدلة العقلية، وفي هذا أكبر برهان على انطماس بصيرتهم، وبنائهم لدينهم على الأوهام والأباطيل»[2].

فكان ضلال هؤلاء الكفار أثرًا من آثار اتباعهم للهوى؛ لأن سبيل الهداية إنما يستنير بالعلم، والضلال إنما يكون باتباع الإنسان لهواه، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وتأمل كيف أن الله عبر بالباء في قوله: ﴿بِأَهۡوَآئِهِم﴾ وفي قوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ لأن «الباء في ﴿بِأَهۡوَآئِهِم﴾ للسببية، والباء في ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ للملابسة، أي: يضلون منقادين للهوى، ملابسين لعدم العلم»[3].

وهذا كله لأن متبع الهوى بعبوديته لشهواته وميوله قد أعرض عن مصدر الهداية والتوفيق؛ فكان هذا الهوى سببًا في ضلاله، وابتعاده عن الهداية والتوفيق.

ومن هنا كان تحذير السلف من اتباع الهوى، أو مجالسة متبع الهوى كما قال أبو قلابة: «لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»[4].

وإذا كان الضلال أثرًا من آثار اتباع الهوى؛ فإن الهوى قد يقود العبد إلى ما هو أعظم من ذلك، كأن يقوده إلى القتل، أو الكفر.

ثانيًا: الكفر:

المتأمل لنصوص القرآن الكريم يجد أن اتباع الهوى هو الباعث على كُفْرِ مَنْ كَفَرَ، وعدم إيمانهم برسلهم؛ فالله عز وجل يقول عن بني إسرائيل: ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

فهذه الآية تذكر لنا كيف أن الله أخذ العهد على بني إسرائيل في التوراة «بتوحيده واتباع الأحكام التي شرعها لهدى خلقه، وتحليهم بحلي الفضائل ومكارم الأخلاق»[5].

ولكنهم غلبتهم أهواؤهم فتمردوا وكفروا، وكلما «أتاهم الرسول بخلاف ما يهوون كذبوه»[6].

وما ذلك إلا بسبب اتباعهم لأهوائهم،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٦٣.
(٢) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٥/ ٨٣- ٨٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٣٦.
(٤) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٧/ ١٣٧.
(٥) نظم الدرر ٦/ ١٦٣.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٩٦.

وأنه أتاهم بما يخالف هواهم.

وإذا كان اليهود من بني إسرائيل ساروا على هذا الدرب -باتباع الهوى- في الكفر برسلهم، فإن غيرهم من الأمم والأقوام السابقة ساروا على نفس النهج، فكفروا برسلهم وكذبوهم لا لشيء إلا لأجل اتباع الهوى.

كما قال الله جل جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٤].

فالباعث لكل هؤلاء الأقوام على الكفر هو اتباع الهوى، والتقليد للآباء والأجداد، حتى وإن كان الذي جاء به الرسول أفضل وأهدى مما هم عليه.

ثالثًا: القتل:

من الآثار المهلكة التي ينتجها اتباع الهوى القتل، فإن متبع الهوى قد يصل بهواه إلى حد الوقوع في القتل، كما حكى الله عز وجل عن بني إسرائيل بقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فالله عز وجل يخبر عن حال بني إسرائيل في مقابلتهم لدعوة الرسل والأنبياء الذين أرسلوا إليهم، فيقول لهم: «أنتم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهواه نفوسكم استكبرتم عليهم فكذبتم بعضًا منهم، وقتلتم بعضًا، فهذا فعلكم أبدًا برسلي»[١].

والله تعالى يشنع عليهم هذه الفعلة القبيحة العظيمة أن يصل بهم الهوى إلى قتل دعاة الهدى، وتأمل كيف عبر عن القتل بصيغة المضارع، مع كونه كالتكذيب وقع في الماضي! وهذا لـ« تصوير جرم القتل الشنيع، واستحضار هيئته المنكرة، كأنه واقع في الحال للمبالغة في النعي عليهم، والتوبيخ لهم»[٢].

وأن يصل بهم اتباع الهوى إلى هذا الحد فهذا -لا شك- يدل على أنهم «بلغوا من الفساد، واتباع أهوائهم أخشن مركب، وأشده تقحمًا بهم في الضلال حتى لم يعد يؤثر في قلوبهم وعظ الرسل وهديهم، بل صار يغريهم بزيادة الكفر والتكذيب، وقتل أولئك الهداة الأخيار»[٣].

وتلحظ هنا أن الله عز وجل يخاطب اليهود على عهد النبي صلى الله عليه السلام مع أنهم لم يقتلوا من الأنبياء أحدًا، ومع ذلك يقول لهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٢٤.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٩٨.
(٣) المصدر السابق.

والسر في هذا «أنهم راضون بفعلهم، والراضي كالفاعل، وقد كذبوا رسول الله صلى الله عليه السلام فيما جاء به، وسقوه السم؛ ليقتلوه[1]، وسحروه»[2] [3]. فلما رضوا بفعل أسلافهم؛ كانوا كالمشاركين لهم في نفس الفعل.

رابعًا: الطبع على القلب وانتكاس الفطرة:

وهذا من الآثار الخبيثة التي تصيب متبع الهوى، قال عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

فهذه الآية تتحدث عن المنافقين، الذين كانوا يحضرون مجلس النبي صلى الله عليه السلام؛ ليستمعوا دون فهم ولا استحضار؛ استخفافًا حتى إذا خرجوا قالوا لأهل العلم: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ وليس مقصدهم بذلك «إلا السخرية والاستهزاء بما يقول، وأنه مما لا ينبغي أن يؤبه به، أو يلقى لمثله سمع»[4].

فـ«طبع الله على قلوبهم وختم عليها، فلا تقبل خيرًا، ولا تأذن بخير يدخل إليها، ومن أجل هذا فقد أخلوا مع أهوائهم، تقودهم إلى حيث مواقع الضلال والهلاك، دون أن تمتد إليهم يد منقذة، إنهم قطعوا كل سبب يصل بينهم وبين أية وسيلة من وسائل الإنقاذ»[5].

ومما يظهر لك أن هذا الطبع أثر من اتباع الهوى حديث القرآن بعد ذلك عن فريق آخر رغب في الهدى، وأقبل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

فـ«ترتيب الوقائع في الآية يستوقف النظر، فالذين اهتدوا بدءوا هم بالاهتداء فكافأهم الله بزيادة الهدى، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾»[6].

أما متبعو الهوى فكان الهوى مانعًا لهم من اتباع الحق، وسببًا في الطبع على قلوبهم، وانتكاس فطرتهم، كيف لا ومتبع الهوى غارق في المعاصي والسيئات، وهذه لها آثار خطيرة على القلب؛ إذ إنها تنتهي به إلى المرض، ثم القسوة أو الموت، كما أخبر النبي صلى الله عليه السلام في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه السلام قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئةً؛ نكتت في قلبه نكتةٌ سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب؛ سقل

(١) اليهودية التي سمت الشاة لرسول الله كما في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية من المشركين، ٣/ ١٦٣، رقم ٢٦١٧.
(٢) سحر اليهود رسول الله كما في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب السحر ٧/ ١٦٣، رقم ٥٧٦٣.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ١/ ٤٨٢.
(٤) نظم الدرر ٢٦/ ٦١.
(٥) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣/ ٣٣٦.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٩٤.

قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤][1].

ومن الآيات التي أكدت على هذا قوله جل جلاله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فالله جل جلاله يخبر في الآية أن من لم يسر على طريق الاتباع، ويترك طريق الهوى يكون الجزاء على اتباعه لهواه الطبع والختم على قلبه «فتنطمس فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى، وتتعطل فيه أدوات الإدراك، وما ذلك إلا بطاعته للهوى طاعة العبادة والتسليم»[2].

وهكذا يظهر أن «من سننه سبحانه وتعالى في البشر أن من يتبع هواه في أعماله، ويستمر على ذلك ويدمنه الزمن الطويل، تضعف إرادته في هواه حتى تذوب وتفنى فيه، فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية، ولا العبر المبصرة، ولا المعقولة، وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرين، والطبع على القلب، والصمم والعمى والبكم»[3]. نعوذ بالله من هذا الحال.

خامسًا: اتباع الشهوات:

من الآثار التي تصيب متبع الهوى الانحطاط الخلقي واتباع الشهوات؛ فصاحب الهوى عبد لشهواته وميوله، لا يتحرك إلا بأمر منها فيصيبه هذا بالانحطاط الخلقي، كما ضرب الله لنا مثلًا على هذا بحال الرجل الذي قال عنه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

فهذا مثل يجلي بكل وضوح مدى أثر الهوى في الانحطاط الخلقي واللهث وراء الشهوات.

وتأمل كيف أنه عز وجل قال عن هذا المذكور في المثل: ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فهذا «تمثيل لحال المتلبس بالنقائص والكفر بعد الإيمان، والتقوى بحال من كان مرتفعًا عن الأرض فنزل من اعتلاء إلى أسفل» وذكر الأرض يشير إلى أن «الإخلاد هنا ركون إلى السفل، أي: تلبس بالنقائص

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ويل للمطففين، ٥/ ٤٣٤، رقم ٣٣٣٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي ٧/ ٣٣٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٣٠ بتصرف.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٥٢٩.

والمفاسد»[1].

وهذا لا شك يدل على شدة الانحطاط الخلقي والركض الدائم خلف النزوات، -ولا غرو- فالإنسان حين يرضى لنفسه الإعراض عن اتباع الشرع «والتمسك بما آتاه الله من الآيات، ويأبى إلا متابعة الهوى، فلا جرم أنه واقع في هاوية الردى»[2].

قال ابن رجب رحمه الله: «إن جميع المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة رسوله»[3].

ومن الآيات التي أكدت على هذا المعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

«فشبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلًا من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها؛ فتهتدي وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالًا، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل؛ فلا يستجيبون، ولا يهتدون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم»[4].

ولا شك أن الذي أوصل هؤلاء إلى هذه المرحلة المتدنية من الانحطاط حتى وصلوا درجة البهيمية، هو اتباع الهوى؛ فكان هذا التدني أثرًا من آثار متابعته.

وهكذا نرى كيف يهبط الهوى بالمرء إلى أسفل الدرجات، ويورثه انحطاطًا ينحط به عن درجته الآدمية، ورتبته الإنسانية؛ ليصبح دون البهائم؟! نسأل الله السلامة من متابعة الأهواء.

سادسًا: الظلم:

من آثار اتباع الهوى أيضًا الجور في الحكم بين الناس، وما يترتب على ذلك من ظلمهم، وعدم إيصال الحقوق إليهم، ولا شك في أن ذلك من أسباب انتشار الفساد في الأرض، فإن المظلوم قد لا يصبر على ظلمه، وأخذ غيره حقه منه بغير حق؛ فيطلب الوصول إليه من طريق لا يحبه الله ورسوله، إن افتقده في موضعه الذي وجهه الله إليه، ومن ثم وجب على الحكام وغيرهم ممن مكنهم الله من القضاء والحكم بين الناس أن يحكموا بينهم بالعدل الذي جاء به الإسلام، وألا يتبعوا أهواءهم فيجوروا.

فعن الحسن رحمه الله قال: «إن الله أخذ على الحكام ثلاثًا: ألا يتبعوا الهوى،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٧.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٠٥.
(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ٣٩٨.
(٤) التفسير القيم، ابن القيم ص٤٠٩.

وأن يخشوه ولا يخشوا الناس، وألا يشتروا بآياته ثمنًا قليلًا، ثم قرأ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[ص: ٢٦].

وقرأ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤][١].

وقد سبق بيان تحذير الله جل جلاله لعبده ونبيه داود عليه السلام بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[ص: ٢٦].

سابعًا: فساد السموات والأرض:

من الآثار المترتبة على مخالفة هذا الطريق واتباع الهوى فساد السموات والأرض ومن فيهن، كما قال جل جلاله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

فهذه الآية توضح أن الله عز وجل «لو أجرى حكمه على وفق مراد الناس وأهوائهم؛ لاختل أمر السماوات والأرض، ولخرج عن حد الإحكام والإتقان»[٢]، وما ذلك إلا لأن خلق السموات والأرض ومن فيهن «قام بالحق»[٣]، والحق واحد ثابت لا يتبدل ولا يتغير، أما الأهواء فهي كثيرة ومتقلبة، تختلف باختلاف أصحابها؛ فلذلك «لو خضع الكون للأهواء العارضة، والرغبات الطارئة؛ لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس، وتأرجحت كلها بين الغضب والرضا، والكره والبغض، والرغبة والرهبة، والنشاط والخمول، وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات»[٤].

فلو أن الله عز وجل «أباح الظلم وترك العدل؛ لوقع الناس في هرج ومرج، ولوقع أمر الجماعات في اضطراب وفساد، ولو أباح العدوان، واغتصاب الأموال، وأن يكون الضعيف فريسة للقوي؛ لما استتب أمن، ولا ساد نظام، وحال العرب قبل

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١١٠.

(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٥٨٢ بتصرف.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٧.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٧٥.

الإسلام شاهد صدقٍ على ذلك، ولو أباح الزنا؛ لفسدت الأنساب، وما عرف والدٌ ولده، فلا تتكون الأسر، ولا يكون من يعول الأبناء، ولا يبحث لهم عن رزق، فيكونوا شردًا في الطرقات لا مأوى لهم، ولا عائل يقوم بشئونهم»[1].

وفي النهاية نستطيع أن نقول: من الآثار المترتبة على اتباع الهوى فساد الكون واختلال نظامه «لأن هوى إنسان ما قد يناقض هوى إنسان آخر، والباقون من الناس قد يكون لهم هوى يناقض بقية الأهواء»[2]. وبذلك يقع اضطراب عظيم.

ثامنًا: حرمان الولي والنصير:

أخبر تعالى في كتابه أن الرسول عليه السلام إذا اتبع أهواء اليهود والنصارى حرم من ولاية الله ونصرته.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قال الطبري: يقول جل ثناؤه: لئن اتبعت يا محمد هوى هؤلاء اليهود والنصارى، فيما يرضيهم عنك من تهود وتنصر، فصرت من ذلك إلى إرضائهم، ووافقت فيه محبتهم من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم، وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتصصت عليك من نبئهم في هذه السورة، ليس لك من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به، ولا نصير ينصرك من الله؛ فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته، ويمنعك من ذلك أن أحل بك ذلك ربك[3]. فهذا شرط خوطب به النبي صلى الله عليه السلام وأمته معه داخلة فيه[4].

وقوله: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قطع لأطماعهم أن تتبع أهواءهم؛ لأن من علم أنه لا ولي له ولا نصير ينفعه إذا ارتكب شيء!! كان أبعد في أن لا يرتكبه، وذلك إياس لهم في أن يتبع أهواءهم أحد[5].

وفي الآية تحذير لكل من تلقى الإسلام أن لا يتبع بعد الإسلام أهواء الأمم الأخرى.

وقد نزه الله عز وجل رسوله عن اتباع الهوى، وأثنى عليه بالاستقامة والاعتدال والسداد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣].

أي: ليس نطقه صادرًا عن هوى نفسه، بل لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى في نفسه وفي غيره[6].

(١) نظم الدرر ١٨/ ٤١.
(٢) تفسير الشعراوي ٢/ ١٢٨٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٨٥.
(٤) المحرر الوجيز ١/ ٢٠٤.
(٥) البحر المحيط ١/ ٥٩١.
(٦) تيسير الكريم الرحمن ص٨١٨.

تاسعًا: النار وبئس المصير في الآخرة:

ذكر الله في كتابه الكريم أن من الآثار المترتبة على اتباع العبد للهوى النار في الآخرة، كما قال عز وجل: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[ص: ٢٦].

وهنا يرشدنا الله عز وجل إلى أن «الذين يميلون عن سبيل الله، وذلك الحق الذي شرعه لعباده، وأمرهم بالعمل به، فيجورون عنه في الدنيا لهم في الآخرة يوم الحساب عذاب شديد، على ضلالهم عن سبيل الله بما نسوا أمر الله»(١).

قال الشعبي: «إنما سمي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه في النار»(٢).

فاتباع الهوى يقود صاحبه إلى النار، والعياذ بالله سبحانه وتعالى، وفي مخالفة الهوى نجاة من النار، والفوز بالجنة، فقد ذكر نبينا صلى الله عليه السلام أن الجنة حفت بالمكاره، فلا بد من مجاهدة النفس، ومخالفة الهوى التي تميل إليه النفس؛ حتى نكون من أهل الجنة، وذكر أن النار حفت بالشهوات التي لا بد للإنسان من مجاهدة نفسه، والبعد عن اتباع الهوى والشهوة؛ حتى لا يتردى الإنسان في نار جهنم.

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه السلام: (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات)(٣).

فكل الشهوات التي تشتهيها النفس الأمارة بالسوء، ويدفعها إليها هوى النفس هي قائدة إلى النار -والعياذ بالله- واتباع الهوى من المهلكات التي حذر منها الشرع، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال: (ثلاثٌ منجياتٌ، وثلاثٌ مهلكاتٌ، فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات: فهوًى متبعٌ، وشحٌ مطاعٌ، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن)(٤).

وهكذا يتجلى لنا كيف أن متابعة الهوى توجب لصاحبها النار وبئس القرار.

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، التقليد، الضلال، الطبع، القلب، النفس

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٨٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٦٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ٤/ ٢١٧٤، رقم ٢٨٢٢.
(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في الطبع على القلب أو الرين، ٩/ ٣٩٧، ٦٨٦٥. وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح.

الوجه

عناصر الموضوع

مفهوم الوجه	٣٤٢
الوجه في الاستعمال القرآني	٣٤٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٤٤
إثبات الوجه لله تعالى	٣٤٦
أنواع الوجوه وصفاتها	٣٥٠
أسباب بياض الوجوه وسوادها	٣٥٤
أحكام تتعلق بالوجه	٣٥٩
ابتغاء وجه الله بالأعمال الصالحة	٣٦٤
الوجه في المثل القرآني	٣٦٧
نعيم الوجوه وعذابها في الآخرة	٣٦٨

مفهوم الوجه

أولًا: المعنى اللغوي:

الواو والجيم والهاء: أصل واحد يدل على مقابلة لشيء، والوجه مستقبل لكل شيء، وربما عبر عن الذات بالوجه؛ والجمع الوجوه [1]،ويقال: هذا وجه الرأي أي: هو الرأي نفسه؛ مبالغة، أشار إليه الراغب، وقد تكون مجازًا: كوجيه ووجهاء بمعنى: سيد القوم، يقال: هؤلاء وجوه البلد ووجهاؤه، أي: أشرافه» [2]، وفي مختار الصحاح: «الوجه والجهة بمعنى» [3]، ووجه: أي صار وجيهًا: أي شريفًا ذا جاه [4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه الشافعية والحنابلة بأنه: «ما بين منابت شعر الرأس إلى الذقن ومنتهى اللحيين طولًا، ومن الأذن إلى الأذن عرضًا» [5].

وعرفه الحنفية بأن حد الوجه: «من قصاص الشعر إلى أسفل الذقن، وإلى شحمتي الأذنين» [6].

وعرفه المالكية: « من قصاص شعر الرأس إلى آخر الذقن طولًا، ومن الصدغ [7] إلى الصدغ عرضا» [8].

وبالنظر إلى تعريفات اللفظ في اللغة وتعريفاتها في الاصطلاح تظهر العلاقة جلية؛ إذ الوجه في الإنسان ما يحصل به المواجهة والاستقبال.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٥٥٥.
(٢) تاج العروس، الزبيدي ٣٦/ ٥٣٥.
(٣) مختار الصحاح، الرازي ص٢٩٦.
(٤) انظر: شمس العلوم، الحميري ١١/ ٧٠٨١.
(٥) المجموع شرح المهذب، النووي ١/ ١٠٦، كشاف القناع، البهوتي ١/ ٩٥.
(٦) بدائع الصنائع، الكاساني ١/ ٣.
(٧) وهو (ما بين العين والأذن)، مختار الصحاح، ص١٥١.
(٨) مواهب الجليل، الحطاب الرعيني، ٣/ ١٤٠.

الوجه في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وجه) في القرآن الكريم (٧٥) مرة[1].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأنعام:٧٩]
الفعل المضارع	١	﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾[النحل:٧٦]
الأسماء	٧٢	﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[البقرة:١١٥]

وجاء الوجه في القرآن على أربعة أوجه[2]:

الأول: الدين: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء:١٢٥]. يعني: أخلص دينه لله.

الثاني: الوجه بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران:١٠٦]. يعني: الوجه بعينه.

الثالث: أول: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجْهَ النَّهَارِ ﴾[آل عمران:٧٢]. يعني: أول النهار.

الرابع: الحقيقة: ومنه قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا ﴾[المائدة:١٠٨]. أي: على حقيقتها.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٤٣، ٧٤٤.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ٥٠، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٦١٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الذات:

الذات لغةً:

ما يصلح لأن يعلم ويخبر عنه، وذات الشيء نفسه، عينه، جوهره، واسم الذات عند النحاة: ما علق على ذات كالرجل، الأسد[١].

الذات اصطلاحًا:

ما يصلح أن يحكم عليه بالوجود أو بالعدم أو بغير ذلك، وذات الشيء ما يخصه ويميزه عن جميع ما عداه، وقد يراد بذات الشيء ذلك الشيء مجردًا عما سواه[٢].

الصلة بين الوجه والذات:

مما سبق يتضح لنا الفرق جليًا بين الوجه والذات؛ وأن الوجه جزء من الذات، أو هو الذات.

٢ الظهر:

الظهر لغةً:

(ظهر) الظاء والهاء والراء أصل صحيح واحد يدل على قوة وبروز، من ذلك: ظهر الشيء يظهر ظهورا فهو ظاهر، إذا انكشف وبرز، ولذلك سمي وقت الظهر والظهيرة، وهو أظهر أوقات النهار وأضوؤها، والأصل فيه كله ظهر الإنسان، وهو خلاف بطنه، وهو يجمع البروز والقوة[٣].

الظهر اصطلاحًا:

قال اللحياني: «والظهر من الإنسان: من لدن مؤخر الكاهل إلى أدنى العجز عند آخره»[٤].

الصلة بين الوجه والظهر:

الوجه هو مستقبل كل شيء، أما الظهر فهو الجهة المعاكسة للوجه لنفس الجسم.

---

(١) انظر: المنجد، علي بن الحسن الهنائي ص٢٤٠.
(٢) انظر: دستور العلماء، القاضي نكري ٢/ ٨٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٧١.
(٤) تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٤٧٩.

٣ الدبر:

الدبر لغةً:

(دبر) الدال والباء والراء. أصل هذا الباب أن جله في قياس واحد، وهو آخر الشيء وخلفه خلاف قبله، وفي الحديث: (لا تدابروا)[١]، وذلك أن يترك كل واحد منهما الإقبال على صاحبه بوجهه[٢].

الدبر اصطلاحًا:

لا يختلف التعريف الاصطلاحي للدبر عن التعريف اللغوي تقريبًا فهو مشتق من اللغة أيضًا وتأتي بمعنى: الظهر، قال الجوهري: «والدبر: الظهر».

الصلة بين الوجه والدبر:

الوجه هو مستقبل كل شيء، أما الدبر فهو الجهة المعاكسة للوجه وليس بالضرورة أن تكون لنفس الجسم أو الشخص.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٠٠٦٢، ١٦/ ٩٢.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٢٤.

إثبات الوجه لله تعالى

أولًا: صفة الوجه بين المثبتين والنافين:

صفة الوجه لله تبارك وتعالى من الصفات الخبرية الذاتية التي جاء بها الكتاب والسنة، وقال بها سلف الأمة فما على المسلم إلا التسليم لقول الله تبارك وتعالى وقول رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم سلف هذه الأمة لنصوص الصفات، وقد كان سيد الرسل محمد صلى الله عليه وسلم يدعو ربه ويلح في الدعاء طالبا النظر إلى وجهه تعالى، فلا يعقل أن يسأل الرسول ربه ما لا يجوز[1].

وقد أشكلت على الخلف على الرغم من ثبوتها بصريح القرآن وصحيح السنة، والعقل تابع ومصدق وغير رافض، ولذا أطبق السلف وأتباعهم على الإيمان بهذه الصفة كغيرها من صفات الله تعالى وإثباتها على ما يليق به لا يفسرونها بالذات، ولا يطلقون عليها شيئًا من الألقاب التي يرددها النفاة مثل العضو أو الجزء، وغير ذلك من الألقاب التي يطلقونها ليتذرعوا بها إلى نفيها بدعوى أن إثبات هذه الصفة يعني التركيب المستلزم للحاجة والافتقار[2].

وقد كان إثبات الإمام البيهقي لهذه الصفة إثباتًا حقيقيًا، على وجه يليق بجلال الله وعظمته، وكانت أدلته لإثبات هذه الصفة شرعية بحتة، نظرًا لكونها من الصفات التي لا تثبت إلا بالسمع، فأورد كثيرًا من الآيات والأحاديث الناطقة صراحة بإثباتها[3].

قال الحافظ ابن منده: «ومن صفات الله عز وجل التي وصف بها نفسه قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

وقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بوجه الله من النار والفتن كلها، ويسأل به، ثم سرد أحاديث بسنده، ثم قال: بيان آخر يدل على أن العباد ينظرون إلى وجه ربهم عز وجل، وسرد بسنده ما يدل على ذلك»[4].

وقال الأصبهاني: «ذكر إثبات وجه الله عز وجل الذي وصفه بالجلال والإكرام والبقاء في قوله عز وجل: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧]»[5].

الأدلة من القرآن والسنة على إثبات صفة الوجه

---

(١) انظر: الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة، حياة جبريل ١/ ٣١٥.

(٢) انظر: الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه، أبو أحمد بن علي، ص٣٠٢-٣٠٣.

(٣) انظر: البيهقي وموقفه من الإلهيات، أحمد الغامدي ص٢٨٤.

(٤) كتاب التوحيد ٣/ ٣٦.

(٥) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، ١/ ٢١٥.

ولقد أثبت الله لذاته المقدسة صفة الوجه في أربع عشرة آية من آي الذكر الحكيم[1]، منها:

❁ قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧٢].

❁ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد:٢٢].

❁ وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧].

❁ فما تضمنته هذه الآية الكريمة من فناء كل من على الأرض وبقاء وجهه جل وعلا المتصف بالجلال والإكرام، جاء موضحًا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

❁ وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

❁ وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [العنكبوت:٥٧].

إلى غير ذلك من الآيات.

ومن السنة أيضًا:

❁ حديث ابن مسعود رضي الله عنه: (لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين، وقال رجل: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله)[2].

❁ حديث ابن عمر رضي الله عنهما في الثلاثة الذين حبسوا في الغار، فقال كل واحد منهم: (اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ ففرج عنا ما نحن فيه)[3].

❁ حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: (إنك لن تخلف فتعمل عملًا تبتغي به وجه الله؛ إلا ازددت به درجة ورفعة)[4].

فهذه صفة ثابتة بنص الكتاب وخبر الصادق الأمين، فيجب الإقرار بها، والتسليم كسائر الصفات الثابتة بواضح الدلالات[5].

وقال ابن عبد البر: أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا المجاز إلا أنهم لا يكيفون شيئا من ذلك ولا يحدون فيه صفة مخصوصة، وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها ولا يحمل شيئا

(١) انظر: اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، حمد بن عبد الرحمن الخميس، ص ٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم ٢/ ٧٣٩، رقم ١٠٦٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضي ٣/ ٨٠، رقم ٢٢١٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء برفع الوباء والوجع ٨/ ٨٠، رقم ٦٣٧٣.

(٥) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد، عبد الغني المقدسي، ٩٦- ٩٨.

منها على الحقيقة ويزعمون أن من أقر بها مشبه وهم عند من أقر بها نافون للمعبود، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله وهم أئمة الجماعة انتهى كلام الحافظ ابن عبد البر إمام أهل المغرب في عصره[(١)].

ولقد ضل في توحيد الأسماء والصفات طائفتان من الناس:

الطائفة الأولى: المعطلة: الذين أنكروا الأسماء، والصفات، أو بعضها، زاعمين أن إثباتها يستلزم التشبيه، أي: تشبيه الله تعالى بخلقه، وهذا الزعم باطل.

الطائفة الثانية: المشبهة: الذين أثبتوا الأسماء والصفات مع تشبيه الله تعالى بخلقه زاعمين أن هذا مقتضى دلالة النصوص، لأن الله تعالى يخاطب العباد بما يفهمون وهذا الزعم باطل أيضًا.

فإذا أثبت الله لنفسه أنه سميع، فإن السمع معلوم من حيث أصل المعنى «وهو إدراك الأصوات» لكن حقيقة ذلك بالنسبة إلى سمع الله تعالى غير معلومة، لأن حقيقة السمع تتباين حتى في المخلوقات، فالتباين فيها بين الخالق والمخلوق، أبين وأعظم[(٢)].

ومن أبرز المعطلين: الجهمية الذين عطلوا جميع الأسماء والصفات حيث عطلوا الله من صفاته، ومن معاني أسمائه وحقائقها، فالله تعالى أثبت لنفسه السمع والبصر والوجه واليدين والاستواء على العرش والمجيء والقدرة والمشيئة وغير ذلك من صفات الله، والمعتزلة والجهمية تنكر ذلك[(٣)].

ومما خالفت به القدرية والمعتزلة الكتاب والسنة وأهل الحديث وركبت العناد فيه أن قالوا: ليس لله حياة ولا إرادة ولا قوة ولا سمع ولا بصر ولا كلام وردوا ما جاء به القرآن من إثبات الوجه واليدين لله[(٤)].

أما الأشاعرة قدماؤهم ومعاصروهم، فالتوحيد عندهم هو نفي التثنية أو التعدد ونفي التبعيض والتركيب والتجزئة أي حسب تعبيرهم «نفي الكمية المتصلة والكمية المنفصلة»، ومن هذا المعنى فسروا الإله بأنه: الخالق أو القادر على الاختراع، وأنكروا بعض الصفات كالوجه واليد والعين؛ لأنها تدل على التركيب والأجزاء عندهم[(٥)].

---

(١) انظر: أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات، مرعي الكرمي ص١٣٩.

(٢) انظر: شرح ثلاثة الأصول، ابن عثيمين ص ٨٨-٨٩.

(٣) انظر: موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية، أبو سهل المغراوي ١٠/ ١٨٢.

(٤) انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، أبو الحسين العمراني ١/ ١٣٤.

(٥) انظر: منهج الأشاعرة في العقيدة، سفر بن عبد الرحمن الحوالي ص٨٠.

ثانيًا: رؤية المؤمنين لوجه الله تعالى:

أجمع أهل الحق واتفق أهل التوحيد أن الله تعالى يرى في الآخرة، كما جاء في كتابه، وصح عن رسوله صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٣][1].

فالمؤمنون يرون ربهم في الآخرة ويزورونه، ويكلمهم ويكلمونه، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين:١٥].

فلما حجب أولئك في حال السخط دل على أن المؤمنين يرونه في حال الرضى، وإلا لم يكن بينهما فرق، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته)[2]، «وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية، لا للمرئي بالمرئي، فإن الله تعالى لا شبيه له ولا نظير»[3].

أما رؤيته في الآخرة فهو قول السلف والأئمة وتواترت به الأحاديث، ثم جمهور القائلين بالرؤية يقولون يرى عيانًا مواجهة كما هو المعروف بالعقل[4].

يقول الطحاوي: «والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه»[5].

وأحاديث الرؤية متواترة في هذا المعنى عند أهل العلم بالحديث، لا ينكرها إلا ملحد زنديق[6].

وإذا لقيه المؤمنون رأوه، أما الكفار فمحجوبون عن رؤيته، لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين:١٥].

فحجبهم عن رؤيته، ولا يحجب عنها المؤمنين[7].

فإذا كان الكافر يحجب عن الله، والمؤمن يحجب عن الله، فما فضل المؤمن

---

(١) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد، المقدسي ص١٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر ١/ ٤٣٩، رقم ٦٣٣.

(٣) لمعة الاعتقاد، ابن قدامة المقدسي ص٢٢.

(٤) انظر: المنتقى من منهاج الاعتدال، الذهبي ص١٥١.

(٥) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ١/ ٢٠٧.

(٦) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الهراس ص١٥٧.

(٧) انظر: الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري ص٤٦.

على الكافر في الإيمان بالنظر إلى الله عز وجل[1].

ومن قول أهل السنة: «إن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة وأنه يحتجب عن الكفار والمشركين فلا يرونه، وقال عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فسبحان من لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير»[2].

(١) انظر: الرد على الجهمية والزنادقة، صبري شاهين ص ١٣٣-١٣٤.

(٢) أصول السنة، ومعه رياض الجنة بتخريج أصول السنة، ابن أبي زمنين المالكي ص١٢٠.

أنواع الوجوه وصفاتها

لقد وصف الله في كتابه العزيز وجوه أهل السعادة ووجوه أهل الشقاء بأوصاف بليغة تتحدث عن نفسها راسمةً أبلغ الصور في إيصال المعنى المقصود.

أولًا: وجوه أهل السعادة:

إن الوجه هو المرآة التي تعكس ما يختلج في النفس البشرية من أفكار وما يعتري الإنسان من عواطف، فتنعكس ابيضاضًا أو اسودادًا على صفحة الوجه.

١. الوجوه المستبشرة.

يقول الله جل جلاله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس:٣٨-٣٩].

أي: «مضيئة مشرقة منورة بنور الإيمان»[3].

قال الألوسي: «مضيئة متهللة»[4]، وقال سيد قطب «فهذه وجوه مستنيرة منيرة متهللة ضاحكة مستبشرة، راجية في ربها، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها»[5].

فهذه الوجوه تنطق بلسان حالها بشرًا وإشراقًا، بلغة واضحة جلية.

٢. الوجوه المبيضة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ

(٣) الفواتح الإلهية، النخجواني، ٢/ ٤٨٦.

(٤) روح المعاني، ١٥/ ٢٥٢.

(٥) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٨٣٤.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٦-١٠٧]

إن ابيضاض الوجوه مفردة من مفردات لغة الجسد، وهي تدل بوضوح على الوضاءة والسرور، قال الثعلبي: «ابيضاض الوجوه: إشراقها واستبشارها وسرورها بعملها»(١)، وقال الراغب: «ابيضاض الوجه عبارة عن المسرة»(٢).

٣. الوجوه النضرة.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة:٢٢].

وقال أيضًا: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين:٢٤].

قال الطبري: «نضرة الوجوه: حسنها»(٣)، وقال الواحدي: «مضيئةٌ حسنةٌ»(٤).

فقد كان النعيم والبهجة واللذة أحاسيس ومشاعر كامنة ترجمها الوجه بلسان حاله، وبلغته الخاصة؛ قال السعدي: « أي: حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح»(٥)؛ فالنضارة ترجمةٌ للسرور قال البقاعي: «النضرة في الوجه والسرور في القلب»(٦).

٤. الوجوه الناعمة.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الغاشية:٨].

إن مفردة (النعومة) في لغة الوجه تعني: السرور الشديد؛ قال السعدي: «قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور»(٧).

ويؤكد هذا المعنى سيد قطب فيقول: «فهنا وجوه يبدو فيها النعيم، ويفيض منها الرضى، وجوه تنعم بما تجد، وتحمد ما عملت، فوجدت عقباه خيرًا، وتستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع، شعور الرضى عن عملها»(٨).

٥. الوجوه المتشوقة.

قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤].

إن مفردة (تقلب الوجه) تعني: الطلب بمنتهى الأدب؛ وقد خاطب النبي صلى الله عليه وسلم ربه بهذه اللغة؛ يقول الشعراوي: « إن الله سبحانه يحيط رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قد رأى تقلب وجه رسوله

(١) الكشف والبيان، ٣/ ١٢٥.
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ٢/ ٧٨١.
(٣) جامع البيان ٢٤/ ٧١.
(٤) الوجيز ص١١٥٥.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص٨٩٩.
(٦) نظم الدرر ٢١/ ٣٢٨.
(٧) تيسير الكريم الرحمن ص٩٢٢.
(٨) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٩٧.

الكريم في السماء وأجابه ليتجه إلى القبلة التي يرضاها»[1].

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوجه إلى ربه بدعاء صامتٍ - إن صح التعبير -، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل بصره في السماء متشوقًا لتحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة، قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، فهي حالة جسدية يظهر فيها أيضًا الأدب مع الله عز وجل في الدعاء فحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يستخدم الكلام في الدعاء، ولكنه قلب وجهه في السماء دلالة على هذا الدعاء[2].

ثانيًا: وجوه أهل الشقاء:

١. الوجوه المسودة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران:١٠٦].

وقال أيضًا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر:٦٠].

إن اسوداد الوجوه ترجمةٌ للخزي والهوان كما يقول السعدي: «هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة»[3]، وقال ابن عاشور: «وقد جعل الله اسوداد الوجوه يوم القيامة علامة على سوء المصير»[4].

وقد عد الزجاج الاسوداد عنوانًا عريضًا لأهل النار فقال: «ويعرفون أصحاب النار بسيماهم وسيماهم اسوداد الوجوه»[5].

٢. الوجوه الباسرة.

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة:٢٤].

إن هذه الوجوه الباسرة وجوه شقية، تترجم القنوط واليأس والإحباط بلسان حالها فهي كالحةٌ سوداء، يقول البغوي: «عابسة كالحة مغبرة مسودة»[6].

وقال البيضاوي: «شديدة العبوس»[7].

ويترجم البقاعي هذه المفردة فيقول: «أي شديدة العبوس والكلوح والتكره لما هي فيه من الغم كأنها قد غرقت فيه فرسبت بعد أن سبرت أحوالها، فلم يظهر لها وجه خلاص»[8].

٣. الوجوه الخاشعة.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ [الغاشية:٢-٣].

---

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٦١.
(٢) انظر: لغة الجسد في القرآن الكريم، أسامة جميل عبد الغني ربايعة ص٦١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص١٤٢.
(٤) التحرير والتنوير ٢٤/ ٤٩.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٣٤٣.
(٦) معالم التنزيل ٨/ ٢٨٥.
(٧) أنوار التنزيل ٥/ ٢٦٧.
(٨) نظم الدرر ٢١/ ١٠٦.

إن هذا الخشوع لهذه الوجوه ليس خشوع عبادة، بل خشوع ذلة ومهانة؛ فكأن الخشوع بلغة لسان الحال له أصلان: أصل يدل على العبادة، والأصل الثاني يدل على الذلة والمهانة، وفي هذه الآية فإنه يدل على الأصل الثاني، يقول الرازي: «خاشعة أي: ذليلة قد عراهم الخزي والهوان»(١).

يقول سيد قطب مترجمًا هذه المعاني: «فهناك: يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة، ولم تجد إلا الوبال والخسارة، فزادت مضضًا وإرهاقًا وتعبًا، فهي: «عاملةٌ ناصبةٌ» عملت لغير الله، ونصبت في غير سبيله»(٢).

٤. الوجوه المنكرة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج:٧٢].

إن الإنكار الذي يظهر على هذه الوجوه إنما هو ترجمة لكره الحق واتباعه؛ فإذا تليت على هؤلاء الآيات، فإنك تستطيع قراءة الكره على صفحات وجوههم المعاندة، قال البيضاوي: « الإنكار لفرط نكيرهم للحق وغيظهم لأباطيل أخذوها تقليدًا »(٣).

يقول الشعراوي مفسرًا ذلك المنكر الذي بدا على تلك الوجوه، قارئًا معناه بوضوح: « أي: الكراهية تراها وتقرؤها في وجوههم عبوسًا وتقطيبًا وغضبًا وانفعالًا، ينكر ما يسمعون، ويكاد أن يتحول الانفعال إلى نزوع غضبي يفتك بمن يقرأ القرآن لما بداخلهم من شر وكراهية لما يتلى عليهم»(٤).

(١) مفاتيح الغيب ٣١/ ١٣٨.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٩٦.
(٣) أنوار التنزيل ٤/ ٧٩.
(٤) تفسير الشعراوي ٦/ ٩٩٢٨.

أسباب بياض الوجود وسوادها

الوجه صفحة يقرأ عنها ما استقر في قلب الإنسان، ويظهر ذلك على شكل بياضٍ معنويٍ للوجه أو سواد، ويرجع ابيضاض الوجوه أو اسودادها المعنويين في الدنيا لأسباب عدة سنتعرض لها فيما بعد، أما البياض والسواد الحقيقيين فهما في الآخرة، حيث يكون السواد ملمة والبياض نعمة.

أولًا: أسباب بياض الوجوه:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران:١٠٦].

فهذه الآية تتحدث عن البياض والسواد الحقيقيين في الآخرة وليس في الدنيا، قال أبو جعفر: «يعني بذلك جل ثناؤه: أولئك لهم عذاب عظيم في يوم تبيض وجوه وتسود وجوه»[(١)].

قال الشوكاني «يوم تبيض وجوه، أي: يوم القيامة»[(٢)].

وجاءت تفسيرات كثيرة تصف من تبيض وجوههم يوم القيامة ومن تسود، وحاصلها أن البياض يخص المتقين والسواد يخص اليهود والكافرين، عن عطاء «تبيض وجوه المهاجرين والأنصار وتسود وجوه بني قريظة والنضير»[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٧].

فمن أسباب بياض الوجوه في الآخرة رؤية المؤمن كتابه كما قال الشوكاني: «إذا قرأ المؤمن كتابه رأى حسناته فاستبشر وابيض وجهه»[(٤)].

أما ابيضاض الوجوه في الدنيا فمعنوي - كما تقدم - ويظهر على شكل بشرٍ في الوجوه وقبولٍ، حتى وان كانت البشرة سوداء فالسواد في الدنيا ليس ملمة بل يكون أحيانًا نعمة ينعمها الله على الإنسان، حيث يحميه من قسوة البيئة وحرارة الشمس.

يقول الشعراوي: «وهنا يجب أن نعلم أن الاسوداد والابيضاض هما من آثار اختلاف البيئات في الدنيا، فالشخص الأسود يزيد الله في تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب البيئة، لأن المادة الملونة للبشرة في جسده موجودة بقوة، لتعطيه اللون المناسب لمعايشة ظروف البيئة، أما أبيض البشرة فلا يملك جسده القدر الكافي من المادة الملونة، لأن بيئته لا تحتاج مثل هذه المادة الملونة»[(٥)].

(١) جامع البيان ٧/ ٩٣.
(٢) فتح القدير ١/ ٤٢٣.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٦٩.
(٤) فتح القدير ١/ ٤٢٤.
(٥) تفسير الشعراوي ٣/ ١٦٦٧.

ومن أسباب البياض المعنوي في الدنيا الأعمال الصالحة المقرونة بالقلوب النقية المتصفة بالصفات الحميدة، وبنظرة متعمقة في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم نجد أن بعض الصفات تكرر بصورة أكبر من غيرها، وقد تكون هي الأسباب الرئيسة لذلك البياض المعنوي وهي كالآتي:

١. التقوى.

من أهم أسباب ابيضاض الوجوه تحقق التقوى في القلب، ولقد ورد ذكر التقوى في القرآن في مائة وخمسين وثماني آيات، وسبعة وأربعين حديثًا؛ فالتقوى نتيجة حتمية، وثمرة طبيعية للشعور الإيماني العميق الذي يتصل بمراقبة الله تعالى، والخشية من جبروته، والخوف من غضبه وعقابه، والطمع بعفوه وثوابه، وقد اهتم القرآن الكريم بفضيلة التقوى اهتمامًا كبيرًا؛ بل أمر بها وحض عليها في كثيرٍ من الآيات، حيث لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من حقيقة التقوى[١].

وإن من أسمى ثمرات التقوى الوصول إلى محبة الله؛ قال تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾[التوبة:٤]،

وقال أيضًا: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾[التوبة:٧].

وقال أيضًا: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾[آل عمران:٧٦].

٢. الصدق.

وقد حث الله عليه في كتابه الكريم، وحض عليه رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم في غير موضع من سنته المطهرة، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم في اثنتين وتسعين آية، وفي السنة المطهرة في أربعةٍ وأربعين حديثًا.

لقد جاء الدين مهذبًا للنفوس ومكملًا لمكارم الأخلاق وحاملًا للإنسان على استخدام العقل وتحري الصدق والأمانة من أجل رضى الله وخير الناس جميعًا، ولقد حض الله المؤمنين على الصدق حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩].

لذا وجب الاتصاف بالصدق الذي هو كما قال ابن القيم: «سيف الله في أرضه، والذي ما وضع على شيء إلا بتره، ولا واجه باطلًا إلا أرداه وصرعه»[٢].

وقال الفضيل بن عياض: «لم يتزين

---

(١) انظر: سلسلة مدرسة الدعاة، عبد الله ناصح علوان، ص١٧٨.

(٢) مدارج السالكين، ٢/ ٢٥٧.

العباد بشيء أفضل من الصدق، والله سائل الصادقين عن صدقهم، فكيف بالكذابين المساكين»[1].

ومن عظم أهمية الصدق فقد «ورد لفظه بصيغه المختلفة مائة وسبعًا وعشرين مرة في مائة وعشرين آية»[2]، وقد اتصف به الأنبياء جميعًا قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم:٤١].

وقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم:٥٦]، وأثنى الله على إسماعيل عليه السلام، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم:٥٤].

٣. الأمانة.

لقد ورد ذكرها في القرآن في ست عشرة آية، وثلاثين حديثًا، ولقد تحدث القرآن الكريم عن فضيلة الأمانة في أكثر من موطن، منوها بشأنها، حاثًا على رعايتها وصيانتها، وتبدو أهميتها من خلال اتصاف الأنبياء جميعًا بها فهي من أبرز أخلاق الرسل عليهم الصلاة والسلام فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب في سورة الشعراء يخبرنا الله عز وجل أن كل رسول من هؤلاء قد قال لقومه: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، وقد وصف جبريل عليه السلام بالأمانة فقد قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء:١٩٣].

وقال فيه أيضًا: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير:٢١].

وهؤلاء جميعًا اتصفوا ببياض الوجوه.

٤. حسن الخلق.

إن حسن الخلق هو الحلة الجميلة التي يتحلى ويزدان بها المسلم، وهو من صفات الأنبياء والمرسلين، وبعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[3].

وقد عده النبي صلى الله عليه وسلم من أحسن خصال الإيمان فقال: (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا)[4].

بل هو أعظم العبادات عند الله عز وجل، ولذلك وصف الله تعالى به خير المرسلين فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم:٤].

وقد ورد ذكره في ثماني آيات، وستةٍ وخمسين حديثًا.

ولقد جمع قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ

---

(١) الترغيب والترهيب، الأصبهاني، ٢/ ٢٩٨.

(٢) الموسوعة الجامعة في الأخلاق والآداب، سعود الحزيمي ص١٠٣١.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٥١٢، رقم ٨٩٥٢، والبخاري في الأدب المفرد، رقم ٢٧٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٦٤، رقم ٢٣٤٩.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٢/ ٣٦٤، رقم ٧٤٠٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٦٦، رقم ١٢٣٠.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف:١٩٩].

مكارم الأخلاق جميعًا.

فمن تحلى بهذه الأخلاق القرآنية انعكس على وجهه بياضًا وبشرًا.

ثانيًا: أسباب سواد الوجوه:

السواد الحقيقي كما تقدم يكون يوم القيامة عند رؤية الكافر لكتابه، قال الشوكاني: «وإذا قرأ الكافر كتابه رأى سيئاته فحزن واسود وجهه»[(١)].

ومن أسباب السواد المعنوي في الدنيا: الأعمال السيئة المقرونة بالقلوب الخبيثة المتصفة بالصفات الذميمة، قال بعض السلف: لو ادهن صاحب البدعة كل يوم بدهان فإن سواد البدعة لفي وجهه[(٢)].

وبنظرة متعمقة في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم نجد أن بعض الصفات تكرر بصورة أكبر من غيرها، وقد تكون هي الأسباب الرئيسة لذلك السواد المعنوي وهي كالآتي:

١. الكِبْر.

الكبر من أهم اسباب اسوداد الوجوه، حيث يجعل في القلب نكتة سوداء يظهر أثرها واضحا جليًا على وجوه المتكبرين، وقد ورد في ذم الكبر سبعٌ وأربعون آية، وستةٌ وثلاثون حديثًا.

وأفحش الكبر التكبر على الله مثل تكبر فرعون والنمرود على أن يكونا عبدين لله عز وجل، بل ادعيا الربوبية؛ فقد قال فرعون: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[القصص:٣٨]، وقال: « ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

وقال النمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وكانت النتيجة من الله عز وجل، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠].

وقد تكبر قارون على قومه حيث قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ٧٦﴾[القصص:٧٦].

قال الواحدي: «﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالكبر والتجبر والبذخ وكثرة المال»[(٣)].

وكان عقاب الله تعالى له: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ٨١﴾ [القصص:٨١].

٢. النفاق.

إن من أكبر المصائب، وأعظم مسببات اسوداد الوجوه، استيلاء النفاق على القلب، أو مخالطته للأعمال، كيف لا وقد كان

(١) فتح القدير ١/ ٤٢٤.
(٢) انظر: الجواب الصحيح، ابن تيمية ٦/ ٤٨٩.
(٣) الواحدي، الوجيز، ص٨٢٥.

السلف الصالح يخافون من النفاق أشد الخوف، لما يعلمون من خطره، ولما تبين لهم من ضرره، فقد أخرج البخاري في صحيحه أن ابن أبي مليكة قال: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، كلهم يخاف النفاق على نفسه»[1]، وقد ورد ذكر النفاق والمنافقين في أربع وعشرين آية، وواحدٍ وخمسين حديثًا.

إن أكبر خطر يهدد الدعوة؛ بل الأمة الإسلامية على مر العصور هو النفاق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤].

والحصر في الآية لبيان أولويتهم في العداوة، ولهذا كان مصيرهم يوم القيامة أسوأ مصير في الدرك الأسفل من النار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥].

٣. الرياء.

الرياء داءٌ خطير، ووباءٌ وبيل، خافه النبي صلى الله عليه وسلم على أمته، وما ذاك إلا لشدة خفائه، ولعظيم خطره، فهو سببٌ لعدم قبول الأعمال، وقد أضحى مزلةً لأقدام كثيرٍ من العلماء والدعاة ومعوقًا كبيرًا على طريق الدعوة إلى الله، وقد ذمه الله عز وجل في اثنتي عشرة آية، وذمه النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين حديثًا.

إن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا صوابًا، والخالص هو: ما ابتغي به وجه الله، والصواب هو: ما كان موافقًا لهدي نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة:٢٦٤].

قال ابن كثير: أي: «لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه»[2].

٤. الأثرة.

إن الأثرة معولٌ هدام وشرٌ مستطير، وبها تحل النقم، وتذهب النعم، وهي دليلٌ على دناءة النفس وخستها، تؤذي وتضر، وتجلب الخصام والنفور، وبها يضيع العدل، وينتفي الخلق، وهي ظلمٌ اجتماعي يدمر المجتمع، وظلام في الوجه يدمر القلب، فقد ذمها الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، ١/١٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٩٤.

في آيتين عظيمتين، وذمها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم في تسعةٍ وعشرين حديثًا.

وقد حذر الله منها أشد تحذير فقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ [النازعات ٣٧-٣٩].

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٤﴾ [التوبة: ٢٤].

احكام تتعلق بالوجه

لقد تعلق بالوجه أحكامٌ كثيرة كاستقبال القبلة والوضوء والتيمم والسجود وغير ذلك، فالوجه نعمة إلهية من الله علينا بها.

أولًا: الوجه نعمة إلهية:

إن الوجه هو المرآة التي تعكس ما يختلج في النفس البشرية من أفكار وما يعتري الإنسان من عواطف، فتترجم بلسان الحال إلى لغة خاصة، يستطيع قراءتها وفهمها من له دراية بلغة الجسد، فعند التأمل في وجه إنسان تقرأ ما يفكر فيه، وقد قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما أسر أحدٌ سريرةً إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه»(1).

والوجه في مجموعه يكون نظامًا متكاملًا، فالجبهة والعينان والأنف والأذنان والشفتان والذقن والفم، توجد بينها علاقة متبادلة، بحيث تؤدي جميعًا أعمالًا وظيفية، لا يمكن لأي منها أن يؤديها وحده أبدًا، بالإضافة إلى ما يسهم به كل منها في تكوين المظهر الكلي للوجه، والذي تؤدي تعابيره دورًا مهمًا بوصفها مصدرًا للبيانات المتعلقة بالحالات الانفعالية للإنسان، كحالات الفرح والحزن والخوف والدهشة والغضب

(1) الآداب الشرعية، ابن مفلح ١/ ١٣٦.

والاشمئزاز والازدراء[1].

ويظهر ذلك من خلال اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بلغة الوجه وحرصه عليها كثيرًا، ومن الأمثلة على ذلك، قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق)[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (تبسمك في وجه أخيك لك صدقة)[3].

ومن عظيم خلق الله أن من علينا بنعمة الوجه الحسن قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين:٤].

وقال أيضًا: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٧-٨].

قال السمعاني: «جعلك قائما معتدلا حسن الصورة»[4].

«قال أبو علي الفارسي: «عدلك»: خلقك، فأخرجك في أحسن تقويم، مستويًا على جميع الحيوان والنبات، وواصلًا في الكمال إلى ما لم يصل إليه شيء من أجسام هذا العالم»[5].

ثانيًا: إخلاص العبادة لله تعالى:

إن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من الأمور العظيمة والجليلة، كيف لا وهي وظيفة الرسل والأنبياء.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥].

ولذلك كان حريًا بكل مسلم أن يكون داعيًا إلى الله عز وجل، ولا شك أن الداعية إلى الله عز وجل لا يكون داعيًا ناجحًا موفقًا في دعوته إلا بإخلاص عمله كله لله، ومتابعته لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أموره، والداعية الناجح من يعتبر أن الإخلاص من أهم الأركان التي يقوم عليها نجاح أي فكرة من الأفكار أو إنجاز أي عمل من الأعمال، فبه تقوى الفكرة وترتفع الراية، وبه ينجح العمل وتحصل الغاية، وقد ورد ذكره في ثلاث وعشرين آية، وأربعة وثلاثين حديثًا.

الإخلاص هو تجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب فإذا امتزج قصد التقرب بباعث آخر من رياء أو غيره

(١) انظر: أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، عبد الله عودة ص٤٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، ح٢٦٢٦، ٤/ ٢٠٢٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في صنائع المعروف، ٤/ ٣٣٩، رقم ١٩٥٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٦١، رقم ٢٩٠٨.

(٤) تفسير القرآن ٦/ ١٧٤.

(٥) اللباب في علوم الكتاب ٢٠/ ١٩٨.

من حظوظ النفس فقد خرج عن الإخلاص ومن كلام الفضيل بن عياض ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما»[1].

وجاء في تزكية النفوس «هو إفراد الله عز وجل بالقصد في الطاعات»[2].

ولقد تضافرت النصوص في الكتاب والسنة مبينة فضل الإخلاص وأهميته وضرورته في قيام دولة الإسلام في نفس الداعية أولًا، ثم على أرض الواقع ثانيًا، «وقد ذكرت مادة الإخلاص - بصيغها المختلفة- إحدى وثلاثين مرة في ثلاثين آية»[3].

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

قال السمعاني: «أي: أخلص دينك لله، وإقامة الوجه هو إقامة الدين»[4]، وخوطب الإنسان بإقامة الوجه لشرفه وارتباطه بكل ما هو حسن.

قال ابن عطية: «وإقامة الوجه هي تقويم المقصد والقوة على الجد في أعمال الدين، وذكر الوجه لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه»[5].

ويؤكد هذا المعنى السعدي حيث قال: «يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال وإقامة دينه فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان بأن تتوجه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها. وشرائعه الباطنة كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة بأن تعبد الله فيها كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وخص الله إقامة الوجه لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب ويترتب على الأمرين سعي البدن»[6].

ثالثًا: الوضوء والتيمم:

لقد ارتبط الوضوء والتيمم كشرطيين أساسيين للدخول في أجل عبادة؛ ألا وهي الصلاة، وقد اشترط الشارع الحكيم، وجعل غسل الوجه في الوضوء - أو مسحه في التيمم - ركنًا من أركان الطهارة، وذلك يوحي بشرف الوجه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ

(١) البيان في مداخل الشيطان، عبد الحميد البلالي ص١٧٧.
(٢) تزكية النفوس، أحمد فريد ص٧.
(٣) الموسوعة الجامعة في الأخلاق والآداب، سعود الحزيمي ص٥٣.
(٤) تفسير القرآن ٤/ ٢٠٩.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣٦.
(٦) تيسير الكريم الرحمن ص٦٤١.

وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ [المائدة:٦].

قال القرطبي: ذكر تعالى أربعة أعضاء: الوجه وفرضه الغسل واليدين كذلك والرأس وفرضه المسح اتفاقا ولا بد في غسل الوجه من نقل الماء إليه، وإمرار اليد عليه، وهذه حقيقة الغسل عندنا، ومسح الوجه في التيمم بدل من غسله، فلا بد أن يأتي بالمسح على جميع موضع الغسل منه[١].

وقد اختلف الفقهاء هل باطن الأنف والفم من الوجه أم لا؟.

قال القرطبي: «اختلفوا هل يتناول الأمر بغسل الوجه باطن الأنف والفم أم لا؟

فذهب أحمد بن حنبل وإسحاق وغيرهما إلى وجوب ذلك في الوضوء والغسل، إلا أن أحمد قال: يعيد من ترك الاستنشاق في وضوئه ولا يعيد من ترك المضمضة. وقال عامة الفقهاء: هما سنتان في الوضوء والغسل، لأن الأمر إنما يتناول الظاهر دون الباطن، والعرب لا تسمي وجها إلا ما وقعت به المواجهة»[٢].

قال تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح:٢٩].

قال الواحدي: «علامتهم في وجوههم من أثر السجود يعني: نورًا وبياضًا في وجوههم يوم القيامة يعرفون بذلك النور أنهم سجدوا في دار الدنيا لله تعالى»[٣].

رابعًا: استقبال القبلة:

إن من شروط الصلاة استقبال القبلة، وقد ارتبط هذا الشرط ارتباطًا مباشرًا بالوجه، الذي عبر به عن الذات.

قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [البقرة:١٤٤].

وتقلب الوجه، المقصود به تقلب النظر، قال ابن عطية: «المقصد تقلب البصر، وذكر الوجه لأنه أعم وأشرف، وهو المستعمل في طلب الرغائب، تقول: بذلت وجهي في كذا، وفعلت لوجه فلان»[٤]، إلا أن الرازي قال: «إن تقلب وجهه في السماء هو الدعاء»[٥].

ويقصد بالوجه في قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ الذات، قال الزحيلي: «فول

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٨٣-٨٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٨٤.

(٣) الوجيز ص١٠١٤.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٢٢١.

(٥) مفاتيح الغيب ٤/ ٩٥.

وجهك أطلق الوجه، وأريد به الذات، من قبيل المجاز المرسل، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل»[1].

خامسًا: السجود:

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩].

أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد؛ ذلك أنه يضع أشرف شيء عنده على الأرض تواضعًا وذلًا وخضوعًا وخشوعًا لله، وفي المقابل ينعكس ذلك نورًا وضياءً وسمتًا حسنًا على ذلك الوجه الساجد لله، قال الطبري: «وقال آخرون: بل ذلك سيما الإسلام وسمته وخشوعه، وعنى بذلك أنه يرى من ذلك عليهم في الدنيا»[2].

«وعن ابن عباس في قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ قال: السمت الحسن»[3].

«وقال الحسن: هو السمت الحسن»[4].

وقال العز بن عبد السلام: «﴿سِيمَاهُمْ﴾: ثرى الأرض وندى الطهور، أو السمت الحسن»[5].

فهذا السمت الحسن قد من الله عز وجل به على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وجعله ظاهرًا جليًا في وجوههم، كان سببه المباشر لسان حالهم المخبت الداعي إلى الله عز وجل بكثرة السجود.

(١) التفسير المنير ٢/ ١٨.
(٢) الطبري، جامع البيان، ٢٢/ ٢٦٤.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٠١.
(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٠٩.
(٥) تفسير العز بن عبدالسلام ٣/ ٢١٠.

ابتغاء وجه الله بالأعمال الصالحة

لقد خلق الله الثقلين للعبادة، فالغاية من الخلق عبادة الله وحده ومرضاته.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

وكل الأعمال الصالحة يبتغى بها وجه الله، وهناك من الأعمال الصالحة ما تكرر كثيرًا، ومنها:

١. الصبر.

إن المسلم في تعامله ترفرف على محياه سمة الصبر والحلم وعدم الغضب وكظم الغيظ إذا وقع منه زلةٌ ولا يرى في الصفح عن أخيه ذلًا يحيق به، بل يرى فيه إحسانًا يقربه إلى الله زلفى كما قال الله جل جلاله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران:١٣٤].

يقول ابن أبي حاتم: «يغضبون في الأمر لو وقعوا فيه فيغفرون ويعفون، يلتمسون بذلك وجه الله»(١).

ويقول الخازن: «وهذا الوصف من أقسام الصبر والحلم»(٢).

٢. إيتاء حق ذي القربى والمساكين وابن السبيل.

قال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٣٨﴾ [الروم:٣٨].

يقول الشعراوي: حينما نتأمل النسق القرآني هنا نجد أن الله تعالى ذكر أولًا البسط في الرزق، ثم التقتير فيه، ثم أكد بعده مباشرة على حق ذي القربى والمسكين وابن السبيل، وكأنه يلفت أنظارنا أن هذه الحقوق لا تقتصر على من بسط له الرزق، إنما هي على الجميع حتى من كان في خصاصه، وضيق عليه رزقه، فلا ينسى هؤلاء.

لذلك يذيل الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، والجميع: من بسط له، ومن قتر عليه يريدون وجه الله(٣).

٣. إيتاء الزكاة.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩].

وقال أيضًا: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٦٥﴾ [البقرة:٢٦٥].

وقال: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٧٦٣.

(٢) لباب التأويل ١/ ٢٩٨.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي ١٨/ ١١٤٤٩.

إِصۡلَٰحِۢ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ [النساء:١١٤].

أن أجر الزكاة والصدقات أجرٌ عظيم كما وصفه الله في كتابه العزيز: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، وجعل للقائمين بهما المضاعفة في الأجور والثواب، بل وشبه هذا الأجر العظيم بالجنة المثمرة التي تؤتي ثمارًا مضاعفة.

٤. إطعام المسكين واليتيم والأسير.

لقد وصف الله الأبرار بصفات عديدة حميدة وكان منها إطعام المساكين والأيتام والأسرى.

قال تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان:٨].

قال النسفي: « أي حب الطعام مع الاشتهاء والحاجة إليه أو على حب الله مسكينا فقيرًا عاجزًا من الاكتساب ويتيمًا صغيرًا لا أب له وأسيرًا مأسورًا مملوكًا أو غيره ثم عللوا إطعامهم فقالوا: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان:٩]، أي: لطلب ثوابه»(١).

٥. الإقبال بالوجه.

الإقبال بالوجه الحسن، وإدخال السرور على الأسرة بما فيها الزوجة والأولاد واجبٌ شرعي لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

يقول البقاعي: «ولما كان الإنسان راعيًا لأهل بيته مسئولًا عن رعيته قال تعالى: ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ من النساء والأولاد»(٢).

كما أنها واجبٌ عرفي؛ وقد جاء في المادة (٩٣) من ميثاق الأسرة في الإسلام «الأسرة محضن الطفل وبيئته الطبيعية اللازمة لرعايته وتربيته، وهي المدرسة الأولى التي ينشأ الطفل فيها على القيم الإنسانية، والأخلاقية، والروحية، والدينية»(٣).

واجب المسلم تجاه من يريدون وجه الله تعالى:

لقد أمرنا الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، وأن نكون عباد الله إخوانًا؛ لذا وجب على كل داعية مسلم، بل وكل فردٍ مسلم أن يشد على يدي كل من أراد وجه الله؛ وذلك من عدة وجوه نذكر منها:

١. مجالستهم والتعاون معهم على ما يرضي الله تعالى.

فهؤلاء قد ابتغوا وجه الله بتجرد ومحبة وأدب لذا حثنا الله على مجالستهم وعدم طردهم لما فيه من تفويت المصلحة

(١) مدارك التنزيل ٣/ ٥٧٨.

(٢) نظم الدرر، ٢٠/ ١٩٧.

(٣) ميثاق الأسرة في الإسلام، إعداد اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل، عمان، جمعية العفاف الخيرية، ص٦٢.

للإسلام والمسلمين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢].

يقول سيد قطب: لا تطرد هؤلاء الذين أخلصوا نفوسهم لله فاتجهوا لعبادته ودعائه في الصباح والمساء يريدون وجهه سبحانه، ولا يبتغون إلا وجهه ورضاه، وهي صورة للتجرد، والحب، والأدب؛ فإن الواحد منهم لا يتوجه إلا إلى الله وحده بالعبادة والدعاء، وهو لا يبغي وجه الله، إلا إذا تجرد، وهو لا يبغي وجه الله وحده حتى يكون قلبه قد أحب، وهو لا يفرد الله سبحانه بالدعاء والعبادة ابتغاء وجهه إلا ويكون قد تعلم الأدب، وصار ربانيًا يعيش لله وبالله[(١)].

٢. الصبر معهم على طاعة الله تعالى.

لقد أمر الله تعالى بعدم طرد من يبتغون وجهه، بل وأكد على مجالستهم والصبر عليهم.

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف:٢٨].

قال الرازي: «بين الله أنه لا يجوز طردهم بل تجالسهم وتوافقهم وتعظم شأنهم ولا تلتفت إلى أقوال أولئك الكفار ولا تقيم لهم في نظرك وزنا سواء غابوا أو حضروا ونظير هذه الآية قد سبق في سورة الأنعام وهو قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ﴾؛ ففي تلك الآية نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طردهم وفي هذه الآية أمره بمجالستهم والمصابرة معهم»[(٢)].

ويقول السعدي: «يأمر تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى»[(٣)].

(١) انظر: في ظلال القرآن ٢/ ١٠٩٩.

(٢) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٥٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٤٧٥.

الوجه في المثل القرآني

أن الأمثال التي يضربها الله للناس هي من تمام حجة الله على خلقه، حيث ضرب الله الأمثال لجميع الأمم السابقة، وفصلها في خاتم كتبه القرآن الكريم، وضربها النبي صلى الله عليه وسلم لأمته، فكمل بذلك البيان، واستنار الطريق، وتمت حجة الله على عباده[1].

وحقيقة المثل: إخراج الغامض إلى الظاهر، وللأمثال فوائد امتن الله بها علينا لقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت:٤٣].

وسمي المثل مثلا لأنه ماثل بخاطر الإنسان أبدا أي: شاخص فيتأسى به ويتعظ[2].

ومن الأمثال التي ضربها الله لنا مستخدمًا الوجه كأداة رئيسة لإظهار المعنى وتبيينه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢﴾ [الملك:٢٢].

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه، كمثل من يمشى مكبا على وجهه، أي: يمشى منحنيا لا مستويا على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهب، بل هو تائه حائر ضال، أهذا أهدى أمن يمشي سويًا أي: منتصب القامة على صراطٍ مستقيمٍ أي: على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم وطريقه مستقيمة.

هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الأخرة، فالمؤمن يحشر يمشي سويا على صراط مستقيم وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى النار»[3].

وقال الشوكاني «ضرب سبحانه مثلا للمشرك والموحد لأيضاح حالهما وبيان مآلهما»[4].

(١) انظر: الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله ٣/ ١٠٩٤.
(٢) انظر: المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة ص١٩٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٢٠٨.
(٤) فتح القدير ٥/ ٣١٤.

نعيم الوجوه وعذابها في الآخرة

أولًا: نعيم الوجوه في الآخرة:

١. إشراقها واستبشارها.

يقول الله جل جلاله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس:٣٨-٣٩].

أي: «مضيئة مشرقة منورة بنور الإيمان»[١].

قال الألوسي: «مضيئة متهللة»[٢].

٢. وضاءتها وبياضها.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٦-١٠٧].

قال الثعلبي: «ابيضاض الوجوه: إشراقها واستبشارها وسرورها بعملها»[٣].

وقال الراغب: «ابيضاض الوجه عبارة عن المسرة»[٤].

٣. نضارتها.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة:٢٢].

وقال أيضًا: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين:٢٤].

قال الطبري: «نضرة الوجوه: حسنها»[٥]، وقال الواحدي: «مضيئةٌ حسنةٌ»[٦].

٤. نعومتها.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الغاشية:٨].

قال السعدي: «قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور»[٧].

ويؤكد هذا المعنى سيد قطب فيقول: «فهنا وجوه يبدو فيها النعيم. ويفيض منها الرضى. وجوه تنعم بما تجد، وتحمد ما عملت. فوجدت عقباه خيرا، وتستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع. شعور الرضى عن عملها»[٨].

ثانيًا: عذاب الوجوه في الآخرة:

١. اسودادها.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر:٦٠].

قال السعدي: «هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة»[٩].

وقال ابن عاشور: «وقد جعل الله

(١) الفواتح الإلهية، النخجواني ٢/ ٤٨٦.
(٢) روح المعاني، ١٥/ ٢٥٢.
(٣) الكشف والبيان، ٣/ ١٢٥.
(٤) تفسير الراغب الأصفهاني ٢/ ٧٨١.
(٥) جامع البيان ٢٤/ ٧١.
(٦) الوجيز ص١١٥٥.
(٧) تيسير الكريم الرحمن ص٩٢٢.
(٨) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٩٧.
(٩) تيسير الكريم الرحمن ص١٤٢.

اسوداد الوجوه يوم القيامة علامة على سوء المصير»[1].

وقد عد الزجاج الاسوداد عنوانًا عريضًا لأهل النار فقال: «ويعرفون أصحاب النار بسيماهم وسيماهم اسوداد الوجوه»[2].

٢. بسورها وشقاؤها.

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤﴾ [القيامة:٢٤].

إن هذه الوجوه الباسرة وجوه شقية، كالحةٌ سوداء، يقول البغوي: «عابسة كالحة مغبرة مسودة»[3].

وقال البيضاوي: «شديدة العبوس»[4].

ويقول البقاعي: « أي: شديدة العبوس والكلوح والتكره لما هي فيه من الغم كأنها قد غرقت فيه فرسبت بعد أن سبرت أحوالها، فلم يظهر لها وجه خلاص»[5].

٣. خشوعها ونصبها.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ [الغاشية:٢-٣].

إن هذا الخشوع لهذه الوجوه ليس خشوع عبادة، بل خشوع ذلة ومهانة.

يقول الرازي: «خاشعة أي: ذليلة قد عراهم الخزي والهوان»[6].

يقول سيد قطب مترجمًا هذه المعاني: «فهناك: يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة، ولم تجد إلا الوبال والخسارة، فزادت مضضًا وإرهاقًا وتعبًا، فهي: «عاملةٌ ناصبةٌ» عملت لغير الله، ونصبت في غير سبيله»[7].

٤. تغبيرها ورهقها.

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ [عبس:٤٠-٤١].

يعذب الله تلك الوجوه يوم القيامة بالدخان الأسود والهلاك، قال الرازي: «الرهق عجلة الهلاك، والقترة سواد كالدخان، ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما ترى وجوه الزنوج إذا اغبرت، وكأن الله تعالى جمع في وجوههم بين السواد والغبرة، كما جمعوا بين الكفر والفجور»[8].

موضوعات ذات صلة:

البصر، السجود، السمع، العين، اللسان

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ٤٩.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٣٤٣.
(٣) معالم التنزيل ٨/ ٢٨٥.
(٤) أنوار التنزيل ٥/ ٢٦٧.
(٥) نظم الدرر ٢١/ ١٠٦.
(٦) مفاتح الغيب ٣١/ ١٣٨.
(٧) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٩٦.
(٨) مفاتيح الغيب ٣١/ ٦٢.

الوحدة

عناصر الموضوع

مفهوم الوحدة	٣٧٢
الوحدة في الاستعمال القراني	٣٧٣
الالفاظ ذات الصلة	٣٧٤
انواع الوحدة في القران	٣٧٦
الحث على الوحدة	٣٨٠
الوحدة والعبادات	٣٩٣
اسباب الوحدة	٤٠١
عوائق الوحدة	٤٠٩
ثمار الوحدة	٤١٧

مفهوم الوحدة

أولًا: المعنى اللغوي:

ترجع لفظة (الوحدة) في معاجم العربية إلى الجذر الثلاثي (وحد)، والناظر في تلك المعاجم يجد أن مادة (و ح د) لها عدة معانٍ؛ قال ابن فارس: « الواو والحاء والدال أصلٌ واحد يدل على الانفراد، ومن ذلك الوحدة، وهو واحد قبيلته، إذا لم يكن فيهم مثله، والواحد: المنفرد »[(1)].

وفي لسان العرب: الواحد بني على انقطاع النظير وعوز المثل، والوحيد بني على الوحدة والانفراد عن الأصحاب من طريق بينونته عنهم، والعرب تقول: أنتم حي واحدٌ، والوحدة: الانفراد؛ يقال: رأيته وحده، وجلس وحده، وقيل: الواحد هو الذي لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مثل، ولا يجمع هذين الوصفين إلا الله عز وجل[(2)].

«الوحدة الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة»[(3)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الوحدة: هي اتحاد الدول أو البلاد والأفراد والجماعات في سائر أمور حياتهم ومعاشهم وسيرتهم وغايتهم، وبموجب هذه الوحدة يصبح الجميع شيئًا واحدًا، أو أمةً واحدةً، يقال: اتحد البلدان، أي: صارا بلدًا واحدًا[(4)].

ووحدة الأمة الإسلامية هي: توحد المسلمين جميعًا، واجتماعهم على أساس الدين الإسلامي الذي أنزله الله عز وجل، بحيث تلغى بينهم جميع الروابط الأخرى، كالروابط العرقية والقومية وروابط اللغة، ويصبح القاسم المشترك بين أفراد هذه الجماعة هو الدخول في دين الإسلام؛ عقيدة وعبادة ونظام حياة.

---

(١) مقاييس اللغة ٦/ ٩٠.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٧٨٠، مختار الصحاح، الرازي ص٧٤٠.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٩٤، التوقيف على مهامات التعاريف، المناوي ص٧٢٠.

(٤) انظر: وحدة الأمة الإسلامية في السنة النبوية، أحمد عمر هاشم ص ٧.

الوحدة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وحد) في القرآن الكريم (٩) مرات[1].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم الفاعل مؤنثا	٩	﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس:١٩]

الوحدة في أصلها بمعنى الانفراد، وتستعمل في معنى الاتحاد والتوحد، أو صيرورة الاثنين فما فوقها واحدا[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٤٥، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الواو ص١٤٠٤.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ٩٠، تاج العروس، مرتضى الزبيدي، ٩/ ٢٧٤، مقاصد القرآن في السبع المثاني، أم سلمى محمد صالح، ص٣٠٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاجتماع:

الاجتماع لغة:

التئام الشيء، وضم بعضه إلى بعض، وهو خلاف التفريق[١].

الاجتماع اصطلاحًا:

هو اجتماع الناس، وعدم تفرقهم، واجتماع القلوب بائتلافها، وعدم تفرقها.

الصلة بين الاجتماع والوحدة:

الاجتماع من صور وحدة الأمة الإسلامية، وهو مطلب عزيز، يتجلى مظاهره في أعظم الشعائر التعبدية؛ كالصلاة مع الجماعة، ومناسك الحج.

٢ الاعتصام:

الاعتصام لغة:

العصم: الإمساك، والاعتصام: الاستمساك.

قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران:١٠٣].

أي: تمسكوا بعهد الله[٢]. والاعتصام بحبل الله: هو ترك الفرقة، واتباع القرآن[٣].

الاعتصام اصطلاحًا:

ولا يختلف معنى الاعتصام في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

الصلة بين الاعتصام والوحدة:

الاعتصام: الاستمساك بالشيء، افتعالٌ منه، والمقصود الاستمساك بحبل الله، وهو بهذا الاعتبار وسيلة لوحدة الأمة، وطريق إليها؛ ولهذا يقال: الاستمساك بحبل الله سبب للاجتماع ووحدة الصف، وعصمة من الخلاف والتفرق.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٧٩، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٥٣.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٩/ ٢٠٥، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٤١٨.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٦٩.

٣ التفرق:

التفرق لغةً:

خلاف التجمع، تفرق القوم وتفارقوا، والاسم الفرقة[(١)].

والتفريق: خلاف التجميع، يقال: فرق الشيء تفريقًا وتفرقة: بلده، وهو متعدٍ، أما التفرق فلازم. والتفريق أبلغ من الفرق؛ لما فيه من معنى التكثير[(٢)].

التفرق اصطلاحًا:

لا يخرج معناه عن المعنى اللغوي.

الصلة بين التفرق والوحدة:

التفرق ضد الوحدة، ويعد من أهم أسباب ضعف الأمة، وثمرة من ثمار الاختلاف المذموم بين المسلمين؛ لأن من الاختلاف ما لا يصل إلى حد الافتراق، وهو أكثر أنواع الخلاف بين الأمة.

(١) المخصص، ابن سيده ٣/ ٣٦٠.

(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٩١٨.

أنواع الوحدة في القرآن

أولًا: وحدة الخلق:

لقد بين القرآن الكريم أن الناس جميعًا يربطهم رباط واحد، ويشتركون جميعًا بأمر وثيق، يجمعهم كلهم دون استثناء، إنهم جميعًا مخلوقون لخالق واحد، وأصلهم جميعًا أب واحد، قال تعالى مخاطبًا الناس جميعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

فهذا خطاب من رب الناس للناس جميعًا، مهما تباعدت أزمانهم وأمصارهم، ومهما اختلفت لغاتهم وألوانهم، يذكرهم ربهم بأنه المتوحد المتفرد بخلقهم جميعًا، معرفًا إياهم كيف كان مبتدأ إنشائهم، ومنبهًا لهم على أن جميعهم بنو رجلٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ، وأن بعضهم من بعض، وأن حقّ بعضهم على بعض واجبٌ، وجوب حق الأخ على أخيه، لاجتماعهم في النسب إلى أبٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ، وعاطفًا بذلك بعضهم على بعض؛ ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذل القوي من نفسه للضعيف حقه بالمعروف[(١)].

إن هذه الآية العظيمة التي افتتح الله بها سورة النساء، توحي بأن هذه البشرية التي صدرت من إرادة واحدة، تتصل في رحم واحدة، وتنبثق من أصل واحد، وتنتسب إلى نسب واحد؛ ولو تذكر الناس هذه الحقيقة، لتضاءلت في حسهم كل الفروق التي نشأت في حياتهم متأخرة؛ ففرقت بين أبناء النفس الواحدة، ومزقت وشائج الرحم الواحدة، وكلها ملابسات ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها في الرعاية، وصلة النفس وحقها في المودة، وصلة الربوبية وحقها في التقوى[(٢)].

إن الناس جميعًا تجمعهم وحدة عقدية ووحدة الجنس؛ أما الوحدة العقدية فإن ربهم جميعًا واحد لا شريك له، هو الذي خلقهم، وهو الذي رزقهم، وهو الذي يميتهم، وهو الذي يحييهم، وهو الذي أوجد أبيضهم وأسودهم، وعربيهم وأعجميهم، وأما الوحدة الجنسية فالناس جميعًا على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم قد انحدروا عن أصل واحد وهو آدم عليه السلام[(٣)].

يقول سيد قطب: «إن استقرار هذه الحقيقة كان كفيلًا باستبعاد الصراع العنصري، الذي ذاقت منه البشرية ما ذاقت، وما تزال تتجرع منه حتى اللحظة الحاضرة؛ في الجاهلية الحديثة، التي تفرق بين

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٥١٢.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٧٤.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٣/ ٢٠.

الألوان، وتفرق بين العناصر، وتقيم كيانها على أساس هذه التفرقة، وتذكر النسبة إلى الجنس والقوم، وتنسى النسبة إلى الإنسانية الواحدة والربوبية الواحدة»[1].

وهناك آيات أخر في القرآن الكريم تؤكد على وحدة الناس جميعًا؛ وحدة الخالق الواحد، ووحدة التناسل من رجل واحد.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾[الأنعام: ٩٨].

وقال في موضع ثانٍ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وفي موضع ثالث قال سبحانه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [الزمر: ٦].

يمتن سبحانه في هذه الآيات على عباده بنعمة الخلق، ويذكرهم بأنهم جميعًا خلقوا من نفس واحدة.

لقد خلق الله عز وجل الناس من نفس واحدة، ثم جعل من نسلها الشعوب والقبائل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وإن هذا التمايز بين الناس وتشعبهم إلى شعوب وقبائل مختلفة، لا ينبغي أن يكون مدعاة للتفاخر وتعالي بعض الناس على بعض، فلقد بين الله عز وجل الغاية من ذلك التمايز بقوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ فالغاية هي التعارف لا التفاخر؛ التعارف الذي يؤدي إلى تأكيد معاني الوحدة والأخوة الجنسية، لا التفاخر الذي يؤدي إلى الفرقة والتشتت[2].

هذه المعاني العظيمة قد أكد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع إذ قال: (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى)[3].

ثانيًا: وحدة الملة والدين:

لقد أخبرنا الله عز وجل في كتابه العزيز أن الناس مجتمعون على ملة واحدة ودين واحد.

قال سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾[البقرة: ٢١٣].

واختلف المفسرون في معنى تلك الملة

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٧٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٦١.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٣٤٨٩. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ١٩٩، رقم ٢٧٠٠.

التي كان الناس عليها؛ فذهب بعضهم إلى القول بأن الناس كلهم كانوا على الدين الحق، كانوا على الهدى مجتمعين، وقال بعضهم: كانوا مجتمعين على الكفر والباطل[١].

ورجح شيخ المفسرين - الطبري - القول الأول، فقال: « إن دليل القرآن واضحٌ على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة، إنما كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به؛ وذلك إن الله عز وجل قال في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

فتوعد جل ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة، ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثم كان الاختلاف بعد ذلك، لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان، ولو كان ذلك كذلك لكان الوعد أولى بحكمته جل ثناؤه في ذلك الحال من الوعيد لأنها حال إنابة بعضهم إلى طاعته، ومحالٌ أن يتوعد في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك »[٢].

ولقد بين لنا ربنا عز وجل في كتابه أيضًا أنه سبحانه قادر على جعل الناس متوحدين على ملة الإسلام، وشريعة الحق الواحدة؛ ولكنه سبحانه يريد أن يبتلي عباده، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومعنى الآية: لو شاء الله عز وجل أن يجعل الأمم جميعا أمة واحدة، تدين بدين واحد، وبشريعة واحدة لفعل؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك؛ وإنما شاء أن يجعلكم أمما متعددة ليختبركم فيما آتاكم من شرائع مختلفة في بعض فروعها، ولكنها متحدة في جوهرها وأصولها؛ فيجازي من أطاعة بما يستحقه من ثواب، ويجازي من خالف أمره بما يستحقه من عذاب[٣].

وفي ذات المعنى يقول جل وعلا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

« أي: ولو شاء الله عز وجل لوفقكم كلكم، فجعلكم على ملة واحدة، وهي الإسلام والإيمان، وألزمكم به، ولكنه سبحانه يضل من يشاء ممن علم منه إيثار الضلال، فلا يهديه عدلا منه، ويهدي من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٧٥، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٠٠.

(٢) جامع البيان ٤/ ٢٨٠.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ١٨٤.

يشاء ممن علم منه إيثار الحق، فيوفقه فضلا منه، وليسألنكم الله جميعًا يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم به، ونهاكم عنه، وسيجازيكم على ذلك»[1].

وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩].

يخبر سبحانه في هذه الآية أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته، أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للصراط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، إلا من رحم ربك فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به، والاتفاق عليه، فهؤلاء سبقت لهم، سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي[2].

وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: اقتضت حكمته، أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون؛ ليتبين للعباد، عدله وحكمته.

قال القرطبي: « وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب: سألت مالكا عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير؛ أي خلق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة. وروي عن ابن عباس أيضًا قال: خلقهم فريقين، فريقا يرحمه وفريقا لا يرحمه »[3].

ومثل هذه الآية قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

ولما بين الله عز وجل أن الناس كانوا على ملة واحدة ودين واحد، وبين أيضًا أنه سبحانه قادر على جمع الناس كلهم على ملة الإسلام، مدح أمة التوحيد المجتمعة على الإيمان، المتوحدة على أساس العقيدة ودين ربها عز وجل، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وفي سورة المؤمنين: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

فهذه أمة الإسلام ملة واحدة، من عهد آدم عليه السلام إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ دين الأنبياء واحد، وأتباع الرسل ملة واحدة، ومن سار على نهجهم

(١) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ٢٧٧.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ١١٥.

إلى قيام الساعة فهو من أمتهم [١].

والملاحظ: أن كلمة الوحدة مضافة إلى الأمة أي وحدة الأمة لم ترد في القرآن الكريم، ولكن ورد وصف الأمة بأنها أمة واحدة، فالتركيز في القرآن قد جاء على مفهوم الأمة التي توصف بأنها أمة واحدة، وليس على مفهوم الوحدة التي تضاف إلى الأمة، وهذا يعني أن الأمة الواحدة هي الأصل، أما مسألة توحيد الأمة ووحدتها فهي طارئة بعدما حل بالأمة ما حل [٢].

الحث على الوحدة

أولًا: الأمر بالوحدة:

الآيات التي تأمر بالوحدة وتحث عليها كثيرة في كتاب الله عز وجل، لا تحتاج إلى بذل جهد وإعمال فكر من أجل الوقوف عليها؛ فالقرآن الكريم قد جعل وحدة المسلمين وتآلفهم واجتماع كلمتهم من أصول الدين، وقواعده العظيمة، ولقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في الدلالة على وجوب الوحدة؛ وذلك كما يلي:

١. الأمر الصريح بالوحدة.

لقد ورد الأمر بالوحدة صريحًا في كتاب الله عز وجل، كما في قول الله عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فهذه الآية الكريمة تأمر المسلمين بأن يكونوا جميعًا مستمسكين بكتاب الله وبدينه وبعهوده، ولا يتفرقوا، كما كان شأنهم في الجاهلية، بضرب بعضهم رقاب بعض.

قال الطبري: « يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه إليكم، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر

(١) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٣/ ٤٤٠.

(٢) انظر: هموم الأمة الإسلامية، محمود حمدي زقزوق ص ٧١.

الله »(١).

وفي الآية استعارة تمثيلية حيث شبه الله عز وجل الحالة الحاصلة من تمسك المؤمنين بدينه وبكتابه وبعهوده وبوحدة كلمتهم، بالحالة الحاصلة من تمسك جماعة بحبل وثيق مأمون الانقطاع، ألقى إليهم من منقذ لهم من غرق أو سقوط أو نحوهما (٢).

وقد روى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة؛ فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة، هو خير مما تستحبون في الفرقة»(٣).

وقد تعددت آراء المفسرين في معنى ﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ الذي أمر الله المؤمنين بالاعتصام به، فقال بعضهم: كتاب الله، وقال بعضهم: دين الله، وقال بعضهم: أمر الله وطاعته، وقال بعضهم: الجماعة(٤).

قال القرطبي: « والمعنى كله متقارب متداخل؛ فإن الله تعالى يأمر بالألفة، وينهى عن الفرقة؛ فإن الفرقة هلكة، والجماعة نجاة»(٥).

(١) جامع البيان ٧/ ٧٠.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٢/ ١٩٩.
(٣) جامع البيان ٧/ ٧٥.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٣٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٥٩.

ومن الآيات التي تأمر المسلمين بالوحدة والاعتصام والتكافل قول الله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[المائدة: ٢].

فهذه الآية تأمر المسلمين بالتعاون على كل ما هو خير وبر وطاعة لله عز وجل، وتنهاهم عن التعاون على ارتكاب الآثام، والاعتداء على حدوده؛ فإن التعاون على الطاعات والخيرات يؤدي إلى السعادة، أما التعاون على ما يغضب الله عز وجل فيؤدي إلى الشقاء (٦).

ويتعاون المسلمين معًا، ومساعدة بعضهم لبعض، يصبح المجتمع المسلم جسدًا واحدًا، متماسكًا مترابطًا، قال القرطبي: « وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى؛ أي ليعن بعضكم بعضًا، وتحاثوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله عنه وامتنعوا منه»(٧).

يقول السعدي: « يرشد القرآن الكريم المسلمين إلى إقامة جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة من مصالحهم من يقدر على القيام بها، وليوفر وقته عليها لتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعًا واحدة، وهذه من القواعد الجليلة ومن السياسة

(٦) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٤/ ٣٢.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤٦.

الشرعية الحكيمة، فإن كثيرًا من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها، فالطريق إلى حصولها ما أرشد الله عباده إليه، قال تعالى في الجهاد والعلم اللذين هما من أعظم مصالح الدين: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية وبالعلم طائفة أخرى، وأن الطائفة القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت [١].

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

إلى غير ذلك من الآيات الدالات على هذا الأصل الجليل والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصالح كلها، لأن كل فرد مأمور أن يراعي المصالح الكلية، ويكون سائرًا في جميع أعماله إليها، فلو وفق المسلمون لسلوك هذه الطريق لاستقامت أحوالهم وصلحت أمورهم وانجابت عنهم شرور كثيرة، فالله المستعان » [٢].

لقد أمر القرآن العظيم بأمور عظيمة، من شأنها أن توحد الأمة، وتزيدها ترابطًا وتماسكًا؛ بل ألفة ومحبة؛ لقد أمر ببر الوالدين، وأمر بصلة الأرحام، وأمر بالإحسان إلى أولي القربى واليتامى والمساكين، لقد أمر بحسن معاشرة الزوجة، وأمر بالإحسان إلى الجار والآيات في ذلك معلومة كثيرة، منها تلك الآية الجامعة من سورة النساء، إذ يقول ربنا عز وجل: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

يأمر الله عز وجل في هذه الآية بعبادته وحده لا شريك له، ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين - وكثيرا ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين - ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء، ثم أوصى باليتامى؛

(١) والآية تحتمل معنى آخر: وهو أن الطائفة التي قد خرجت مع الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين شهدوا الوحي الذي نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في مدة الغزو، وعليهم أن يبلغوا ذلك إلى قومهم الذين لم يخرجوا للغزو إذا رجعوا إليهم.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣١٨.

(٢) القواعد الحسان، السعدي ص ١٢٩.

وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم، ثم أوصى بالمساكين من ذوي الحاجات، الذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم، ثم أوصى بالجار ذي القربى والجار الجنب، يعني: الجار الذي بينك وبينه قرابة، والجار الذي ليس بينك وبينه قرابة، وقيل: الجار الجنب يعني الرفيق في السفر، ثم أوصى بالصاحب بالجنب، قيل: يعني المرأة، وقيل: يعني: الضعيف، وقيل: هو جليسك في الحضر ورفيقك في السفر، ثم أوصى بابن السبيل، وهو الضيف، وقيل: هو الذي يمر عليك مجتازًا في السفر، وختم عز وجل تلك الوصايا العظيمة بالوصية بما ملكت اليمين، وهم الأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس[1]، ويأخذ حكمهم في زماننا العمال والخدم ونحوهم.

وقد جاءت السنة مؤكدة على أمر القرآن بالوحدة والاعتصام، وذلك في أحاديث كثيرة، يضيق المقام هنا بذكرها، من ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال: (إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا: فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)[2].

٢. تقرير الأخوة بين المؤمنين جميعًا.

لقد وصف القرآن الكريم المؤمنين بأعظم وصف يدل على وحدتهم واجتماعهم، لقد وصفهم بأنهم إخوة؛ فكما أن الإخوة في النسب تربطهم روابط قوية من المحبة والألفة وحرص كل منهم على مصلحة أخيه، فكذلك حال الأخوة بين المؤمنين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

إن هذه الأخوة هي بمثابة عقد عقده الله بين المؤمنين؛ فأينما وجد المؤمن -في مشارق الأرض أو في مغاربها- فإنه أخ للمؤمنين، أخوةٌ توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم[3].

قال ابن عاشور: «وجيء في الآية بصيغة القصر، المفيدة لحصر حالهم في حال

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات، ٣/ ١٣٤٠، رقم ١٧١٥٠.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٠٠.

الإخوة؛ مبالغةً في تقرير هذا الحكم بين المسلمين، وأخبر عنهم بأنهم إخوة مجازًا على وجه التشبيه البليغ، زيادة في تقرير معنى الأخوة بينهم، حتى لا يحق أن يقرن بحرف التشبيه المشعر بضعف صفتهم عن حقيقة الأخوة، وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين؛ لأن شأن (إنما) أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، أو لما ينزل منزلة ذلك؛ فلذلك كان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ مفيد أن معنى الأخوة بينهم معلوم مقرر»[1].

إن في تقرير القرآن الكريم للأخوة بين المؤمنين أعظم دليل على حثه واهتمامه بوحدتهم وتماسكهم؛ حتى يكونوا جميعًا إخوانًا، وإن هذه الأخوة التي قررها القرآن الكريم هي أخوة مبنيةٌ على أساس متين؛ فالذي يربط المؤمنين ببعض هو رباط العقيدة والدين، وهذا أقوى من كل رباط يجمع الناس، حتى ولو كان رباط نسب أو رحم، فالمؤمنون بهذا الرباط كالجسد الواحد، كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[2].

ولذلك يكثر في القرآن العظيم إطلاق النفس وإرادة الأخ؛ تنبيهًا على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم كنفسه، كقوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢].

أي: بإخوانهم على أصح التفسيرين[3]، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

أي: لا يعب بعضكم بعضًا، وعبر بالنفس لأن المؤمنين جميعًا كنفس واحدة[4].

وقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

أي: لا يأكل أحدكم مال أخيه، إلى غير ذلك من الآيات. ولذلك ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٤٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٨/ ٢٠، رقم ٦٧٥١.

(٣) نقل الشوكاني عن الحسن رضي الله عنه: معنى بأنفسهم بأهل دينهم لأن المؤمنين كنفس واحدة، وقال النحاس: بأنفسهم أي بإخوانهم.
انظر: فتح القدير ٤/ ١٩.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٣٢٧.

لنفسه)[1][2].

ومن الآيات الدالة على أن الدين والإيمان والعقيدة الخالصة هي الرابطة الحقيقية التي توحد المسلمين جميعًا، وأن تلك الرابطة تتلاشى معها جميع الروابط النسبية والعصبية والقبلية: قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة: ٢٢].

فأخوة العقيدة والدين هي الكفيلة بتوحيد أمة الإسلام قاطبة، ولا يجوز لمسلم أن يقدم كافرًا ولو كان ذا قرابة ونسب على مسلم ولو كان الأخير أعجميًا بعيدًا.

فالمؤمنون إخوة متحابون، وإن مناط هذه الأخوة وأساسها إنما هو رابط الإسلام وعقيدته الصحيحة وهي من أهم أسباب وحدة الصف وقوة البنيان بين أفراد الأمة المسلمة وإن التحابب بين المسلمين والحرص على روابط الأخوة المستمدة من الإيمان والعقيدة سر قـوة الأمة ومفتاح نجاحها[3].

وسنة النبي صلى الله عليه وسلم عامرة بالأحاديث المؤكدة على ما أقره القرآن الكريم؛ من وجوب الأخوة بين المسلمين عامة، وبيان ما على المسلمين من حقوق لإخوانهم، مما يضمن الحفاظ على تلك الأخوة وتلك المودة، وصيانتها من كل ما يخالف معانيها العظيمة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا) ويشير إلى صدره ثلاث مرات (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه)[4].

وقد قال صلى الله عليه وسلم ممثلًا حال الإخوة من المؤمنين بأعظم مثال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا)[5].

وشبك صلى الله عليه وسلم بين أصابعه، وليس المقام هنا مقام سرد لتلك الأحاديث

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٣، ١/ ١٢.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤٣.
(٣) انظر: تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي الصلابي، ص ٣١٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، ح٦٧٠٦، ٨/ ١٠.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح٦٧٥٠، ٨/ ٢٠.

العظيمة فنكتفي بما أشرنا إليه.

ولا يخفى على كل مطلع على سيرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ما قام به صلى الله عليه وسلم من المؤاخاة بين أصحابه الكرام؛ حيث آخى بين المهاجرين أنفسهم، وآخى بين الأنصار أنفسهم، وآخى بين المهاجرين والأنصار جميعًا، وكانت أروع صور المؤاخاة التي عرفها تاريخ البشرية، هذا الإخاء الذي ذابت فيه عصبيات الجاهلية، وسقطت فوارق النسب واللون والوطن، فلا يكون أساس الولاء والبراء إلا الإسلام، وقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وإسداء الخير في هذه الأخوة، وملأت المجتمع الجديد بأروع الأمثال [1]، حتى قال الواحد منهم لأخيه: إني أكثر الأنصار مالًا؛ فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها [2].

(١) انظر: الروض الأنف، السهيلي ٢/ ٣٥٠.

(٢) الحديث: عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال: لما قدموا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالًا، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، رقم ٣٧٨٠، ٥/ ٣١.

٣. الأمر بالإصلاح بين المؤمنين عند حدوث الخلاف بينهم.

ومن أساليب القرآن الكريم في الحث على وحدة المسلمين وتجمعهم، أنه أمر بالمبادرة إلى الإصلاح بين المؤمنين إذا ما نزغ الشيطان بين طائفتين منهم فحصل بينهم نزاع أو اقتتال.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ففي هذه الآية نهيٌ من الله عز وجل للمؤمنين عن أن يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضًا، فإن اقتتلت طائفتان منهم، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن حدث الصلح فبها ونعمت، وإن ﴿بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ترجع إلى ما حد الله ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه الاقتتال، وقوله: ﴿فَإِن فَآءَتْ

ولا يخفى ما في مثل هذه المواقف العظيمة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بيان لأهمية الإيثار والعفة في تحقيق معاني الوحدة الحقيقية.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به[1].

وفي الآية لطائف عظيمة تدل على أن الاقتتال بين المؤمنين شاذ عن الأصل المأمور به من الوحدة والأخوة والتآلف؛ حيث عبرت الآية عن حدوث ذلك الاقتتال بأداة الشرط (إن) التي تفيد ندرة الوقوع وقلته، وفي ذلك إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يقع الاقتتال إلا نادرًا، ثم إن الآية الكريمة استعملت لفظة: ﴿طَائِفَتَانِ﴾ ولم تستعمل لفظة: (فرقتان) وذلك للدلالة أيضًا على التقليل؛ لأن الطائفة دون الفرقة، ثم إن الآية قالت: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم تقل: (منكم) مع أن الخطاب للمؤمنين تنبيهًا على قبح ذلك، وزجرًا لهم عنه، كما يقول السيد لعبده: إن رأيت أحدًا من غلماني يفعل كذا فامنعه، فيصير بذلك مانعًا للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن، كأنه يقول أنت حاشاك أن تفعل ذلك فإن فعل غيرك فامنعه.

ولا يخفى أيضًا تعبير الآية بالفعل الماضي ﴿اقْتَتَلُوا﴾ بدل الفعل المضارع (يقتتلوا) حتى لا يدل دوام ذلك الاقتتال

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٠٠.

وكثرته، وكذلك التعبير بقوله: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ في غاية الحسن لأنه يفيد الندرة وقلة الوقوع[2].

ومن اللطائف في الآية أيضًا أن الله تعالى خاطب المؤمنين فيها بقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فلا ينبغي لهم أن يسمحوا لغيرهم من الكفار والمنافقين أن يتدخلوا في شؤونهم؛ فإنهم أي الكفار والمنافقين لا يزيدونهم إلا خبالًا وشقاقًا كما نرى في واقع المسلمين اليوم!!

ومن الآيات الكريمات التي تأمر بإصلاح ذات البين[3]: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

حيث نزلت هذه الآية عندما وقع خلاف بين المسلمين في غنائم بدر، وفي قسمتها، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم؟ ولمن الحكم في قسمتها؟ للمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعًا؟

فكان الجواب من الله عز وجل: قل لهم هي لرسول الله، وهو الحاكم فيها خاصة، يحكم ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم،

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٠٩.
(٣) ذات البين: ما بين القوم من القرابة و الصلة والمودة، أو ما بينهم من العداوة والبغضاء.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٨٠.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والتخاصم، وكونوا متآخين في الله، ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ يعني: ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق، والبين الوصل أي: فاتقوا الله، وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم[1].

قال ابن كثير: « اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا، ولا تخاصموا، ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: في قسمه بينكم على ما أراده الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف، وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم، وكذا قال مجاهد»[2].

ولقد رغب القرآن الكريم في الإصلاح بين المسلمين، فقد قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

يقول أبو بكر الجزائري مفسرًا لهذه الآية: « يخبر تعالى أنه لا خير في كثير من أولئك المتناجين، ولا في نجواهم؛ لنفاقهم وسوء طواياهم، اللهم إلا في نجوى أمر أصحابها بصدقة تعطى لمحتاج إليها من المسلمين، أو معروف استحبه الشارع أو أوجبه من البر والإحسان، أو إصلاح بين الناس للإبقاء على الألفة والمودة بين المسلمين، ثم أخبر تعالى أن من يفعل ذلك المذكور من الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس طلبًا لمرضاة الله تعالى فسوف يثيبه بأحسن الثواب؛ ألا وهو الجنة، دار السلام؛ إذ لا أجر أعظم من أجر يكون الجنة»[3].

وقد أكدت السنة المشرفة هذا المعنى العظيم، من الحث على إصلاح ذات البين، والترغيب فيه، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة)، قالوا: بلى. قال: (إصلاح ذات البين وفساد ذات البين الحالقة)[4]، وغير ذلك من الأحاديث.

إن هذه الآيات الكريمات التي تأمر وتحث على الإصلاح بين المسلمين، لهي آيات تدل على حرص هذا الكتاب العزيز على وحدة صف المؤمنين، وعدم السماح

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٢٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٣.

(٣) أيسر التفاسير ١/ ٥٤١.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٧٥٤٨، ٦/ ٤٤٤وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، رقم ٤٩٢١، ٤/ ٢٣٢.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٨١٤.

لأي أمر - مهما كان - أن يفرق كلمتهم، أو يشتت شملهم، فالمؤمنون إخوة، وأمة الإسلام أمة واحدة، لها دين واحد، وتعبد ربًا واحدًا.

ثانيًا: النهي عن الفرقة والاختلاف:

كما أن القرآن الكريم أمر بالوحدة وحث عليها، فإنه في مقابلة ذلك نهى عن الفرقة والاختلاف، وحذر منهما تحذيرًا عظيمًا، وذلك في آيات عدة من الكتاب العزيز، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

حيث «أمر الله عز وجل عباده المؤمنين في هذه الآية بما يعينهم على التقوى، وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة، مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم، وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام وفي هذه الآية ما يدل على أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم؛ ليزدادوا شكرا له ومحبة، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها»[(١)].

ولقد قال الله عز وجل بعد هذه الآية بآية واحدة: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

«نهى الله سبحانه في هذه الآية عباده المؤمنين أن يكونوا كأهل الكتاب الذين وقعت بينهم العداوة والبغضاء؛ فتفرقوا شيعًا وأحزابًا، واختلفوا في أصول دينهم، من بعد أن اتضح لهم الحق، وأولئك مستحقون لعذاب عظيم موجع»[(٢)].

وأخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية قال: «في هذا ونحوه من القرآن أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة؛ فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله»[(٣)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤١.
(٢) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٤٠٤.
(٣) جامع البيان ٧/ ٩٣.

يقول الدكتور وهبة الزحيلي معلقًا على الآية السابقة: «إن التفرق في الدين أمر حرام ومنكر عظيم، مؤذن بتدمير المصلحة العامة، والقضاء على وجود الدولة المسلمة والأمة المؤمنة، وقد عد القرآن الكريم المتفرقين في الدين من الكفار والمشركين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ومن ترك الاعتصام بالقرآن والإسلام، ورد الأمر المتنازع فيه إلى غير الكتاب والسنة كان أيضًا من الكافرين»(١).

ونظير هذه الآيات التي تنهى عن الفرقة والاختلاف قول الله عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ففي هذه الآية أمر من الله عز وجل لعباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، ونهي عن التنازع الذي يؤدي إلى الافتراق واختلاف القلوب، ومن ثم الضعف والجبن والفشل وذهاب الريح والقوة(٢).

يقول ابن عاشور: «والنهي عن التنازع أعم من الأمر بالطاعة لولاة الأمور؛ لأنهم إذا نهوا عن التنازع بينهم، فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي؛ ولما كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء - وهو أمر مرتكز في الفطرة - بسط القرآن القول فيه ببيان سيىء آثاره، فجاء بالتفريع بالفاء في قوله: ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فحذرهم أمرين معلومًا سوء مغبتهما: وهما الفشل وذهاب الريح وإنما كان التنازع مفضيا إلى الفشل؛ لأنه يثير التغاضب ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضًا، فيصرف الأمة عن التوجه إلى ما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكن منهم العدو؛ وذلك لأن التنازع يفضي إلى التفرق، وهو يوهن أمر الأمة»(٣).

ومن الآيات التي تحث على الاجتماع، وتذم الفرقة قول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قال ابن كثير: «أوصى الله تعالى

(١) التفسير المنير ٤/ ٣٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٥٧٥.

(٣) التحرير والتنوير ١٠/ ٣٠.

جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة ونهاهم عن الافتراق والاختلاف»[1].

لقد أخبرنا القرآن الكريم عن جماعة من المنافقين أرادوا تمزيق وحدة المسلمين، وتفريق صفهم، وبنوا لذلك مسجدًا ضرارًا؛ ففضحهم الله عز وجل، وأبدى عورهم للمسلمين، وقال فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

إن الإسلام يحارب كل طريق تؤدي إلى تمزيق وحدة المسلمين، وإن كانت بناء مسجدٍ، وهذا المسجد لم يرد ببنائه الخير؛ وإنما أريد به أن يكون مقرًا للمنافقين؛ يدبرون فيه مؤامراتهم ضد الإسلام والمسلمين، ويشقون بـــه عصا الجماعة، فنهى الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقوم في هـذا المسجد أبـدًا، ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨].

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهدمه وتحريقه[2].

وللتنفير من التنازع والافتراق واقتتال المسلمين بعضهم مع بعض سمى الله عز وجل تشاجر المسلمين وقتال بعضهم بعضًا كفرًا.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

لقد ذكر المفسرون أن الآية الكريمة نزلت حينما حاول أحد اليهود الخبثاء الإيقاع بين المسلمين - بتذكيرهم بحروبهم أيام الجاهلية - حتى كادوا أن يقتتلوا[3]؛ فنزلت هذه الآية تحذر المسلمين من طاعة المفسدين من أهل الكتاب الذين هدفهم إيقاع العدواة بين صفوف المسلمين.

والسنة النبوية المشرفة مؤازرة للقرآن الكريم في التحذير من الفرقة والشذوذ عن الجماعة، والأحاديث في هذا الباب أكثر من

(١) تفسير القرآن العظيم ١٢/ ٢٦٢.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٥٢٩.

(٣) روى الطبري بسنده عن مجاهد في هذه الآية، قال: كان جماع قبائل الأنصار بطنين: الأوس والخزرج، وكان بينهما في الجاهلية حربٌ ودماء وشنآنٌ، حتى من الله عليهم بالإسلام وبالنبي صلى الله عليه وسلم، فأطفأ الله الحرب التي كانت بينهم، وألف بينهم بالإسلام. قال: فبينا رجل من الأوس ورجل من الخزرج قاعدان يتحدثان، ومعهما يهودي جالسٌ، فلم يزل يذكرهما أيامهما والعداوة التي كانت بينهم، حتى استبا ثم اقتتلا. قال: فنادى هذا قومه وهذا قومه، فخرجوا بالسلاح، وصف بعضهم لبعض. قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم شاهدٌ يومئذ بالمدينة، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يزل يمشي بينهم، حتى رجعوا ووضعوا السلاح، فأنزل الله عز وجل الآية »جامع البيان ٦/ ٥٩.

أن يحصيها بحثنا هذا.

ولكن نشير إلى بعضها: فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا، فقال: (أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة؛ فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن)[1].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية)[2].

ولقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم اقتتال المسلمين كفرًا، حيث قال في حجة الوداع: (لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)[3].

وقال: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)[4].

إن الناظر في أحكام الإسلام وتشريعاته يجدها حاثة على الوحدة، محذرة للفرقة، وذامة لها، فالإسلام حرم أن يهجر المسلم أخاه المسلم، وأمر بإفشاء السلام من أجل إشاعة المحبة، وأمر بصلاة الجماعة، ونهى أن يسافر الرجل وحده، وأن يبيت وحده، ولو ذهبنا نستقصي شواهد الشريعة التي تفيد وجوب اجتماع كلمة المسلمين، وحرمة الفرقة بينهم لطال بنا المقام.

والخلاصة: أن العمل على تحقيق وحدة المسلمين مما عظمت وصية الله به في كتابه، ووصية النبي صلى الله عليه وسلم في سنته، ومما عظم ذم تركه، ومما عظمت حاجة المسلمين اليوم إليه، في وقت قد تمزقت فيه دولة الإسلام، وطغت الحزبية والطائفية والمذهبية والوطنية

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم ٢١٦٥، ٤/ ٣٨.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٩، رقم ٢٥٤٦.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة، رقم ٥٤٧، ١/ ٢١٤.
وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم ١٠٦٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، رقم ٢٣٤، ١/ ٥٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، رقم ٢٣٠، ١/ ٥٧.

الضيقة على بلاد المسلمين، فما أشد حاجة المسلمين إلى العمل بما فرض الله عليهم، وما أشد حاجة المسلمين إلى وحدة أمتهم، واجتماعهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم.

الوحدة والعبادات

العبادات في الإسلام تمثل جزءًا عظيمًا من الدين؛ بل هي أساس الدين وجوهره، وهي ظاهر الدين وباطنه، وهي الصلة بين العبد وربه، وإن الأصل في العبادات أنها تؤدى امتثالًا لأمر الله عز وجل، وأداءً لحقه سبحانه على عباده، وشكرًا على نعمائه، وليس من اللازم أن يكون لهذه العبادات ثمرات ومنافع في حياة الإنسان المادية، وليس من الضروري أن يكون لها حكمة يدركها عقله المحدود؛ إذ الأصل فيها أنها ابتلاء لعبودية الإنسان لربه، فلا معنى لأن يدرك السر في كل تفصيلاتها؛ فالعبد عبد والرب رب[٢].

ومن تأمل في العبادات التي شرعها الإسلام يجد أن كثيرًا من الحكم تظهر في أدائها، وكثيرًا من الثمرات تبرز حينما يقيمها المسلمون على مراد ربهم عز وجل، ومن عظيم هذه الثمرات المترتبة على العبادات توحيد أمة الإسلام، وبناء مجتمع مسلم

(١) العبادات جمع عبادة وهي لغة من الخضوع والذل.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ١٣٨.
واصطلاحًا: اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.
انظر: العبودية، ابن تيمية، ص٤٤.

(٢) انظر: العبادة في الإسلام، القرضاوي ص ٢١٧.

مترابط متماسك؛ فإن العبادات إذا فهمت فهمًا صحيحًا، وطبقت تطبيقًا دقيقًا، أعطت مجتمعًا قويًا متينًا كالبنيان المرصوص، يسعى بذمته أدناه، ويكون يدًا على من سواه، يسوده العدل والمساواة والإحسان والبر والرحمة والتعاون والإيثار.

وهذه الثمرات نلمسها في جميع العبادات التي شرعها الإسلام، فأصل العبادات توحيد الله عز وجل، والأمة الموحدة لربها لا بد أن تكون أمة واحدة؛ فهي تعبد ربًا واحدًا، ولها شرعة واحدة، وأركان دينها واحدة.

ثم إن جميع العبادات تثمر وحدة المسلمين، من صلاة وزكاة وصيام وحج ودعاء، فليس من الإسلام أن يترهب المسلم وينقطع عن مجتمعه وأمته بحجة العبادة؛ ومن فهم أن العبادة في الإسلام تعني عزلة وانقطاعًا ففهمه خاطئ، صحيح أن في الإسلام بعض العبادات تحتاج إلى اعتزال؛ ولكن ليس كل العبادات كذلك، فغالب العبادات في الإسلام يؤديها المسلم مع إخوانه المسلمين، ويظهر من خلالها وحدة الأمة واجتماعها، وسنعرض في هذا المبحث - بإذن الله - لبعض هذه العبادات وأثرها على وحدة المسلمين.

أولًا: الصلاة وأثرها على وحدة المسلمين:

الصلاة هي الفريضة الأولى بعد الإيمان بالله ورسوله، وهي عماد الدين، وهي ثاني أركان الإسلام، ولقد ورد الأمر من الله عز وجل لعباده المؤمنين بإقامة الصلاة، وذلك في آيات كثيرة من الكتاب العزيز، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

وأثنى سبحانه على الذين يقيمون الصلاة في غير موضع: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ١٦٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[الأعراف: ١٧٠].

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

ولقد أمر الله المؤمنين بالمحافظة على الصلوات فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وغير ذلك كثير من الآيات التي تأمر بالصلاة، وتحث عليها، وفي ذلك بيان لعظيم منزلة الصلاة في الإسلام.

والصلاة لا يقتصر دورها على أجر يثاب عليه المؤمن، وعذاب ينجو منه، وإنما هي أيضًا تجميع رباني جميل للمسلمين جميعًا، على درجة واحدة من المساواة؛ فالحاكم والمحكوم، والرئيس والمرؤوس، وأصحاب الثروة والقوة، والنفوذ والسلطان، والذين ليس لهم من ذلك شيء، كل هؤلاء متساوون في الوقوف بين يدي الله والإقبال عليه، لا فضل لأحد منهم على أحد، إلا بمقدار ما في قلبه من تقوى، وما تثمره هذه التقوى من خيرات، وما تحجز عنه من موبقات[1].

إن الإسلام لم يكتف من المسلم أن يؤدي الصلاة وحده في عزلة عن المجتمع الذي يحيا فيه؛ ولكنه دعاه دعوة قوية إلى أدائها في جماعة وبخاصة في المسجد، ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

والمسجد مكان مشاع عام يتساوى فيه الناس جميعًا؛ الحر منهم والعبد، والحاكم والمحكوم، والغني والفقير، في صورة عظيمة من صور وحدة المسلمين وتآلفهم.

وإذا حضر المؤمن الجماعة، عرف إخوانه وعرفوه، فلو غاب عنهم سألوا عنه؛ فإن كان غائبًا دعوا له، وإن كان مريضًا عادوه؛ فأثيبوا وأجروا، وجبروا خاطره، وأدخلوا السرور عليه، وإن كان حاضرًا زاروه، فتوطدت أواصر الأخوة، وتأكدت أسباب التضامن والمحبة[2].

يتوجه المسلمون في صلاة الجماعة إلى قبلة واحدة، يقصدون ربًا واحدًا، يقتدون بإمام واحد، يكبرون معًا، ويتلون كتابًا واحدًا، ويدعون بدعاء واحد بصيغة الجمع قائلين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

ويركعون ويسجدون معًا، ويسلمون منتهين من صلاتهم معًا، ولقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم أمته على المحافظة على الجماعة في الصلوات، وجعل الإسلام أجر الصلاة في الجماعة أضعاف صلاة

(١) انظر: العبادات في الإسلام وأثرها في تضامن المسلمين، علي منصور ص١١٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ص١٢٤.

المنفرد؛ بل إن الخطوات إلى الجماعات مأجورة مباركة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضعًا وعشرين درجة؛ وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة، لا يريد إلا الصلاة، فلم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه) [(١)].

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الاهتمام - في صلاة الجماعة - بتسوية الصفوف، كثير الترغيب في إقامتها ووصلها، وسد خللها، شديد الإنكار على الإخلال بها والتفريط فيها، ذلك لأن فوائد الجماعة لا تتحقق ولا تكتمل إلا بالمحافظة عليها، وقيام المسلمين فيها كالبنيان المرصوص، وفي ذلك تهيئة لهم لفريضة الجهاد وبيان لأهمية رص الصف المسلم وعدم تشرذمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] [(٢)].

لقد كانت هذه الجماعة عاملًا كبيرًا من عوامل وحدة المسلمين في العبادات، كما كانت سببًا عظيمًا في تضامنهم، وجمع كلمتهم، وبلغ من اهتمام الإسلام بالجماعة أنه رغب في إقامتها، والحرص عليها حتى في أوقات المحن والشدائد، حين يلقى المسلمون عدوهم، ويواجهون خصومهم، لأن الصلاة في ذاتها سبب المعونة الإلهية، ولأن في إقامتها مع الجماعة مزيدا من العون والعطاء، تتضاعف بركاتها، وتكثر خيراتها [(٣)].

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

وهذه الصلاة هي التي تسمى صلاة الخوف.

لقد شرع الله عز وجل صلاة الجمعة، واختصها بشروط وآداب تزيد في جلالها، وترفع من شأنها، وتورث مزيدًا من الاهتمام بها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، رقم ١٥٣٨، ٢/ ١٢٨.

(٢) انظر: العبادة في الإسلام، القرضاوي ص ٢٣٦.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٢٥٩١.

لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

فصلاة الجمعة هي الصلاة الجامعة، التي لا تصح إلا جماعة، وهي صلاة أسبوعية، يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون، يلتقي المسلم فيها مع إخوانه، يستمع إلى أخبارهم، ويتفقد أحوالهم، ويستمع معهم إلى خطبة - من إمامهم -تذكرهم بالله عز وجل، وهي عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام(١).

ثم هناك أيضًا صلاة فيها اجتماع أكبر للمسلمين يتكرر في العام مرتين، إنها صلاة العيد، تلك الصلاة العظيمة التي يخرج إليها أهل البلد جميعًا في أبهى مظاهر الوحدة، وفي أجمل صور الأخوة، جاء في الحديث عن أم عطية قالت: (أمرنا أن نخرج الحيض يوم العيدين، وذوات الخدور؛ فيشهدن جماعة المسلمين ودعوتهم، ويعتزل الحيض عن مصلاهن، قالت امرأة: يا رسول الله، إحدانا ليس لها جلباب، قال: (لتلبسها صاحبتها من جلبابها)(٢).

من خلال ذلك نعم أهمية إقامة الصلوات في توحيد المسلمين، وتنمية الألفة والمحبة في قلوبهم، فالمصلي يلتقي بإخوانه كل يوم خمس مرات، يدخل معهم المسجد، ويضع كتفه بجنب كتف أخيه، ويلصق قدمه بقدمه، بين يدي ربهم عز وجل، في أروع صور اللحمة والمحبة.

ثانيًا: الزكاة وأثرها على وحدة المسلمين:

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وقد أمر الله عز وجل بها في كتابه في مواضع كثيرة، وقرن سبحانه الأمر بإيتائها مع الأمر بإقامة الصلاة في آيات كثيرة من الذكر الحكيم، من ذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

ولقد مدح الله سبحانه مؤدي الزكاة: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٢-٣].

وذم مانعيها: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب الصلاة في الثياب، رقم ٣٥١، ١/ ٨٠.

﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٦-٧].

وليس المجال هنا للحديث عن تفاصيل تلك العبادة المالية العظيمة؛ ولكن الذي يعنينا هنا بيان ما للزكاة من أثر عظيم على وحدة المسلمين وتكافلهم ونشر المودة والمحبة بينهم.

إن للزكاة أثرها العظيم في تحقيق وحدة المسلمين وتكافلهم، إذ إن الزكاة مالٌ يخرجه المسلم الغني من ماله، ويعود به على إخوانه الفقراء، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما أرسله إلى اليمن: (فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة؛ تؤخذ من أغنيائهم، فترد في فقرائهم)[1].

ويظهر أثر الزكاة في تحقيق وحدة المسلمين وتآلفهم وتكافلهم - سواء كان ذلك من الناحية المعنوية أم من الناحية المادية - من عدة وجوه:

١. إن دفع الزكاة لمستحقيها، سبب لتأليف القلوب، وتأنيس النفوس، وإشاعة جوٍ من التراحم والتواصل بين المؤمنين، وتأكيد الأخوة والمحبة بينهم.

وليس شيء أجلب لمحبة الناس، وكسب مودتهم من الإحسان إليهم، ومد يد العون لهم، والسعي في مصالحهم، والتخفيف من آلامهم.

٢. إن الزكاة سبب لتنمية الروح الاجتماعية بين أفراد المجتمع. حيث يشعر دافع الزكاة بعضويته الكاملة في الجماعة، وتفاعله معها، ومشاركته في تحقيق مصالحها، وحل مشاكلها، والنهوض بها.

فتنمو شخصيته، وتزكو نفسه، وينشرح صدره، ويرتفع كيانه المعنوي، ويشعر بسعادة غامرة وهو يواسي إخوانه، ويقوم بواجبه تجاه مجتمعه.

كما يشعر آخذ الزكاة، بقيمته وقدره، وأنه ليس شيئًا ضائعًا، ولا كمًا مهملًا، وإنما هو في مجتمع كريم يعنى به ويرعاه، ويأخذ بيده، ويعينه على نوائب الدهر؛ فيحمله ذلك على محبة مجتمعه، والتفاعل معه، ويبقى قلبه سليمًا، خاليًا من الحقد والحسد، مقدرًا لإخوانه الأغنياء، معترفًا بفضلهم وبذلهم، داعيًا لهم بالبركة والتوفيق وسعة الرزق.

فالزكاة تستل سخائم الفقراء، وتزكي نفوسهم من الضغينة والبغضاء، والحسد لأهل المال والثراء؛ بل تجعل الفقير يدعو لهم بالبركة والزيادة والنماء، وبهذا يتحول المجتمع إلى أسرة واحدة، تجللها المحبة والوفاء، ويسودها التعاون والإخاء.

٣. إن الزكاة سبب لإشاعة الأمن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم ١٣٠، ١/ ٣٧.

والطمأنينة؛ فهي أمان للآخذ، والمعطي، والمجتمع بعامة.

أما الآخذ، فإن له في أموال الزكاة مايغنيه، ويجعله آمنًا مطمئنًا، شجاعًا عزيزًا، يواجه المستقبل بنفس راضية، وعزيمة ثابتة، وأما المعطي فإنه مطمئن إلى مستقبله، واثق من عون الله له، وحفظه لماله، ووقايته من الآفات، وأنه إن قدر الله غير ذلك، وتغيرت عليه الأحوال، وأصبح فقيرًا بعد الغنى، فإن له في مال إخوانه ما هو كفيل بجبر كسره، وسد حاجته، فيشعر أن قوة إخوانه قوة له إذا ضعف، وغناهم مددٌ له إذا أعسر.

وأما المجتمع، فإن الزكاة سبب لتماسكه وتآلفه، وتضامنه وتكافله، ووقايته من رياح التفكك والتشرذم، وأعاصير الجريمة والظلم.

٤. وأما تحقيق الزكاة للتكافل المادي، فهو أظهر من أن يذكر، وهو المقصود الأصلي من شرعيتها، فإن الله عز وجل إنما شرع الزكاة مواساةً للفقراء والمحتاجين، وقيامًا بمصالح المسلمين[1].

وبهذا تكون الزكاة أول تشريع منظم لتحقيق التكافل المادي، أو ما يسمى بالضمان الاجتماعي، الذي لا يعتمد على التبرعات الفردية الوقتية؛ بل يقوم على مساعدات حكومية دورية منتظمة، غايتها تحقيق الكفاية لكل محتاج: الكفاية في المطعم والملبس والمسكن، وسائر الحاجات، بما يكفل له ولعائلته مستوى معيشيًا ملائمًا من غير إسراف ولا تقتير[2].

ولو أن أهل الأموال جميعهم أخرجوا زكاة أموالهم، وصرفوها لمستحقيها، لما بقي في المسلمين فقير. وما حاجة الفقراء إلا بسبب منع الأغنياء، فما احتاج فقير إلا بما منع غني، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « إن الله عز وجل فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، فإن جاعوا وعروا وجهدوا، فبمنع الأغنياء، وحقٌ على الله عز وجل أن يحاسبهم يوم القيامة، ويعذبهم عليه »[3].

ويقول محمد رشيد رضا: «ولو أقام المسلمون هذا الركن من دينهم لما وجد فيهم - بعد أن كثرهم الله عز وجل، ووسع عليهم في الرزق - فقير مدقع، ولا ذو غرم مفجع؛ ولكن أكثرهم تركوا هذه الفريضة، فجنوا على دينهم وأمتهم، فصاروا أسوأ من جميع الأمم حالًا في مصالحهم المالية والسياسية»[4].

(١) ذكر الدكتور وهبة الزحيلي ما يقارب عشرين فائدة من فوائد الزكاة على المعطي والآخذ، انظر: التفسير المنير ١٠/ ٢٧٨-٢٨٠.

(٢) انظر: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، يوسف القرضاوي ص١٠٥.

(٣) انظر: السنن الكبرى، البيهقي ٧/ ٢٣.

(٤) تفسير المنار ١٠/ ٤٤٣.

ثالثًا: الحج وأثره على وحدة المسلمين:

الحج فريضة فرضها الله عز وجل على عباده ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وهو خامس أركان الإسلام، والحج فيه توحيد الله عز وجل ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٦ - ٢٧].

وفيه أيضًا توحيد لأمة الإسلام.

إن وحدة المسلمين تتجلى في أبهى صورها ومعانيها في شعيرة الحج، هذا الركن العظيم الذي يتكرر كل عام، ويجتمع له كثير من المسلمين من شتى بقاع المعمورة، ويمثلون فيه أمة الإسلام على اختلاف أجناسها، وبلدانها، وألوانها، ولغاتها؛ يجتمعون في مكان واحد، وفي زمان واحد، وفي لباس واحد، ويؤدون نسكًا واحدًا، ويقفون في المشاعر موقفًا واحدًا، يعلنون فيه توحيدهم لرب العالمين، وخضوعهم لشريعته، وتوحدهم تحت لوائه ورايته.

لقد بين الله عز وجل لعباده المؤمنين أن في الحج منافع لهم، فقال سبحانه: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٧ - ٢٨].

ولقد ذكر المفسرون أن هذه المنافع منها منافع دينية من مغفرة للذنوب، ورفعة للأجور، ومنافع دنيوية من تحصيل التجارة والمكاسب[1].

قال ابن عاشور: «وتنكير ﴿مَنَافِعَ﴾ للتعظيم المراد منه الكثرة، وهي المصالح الدينية والدنيوية؛ لأن في مجمع الحج فوائد جمة للناس: لأفرادهم ولمجتمعهم»[2].

ومن أعظم المنافع التي ينالها المسلمون من أداء فريضة الحج اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد؛ يتعرف بعضهم على بعض، ويحدث بعضهم بعضًا عن أخبارهم وأخبار المسلمين في بلادهم، ويتبادلون الآراء والمنافع، ويتناصحون فيما بينهم، ويتناقشون مشكلاتهم، ويتعاونون على البر والتقوى، ويظهرون قوتهم، ويعلنون وحدتهم، ويغيظون أعداءهم، وفي ذلك كله من مصلحة لأمة الإسلام ما لا يخفى[3].

إن توحيد الأمة الإسلامية من خلال العبادات لا يظهر من خلال الصلاة والزكاة والحج فقط؛ ولكنه يظهر من خلال العبادات

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٤٤.
(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٤٥.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٩/ ٣٠٣، التفسير المنير، الزحيلي ١٧/ ١٩٥.

كلها؛ ففي الصيام توحيد للأمة، حيث يصوم المسلمون في شهر واحد، يمسكون عن الطعام معًا، ويفطرون معًا، ويشعر غنيهم بفقيرهم، ويخرجون صدقة فطرهم معًا، وبعد تمام الصيام يجتمعون في مصلى العيد يهنئ بعضهم بعضًا.

ومن العبادات دعاء المسلم لإخوانه المسلمين، ومن العبادات بر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجيران وتفقد المساكين والأرامل والأيتام، ولا يخفى ما في هذه العبادات من عوامل الوحدة والألفة بين أبناء الإسلام جميعًا.

اسباب الوحدة

إن وحدة أمة من الأمم لا بد أن يكون لها أسباب، ولا بد أن يكون لها أسس وأصول تعتمد عليها؛ فإن الذي يوحد الناس أمر مشترك بينهم؛ يجمعهم ويوحدهم، ويجعل هدفهم واحدًا، وغايتهم واحدة، وهمهم واحدًا، وهكذا تتوحد الشعوب والأمم.

وإن أمة الإسلام عندها من أسباب الوحدة ومقوماتها ما هو أكثر وأعظم من غيرها من الأمم؛ فأمة الإسلام تجمعها عقيدة واحدة، وتربطها شريعة واحدة، لها ربٌّ واحد، ولها كتاب واحد، ونبي واحد صلى الله عليه وسلم، وقبلة واحدة، وغاية واحدة، وكل ذلك من أسباب وحدتها، ومقومات قوتها.

وسنعرض في النقاط الآتية مجمل أسباب وحدة الأمة الإسلامية:

أولًا: طاعة الله وطاعة رسوله:

إن أمة الإسلام أمةٌ ربانيةٌ، تؤمن بالله عز وجل ربًا، وتؤمن بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولًا، وتتعبد ربها وتتقرب إليه بطاعته وبطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا الأمر هو أعظم ما يجمع هذه الأمة؛ فليس بين أفرادها من يعبد إلاهًا آخر، أو يتبع نبيًا غير محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وليس بين أفرادها من يقدم طاعة مخلوق

مهما عظم على طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

إن أصل كلمة الإسلام مأخوذ من الاستسلام لله عز وجل، والانقياد له سبحانه، وهذا أصل الدين؛ بل هذا هو الدين كله، وهذا هو الذي يميز المسلم عن غيره؛ فالمسلم من استسلم لله وانقاد له، فأطاعه وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

وغير المسلم لم يستسلم لله، ولم يطعه سبحانه، ولم يتبع نبيه صلى الله عليه وسلم.

إن الله عز وجل أمر عباده المؤمنين بالاعتصام بحبله سبحانه فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فلم يأمر سبحانه بمجرد الاعتصام؛ وإنما بين بماذا يكون الاعتصام، أمرهم أن يعتصموا بحبله؛ وحبل الله هو دينه، أو هو كتابه، أمر الله عز وجل المؤمنين أن يعتصموا ويستمسكوا به، ويعتمدوا عليه؛ لأنه حبل النجاة، وسبب السلامة، أمرهم ربهم أن يفعلوا ذلك جميعًا، كلهم مجتمعين[(١)].

ولقد جاء في الحديث الشريف عن جابر رضي الله عنه قال: (كنا جلوسًا عند النبي صلى الله عليه وسلم فخط خطًا هكذا أمامه، فقال: (هذا سبيل الله عز وجل)، وخطين عن يمينه، وخطين عن شماله، قال: (هذه سبيل الشيطان)، ثم وضع يده في الخط الأسود، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣][(٢)].

لقد أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله في كثير من آيات الذكر الحكيم: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وبين لهم أن في تلك الطاعة الفلاح والفوز العظيم، قال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

إن طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم المتمثلة باتباع الوحي الذي أنزله سبحانه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لهي العاصمة الواقية من كل ضلال، ولم يضمن الله عز وجل لأحد ألا يكون

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٧٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٥٣١٢، ٣/ ٣٩٧.
وصححه الألباني في ظلال الجنة ١/ ٨.

ضالًا في الدنيا، ولا شقيًا في الآخرة إلا لمتبعي الوحي وحده.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وقد دلت هذه الآية على انتفاء الضلال والشقاوة عن متبعي الوحي، ودلت آية البقرة على انتفاء الخوف والحزن عنهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨][1].

إن الأمة إذا تمسكت بوحي ربها، واستنارت بالهدى الذي أنزله الله لها، توحدت على ذلك، وأي شيء يوحد الأمة أعظم من ذلك؟!

ثانيًا: التحاكم إلى القرآن والسنة:

إذا كانت أمة الإسلام أمةً متبعةً للوحي الرباني، ومطيعةً لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فلا بد لها أن ترجع دائمًا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهما مصدرا التشريع بالنسبة لها، وهما المرجع في كل ما يطرأ عليها من أحداث، وبهما تستنير وتسترشد، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وبذلك تتوحد الأمة أعظم توحد؛ حينما يكون لها مرجع واحد ترجع جميعها إليه؛ ترضى بحكمه، ولا تختلف عليه.

لذا فقد أمر الله عز وجل هذه الأمة إن تنازعت في شيء أن ترده إلى القرآن والسنة؛ حتى يزول التنازع، ويظهر الحق من الباطل.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال ابن كثير: « وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه؛ من أصول الدين وفروعه، أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

فما حكم به الكتاب والسنة، وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟! ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ردوا الخصومات والنزاعات إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنًا بالله ولا باليوم الآخر، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: التحاكم إلى كتاب

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٣٠٢.

الله وسنة رسوله والرجوع إليهما في فصل النزاع خير وأحسن تأويلًا، أي: وأحسن عاقبةً ومآلًا»[1].

وقال أبو بكر الجزائري: «الآية خطاب عام للولاة والرعية، فمتى حصل خلاف في أمر من أمور الدين والدنيا، وجب رد ذلك إلى كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فما حكما فيه وجب قبوله حلوًا كان أو مرًا، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيه أن الإيمان يستلزم الإذعان لقضاء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهو يفيد أن رد الأمور المتنازع فيها إلى غير الشرع قادح في إيمان المؤمن.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يريد ذلك الرد والرجوع بالمسائل والقضايا المختلف فيها إلى الكتاب والسنة هو خير حالًا ومآلًا، لما فيه من قطع النزاع والسير بالأمة متحدة متحابة متعاونة»[2].

ولقد أنكر الله عز وجل على عباده المؤمنين أن يقع بينهم الخلاف والاقتتال، وآيات الله تتلى عليهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠ - ١٠١].

ففي الآية الثانية تعجب وإنكار على المؤمنين أن يقعوا في الكفر، أو أن يتفرقوا بعد وحدتهم، مع أنه قد اجتمع لهم كل الأسباب الداعية إلى الإيمان، الصارفة عن الكفر؛ فآيات الله تتلى عليهم ليل نهار، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم؛ يبين لهم الحق، ويبصرهم الهدى والرشاد، وينهاهم عن الغي والضلال، فليس لهم عذر إن ارتدوا على أعقابهم، أو رجعوا إلى أمر جاهليتهم[3].

قال القرطبي: «ويدخل في هذه الآية من لم ير النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن ما فيهم من سنته يقوم مقام رؤيته، قال الزجاج: يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم خاصة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيهم، وهم يشاهدونه، ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة؛ لأن آثاره وعلاماته صلى الله عليه وسلم والقرآن الذي أوتي باقٍ فينا مكان النبي صلى الله عليه وسلم فينا، وإن لم نشاهده»[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٣٧.
(٢) أيسر التفاسير ١/ ٤٩٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٦١، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٧٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٥٦.

إنه لا ينبغي لأمة الإسلام أن تختلف أو تتنازع في حكم أمر من الأمور ما دام بينها كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، تتحاكم إليهما، وترضى بما فيهما، وتذعن وتسلم لحكم ربها عز وجل، فهل يبقى خلاف حينئذ؟!

وبهذا فإن التحاكم إلى القرآن والسنة هو أعظم ما تتوحد عليه أمة الإسلام اليوم؛ لأن ذلك هو الذي وحد العرب والناس الذين دخلوا في الإسلام بعد أن كانوا مشتتين ممزقين متناحرين.

ولا بد من التنبيه هنا إلى أن التحاكم إلى القرآن والسنة ليس مجرد شعار يرفع، أو كلام يدعيه الجميع؛ بل لا بد أن يكون هذا التحاكم أمرًا حقيقيًا واقعيًا، ولا بد أن يكون هذا التحاكم مبنيًا على فهم صحيح للقرآن والسنة، وليس فهمًا حسب الأهواء، ولتجتمع الأمة على الفهم الذي فهمه القرن الأول من الصحابة الأخيار الأطهار، فهذا هو الفهم الصحيح الذي نجتمع عليه ولا نفترق.

ثالثًا: الخلق الحسن:

إن من أعظم أسباب الوحدة - بعد الاعتصام بالقرآن والسنة- حسن الخلق؛ إذ الأخلاق الحسنة تجمع ولا تفرق، تنشر الألفة والمحبة وتزيل الضغينة والشحناء، وبالأخلاق الحسنة الكريمة يتحابب المسلمون، ويعفو بعضهم عن بعض؛ فتبقى أمتهم أمة واحدة، ويبقى بينهم الود والوصال.

ولقد أكرم الله عز وجل هذه الأمة بنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم؛ أكرم الناس خلقا، وأعظمهم أدبًا، قال الله عز وجل في شأنه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[آل عمران: ١٥٩].

«أي برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك بأن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك، ولو كنت فظًّا سيئ الخلق قاسي القلب لانفضوا من حولك؛ فالأخلاق الحسنة تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبها من المدح والثواب، والأخلاق السيئة تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب»(١).

«إن الناس في حاجة إلى كنفٍ رحيمٍ، وإلى بشاشةٍ سمحةٍ، وإلى ودٍ يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم، في حاجة إلى قلبٍ كبيرٍ يعطيهم ويحمل

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٤.

همومهم، يجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود، وهكذا كان قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما غضب لنفسه قط، ولا احتجز لنفسه شيئًا من أعراض هذه الحياة الدنيا؛ بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحدٍ منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه؛ نتيجة لما أفاض عليه صلى الله عليه وسلم من نفسه الكبيرة الرحيبة»[1].

لقد بين الله تعالى أن ثمرة اللين والخلق الحسن هي المحبة والاجتماع عليه صلى الله عليه وسلم، وأن خلافها من الجفوة والخشونة مؤدٍ إلى التفرق والنفور[2]؛ لذا أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بأن يعامل بعضهم بعضًا باللين والعفو والمسامحة، وألا يردوا السيئة بمثلها؛ ولكن يدفعوها بالتي هي أحسن، ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

فهذا أمر من الله عز وجل لعباه المؤمنين بأن يقولوا ويعملوا التي هي أحسن، أمرهم بحسن الأدب، وإلانة القول، وخفض الجناح، وعدم مجاراة نزغات الشيطان؛ فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة القاسية تفلت، وبالرد السيئ يتبعها، وحينها ينقلب جو الود والمحبة والوفاق إلى جوٍ مشوبٍ بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء[3].

إن الشيطان يتربص بالمؤمنين، ويتلمس منهم السقطات التي تقع من أفواههم، والعثرات التي تنطق بها ألسنتهم، لكي يشيع الشر بينهم، ويبذر بذور الخصومة والبغضاء في صفوفهم، ويهيج أعداءهم عليهم، وهذا أمر متوقع من الشيطان؛ لأنه ﴿كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ حريص على الإفساد بين الناس، ظاهر العداوة لهم منذ القدم[4].

ولقد رغب الله عز وجل عباده المؤمنين في معاملة إخوانهم بالتي هي أحسن فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق، ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها، ثم أمر سبحانه بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٠١.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ١٠٤.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٧٧، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٣٤.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٨/ ٣٧٣.

فقال: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصًا من له حق كبير عليك، كالأقارب، والأصحاب، ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصله، وإن ظلمك، فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائبًا أو حاضرًا، فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك، وترك خطابك، فطيب له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ أي: كأنه قريب شفيق[1].

إن هذه الآية الكريمة تأمر بأعلى الأخلاق وأكرمها، لا تأمر بالعفو عن المسيء فقط؛ بل تأمر بمقابلة الإساءة بالتي هي أحسن، كما لو أساء إليك رجل إساءة فالحسنة أن تعفو عنه، والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمك فتمدحه، أو يقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه، وثمرة ذلك الخلق الكريم الرفيع ثمرة عظيمة، إذ إن ثمرة ذلك أن تنقلب العداوة إلى محبة، والشقاق إلى وفاق، ويصير العدو الخصم كأنه وليٌّ حميمٌ[2].

ونظير هذه الآية قول الله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

« أي إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة - مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته - ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، وأدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل، وليتصف العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الثواب من الرب عز وجل.

قال تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]»[3]

رابعًا: الإصلاح بين المتنازعين:

أمر الله عز وجل بالإصلاح بين المتنازعين من المؤمنين، حيث قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩ - ١٠].

فهذه الآية توجب على المؤمنين الإصلاح بين إخوانهم إن حدث نزاع أو

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٤٩.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٤/١٣٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٥٨.

قتال بين طائفتين منهم، ولا يخفى ما في الإصلاح بين المتنازعين من ترسيخ لوحدة الأمة المسلمة، وصيانة لها من تشقق بنيانها، وتفكك وحدتها.

إن التنازع بين المؤمنين يمزق صفهم، ويوقع العداوة بينهم، فيوهن قوتهم، ويغري أعداءهم بهم، وهذا كله شرٌّ يأباه الإسلام؛ لذا كان الأمر بالمبادرة إلى الإصلاح بين المتنازعين قبل أن يكبر الخلاف، ويعظم النزاع؛ فأمة الإسلام لا يليق بها تنازع أفرادها، وإنما اللائق بها الإخوة والمحبة والألفة بين أفرادها جميعًا.

وقد سبق في المطلب الأول من المبحث الثالث بيان حث القرآن الكريم على الإصلاح بين المتنازعين من المؤمنين فلا داعي لتكرار ذلك هنا.

خامسًا: الإعراض عن الجاهلين:

لا شك أن مجاراة الجاهلين، ومقابلة جهلهم بالمثل من الأمور التي تطعن في خاصرة الأخوة الإيمانية، وتزعزع الوحدة والألفة بينهم، إذ إن مجاراة هؤلاء الجاهلين يزيدهم جهلًا، وينشئ التنازع والخلاف بين صفوف المسلمين، فيشتت شملهم، ويمزق كلمتهم، ولا يخفى ما في الإعراض عن أولئك الجاهلين من مصلحة للمسلمين، بصيانة وحدتهم وإدامة اجتماعهم وتآلفهم.

ولقد أمر الله عز وجل بالإعراض عن الجاهلين فقال سبحانه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ففي الإعراض عنهم مصلحة خاصة للمعرض، حيث يسلم من أذيتهم، وفيه مصلحة عامة للمجتمع، حيث يسلم المجتمع المسلم من حدوث النزاعات والخلافات التي لا تحمد عقباها.

والآية السابقة جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم؛ فالذي ينبغي أن يعامل به الناس أن يأخذ منهم العفو، وهو ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفون ما لا تسمح به طبائعهم؛ بل يشكر من كل أحد ما قدمه، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض الطرف عن نقصهم، وليأمروا بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق حسن؛ من صلة رحم، أو بر والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، أما الجاهلون منهم فقد أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه، وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك

فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه[1].

قال القرطبي: « هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات؛ فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين، ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار، وفي قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة »[2].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٣٤٤.

عوائق الوحدة

إذا كان لوحدة الأمة الإسلامية أسبابٌ ومقوماتٌ عظيمةٌ من شأنها أن تجعل أمة الإسلام أعظم الأمم توحدًا واتحادًا واجتماعًا، فإن هناك عوائق قد تقف حائلًا دون تحقيق تلك الوحدة، فالوحدة إذا وجدت فلا بد من صيانتها من العوامل التي تؤدي إلى تحللها وتفككها، وفي المطالب الآتية بيان لأهم تلك العوائق التي تحول دون وحدة المسلمين.

أولًا: اتباع نزغات الشيطان:

لقد حذرنا ربنا عز وجل من الشيطان تحذيرًا عظيمًا، وبين أنه عدوٌّ لنا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

فلا ينبغي للمؤمنين أن يتبعوا خطواته؛ لأنه لا يأمر إلا بالشر والفحشاء والمنكر، ولا يريد لحزبه إلا أن يكونوا معه من أصحاب السعير.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وقد بين لنا ربنا عز وجل أن عداوة الشيطان لنا قديمة منذ خلق آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ

﴿الشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

والآيات القرآنية التي تحذرنا من الشيطان الرجيم وتبين لنا أساليبه الخبيثة في إضلال من يتبعه كثيرة ليس المجال هنا لحصرها.

وإن من أخبث غايات الشيطان وأهدافه أن يوقع الشر والخصومة بين المؤمنين، وأن يبدل محبتهم لبعضهم بغضًا، وأن يقلب أخوتهم عداوة، وإن أسعد لحظات الشيطان الرجيم يوم يرى المؤمن قد رفع سلاحه على أخيه المؤمن، ويرى الخصومات والنزاعات قد اشتعلت نيرانها، وبرز شرها بين أمة الإسلام، حتى إن الشيطان ليفرح بالخصومة التي تقع بين الرجل وزوجه.

ففي الحديث عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه؛ فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة؛ يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت)، قال الأعمش: أراه قال: (فيلتزمه)[1].

وعنه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم)[2].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أصبح إبليس بث جنوده، فيقول: من أضل اليوم مسلما ألبسته التاج، فيجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى عق والده، فقال: يوشك أن يبره، ويجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى طلق امرأته، فيقول: يوشك أن يتزوج، ويجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى أشرك فيقول: أنت أنت، ويجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى قتل، فيقول: أنت أنت ويلبسه التاج)[3].

إن المسلم إذا اتبع خطوات الشيطان وقع في تلك المهلكات الموبقات، وإن المجتمع المسلم متى اتبع نزغات الشيطان تشققت وحدته، وتصدع صفه، وخارت قوته، واشتغل أفراده بخصومات أشعلها الشيطان الرجيم بينهم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه السرايا لفتنة الناس، رقم ٧٢٨٤، ٨/١٣٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه السرايا لفتنة الناس، رقم ٧٢٨١، ٨/١٣٨.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الحدود، رقم ٨١٤١، ٤/٣٥١.
وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٤٤٩.

لذا فإن من أخطر العوائق في طريق تحقيق وحدة الأمة الإسلامية السماح للشيطان أن يوقع بيننا، وأن يشعل فتيل الفتنة المهلكة بين أفراد أمتنا، ومتى أرادت الأمة العودة إلى وحدتها التي كانت عليها في عصورها الأولى فعليها أن تغلق الباب في وجه الشيطان، وأن تفوت عليه الفرصة في التحريش بين المؤمنين، ولو عقل المؤمنون ذلك لزالت كثير من الخصومات والنزاعات التي بينهم.

لقد أرشدنا الله عز وجل إلى كيفية تفويت الفرص على الشيطان الذي يبغي الفساد بيننا، وذلك بالالتجاء إلى الله عز وجل، والاستعاذة به سبحانه من ذلك الرجيم.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

فمتى تعرض للعبد من الشيطان وسوسة تثير غضبه، وتحمله على خلاف ما أمره الله؛ فليستعذ بالله، وليلتجئ إلى حماه؛ فإنه سبحانه هو السميع لدعائه، العليم بكل أحواله، القادر على دفع كيد الشيطان عنه، فالآية الكريمة ترشد المؤمن إلى العلاج الذي يحميهم من وسوسة الشيطان وكيده، ألا وهو الاستعاذة بالله السميع لكل شيء، العليم بكل شيء، القادر على كل شيء[١].

ويبين لنا ربنا سبحانه أمرًا آخر علينا العمل به لتفويت الفرصة على الشيطان الرجيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

حيث أمرنا سبحانه بأن نتأدب في قولنا وفعلنا، وأن نلين في مخاطبتنا، ولا يخرج منا إلا الكلام الحسن، ففي ذلك حفاظ على المودة بين المؤمنين، وتفويت لغاية الشيطان الرجيم[٢].

قال ابن عاشور: «جملة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ تعليل للأمر بقول التي هي أحسن، والمقصود من التعليل أن لا يستخفوا بفاسد الأقوال؛ فإنها تثير مفاسد من عمل الشيطان، ولما كان ضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائدًا إلى عبادي كان المعنى التحذير من إلقاء الشيطان العداوة بين المؤمنين، تحقيقًا لمقصد الشريعة من بث الأخوة الإسلامية»[٣].

ثانيًا: التنازع والاختلاف:

لا شك أن التنازع والاختلاف من أهم

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٢/٣٥٣.
(٢) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٤٧.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ١٣٢.

عوائق وحدة الأمة الإسلامية، إذ كيف تتوحد الأمة وأفرادها متنازعون مختلفون؟! وكيف يكون لهم كيان موحد متماسك إذا كانت قلوبهم مختلفة؟! وهذا أمر بدهي لا يحتاج إلى دليل ولا برهان.

إن الرعيل الأول من هذه الأمة كانوا على المنهج الذي جعله الله عز وجل لهم، كانوا متحدين على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ كانت لهم قلوب متآلفة، ولم يكن بينهم نزاع ولا شقاق، فأقاموا أمةً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، ومسلمو اليوم ابتعدوا عن كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وتنافرت قلوبهم، ودب الخلاف بينهم، وتشتتوا إلى دويلات وأحزاب وجماعات، لا تكاد جماعة منهم تتفق مع أختها، وانشغل كل حزب بنفسه، وأصبحت وحدة الأمة الإسلامية حلمًا يتمناه كل مسلم؛ لكنه يراه بعيد المنال، بعد أن كان أمرًا واقعًا.

إن الله عز وجل قد حذر هذه الأمة من الاختلاف والنزاع، وبين لها العواقب الوخيمة المترتبة على ذلك؛ كي تحذر الأمة وتتجنب كل ما يؤدي إلى الاختلاف بين أفرادها.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

فأمر سبحانه في هذه الآية بطاعته وبطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك تجنب للنزاع والخلاف، ثم نهى سبحانه عن التنازع تأكيدًا على بيان خطره وشره، ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ نهاهم سبحانه أن يتنازعوا فيما بينهم فيختلفوا فيكون ذلك سببًا لتخاذلهم وفشلهم وذهاب قوتهم ووحدتهم، وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والبربر وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة[1].

ولقد سبق الحديث عن نهي القرآن الكريم عن الاختلاف والفرقة والتنازع، وإنما أشرنا إليه هنا لبيان أن التنازع والاختلاف هو أخطر ما يهدد وحدة المسلمين واجتماعهم.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٩٨.

ثالثًا: اتباع الهوى:

إن الخلاف والتنازع إذا وقع بين المسلمين فليس شرطًا أن يكون عائقًا أمام وحدتهم، لأنهم إن ردوا ما اختلفوا فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لم يبق خلاف ولا نزاع؛ ولكن المشكلة تكبر وتعظم إذا كان هذا الاختلاف ناتج عن اتباع الهوى، وصاحب الهوى يرفض الحق، ولا يتحاكم إلى كتاب أو سنة؛ « فإن الهوى يعمي ويصم، وصاحب الهوى يقبل ما وافق هواه بلا حجة توجب صدقه، ويرد ما خالف هواه بلا حجة توجب رده»[1].

لذلك حذرنا القرآن الكريم من اتباع الهوى تحذيرًا شديدًا، وبين لنا أن اتباع الهوى يبعد الإنسان عن العدل؛ فالعدل والهوى لا يجتمعان أبدًا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

ففي هذه الآية أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط والعدل، فلا يعدلوا عنه يمينًا ولا شمالًا، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأمرهم سبحانه أن يؤدوا الشهادة ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقًا، خالية من التحريف والتبديل والكتمان، وأمرهم أن يؤدوها ولو عاد ضررها على الشاهد أو على والديه أو على قرابته؛ فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجًا ومخرجًا من كل أمر يضيق عليه، وإن الحق حاكم على كل أحد[2].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي: « فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل؛ فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلًا والباطل حقًا، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم»[3].

إن اتباع الهوى مهلك ومضل، يحمل صاحبه على الشهادة بغير الحق، وعلى الجور في الحكم، وعلى غير ذلك من الظلم وتجاوز الحدود.

قال الله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦][4].

لقد بين ربنا سبحانه أن من عدل عن

(١) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية ٦/ ١٩٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣١٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٨.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤١٣.

الحق واتبع هواه فهو أضل الناس، وفي ذلك تحذير شديد من اتباع الهوى بغير علم.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٥٠].

يخبر سبحانه في الآية عمن ترك اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وما معه من الحق، وأصر على اتباع هواه من غير علم ولا هدى، «فهذا من أضل الناس؛ حيث عرض عليه الهدى، والصراط المستقيم، الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟»[(١)].

قال الألوسي: « ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ استفهام إنكاري للنفي، أي لا أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله؛ لأن من فعل ذلك فهو أضل من كل ضال»[(٢)].

إن صاحب الهوى لا حاكم له ولا زمام، ولا قائد له ولا إمام، إلهه هواه، حيثما تولت مراكبه تولى، وأينما سارت ركائبه سار، فلا يسمع لكلام داعية ولا قائد ولا عالم إلا ما وافق هواه، تراه معتزلًا كل من يخالف هواه، وإن كان أهدى منه سبيلًا، مقربًا لكل من هو على شاكلته وإن كان للشيطان قبيلًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما وافق هواه، وهذا الصنف من الناس لا يبقي للمسلمين وحدة، ولا يترك لهم اجتماعًا.

لقد حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم من طائفة من الناس قد اتبعوا أهواءهم، فمزقوا وحدة الأمة، واستباحوا دماء إخوانهم وأموالهم، إنهم الخوارج، الذين خرجوا على علي رضي الله عنه، فعن عبيد الله بن أبي رافع رضي الله عنه أن الحرورية (أهل بلد قرب الكوفة تسمى حروراء) لما خرجت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه قالوا: لا حكم إلا لله، قال علي رضي الله عنه: كلمة حق أريد بها باطل، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف ناسًا إني لأعرف صفتهم في هؤلاء (يقولون الحق بألسنتهم، لا يجوز هذا منهم - وأشار إلى حلقه - من أبغض خلق الله عز وجل إليه)[(٣)].

إن هؤلاء الخارجين عن طاعة الإمام يرون خروجهم على إمام المسلمين علي رضي الله عنه بتأويل فاسد لآيات ثابتة وصريحة في كتاب الله، إنهم يزعمون بإعلانهم (لا حكم إلا لله) أنهم المنحازون

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١٧.
(٢) روح المعاني ٢٠/ ٩٣.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج، رقم ٢٥١٧، ٣/ ١١٦.

لحكم الله، والإمام خارج عليه؛ قلبًا للحقيقة وتبريرًا لخروجهم، وهذا كله بسب اتباعهم لهواهم، ورفضهم للحق.

إن من اتبع هواه - من فرق أو أحزاب أو جماعات أو أفراد - يشق عصا المسلمين، ويكون عائقًا أمام وحدتهم؛ لأنه لا ينقاد إلى ما توحد المسلمون عليه من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وهذه هي الخطورة، وأصحاب الأهواء يعملون على إحداث الفتن داخل الأمة، وإثارة الشبهات، وكثرة المنازعات، مما يؤدي إلى تبديد القوى، وإنهاك الطاقات، وتشتيت الجهود، وذلك طريق الفشل الذي منيت به الأمة الإسلامية، ولا يمكن أن تتوحد أمة المسلمين اليوم إذا ما تمسك كل فريق بهواه، وأبى أن ينزل على حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا بد من تحاكم الجميع إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم إذا ما أردنا أن تعود للأمة وحدتها المباركة.

وهذا لن يكون إلا بجهود العلماء والعقلاء من كل فرقة من فرق المسلمين، يجتمع هؤلاء العلماء القادة لفرقهم وطوائفهم يتحاورون ويتناصحون ويتباحثون في نقاط الخلاف التي بينهم، ويجتهدوا في الوصول إلى الحق الذي ينصاع إليه الجميع، ولو أخلصوا في عملهم هذا وقصدوا به وجه الله عز وجل لوفقهم الله عز وجل، وجمع كلمتهم على الحق المبين، ومن أصر بعد ذلك على هواه فعلى المسلمين أن يأخذوا على يديه، ولا يتركوه ليهلك ويهلك المسلمين معه.

رابعًا: الإعجاب بالرأي:

بالإضافة إلى العوائق السابقة في طريق وحدة الأمة الإسلامية، هناك عائق آخر لا ينبغي أن يغفل عنه؛ فهو خطير أيضًا، وبوجوده يصعب حصول الوحدة المنشودة، إنه الإعجاب بالرأي، وذلك بأن تأخذ كل فرقة أو جماعة من المسلمين برأي معين تستحسنه وتتمسك به، تظن أنه الحق، وأن الحق معها دون غيرها، ومن خالفها فهو على خطأ؛ بل ربما يصل الأمر عند بعضهم لأن يتجرأ ويخرج غيره ممن لم يوافق رأيه من دائرة الإسلام.

إن الإعجاب بالرأي مثله مثل اتباع الهوى؛ كلاهما يحجب صاحبه عن قبول الحق، وكلاهما يسهم في شق الصف، وإحداث الفرقة، وإعاقة الوحدة، فأنى لمن أعجب برأيه وتعصب له أن يستمع لغيره؟ فضلًا عن أن يتنازل له.

لقد حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم من الإعجاب بالرأي والنفس، فعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال: (ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات؛ فأما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية، وأما المهلكات فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه)[1].

إن أمة الإسلام إن أرادت أن تحقق ما أراد لها ربها عز وجل من توحيدٍ واجتماعٍ واعتصامٍ، إن أرادت أن تعيد وحدتها المباركة، فلا بد لها من تجاوز كل هذه العقبات والمعوقات، وهذا أمر واجب على جميع أفراد الأمة، على الجميع أن يبذلوا الجهود، ويضحوا بالمصالح الخاصة من أجل المصلحة العامة.

فعلى العلماء والدعاة أن يوعوا المسلمين بأهمية وحدة أمتهم، وأن يرشدوهم إلى دورهم في تحقيق هذه الوحدة، وعليهم أن يتحاوروا فيما بينهم، وينصح بعضهم بعضًا، ويكون الحكم بينهم إذا ما اختلفوا في شيء إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وعلى أولي الأمر أن يتحاوروا معًا، وأن يتصفوا بالشجاعة والقوة، فيمد أحدهم يده إلى إخوانه، ويبادر إلى إزالة ما بينه وبين جيرانه المسلمين من حدود وجدر وضعها الأعداء بيننا، ولتتلاقى الشعوب المسلمة، ولتتقاسم لقمة العيش فيما بينها، ولتستغن عن عدوها، والله معها، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

إن وحدة الأمة ليست حلمًا بعيد المنال، وليست مجرد أمنية يتمناها المسلمون ولا يجدون لها أثرًا على أرض الواقع؛ بل هي فريضة شرعية، المسلمون قادرون على تحقيقها، عندما تصدق نيتهم، وتكتمل صحوتهم، وسيحدث ذلك بإذن الله، وما ذلك على الله بعزيز.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، رقم ٥٤٥٢، ٣٢٨/٥، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٧٣١، ٢٠٣/٢.
قال الألباني: رواه البزار واللفظ له والبيهقي وغيرهما، وهو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال، فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى. صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٤٢٣، ١٠٨/١.

ثمار الوحدة

إن لوحدة المسلمين ثمارًا عظيمة، ومنافع جسيمة؛ بل إن وحدتهم كلها منافع وثمار، كلها خير وفائدة، ولا يمكن أن تحصر ثمار الوحدة في وريقات قليلة أو صفحات معدودة؛ لأن من ثمار الوحدة ما لا يمكن أن يعبر عنه بالكلمات؛ ولكنه يلمس في الطيبات التي يجنيها المسلمون في ظل وحدتهم.

وقبل أن نقف على أهم ثمار الوحدة علينا أن نسأل أنفسنا: ما هي الأضرار التي أصابت المسلمين بسبب فرقتهم وتنازعهم؟ فعندما نقف على عظيم تلك الأضرار نعلم علم اليقين ما في الوحدة والاجتماع من ثمار وفوائد.

أليس المسلمون اليوم - بسبب فرقتهم - في غاية الضعف والهوان؟ أليست دماؤهم مستباحة؟ أليست أعراضهم منتهكة؟ أليست ثرواتهم مسلوبة؟ أليست مقدساتهم أسيرة مدنسة؟ هل يحسب للمسلمين حساب؟ هل يقام لهم وزن أم يجعل لهم اعتبار؟ هل يستطيع المسلمون أن ينشروا دين الله أو أن يبلغوا رسالة الأنبياء؟

هذا حال المسلمين عند فرقتهم، وهذا كله يزول عند وحدتهم واجتماعهم.

وإن من أعظم ثمار الوحدة ما يأتي:

١. الفوز برضوان الله عز وجل ونيل ثوابه بالتزام طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. فالله سبحانه هو الذي أمرنا بالوحدة ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمران: ١٠٣]. وهو سبحانه الذي وصف أمتنا بالأمة الواحدة ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. ورسوله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نكون جسدًا واحدًا (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[١].

٢. حصول القوة والهيبة والمنعة لأمة الإسلام، فبالوحدة تقوى شوكة المسلمين نفسيًا وماليًا وعسكريًا وسياسيًا، وإذا قويت الأمة بتوحدها هابها أعداؤها، وحسبوا لها ألف حساب، وبدلًا من أن تكون بلاد المسلمين قصعة تنالها الأيدي من كل حدب وصوب، تصبح كلمتها مسموعة، ومواقفها مهابة، يبادر الجميع لكسب ودها، وتسارع الأمم لنيل رضاها، وبذلك تستعيد الأمة كيانها المسلوب، وتأخذ حقوقها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين، رقم ٦٧٥١، ٨/ ٢٠.

المنهوبة. إن العقلاء من كل ملة وأمة في القديم والحديث اتفقوا على أن الوحدة سبيل العزة والنصرة، وإن التاريخ يشهد أن من أهم أسباب سقوط الدول على اختلاف عقائدها ومللها التفرق والاختلاف، فالخلافة العباسية - مثلًا - سقطت بعد أن تفرقت الدول الإسلامية في ذلك الوقت، فنشأت دويلات الشام، والمماليك، ولم يبق للخلافة العباسية إلا دويلات متفرقة متناثرة من العالم الإسلامي، فلما زحف المغول إلى بغداد لم يقف في وجه زحفهم غير أهل بغداد فقط، فأعمل المغول فيهم القتل. وسقطت الدولة الإسلامية في الأندلس بعد أن أصبحت دويلات متفرقة متناحرة، ولم تسقط الدولة العثمانية إلا بعد أن تمزق جسدها إلى أشلاء متناثرة، وبعد أن أغرى الصليبيون الجدد بعض زعماء المسلمين بالانفصال عنها، وأحسنوا إتقان العمل بقاعدة: فرق تسد، وهاهو العالم الإسلامي اليوم منقسم إلى دويلات متناحرة، تعيش على هامش التاريخ، وتتجرع ألوان الهوان.

٣. بالوحدة يقام شرع الله، وتقام حدوده، ويعلن الجهاد، وتجمع الزكوات، ويكون للمسلمين خليفة واحد هو أميرهم وإمامهم وقائدهم إلى العزة في الدنيا، والفوز يوم القيامة.

٤. بالوحدة يرفع الظلم عن المظلومين، ويؤخذ على أيدي الظالمين، وتصان الحقوق، وينتشر العدل، ويحارب من يحاول العبث بأمن المسلمين.

٥. المسلمون بوحدتهم يغيظون أعداءهم، ويرهبونهم، وقد قال الله عز وجل ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[آل عمران: ١٢٠].

روى الطبري بسنده عن قتادة: «إذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وجماعة وظهورًا على عدوهم، غاظهم ذلك وساءهم، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافًا، أو أصيب طرف من أطراف المسلمين، سرهم ذلك وأعجبوا به وابتهجوا به»[١].

٦. وحدة المسلمين فيها نفع ورحمة للعالمين جميعًا؛ إذ بوحدة المسلمين يرى الناس جمال الدين، ورفعة أخلاقه، وصورته المشرقة؛ فيرغبون في الدخول فيه أفواجًا.

موضوعات ذات صلة:

الاجتماع، الاختلاف، الأمة، السياسة، الضعف، العنصرية، الوهن

(١) جامع البيان، ٧/ ١٥٥.